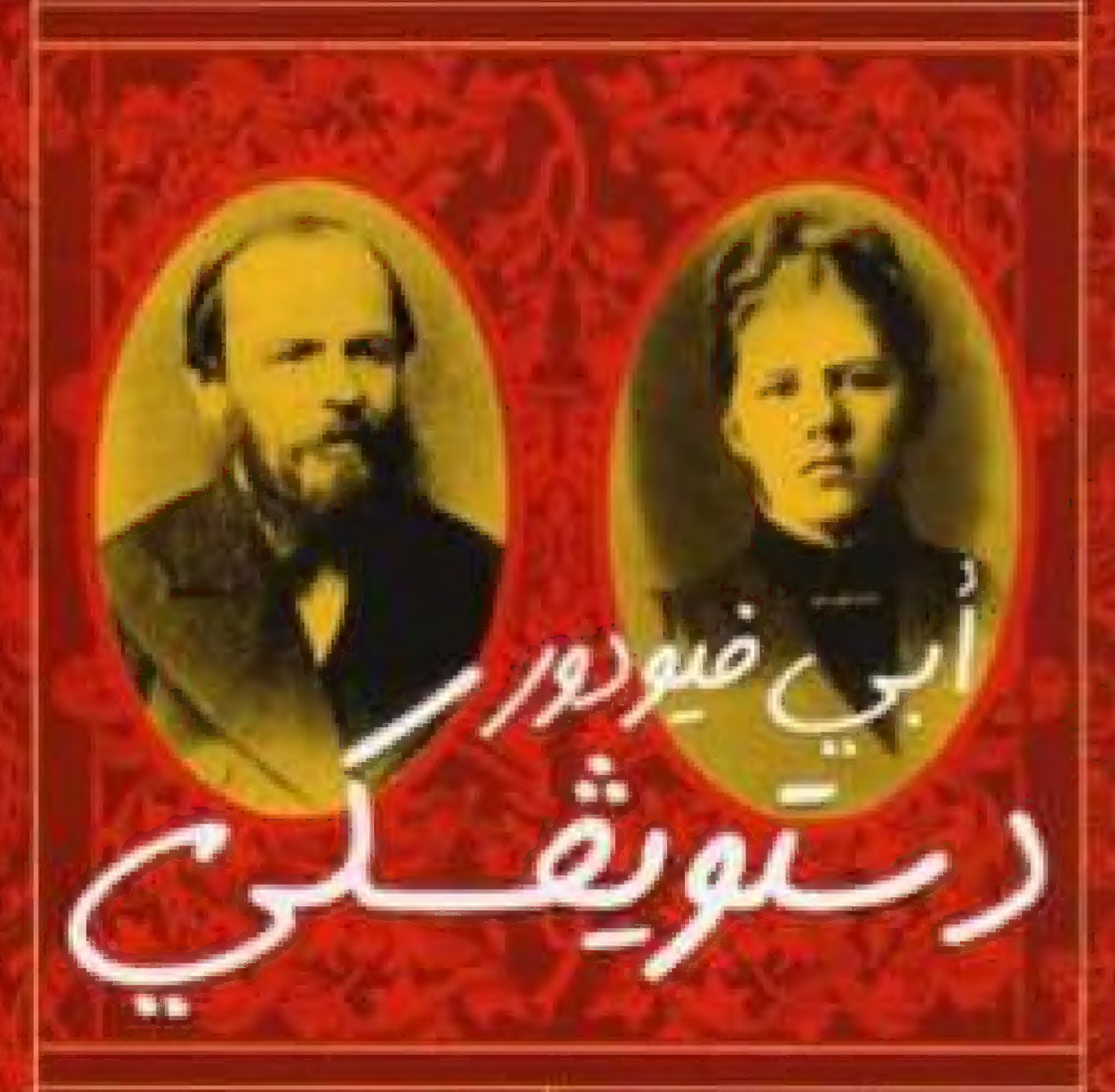
حياة دستويفسكي

لوبوف فيودوروفنا دستويفسكايا



ترجمة: د. أنور محمد إبراهيم

مقدمة: بوريس تيخوميروف

الدار المصرية اللبنانية

أبي فيودور دستويفسكي

منذ مائة عام، في عام 1920، ظهرت الطبعة الأولى من كتاب لوبوف دستويفسكايا (1869-1926)، لوبا أو ليليا أو إيميه كما كانت تسمي نفسها، "أبي فيودور دستويفسكي"، في ميونخ بالألمانية، ليصدر بعد ذلك في طبعات أخرى بالفرنسية والروسية. لقد وضعت ابنة الكاتب الروسي الأشهر (1821ـ1881) أمام نفسها هدفًا واضحًا هو أن تقدم للقراء حياة أبيها كاملة - من الميلاد وحتى الوفاة. لم تكتف أن تكون مجرد كاتبة مذكرات تعتمد على ذاكرتها الحادة، وإنما سعت لأن تكون كاتبة سيرة، وقد نجحت في أن تبعث إلى الوجود الحكايات التي قصَّتها عليها أمها أنَّا جريجوريفنا عن حياتها العائلية مع دستويفسكي: لقائهما الأول، خطبتهما، علاقاتها المتوترة مع أهل زوجها، السنوات الصعبة التي قضياها معا في الخارج، الأحداث التي سبقت ميلاد لوبوف دستويفسكايا، ما حكاه أبوها لأمها عن طفولته، المعلومات ذات الطابع الحصري التي سيتعرف عليها القارئ هنا للمرة الأولى.

لوبوف دستويفسكايا تحكي بالتفصيل عن طفولتها وشبابها، عن والديها، وعن المحيط الذي عاشت فيه. وتكشف في هذا الكتاب عن مشاهد من حياة دستويفسكي لم تكن معروفة إلا لأفراد العائلة.



د. أنور محمد إبراهيم، حاصل على الدكتوراه في فقه اللغة والأدب الروسي من جامعة موسكو، عضو اتحاد كتَّاب مصر، عضو اللجنة الاستشارية العليا بالمركز القومي للترجمة، حاصل على وسام الشرف من روسيا الاتحادية عام 2005م. له ترجمات عديدة عن الروسية، من أشهرها: تاريخ القرصنة في العالم، نساء في حياة دستويفسكي.


9 789777 952750



الدار المصرية اللبنانية



أبي فيودور
دستويفسكي

دستويفسكي، لوبوف فيودوروفنا 1869-1926.

أبـي فيـودور : دستويفسـكي/ لوبـوف فيودوروفنـا دستويفسـكايا؛ ترجمة أنـور محمد إبراهيم؛ مقدمة بوريس تيخوميروف.- ط1.- القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2020.

360 ص؛ 21 سم.

تدمك: 0 - 275 - 795 - 977 - 978

1- الأدباء الروس.

أ- دستويفسكي، فيودور ميخايلوفيتش، 1821-1881.

ب- إبراهيم، أنور محمد (مترجم).

جـ- تيخوميروف، بوريس (مقدم).

د- العنوان. 928.917

رقم الإيداع: 3112/ 2020

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www. almasriah.com

الطبعة الأولى: 2020م

اسم الكتاب باللغة الروسية

Мой отец Феодор Достоевский.

حياة دستويفسكي:

لوبوف فيودوروفنا دستويفسكايا



أبي فيودور دستويفسكي

ترجمة: د.أنور محمد إبراهيم

مقدمة: بوريس تيخوميروف

الدار المصرية اللبنانية

المحتويات



سيرة حياة

لوبوف دستويفسكايا

«ابنة الكاتب 1869- 1926»

بقلم: بوريس تيخوميروف

إذا لـم تكـن تعلم، أيها القارئ، سـيرة حيـاة الكاتب الروسـي العظيم فيودور ميخايلوفيتـش دستويفسـكي وأصـدرت حكمـك عليـه اسـتنادًا علـى مجـرد انطباعاتـك عـن إبداعاته، فسـوف يبدو لـك، ربما، أن السـعادة العائليـة الهادئة، والوجـود المطْمَئِـن المتـزن في جو مـن المسـرات اليومية البسـيطة، وأن الحب الزوجي والاهتمام المتحفظ لكل طرف بالطرف الآخر أمور مستحيلة ولا يمكن تصورهـا، ليس فقط في رواياته وقصصه، وإنمـا أيضًا في الحياة الخاصة لمؤلف «الجريمة والعقاب»، «الشياطين»، «قلب ضعيف» و«الإخوة كارامازوف».

ذلك لأن النظرة «الأبوكاليبسـية»[1] للحياة الإنسانية تتجلى على نحو متناهٍ في إبداع الكاتب، حيث يسعى الأبطال لحل المشكلات التي «لا حل لها»، والإجابة

(1) أبوكاليبـس: الاسـم اليوناني لسـفر الرؤيا ويعني «الكشـف». كشـف النقـاب عن أمور مخفيـة وحوادث كارثية سـتقع بعـد وقت طويل من كتابتها، ربمـا بما في ذلك نبوءات تنتظر إتمامها في المستقبل. (المترجم)

على الأسئلة «الملعونة» محددين مصائرهم بأنفسهم من خلال «التمزق»، وارتكاب الجرائم والانتحار، تعذبهم طوال الوقت مشكلة «وجود الله». هنا تُمزق الإنسان شهواته وكبرياؤه، وتتشابك عُرَى الحب بداخله مع الكراهية على نحو لا ينفصم.

لعلنا سنكون متسرعين رُعناء للغاية، إذا ما توصلنا إلى استنتاجات مباشرة بشأن سيرة حياة دستويفسكي الخاصة. صحيح أن حياة الكاتب كانت مليئة، بطبيعة الحال، بصفحات كثيرة دراماتيكية: كان هناك الاعتقال، الذي جرى في عام 1849 لاشتراكه في جماعة بتراشيفسكي الاشتراكية، ثم النفي إلى سيبيريا، إلى معتقل أومسك لتنفيذ الحكم بالأشغال الشاقة، ثم معاناته في النصف الأول من الستينيات من قصة حب مضنية مع المرأة «الجهنمية» أبولليناريا سوسلوفا، وأخيرًا كان هناك هذا المرض القاسي شديد الوطأة، المرض المقدس الآخذ في التطور - الصرع. لكنه على الأقل حدثت له أيضا مفارقة في العقد ونصف الأخير من حياته! عندما أبدع في تلك الفترة تحديدًا رواياته - المآسي الأعظم، آنذاك تمامًا، عندما ازداد المزاج الأبوكاليبسي لديه في مقالاته على صفحات «يوميات الكاتب»، إذا بالقدر يُنعم على دستويفسكي بسعادة أسرية كانت من قبل مستحيلة المنال.

في الرابع من أكتوبر عام 1866 يتعرف فيودور ميخايلوفيتش دستويفسكي البالغ من العمر خمسة وأربعين عامًا على أنّا جريجوريفنا كاتبة الاختزال ذات العشرين ربيعًا، والتي جاءت إلى الكاتب لكي تساعده في عمله العاجل، وهو كتابة رواية «المقامر». الفارق الكبير في العمر لم يقف حائلاً أمام ظهور مشاعر العطف المتبادلة، والتي سرعان ما نمت لتصبح حبًا. وفي الخامس عشر من فبراير 1867 يتزوج فيودور دستويفسكي من أنّا جريجوريفنا في كنيسة الثالوث (كنيسة إسماعيلوفسكي) في بطرسبورج. لم يتبق أمام الزوجين «الشابين» حتى

يوم وفاة الكاتب في الثامن والعشرين من يناير 1881 سوى أربعة عشر عامًا من الحياة الزوجية المشتركة.

بعد الزفاف مباشرة، في أبريل 1867، يسافر الزوجان دستويفسكي في «رحلة الزفاف» إلى الخارج، إلى أوروبا الغربية، وقد عقدا العزم على العودة إلى بطرسبورج في الصيف. لكن الحياة أدخلت تعديلاتها على خططهما: لقد امتدت الرحلة إلى ما يزيد على أربع سنوات ليعودا فقط في عام 1871. ألمانيا، سويسرا، إيطاليا، ثم من جديد ألمانيا. هنا بعيدًا عن روسيا ينهي دستويفسكي كتابة روايته «الأبله»، ليبدأ في كتابة رواية «الشياطين»؛ وهنا في تلك السنوات ذاتها، يولد الأطفال الكبار للكاتب: البنتان سونيا ولوبا. وهنا عانى مرارة فقد الطفل الأول.

أسفر زواج فيودور ميخايلوفيتش وآنّا جريجوريفنا عن أربعة أطفال (الزواج الأول للكاتب من ماريا ديمترييفنا إيسايفا، التي تزوجها في عام 1857 في سيبيريا، في كوزنتسك، والتي توفيت في ربيع عام 1864 على أثر مرض السل الرئوي لم يسفر عن أطفال).

لم يهب الله للطفلين، البكر سونيتشكا، التي ماتت في طفولتها في چينيف، والابن الأصغر أليوشا، الذي وافته المنية في الثالثة من عمره على أثر نوبة مرضية تشبه نوبة الصرع، حياة طويلة. لا عجب أن حب الوالدين للطفلين متوسطي السن وفقًا للأقدمية كان قويًا ممزوجًا بالهلع والخوف عليهما، الابنة لوبوتشكا والابن فيودور. في مقالنا هذا سوف نتحدث عن ابنة الكاتب، محبوبته، التي أصبحت في سنوات نضوجها الروائية كاتبة سيرة حياة أبيها، لوبوف فيودوروڤنا دستويفسكايا.

وُلدت لوبوف دستويفسكايا، لوبا، أو ليليا، كما كانوا ينادونها في الأسرة، أو إيميه Aimeé، كما أطلقت على نفسها في أوروبا، في الرابع عشر من سبتمبر

(السادس والعشرين بالتقويم القديم) عام 1869 في درزدن (ألمانيا)، حيث وصل فيودور دستويفسكي وزوجته قادمين من فلورنسا قبل مولد الابنة بشهرين. «كان والدي في غاية السعادة في فلورنسا؛ أظن أن هذه الشهور كانت أكثر الشهور انسجامًا في رحلتهما الزوجية، هذا ما كتبته لوبوف فيودوروفنا دستويفسكايا في كتابها عن أبيها. كان دستويفسكي مغرمًا بشدة بإيطاليا، وذكر أن الفلاحين الإيطاليين يذكّرونه بالروس...» [ص158][1].

هذه السطور التي تفيض حماسًا عن فترة فلورنسا في حياة والديها كتبتها ابنتهما بأسلوب خاص يتسم بالغموض. قبل ذلك في مارس 1869، وبعد أن علم الشاعر أبوللون مايكوف، الصديق الحميم لفيودور ميخايلوفيتش أن الزوجين دستويفسكي «ينتظران قادمًا جديدًا» كتب إليه في إيطاليا من بطرسبورج بخبرين تلاعب في كتابتهما بالجناس، وهما الخبران، اللذان أخبرته بهما «سرًا» الأخت الكبرى لآنّا جريجوريفنا دستويفسكايا م.ج. سفاتكوفسكايا: «الأول أنك أنهيت روايتك («الأبله».-ب.ت)! الحمد لله! وقد رأيت من خطاباتك كيف عذبتك هذه الرواية! الثاني- أن آنّا جريجوريفنا بدأت في التفكير أيضًا في رواية، أي رواية - إنها لن تستطيع أن تخبرك بنفسها، على الرغم من أنها سوف تفكر فيها تسعة أشهر (...) على أن كلا الخبرين لابد وأنهما سيؤثران على خططك، فالسؤال الأهم، أين سيستقر بك المقام، في فلورنسا أم هنا؟ وأين ستظهر رواية آنّا جريجوريفنا إلى العالم؟»[2]. الحقيقة، أن كل الأمور كانت تسير باتجاه أن تُولد لوبوتشكا دستويفسكايا حتمًا في مدينة دانتي العظيم.

---

(1) عند الاقتباس من كتاب ل.ف. دستويفسكايا «أبي فيودور دستويفسكي» سوف يشار إلى الصفحة في الطبعة الأصلية بين قوسين مربعين.

(2) مايكوف أ.ب. خطابات إلى ف.م. دستويفسكي/ نشرتها وعلقت عليها ن.ت. أشيمباخا. الآثار الثقافية. اكتشافات جديدة: الكتاب السنوي 1982. لينجراد، 1984. ص78.

وإنـه لأمر عجيب! فإذا تذكرنا (وهو ما سـنتحدث عنه لاحقًا تفصيلاً) أنه بعد مرور سـبعة وخمسين عامًا ستقضي لوبوف الشهور الأخيرة من حياتها وأن تنهي تخصصهـا الشـتوي أو أنه سـوف يكتب لهـا أن تكون فـي إيطاليا، في مستشـفى جريبسـيرهوف للأبحاث بالقرب من بولاتسـانو (جنوبي تيـرول)، فإننا لا نملك إلا أن نبدي دهشـتنا أمام لعبة القدر الجامحة: فـ«الفاتحة» والختام لمسـيرة حياة لوبوف دستويفسكايا، ابنة الكاتب الروسي العظيم، التي عاشت الجزء الأكبر من حياتها في روسـيا، في بطرسبورج وفي ستارياروسا، بدا أنهما مرتبطان على نحو غامض بإيطاليا!

مرة أخرى تشـتبك «العقدة الإيطالية» علـى نحو أكثر قوة بمصير ابنة الكاتب. أمـر واحـد طريف يبدو غيـر ذي أهميـة، تقريبًا، هو الـذي حدد انتقـال الزوجين دستويفسـكي، قبـل وقـت قصيـر من ميـلاد الابنـة من فلورنسـا إلـى درزدن: لم يكن فيـودور ميخايلوفيتش على دراية باللغة الإيطالية. «ولما كان مناخ فلورنسـا مناسـبًا لأمـي، قرر والـدي أن يقضيـا في البدايـة عامًا آخـر في إيطاليـا،- تكتب لوبـوف فيودوروفنـا.- علـى أنـه باقتراب موعـد الـولادة اضطـرا أن يرجعا عن قرارهمـا. <...> كانـت أمي قد تعلمت بسـرعة على نحو أو آخـر التفاهم باللغة (الإيطاليـة.ب.ت) وأصبحت تعمل مترجمة لأبي، الذي كان منغمسًـا في العمل علـى روايتـه، ولم يكـن بإمكانه أن يدرس اللغـة الإيطالية على نحـو جاد. والآن عندما أصبح لزاما عليها أن تلزم الفراش و، ربما، عندما بات الوضع صعبًا عليها، كانت أمي تتسـاءل، كيف سـيتصرف أبي مع الخدم الإيطاليين ومع الممرضات. هـذا السـؤال كان يؤرق أبي أيضًا، عندهـا أخبر زوجته، أنه يفضـل لو أنهما قضيا الشتاء فـي بلد يعـرف لغتـه» [ص160]. هـذا هو السـبب الذي جعـل الزوجين دستويفسكي يذهبان من جديد إلى ألمانيا.

في درزدن أقاما في الجزء الإنجليزي من المدينة، في الطابق الثاني لمنزل من ثلاثة طوابق يقع في شارع Viktoriastrasse رقم 5. وهنا ولدت بطلة قصتنا.

كان دستويفسكي البالغ من العمر ثمانية وأربعين عامًا في أوج سعادته. بعد سنوات طويلة على وفاة الكاتب، سجّلت أنّا جريجوريفنا في إيجاز (لنفسها) للذكرى في مذكراتها رد فعل زوجها على مولد ابنتهما الثانية: «كان كثيرًا ما يأتي على ذكر ليليا: لقد نظرت إليها في اللحظة الأولى لميلادها، وعندها أدركت أنها تشبهني»[1].

«كان فيودور ميخايلوفيتش حنونًا للغاية تجاه ابنته – تذكر زوجة الكاتب في مذكراتها أنه كان يلاعبها، يُحمِّمها بنفسه، يحملها على يديه ويهدهدها»[2]، وكان يشعر أنه سعيد إلى حد أنه كتب في تلك الأيام إلى صديقه العازب المزمن ن.ن.ستراخوف يقول: «واحسرتاه! لماذا تظل عازبًا، ولماذا لا يكون لديك طفل عزيزي المحترم نيكولاي نيكولايفيتش. أقسم لك أن في ذلك ثلاثة أرباع السعادة في الحياة، والباقي في الربع الآخر»[3].

---

(1) ف.م. دستويفسكي في مذكرات معاصريه المنسية والمجهولة. سان بطرسبورج، 1993. ص276.

(2) دستويفسكايا. المذكرات. ص240 (قائمة الاختصارات. انظر المقدمة إلى الملاحظات ص274).

(3) دستويفسكي ف.م. الأعمال الكاملة في ثلاثين جزءًا. لينينجراد، 1988، الجزء 20، الكتاب الأول. ص111. سوف يجري الاقتباس لاحقًا من نصوص دستويفسكي استنادا إلى هذه الطبعة. عند الاستشهاد يشار إلى الجزء والصفحة بين قوسين. بالنسبة للأجزاء 28-30 يشار أيضًا إلى رقم نصف الجزء. كافة الاستشهادات بالبنط الثقيل تعود إلى دستويفسكي (أو إلى مؤلف آخر)، الملاحظات بالبنط الدقيق تعود إلى صاحب هذا المقال.

كان الرابع عشر من سبتمبر بالتقويم الروسي هو يوم ميلاد لوبا دستويفسكايا والذي وافق واحدًا من اثني عشر عيدًا من أعياد الكنيسة الأرثوذوكسية الروسية هو عيد تمجيد الصليب Exaltation of the Cross، وبعد عدة شهور من ميلاد الابنة يشرع دستويفسكي في كتابة روايته «الشياطين» ليبدأ أحداثها بظهور البطل الرئيسي نيكولاي ستافروجين في المدينة. وقبل ذلك التاريخ بعامين بالتمام والكمال، في الرابع عشر من سبتمبر عام 1867، كان دستويفسكي قد بدأ العمل في رواية «الأبله» إبان وجوده في چينيف. يا له من توافق غريب تتوالى بعده المصادفات.

توفي دستويفسكي في عام 1881 وهو في الستين من عمره في ذروة ازدهاره الإبداعي، آنذاك كانت ابنته ليليا قد تخطت الحادية عشرة من عمرها بقليل، لكن صورة الأب كانت وما تزال منطبعة على نحو واضح في ذاكرتها. كان دستويفسكي منغمسًا طول الوقت في العمل، مبدعًا رواية تلو الأخرى، مُصدِرًا على مدى بضع سنين عددًا شهريًّا من «يوميات الكاتب»، ناهيك عن مراسلات ضخمة مع عدد كبير من قرائه؛ فضلاً عن كُتَّاب عصره وشعرائه، لكنه كان يجد الوقت دائمًا للتواصل مع أطفاله والإشراف على تربيتهم محددًا لهم دائرة قراءاتهم محيطًا إياهم بانطباعاته المسرحية وهلم جرًّا. وحتى عندما كان مضطرًّا لمغادرة أسرته لبعض الوقت، مسافرًا، على سبيل المثال، للعلاج في ألمانيا، في منتجع باد-إمس، كان يستمر في تواصله النفسي مع أطفاله من هناك في صورة خطابات، حريصًا على أن يستمع ابنه وابنته إلى كلمات أبيهم الرقيقة طول أيام الفراق. خذ مثلاً هذا الخطاب الذي كتبه في أغسطس 1879 من باد-إمس:

«ملاكي الغالي، ليليتشكا، أُقبِّلك وأباركك وأحبك بشدة. أشكرك لأنك كتبتِ لي خطابات؛ سوف أقرؤها وأُقبِّلها وسوف أظل أفكر فيك في كل مرة أتسلم فيها خطابات منك. أشعر بالحنين من دونك، لا معارف لي هنا، ولهذا

فأنـا أظـل صامتًا حتى يعتريني الخوف من نسـيان الكلام. سـوف أعود إليك بعد أسابيع ثلاثة. عزيزتي ليليا، أطيعي ماما ولا تتشاجري مع فيديا، ولا تنسيا مواصلة الـدرس. أصلي لله من أجلكم جميعًا وأتمنى لكـم الصحة. أبلغي تحياتي للأب (القـس الأب يوحنا روميانتسـيف، جار وصديق عائلة دستويفسـكي في سـتاريا روسا، وكانت بناته صديقات ليليا.-ب.ت) قبِّلي فيديا نيابة عني. أرجوك أطيعي مامـا في كل شـيء ولا تغضبيها. إلى اللقاء ليليتشـكا العزيزة. أحبـك جدًّا. قبِّلي ماما. والدك ف.دستويفسكي» (الجزء الثلاثون، الكتاب الأول، ص101).

كان دستويفسـكي يعلم أن حياته لن تستمر طويلاً على نحو جيد، كان يشـعر بدنـو أجلـه، ولذلك فقد كان متعجلاً في نقل ولو قدر بسـيط مـن خبرته الروحية لابنته وابنه الصغيرين، معتقداته ومثله العليا. «كان والدي رجلاً رائعًا. هذا العقل، هذا القلب، هذه الطيبة لم أقابلها مطلقًا بعد ذلك. كان يتحدث معي كما يتحدث مـع نـدٍّ له ولم يكـن يعتبرني طفلة. كنـا نقرأ معًا، نتنـزه معًا، ولم نكـن نفترق عن بعضنا البعض أبدًا. كم كان وقتًا سعيدًا! كان بابا يعرف أنه لن يعيش طويلا، فراح يسرع في إعدادي للحياة»، على هذا النحو تتذكر بطلة قصة لوبوف دستويفسكايا «السِّـحْر» يلينا ميلتوبيوس[1]. يحمل هذا الاعتراف بكل تأكيد ملمحًا من سـيرتها الذاتية.

كثيرًا ما كان هذا التعجل التربوي الاضطراري من جانب دستويفسكي يحمل طابعًا طريفًا، على سبيل المثال، في المقطع، الذي وصفته لوبوف فيودوروفنا على نحو معبر في مذكراتها، عندما بدأ الأب يقرأ لطفليه مسرحية «اللصوص» لشيللر، وهي واحدة من أكثر الأعمال العالمية التي كان دستويفسكي يحبها منذ شبابه، إذا به وهو في قمة حماسـه الشاعري، يكتشف فجأة أن فيدياتشكا ذا السنوات الست

(1) دستويفسـكايا ل.ف «فتيـات مريضـات»: نمـاذج معاصرة، سـان بطرسبورج، 1911، ص9.

وليليا ذات السبع سنوات يبذلان أقصى ما في وسعهما لتبقى عيونهما مفتوحة، ولمّا أصبحا غير قادرين على هذا الصراع الذي يفوق طاقتيهما مع هذا المورفين استسلما للنعاس. على أنه حتى في هذا المشهد الكوميدي، الذي وصفته ابنة الكاتب بعد أربعين عامًا، فإن شيئًا ما - ربما يكون هو الأهم - أن دستويفسكي كان قادرًا على أن يؤثر بعمق في نفوس أطفاله. «عندما كان عمري سبع سنين لم أكن قادرة على فهم شيللر، على أنني كنت أعي جيدا أن هذه المسرحية الغامضة بالنسبة لي، تمثل أهمية كبيرة لأبي، ولكي يكون راضيًا عني، كان من الضروري أن أتظاهر بأنها كانت مهمة لي أيضًا... [ص193]، هذا ما كتبته لوبوف فيودوروفنا. وقد صاغ دستويفسكي في رواية «الإخوة كارامازوف»، التي كتبها قبل موته مبدأه التربوي الخاص على لسان بطله الأثير لديه أليوشا كارامازوف في المشهد الختامي الشهير عند «صخرة إيليوشا» بقوله: «يا أبنائي الأعزاء، قد لا تدركون ما سأقوله لكم، لأنني في كثير من الأحيان أتحدث على نحو غامض، لكنكم ستتذكرون كلماتي على أية حال يوما ما، وعندها ستتفقون معي بشأنها». يبدو أن دستويفسكي نفسه كان مستعدًا، وهو يغادر الحياة، أن يرسل بكلماته إلى أطفاله هو - إلى فيديا ذي التسعة أعوام وإلى ليليا ذات الأحد عشر عامًا.

وهناك شيء ما على قدر كبير من الأهمية في خبرة التواصل النفسي مع الأب ظل حيًّا في الذاكرة إلى زمن متأخر، إلى سن النضج. شيء أمعن أطفال دستويفسكي النظر فيه، واستشعروه بكل أحاسيسهم، واستوعبوه بعمق شديد. وخير دليل على ذلك، المكان الذي شغله هذا الشيء في مذكرات لوبوف فيودوروفنا، حيث راحت تتذكر قراءة الأب لأشعار معبوده بوشكين في جو عائلي، ومن بينها «تلك القصيدة التي لم يكن باستطاعته أن يقرأها دون أن يذرف الدموع. إنها قصيدة بوشكين «الفارس الفقير» - قصيدة من العصور الوسطى بحق، تاريخ رجل حالم، يشبه على نحو عميق دون كيخوته المتدين، الذي ظل

طـول حياته يتجـول في أوروبا والشـرق، محاربًا مـن أجل فكـرة الإنجيل. وفي رحلاتـه تلك جاءتـه الرؤيا، ليشـاهد في لحظة ما من الحماسـة السـامية العذراء المقدسة عند قاعدة الصليب. كان يضع على رأسه «خوذة من الفولاذ»، وقد أشاح بوجهـه عن النسـاء إخلاصًا منه للعذراء. يصف دستويفسـكي مشـهد القراءة في روايـة «الأبله»، عندما راحت واحدة من بطلاته[1] تقرأ هذه القصيدة وقد «سـرت فـي وجهها الجميل رعدة حماسـة لا تكاد تُدرك». هـذا تمامًا ما حدث أيضًا مع دستويفسـكي، عندما كان يقرأ هذه القصيـدة، «تغيرت ملامح وجهه وراح صوته يتهدج، وتجمعت الدموع في عينيه. والدي العزيز! إنه هو الذي يقرأ تاريخ حياته الخاصة! هو أيضًا كان فارسًا فقيرًا بلا خوف أو مَلاَم، قضى عمره كله يصارع من أجـل أفكار عظيمة، وكانت لديه أيضا رؤيا سـماوية، لكنها لـم تكن العذراء الآتية مـن العصور الوسـطى، بل المسـيح، الذي عثـر عليه في المعتقـل وأعطاه علامة لأن يتبعـه... [ص194]. إن مـا كتبتـه الابنة بيدهـا قائم على انطباعاتهـا الطفولية الشـخصية، وهذه السـطور من أكثر الصور التي رُسـمت لدستويفسكي إخلاصًا وعمقًـا وتعبيـرًا، والتي يمكـن أن نضع إلى جانبهـا، ربما، الصورة الشـهيرة التي رسمها له بريشته الفنان ڤ.ج.بيروف[2].

لقـد هزت وفاة دستويفسـكي في الثامن والعشـرين من ينايـر 1881 المجتمع الروسـي بأسـره. وعلـى الرغم مـن أن الكاتب كان مريضًا بشـدة منـذ زمن بعيد،

(1) أجلايـا إيبانتشـينا. للتعـرف علـى هذا المشـهد وعلى قصيـدة «الفارس الفقيـر» نحيل القارئ إلى الفصل السابع من رواية «الأبله»، أعمال دستويفسكي الأدبية، المجلد 10، ص476-477. ترجمة الدكتور سامي الدروبي. الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970. (المترجم)

(2) بيروف، ڤاسـيلي جريجوريفيتش (1833-1882): رسـام روسـي بارز، صاحب بورتريه دستويفسـكي الشهير. كتب عنه دستويفسـكي عددًا من المقالات في يوميات الكاتب. (المترجم)

فقد كان موته بالنسبة لروسيا القارئة حدثًا مفاجئًا وقع في مرحلة صعود إبداعية جديدة، بعد بضعة أسابيع تمامًا على انتهائه من رواية «الإخوة كارامازوف»، ونصف عام من خطابه التاريخي المظفر عن بوشكين، الذي ألقاه بمناسبة افتتاح تمثال شاعر روسيا العظيم في موسكو. إبان أيام الحداد، التي جرت في شهر يناير في شقة الكاتب المتواضعة في المنزل رقم 5 الكائن بحارة كوزنيتشني (حيث يقع الآن متحف دستويفسكي) تجمع في المدينة نصف سكان بطرسبورج تقريبًا لوداع كاتبهم المحبوب، المعلم، المهيمن على العقول والأفكار. وعندما نقلوا النعش وبداخله جسد الكاتب، من البيت الذي لفظ أنفاسه الأخيرة فيه إلى كنيسة الروح القدس، الملحقة بدير القديس ألكسندر نيفسكي، سار في موكب الجنازة أناس من جميع الفئات، بلغ عددهم حوالي ثلاثين - أربعين ألفًا. وفي يوم الدفن في جبانة كاتدرائية الثالوث تجمع عدد هائل من البشر، حتى اضطرت الشرطة لوقف تيار القادمين بإغلاق البوابة. كتب الناقد الأدبي وكاتب سيرة دستويفسكي ن.ن.ستراخوف[1]: «يمكن القول بكل شجاعة أنه قبل ذلك اليوم لم تشهد روسيا على الإطلاق مثل هذه الجنازة»[2]. واحد من كل اثنين تقريبًا من كُتّاب المذكرات، الذين تركوا لنا ذكرياتهم عن هذه الأيام، أكدوا على المشاركة الأكيدة لابنة الكاتب البالغة من العمر أحد عشر ربيعًا في هذا الحدث الأليم.

وقد وصف الأديب ب.م. ماركوفيتش، الذي كان حاضرًا لحظة وفاة دستويفسكي الدقائق الأخيرة من حياة الكاتب قائلاً: «طفلاهما، الابن والابنة، كانا يرسمان علامة الصليب في هلع، راكعين باضطراب على ركبتيهما. اندفعت الفتاة نحوي وهي في حالة شديدة من اليأس، تشبثت بيدي: «صلِّ، أرجوك، صلِّ

(1) ستراخوف، نيكولاي نيكولايفيتش (1828-1896): كاتب روسي، ناقد أدبي، فيلسوف مثالي، له مقالات عن ليف تولستوي. المؤرخ الأول لسيرة دستويفسكي. (المترجم)

(2) دستويفسكي في المذكرات. الجزء الأول، ص328.

من أجل أبي حتى يسامحه الله إذا كانت لديه ذنوب. ليغفر الله له!»، قالت ذلك بتعبير عجيب يخلو من نبرة الطفولة لتنهمر من عيونها دموع هستيرية، أخرجتُها، من غرفة المكتب وهي تنتفض من شدة الارتعاش، لكنها أفلتت من يدي وهرعت مرة أخرى إلى المحتضر...»[1].

أما أ.ف. كوني، المحامي الشهير، فيؤكد في وصفه للقدَّاس الذي أقيم في شقة دستويفسكي يوم الدفن بقوله: «بالقرب من النعش كانت تقف فتاة، هي ابنة المرحوم، راحت توزع الزهور والأوراق من كل الباقات التي كانت تصل تباعًا إلى البيت، كان ذلك الأمر يمس بشدة شغاف قلوب، أولئك الذين جاءوا لوداع إنسان استطاع بكل دقة وحب «نافذ» أن يصف روح الطفولة»[2].

العديد من كُتَّاب المذكرات عَلِقت بذاكرتهم صورة ليليا ذات الأحد عشر ربيعًا عند الجبانة يوم الدفن. واحد من هؤلاء كتب يقول: «عندما بدءوا في إنزال النعش إلى القبر، مست ابنة دستويفسكي الجميع ببكائها الصادق العميق والبسيط وهي تقول «سامحني يا أبي العزيز الحبيب الطيب، سامحني!»[3].

بصحبة الأم والأخ وآخرين من الأقارب التُقطت صورة لوبا دستويفسكايا عند مقبرة الأب وصورتان أخريان لها، التقطها المصور ف.ي. راينجاردت في الخامس من فبراير عام 1881، في اليوم الثامن على وفاة دستويفسكي. لكن عين المصور، وبالأخص عدسته، كانت تركز حتمًا على الجانب الظاهري مما يحدث. فلم تقدر على كشف ما كان يحتمل في نفس الطفلة. بعد ذلك بسنوات طويلة في

(1) صحيفة «موسكوفسكي فيديموست» (الوقائع الموسكوفية)، 1881. الأول من فبراير. العدد 32.

(2) دستويفسكي في المذكرات. الجزء 2. ص247.

(3) فيودور ميخايلوفيتش دستويفسكي: السيرة. مؤلفاته. اللحظات الأخيرة من حياته. الدفن. الجنازة. وتصفيق المجتمع الروسي. موسكو، 1881. ص26.

عيـون ذكريات كِتابِها عن أبيها، قصّت لوبوف فيودوروفنا دستويفسـكايا معاناتها المتناقضـة، عن «الحلم المفـزع»، الذي تملكها بعد إنزال النعش إلى القبر، أُغلق الضريـح بالأحجار واختفى ركام المدفن تحت العديـد من الزهور. «كنت أحلم أن أبـي لـم يمت، تعترف الابنة، وأنهـم دفنوه حيًا، وأنه كان في حالة سُبات وأنه سـرعان ما سيسـتيقظ في قبره، وأنه سـيصيح طالبًا النجدة من حارس المقابر ثم يعـود إلـى البيت. تخيلت سـعادتنا، ضحكنا، القبـلات والكلمـات الرقيقة، التي سنغمر بها بعضنا بعضًا. لـم يكن عبثًا أن أكون ابنة لكاتب: كنت بحاجة لأن أضع فـي مخيلتـي كل المشـاهد والإيماءات لقد ظلـت الأحاديث حيـة بداخلي، وقد منحني هذا الإبداع الطفولي متعة هائلة. على أنه بقدر ما كانت الأيام تمر، ثم من بعدها الأسـابيع، انبعث العقل في رأسي الطفولي ليقتل كل الأوهام، ويُلهمني أن الإنسـان لا يمكن أن يظـل طويلاً تحت الأرض، دون هواء أو غذاء، وأن سُـبات أبـي قد طـال أكثر مما ينبغـي وأنه، ربما، قد مـات حقًا. عندئذ فقط شـعرت بألم الفراق...» [ص261 -ص262].

بعد أن كتبت هذه السـطور، عادت ابنة دستويفسـكي لتعاني هذه المشاعر من جديـد بعـد مرور أربعين عامًا تقريبًا من هذه الأحداث المأسـاوية، التي سـجلتها وهـي طفلة وعلى نحو مباشـر فور وفـاة أبيها. وهذه كتابة ابنـة الكاتب على علبة سـجائر أبيهـا، إنتـاج شـركة «لافيرم»، حيـث سـجلت بأناملها الرقيقـة باختصار (الكتابة محفوظة): «28 يناير 1881. اليوم مات بابا في التاسعة إلا ربع».

شطرت وفاة دستويفسـكي حياة ابنته على نحو قدَري شطرين غير متساويين وغيـر متكافئين. يمكننا أن نضع تصورًا كاملاً على نحو أو آخر للأحد عشـر عامًا الأولـى من حياتها: تحتوي مراسـلات دستويفسـكي مع زوجته آنـا جريجوريفنا وفي مذكراتها الرصينة وفي التراجم المنشورة عن الكاتب الكثير من المعلومات المفصلـة. وأخيرًا فـإن فصول الكتاب التي كرسـتها لوبوف فيودوروفنا بنفسـها لأبيها تعد مصدرًا قيمًا للغاية في هذا الصدد.

من غير المعروف، على سبيل المثال، كيف قضت لوبا دستويفسكايا سنوات المدرسة. تحكي لوبا في مذكراتها أن الحكومة خصصت، في الأيام الأولى بعد وفاة الأب، «معاشًا لأنّا جريجوريفنا قدره ألفا روبل (حوالي خمسة آلاف فرنك)، ما يعادل معاش أرامل الجنرالات»، كما منحت الطفلين الحق في التعليم على نفقتها - في فيلق النبلاء[1] (بالنسبة لفيديا) وفي معهد سمولني للفتيات النبيلات (بالنسبة لها). لكن ليليا لم يُقدَّر لها أن تتلقى تعليمها في أرقى مؤسسة تعليمية نسائية في روسيا، حيث تتلقى بنات الشخصيات الرفيعة تعليمهن. نقرأ في مذكرات لوبا ما يلي: «قبلت أمي هذه المنحة، لكننا كنا آنذاك ما نزال صغيرين للغاية، لكي يرسلوا بنا إلى المدرسة. فيما بعد عندما كبرنا، بدأت طباعة ونشر أعمال دستويفسكي بعد وفاته تدر علينا عائدًا جيدًا. ومن ثم فقد أرسلتنا أمي إلى مؤسسات تعليمية أخرى وقامت بدفع مصروفات تعليمنا بنفسها» [ص 251].

تشير المواد المحفوظة في قسم المخطوطات في بيت بوشكين[2]، وفي صندوق آنّا جريجوريفنا دستويفسكايا (دفاتر يوميات التلاميذ، كراسات مدارس ابنة الكاتب) إلى أنه في الفترة التي تلت وفاة الأب كانت لوبا تتلقى تعليمها في ثانوية ليتييانا. في هذه المدرسة كانت رفيقتها أ.ب.أوستروأوموفا (ليبيديفا)، التي أصبحت فيما بعد فنانة شهيرة. تكتب أوستروأوموفا في مذكراتها هذا المقطع اللافت للانتباه: «في فصول الصغار ظهرت بيننا فجأة لوبا دستويفسكايا، ابنة الكاتب، فتاة طويلة القامة، تمشي بخطوات واسعة ذات شعر ذهبي فاتح

---

(1) فيلق النبلاء: في روسيا ما قبل ثورة 1917، مدرسة عسكرية داخلية متوسطة متميزة في بطرسبورج، مخصصة لأطفال النبلاء الأرستقراط، يتم إعدادهم للخدمة في الحرس القيصري. (المترجم)

(2) بيت بوشكين: هو معهد الأدب الروسي والدراسات والأبحاث الأدبية، التابع لأكاديمية العلوم الروسية، تُحفظ به مخطوطات العديد من الكُتَّاب الروس ومن بينهم ألكسندر بوشكين. (المترجم)

كثيف ينسدل على جانبيها. لم يكن وجهها جميلاً، كانت عيناها صغيرتين بنيتين عميقتين، ولها جبهة ثقيلة، أما عظمتا وجنتيها فكانتا عريضتين، يضرب لونهما إلى الأصفر الشاحب. اختفت فجأة، لتظهر فجأة. ذات مرة شعرت بالاستياء الشديد تجاهها. ففي أحد الأيام بعد انتهاء الدروس في فصلنا، وكان عددنا ثمانيةً وثلاثين فردًا، كنا نهبط الدرج اثنين اثنين، في انتظار السماح لنا بالدخول إلى غرفة الملابس: حدث أمر ما أعاقنا، فوقفنا طويلاً، ما أثار لدينا شعورًا بالملل. لوبا دستويفسكايا وجدت ما يسليها. فكَّرت في أن تعطي درجة لزميلاتنا في الفصل على جمال الأنف والأذنين. راحت تصعد السلم بجوار الدرابزين، وتلمس بإصبعها أنوف البنات وتحدد درجة جمالها. وعندما أصبحت بموازاتي غرزت أيضا أنفي الأفطس بإصبعها وقالت «أعطيكِ درجة واحدة! شعرت عندئذ بالإهانة بسبب أنفي»[1].

من البديهي، أننا لا نستطيع أن تعتبر أنيتشكا أوسترو أوموڤا من بين صديقات طفولة لوبا دستويڤسكايا. ولكن نظرًا لعدم توافر أدلة أخرى فسوف نلحق بمقالنا رسمها الساخر، وخصوصًا أننا سنشعر فيه بالنظرة الثاقبة لفنانة واعدة.

علي أية حال فإن بإمكاننا أن نذكر أسماء صديقات طفولة ابنة دستويڤسكي وشبابها لسنوات طويلة. ولكن هؤلاء لن يكونوا ممن رافقتهم في سنوات المدرسة، بل ولا حتى ممن عرفتهم في بطرسبورج. منذ شهر مايو من 1872 اعتاد آل دستويڤسكي أن يقضوا أشهر الصيف في مدينة ستاريا روسا التابعة لمحافظة نوڤجورود الشهيرة بمنتجعاتها. وفي عام 1876 اشتروا هنا أيضًا بيتا خاصًا لهم (يقع فيه الآن متحف فيودور دستويڤسكي). في إجازة الصيف الأول لهم في ستاريا روسا. أقامت أسرة دستويڤسكي في بيت الأب يوحنا رومیانتسیف، القس بكنيسة جيورجيڤسكي المحلية.

(1) أوستروأموڤا- ليبيديڤا أ.ب. مذكرات السيرة الذاتية: في ثلاثة أجزاء، موسكو، 1974. الأجزاء 1/ 2. ص 48-49.

سرعان ما قامت بين آل دستويفسكي وعائلة يوحنا روميانتسيف علاقات ودية حميمة، استمرت لسنوات طويلة بعد وفاة فيودور ميخايلوفيتش. كان للأب روميانتسيف المقيم في ستاريا روسا خمسة أطفال، ولدان وثلاث فتيات، وكانت ليليا دستويفسكايا تقضي وقتها مع سونيا وفيسا (أنفيسا) وفاينا روميانتسيف القريبات منها سنًّا، يتنزهون ويلعبون ويأتمنون بعضهم البعض على أسرارهم الطفولية. يشاركون في المسرحيات المنزلية (في المشاهد الممسرحة من حكايات كريلوف[1] الخرافية، كانت ليليا تؤدي أدوار مورافيا ومارتيشكا من «الرباعيات». وقد توثقت عرى الصداقة بينهم.

استمرت هذه الصداقة طويلاً إلى أن بلغت الفتيات سن الرشد. وهو ما تدل عليه المراسلات الكثيرة بين لوبوف دستويفسكايا والشقيقات روميانتسيف، صوفيا (سونيا) وفاينا[2]، وجميعها محفوظة في قسم الوثائق في بيت بوشكين، في عام 1977 قام أحفاد إحدى بنات الأب يوحنا بإهداء جزء من أرشيف عائلة روميانتسيف إلى متحف فيودور دستويفسكي في بطرسبورج. وبفضل هذه الهبة تحفظ الآن صور صديقات طفولة ليليا دستويفسكي ضمن مقتنيات المتحف. أما مجموعة الصور الفوتوغرافية حيث تظهر الشقيقات الثلاث ومعهن ابنة الكاتب وهن يلعبن الكروكيه في ستاريا روسا في مطلع عام 1890 فهي موجودة في صناديق متحف بيت بوشكين.

في القرن العشرين، في الفترة من عام 1905 وحتى عام 1913، إلى أن غادرت روسيا، ارتبطت لوبوف دستويفسكايا بعلاقة صداقة وثيقة مع ابن لكاتب روسي آخر عظيم هو ليف لفوفيتش تولستوي (ليف تولستوي الصغير كما كان معاصروه

(1) إيفان كريلوف (1769-1844): كاتب روسي شهير بحكاياته الخرافية، التي كشف فيها العيوب الاجتماعية. (المترجم)

(2) توفيت الأخت الوسطى للشقيقات روميانتسيف مبكرًا متأثرة بإصابتها بالسل الرئوي.

يطلقون عليه). وعلى الرغم من أن والديهما - دستويفسكي وتولستوي، لم يتعارفا ولم يلتقيا مطلقًا، إلا أن أبناءهما قد اكتشفا جوانب للتقارب بينهما.

لعل بإمكاننا أن نُرجع البداية التي جمعت بينهما إلى عقدة المعاناة المتشابهة في علاقاتهما، والتي قد نسميها «عقدة أبناء الكُتَّاب العظام». ذات يوم صاح ل.ل.تولستوي قائلاً: «الويل لكم يا أبناء المشاهير!»[1]. تحت هذا النداء المرير كان يمكن للوبا دستويفسكايا أيضًا أن تضع توقيعها.

وخلافا لأخيها فيودور، الذي ظل يكتب الشعر طول حياته، ولكنه لم يخاطر مطلقًا بنشره، ولو باسم مستعار، فقد بدأت لوبوف دستويفسكايا محاولاتها في اقتحام ميدان الأدب بدءا من عام 1890 - في البداية بالكتابات المسرحية، ثم بعد ذلك (في القرن العشرين) في القصة. وعلى حد علمنا فإن تجربتها المسرحية الأولى، التي ظهرت على المسرح في ربيع عام 1892 (وكانت قد أتمت عامها الثالث والعشرين)، وهي مسرحية من ذوات الفصل الواحد تسمى "Jour Fixe"، وفيها أدت ابنة الكاتب أحد الأدوار[2]. وكذلك كتب ل.ل. تولستوي كثيرًا من الأعمال في مجال المسرح أيضًا. على أنه إذا كانت منمنمات لوبا دستويفسكايا المسرحية قد عُرضت بصورة أساسية على خشبة مسارح الهواة، فإن مسرحيات ل.ل. تولستوي قد عُرضت على خشبة المالي تياتر في بطرسبورج الذي يحمل اسم أ.س.سوفورين[3]. على أنه وعلى الرغم من انتماء الكاتبين لاسمين شهيرين

---

(1) مراسلات آنّا دستويفسكايا ولوبوف دستويفسكايا مع ليف لفوفيتش تولستوي/ نشرها وعلّق عليها ف.ن.أبروسيموفا وس.ر.زورينا. دستويفسكي والثقافة العالمية. موسكو، 1995، العدد4، ص78.

(2) المصدر السابق. ص80.

(3) ألكسندر سيرجيفيتش سوفورين (1834-1912): كاتب وصحفي روسي. أصدر في بطرسبورج صحيفة «الزمن الجديد» ومجلة «البشير التاريخي». (المترجم)

(وبفضلهما) فإن تجربتي لوبا دستويفسكايا وتولستوي الصغير، للأسف الشديد، ظلت غير محسوسة في ظل إبداع الوالدين العظيمين.

في نهاية عام 1897 افتتحت لوبا دستويفسكايا صالونًا أدبيًا في بيتها الواقع على كورنيش أدميرالتيسكايا (المنزل رقم 6). لكن مبادرتها هذه لم تجد في بطرسبورج صدى واسعًا. في الواقع فإن هذا كان بمثابة «اجتماع لعدد صغير من الأصدقاء المقربين»، كما وصفته صاحبته بنفسها في أحد خطاباتها. وفي خطاب آخر وصفت الاجتماعات على النحو التالي: «كان الشخص يقرأ على حلقة صغيرة مقالاً عن القضية التي تثير اهتمامه، ثم يطلب من الحضور ألا يسخروا منه، وإنما يدرسونها ويعبرون عن وجهة نظرهم فيها»[1]. في حوالي عام 1905 أصبح ليف تولستوي الصغير أيضًا ضيفًا دائمًا على المنزل رقم 25 الواقع في شارع فورشتاتسكي.

هناك خطاب رائع بكل معنى الكلمة كتبته ابنة دستويفسكي إلى ابن تولستوي تقترح فيه لوبوف فيودوروفنا على ليف لفوفيتش فكرة مسرحية: «... لماذا لا تكتب مشاهد صغيرة مرحة حيوية، على سبيل المثال، في موضوع «يوم في حياة كاتب روسي»- تتساءل لوبوف- وتصف يومًا في ياسنايا بوليانا[2]؟ عندما يأتي الطلاب إلى ليف نيكولافيتش ليجادلوه في معتقداتهم. أو امرأة تشاجرت مع زوجها جاءت لتعرف وجهة نظر الكاتب العظيم في الزواج، أو مراسلو الصحف الإنجليزية (أو الفرنسية)، واثنان من الأمريكيين، قدموا من أمريكا إلى الجانب الآخر من العالم بعد أن حددوا موعدًا للقاء Leo Tolstoi وهلم جرًا. إنني على يقين، أن ذاكرتك سوف تمدك بالكثير من المشاهد الشيقة وستعطيك

(1) دستويفسكي والثقافة العالمية. ص84.

(2) ياسنايا بوليانا: ضيعة ليف تولستوي. تقع على مسافة أربعة عشر كيلو مترا من تولا. هنا وُلد ليف تولستوي وعاش حوالي ستين عامًا من عمره. وهنا كتب رواياته الكبرى «الحرب والسلام» و«أنا كارنينا»، إلى جانب العديد من القصص والمقالات. (المترجم)

إمكانية خلق شخصيات بعضها فكاهي وبعضها جمالي. بداهة لن تكون بحاجة، بطبيعة الحال، إلى تقديم والدك. ولكن، يمكن أن تقول أنه مريض، وأن ابنه سوف يستقبل الزائرين. ها هي الفرصة سانحة لكي تعبر عن وجهات نظر أبناء الكُتَّاب، الذين لم نتحدث عنهم مرة واحدة»[1]. لم يتم تحقيق هذه الفكرة، لكن أرشيف ل.ل. تولستوي يحتوي على مسودات مسرحية تتطابق في محتواها مع «البرنامج» الذي قدمته لوبوف دستويفسكايا.

من الممكن أن نفترض أن واحدًا من الأهداف، التي كانت لوبوف فيودوروفنا تسعى لتحقيقها هو أن تتعرف على صدى تجاربها الأدبية. وقد سادت النبرة الانتقادية غالبية المقالات التي ظهرت في الصحافة آنذاك، بينما اتسمت آراء الدوائر القريبة منها بالتعاطف والرضا. تقول لوبوف دستويفسكايا في خطاب لها إلى ليف تولستوي الصغير، تطلب فيه منه أن يكتب انطباعه عن روايتها: «من فضلك اكتب رأيك في رواية «المهاجرة» في خطاب. لديّ ألبوم ألصق بداخله كل ما يصلني من آراء. إن الآراء الشفاهية تتطاير من الذاكرة بسهولة»[2].

ينبغي أن نشير هنا. ونحن نتحدث عن الإبداع الأدبي عند لوبوف دستويفسكايا، أن النقد كان متحيزا للغاية، متهمًا ابنة الكاتب بافتقارها التام إلى الموهبة الفنية. الأرجح أن مصيبتها كانت ترجع إلى أمر آخر، هو أن لوبوف دستويفسكايا لم تستطع أن تصنع لنفسها «مكانة» بارزة في الحياة الأدبية في عصرها. كان لديها، دون أدنى شك، يراع، يعبر عن رؤية ذكية ثاقبة عنيدة، لَبِقة تصل أحيانًا إلى حد البراعة. وكثيرًا ما نجد في رواياتها صورًا فنية معبرة. خذ مثلاً هذه الصورة من رواية «المهاجرة»: «تركت مونت-كارلو انطباعًا شديدًا على إيرينا. أما في روما، مثلها مثلما في كافة المدن الكبرى، فإلى جانب بعض العربات الفاخرة، والقصور

(1) دستويفسكي والثقافة العالمية. ص87.

(2) دستويفسكي والثقافة العالمية. ص90.

الرائعة، والناس شديدي الثراء، يمكن أن يصادف المرء شحاذين وفقراء، وعمّالاً يرتـدون ملابس رثة وهـم بصحبة زوجاتهم وأطفالهـم، الذين تبدو عليهم مظاهر الحرمان والفاقة. مثل هذه المناظر لا يمكن أن تجدها في مونت-كارلو. الجميع هنـا كمـا يبدو يعيشـون لمتعهم الخاصـة. كان النُدُل فـي Café de Paris يقدمون المشروبات للزبائن وهم يغنون ويرقصون على أنغام فرق الأوركسترا الهنغارية. كان العـرب، الذيـن يتاجـرون في الشـيلان الشـرقية، يتجولون فـي المنتزه وهم يرتـدون برانس بيضاء وأحذيـة حمراء فاخـرة، وكانوا، على ما يبـدو، يمتدحون بضائعهـم الجميلـة، أكثر مـن رغبتهم فـي بيعها. أما أكثـر الناس انشـغالا فكانوا المشـرفين على موائد القمار، وهؤلاء كانوا عندما يغادرون ورديتهم من الكازينو فـي جماعة، يشـبهون العمال، الذين تركوا لتوهم مصنعًا بعـد يوم عمل مضنٍ[1]. ودون مبالغة، فإن التفاصيل الرائعة الأخيرة لم تكن لتثير دهشتنا لو صادفناها أيضًا عند تشـيخوف في كتاباتـه المتأخرة. مثل هذه الصور الفنية، المنثورة بسـخاء هنا وهناك وخاصة في الرواية «الإيطالية» لكاتبة «المهاجرة» تُحوِّل السـرد أحيانًا إلى تعبير عن «يوميات سائحة ذكية قوية الملاحظة»[2]، كما شهد بذلك بعض من نقاد ما قبل الثورة. أتصور أنه في هذا الميدان، أقولها مجازًا، أن لوبوف دستويفسكايا كان من الممكن أن تصل إلى ذرّى إبداعية كبيرة في جنس «خطابات امرأة روسية رحّالـة» ولنالـت شـهرة عريضة، لكـن هذا الجنـس الأدبي لم يكن يشـغل مكانة مركزيـة فـي أدب ابنة الكاتـب ولـم يشـكل عنصرًا أساسـيًا فيه. سـنجد في إبداع لوبوف دستويفسـكايا صور العالم الخارجي وقد سُجلت بدقة وعلى نحو مرئي قوي، بحيث تجتاح أمامها مبدأ الاعتراف الذاتي الطاغي. إن المعاناة الشخصية، الأخلاقية - النفسـية والدينية عنـد الكاتبة، والعلاقـات الدراماتيكية المعقدة مع

(1) دستويفسـكايا ل.ف. المهاجـرة: نمـاذج معاصـرة. الطبعة الثانية. سـان بطرسبورج، 1913. ص174.

(2) العصر الحديث. ملحق مصور. 1913. 19 يناير.

أمها، وما تعكسه عليها أحوالها المرضية، ومشاعر التمزق جراء ما تعرضت له من إخفاقات وهوًى لم يتحقق. كل ذلك دخل بشكل كبير إلى رواياتها وقصصها لا باعتباره نتيجة لعمل الخيال الإبداعي، بقدر ما جاء تصويرًا لشكل وجودها الشخصي كمؤلف في أعمالها. يصل الأمر إلى أن تخلع على واحدة من بطلاتها اسمها الشخصي - لوبوف فيودوروڤنا، وتعطي أخرى اسم عائلة جدها (لأمها قبل الزواج)- ميلتوبيوس، وثالثة تُسكنها إلى جوارها في شارع سيرجييڤسكايا في بطرسبورج، بالقرب من حديقة تاڤريتشيسكايا[1].

يتولد لدينا انطباع أن لوبوف دستويڤسكايا، ربما، دون وعي، كانت ميَّالة إلى أن تنتسب إلى أعمالها لا باعتبار أن هذه الأعمال إنتاج فنيّ، بقدر انتمائها لها باعتبارها يوميات شخصية ذات صبغة اعترافية.

وتقول في روايتها «الشفقة» (من كتاب «فتيات مريضات»)، التي تحكي فيها عن الكاتب المبتدئ ڤيكتور ب-ف، مبدية تعاطفها هي وبطلة الرواية نحوه على نحو واضح: «إن أبطاله باردون، يفتقرون إلى اللباقة وإن كانوا يتميزون بالاستقامة. إنهم يذكرونني بالرسوم الساذجة للمصريين القدماء. لكن روح الكاتب الرائعة تتراءى في كل سطر...»[2] يمكن أن نعتبر هذا الوصف، ربما، قد ورد على نحو لا إرادي، لكنه في الواقع وصف دقيق موجز لصورة ذاتية للكاتبة نفسها - لوبوف فيودوروڤنا دستويڤسكايا.

إن الشهادات الموثقة الشحيحة، التي جرت إضافتها هنا (والتي اكتسبت أهمية كبرى، باعتبارها نقطة ارتكاز واقعية ضرورية)، وكذلك الاعترافات الشخصية، الحاضرة أمامنا على نحو واسع في أعمال لوبوف دستويڤسكايا، لتخلق في النهاية انطباعًا حزينًا لحياة شخصية استثنائية، لم يكتمل مصيرها

(1) في هذا المكان عاشت لوبوف فيودوروڤنا دستويڤسكايا عامي 1912 و1913.

(2) دستويڤسكايا ل.ف. فتيات مريضات. ص 81-82.

على نحو دراماتيكي، شخصية ظلت تبحث عن مكان لها في الحياة ولكنها لم تستطع أن تحصل عليه. لم يَعدْ نشاطها الأدبي عليها لا بالشعور بالرضا ولا بالاعتراف الاجتماعي. أحبت بلهفة واندفاع، لكنها لم تتمكن مع ذلك من إقامة حياة أسرية هادئة (كان للوبوف دستويفسكايا خطيب رسمي يدعى كوشنيكوف، لكن علاقاتهما لم تكلل بالزواج لأسباب غير معروفة). وفي النهاية أجبرتها أمراض عديدة منهكة، كانت قد ظهرت لديها منذ طفولتها، على المكوث أوقاتًا طويلة في المستشفيات والمصحات وفي المنتجعات (في واحد من خطابات آنا جريجوريفنا دستويفسكايا، الذي جرى نشره منذ فترة قريبة، نكتشف أن ابنة الكاتب قد ورثت عن أبيها ذلك المرض «المقدس» المميت، الذي كان لدى أبيها وهو الصرع[1]. ويمكن القول، بمعنى من المعاني، أن الكتاب الأول للوبوف دستويفسكايا، وهو منتخب من القصص وروايات تحت عنوان «فتيات مريضات»، صدر في بطرسبورج عام 1911، يُعد من حيث مضمونه، وعلى النحو الذي استقبله به جمهور القراء، بل وحتى بهذا العنوان الذي حمله، رمزًا مؤسفًا للمصير الفاشل الذي آلت إليه حياة مؤلفته.

في عام 1913 تسافر لوبوف دستويفسكايا ضمن زياراتها الدورية إلى أوروبا الغربية للعلاج: هذه المرة إلى شاطئ نيس اللازوردي، وإلى ميتون ثم إلى باريس... كان اندلاع الحرب العالمية الأولى، ثم قيام الثورة في روسيا والحرب الأهلية في أثرها، من الأسباب التي وقفت كلها وراء استحالة عودة ابنة دستويفسكي إلى الوطن. وقد ظلت السنوات الثلاثون الأخيرة من حياتها بأكملها بمثابة «الحلقة المفقودة» في سيرتها. وقد استمرت المراسلات بين الأم والابنة منتظمة على نحو أو آخر طوال بقاء آنّا جريجوريفنا دستويفسكايا

(1) انظر من أرشيف آنّا جريجوريفنا دستويفسكايا: منشورات وتعليقات. ف.ن. أبروسيموفا، مجلة «زناميا» (الراية)، 1996. العدد 11. ص 178-182.

على قيد الحياة. وفي الحقيقة فإنه لا يمكننا الاستناد إلى هذا المصدر عن حياة لوبوف فيودوروفنا في الخارج إلا قليلاً. في خطاب مؤرخ 30 يونيو 1917 نقرأ، على سبيل المثال، ما يلي: «أكتب إليك من بادن، مدينة صغيرة تقع بالقرب من زيوريخ، حيث أتلقى العلاج بالحمامات الكبريتية. يؤكد الطبيب المقيم هنا أن الصداع النصفي الذي أعاني منه، يعود إلى إصابة رقبتي ومؤخر عنقي بالتهاب المفاصل، وأرغمني على الجلوس في الحمام حتى تصل المياه إلى شفاهي وقال أنه سيكون من الضروري فيما بعد، عندما أكتسب بعض القوة، أن يعالج مؤخر عنقي بالأشعة الضوئية. أعاني من ضعف في قلبي حتى أنني أضطر بعد كل حمام للراحة يومًا، وأحيانًا يومين...»[1]. لا تختلف الخطابات الأخرى في مضمونها عن هذا الخطاب إلا قليلاً. بتوقف المراسلات مع الأم (تُوفيت آنّا جريجوريفنا دستويفسكايا في صيف عام 1918 في يالطا)[2] فقد كُتّاب سيرة ابنة الكاتب حتى هذا المصدر الفقير بالوقائع.

لعل هناك حدثًا فريدًا وقع في السنوات الأخيرة من حياة لوبوف دستويفسكايا انطبع بشكل واضح في ذاكرة المعاصرين وهو الاحتفال الذي جرى بمناسبة مرور مائة عام على ميلاد دستويفسكي، وقد أُقيم في منتجع باد-إمس في ألمانيا، الذي تحدثنا عنه آنفًا. وكان دستويفسكي قد جاء إليه عدة مرات في عام 1870 للاستشفاء. بطبيعة الحال فقد تم الاحتفال بالكاتب في مدن أخرى أيضًا وخاصة في بتروجراد[3] وفي موسكو. لكن الاجتماع الذي نظمته الجمعية الأدبية في إمس والمُكرس لهذا التاريخ اليوبيلي، الذي حلَّ في الثامن عشر من نوفمبر عام 1921 كان احتفالاً مميزًا، وهو ما يمكن أن نقرأ تفاصيله في الكتاب القيّم الذي

(1) سجل سلالة دستويفسكي. ص468.

(2) يالطا: ميناء ومنتجع على البحر الأسود، يقع في منطقة القرم. (المترجم)

(3) بتروجراد: اسم مدينة بطرسبورج من 1914 إلى 1924. (المترجم)

وضعته عالمة الدراسات السلافية الأمريكية نادين ناتوفا بعنوان «دستويفسكي في باد-إمس». وقد دُعي الدكتور كارل موللر لإلقاء محاضرة عن الكاتب، قال فيها موللر «إن دستويفسكي هو روح الشعب الروسي؛ إنه شاعر يشع بضوء الجمال الغامض. إن قيمة إبداعه تزداد مع الزمن. الآن فقط يمكن أن نحيط بكل ما في خياله الإبداعي من ثراء» <...> قبيل المحاضرة في مبنى الكورسال، حيث جرى الاجتماع، تم وضع بورتريه دستويفسكي بريشة الفنان بيروف (نسخة بالطبع - ب.ت) وأيقونة عذراء كازان أم الرب، التي أشعل الزوار الروس أمامها الشموع، وقبل بدء الجزء الثاني من المحاضرة، دخلت إلى القاعة امرأة بصحبة الأمير تروبيتسكوي والبروفيسور كوشين، كانت هذه المرأة هي لوبوف فيودوروفنا دستويفسكايا. تقدمت لوبوف بآيات الشكر للدكتور موللر للاحتفال بذكرى والدها وطلبت منه أن يواصل محاضرته، وبعد أن أنهى الدكتور موللر محاضرته أُبلغ الجمهور بوجود ابنة الكاتب في القاعة - وعندئذ قام الحضور بتحية لوبوف فيودوروفنا تحية حارة. وبعد المحاضرة قام المسئولون على إعداد الاجتماع بمصاحبة لوبوف فيودوروفنا والشخصيات التي كانت موجودة إلى فندق «Russisher Hof»، وفي اليوم التالي التقت لوبوف فيودوروفنا بقيادات جمعية إمس الأدبية وبممثلي الصحف، الذين جاءوا من كوبلينتس وليمبورج وفسبادن وفرانكفورت وكولن. على أنه أمام إلحاح سلطات الاحتلال الفرنسية لم يسمح بنشر أي خبر عن هذا اللقاء في الصحف. كذلك تم حظر نشر أية معلومات تشير إلى وجود ابنة الكاتب في هذا الاجتماع اليوبيلي[1].

هذا الاهتمام الاستثنائي من جانب المجتمع والصحفيين تجاه لوبوف دستويفسكايا، بقدر ما نتصور، لم يكن وقفًا على مجرد كونها ابنة الكاتب

---

(1) باتوفا ب. فيودور دستويفسكي في باد-إمس (Frankfurt/ Main, 1971) ص 110-111.

الروسي العظيم، الذي جرى الاحتفال بالذكرى المئوية لميلاده في العالم بأسره، وليس انتهاء بدخولها الجديد إلى عالم الأدب، الذي حدث في عام 1920، وإنما، في هذه المرة، ببحثها البيوجرافي المكرس لحياة دستويفسكي. لقد استعدت لوبوف فيودوروفنا مبكرًا لمئوية أبيها، فراحت تعمل طويلاً في صبر ودأب على وصف حياته مضمنة عملها فصولاً من الذكريات، مستدعية من ذاكرتها انطباعات الطفولة والحكايات الأخيرة، التي روتها أمها وأقاربها. «وددت لو يتم الاحتفال بمئوية دستويفسكي في أوروبا، ما دام قد بات من غير الممكن الاحتفال بها في روسيا، وبعد أن أصبح منذ زمن بعيد كاتبًا ذا أهمية عالمية، واحدًا من المنارات المجيدة، التي تنير الطريق للبشرية بأسرها، قررت أن أنشر في أوروبا سيرة أبي، التي كنت قد عزمت على إصدارها في روسيا، وخاصة أن كل ممتلكاتي قد أصبحت في يد البلاشفة. الآن أصبح لزامًا عليّ أن أعمل لأكسب قوت يومي» [ص31].

وعلى الرغم من أن روايتها الأخيرة «المهاجرة»، تُرجمت إلى الإنجليزية لتصدر في عام 1916 في دار نشر "Constable and Co" اللندنية، بتحرير ومقدمة للناقد الشهير س. جراهام، فإن لوبوف دستويفسكايا لم تنل شهرة حقيقية في الغرب باعتبارها كاتبة، على أن كتابها عن سيرة أبيها سرعان ما اكتسب شهرة مُدوية في كل أنحاء أوروبا، ليصل صداه إلى ما وراء المحيط، ولتتحقق لها الشهرة والمجد. كتبت لوبوف دستويفسكايا هذا الكتاب باللغة الفرنسية في عام 1920، لكنه صدر في نفس العام بترجمة ألمانية في ميونخ (Ernest Reinhardt Verlag) وفي زيورخ في نفس الوقت تقريبًا (Engen Rentsch Verlag). وفي الفترة نفسها يصدر باللغة الهولندية في مدينة أرنيم، وفي العام التالي على اليوبيل تظهر ترجمات أخرى له بالسويدية (في ستوكهولم) وبالإنجليزية (في لندن). وفي عام 1922 تصدر الطبعات الأمريكية (في نيويورك) والإيطالية (في ميلانو).

وفي عام 1923 تصدر دار نشر إرنست راينهارت في ميونخ الطبعة الثانية، أما في عام 1926، عام وفاة لوبوف فيودوروفنا دستويفسكايا، فقد أصدرت دار نشر Éditions Émile-Paul Frères في باريس سيرة دستويفسكي باللغة الفرنسية - لغة النص الأصلي[1].

ينبغي علينا أن نذكر كتاب «دستويفسكي في وصف ابنته لوبوف دستويفسكايا» وإنما على نحو مستقل. صدر هذا الكتاب في روسيا السوفيتية في عام 1922 وقامت على ترجمته ل.ي. كروكوفسكايا من «نصف الأصل المُترجم إلى الألمانية»، بحسب وصف محرر الكتاب أ.ج.جورنفيلد، طبعة ميونخ. لقد جاءت ترجمة سيرة دستويفسكي هنا مختصرة إلى ما يزيد عن النصف، فمن ثلاثين فصلاً تبقى فقط ثمانية عشر، بل إن بعضها تم اختصاره بشكل جوهري. وهناك فصول أخرى حذفت منها فقرات بأكملها، وأحيانًا بعض العبارات، بل والكلمات. وقد تم نقل بعض المقاطع من فصل ما لتضاف إلى فصل آخر، وهذه تم ترتيبها وفقا لإرادة المحرر لا المؤلف. هذه الترجمة لكتاب لوبوف دستويفسكايا التي جرى تنقيتها أيديولوجيًا، هي الترجمة التي كانت متاحة أمام القارئ، الذي يعرف اللغة الروسية، طوال فترة وجود الاتحاد السوفيتي. في عام 1922 فقط أصدرت دار نشر «أندرييف وأبناؤه» في بطرسبورج ترجمة جديدة كاملة، قامت بها ي.س.كيباردينا بتحرير وتعليقات س.ف.بيلوف. على أن هذه الطبعة أيضًا أخذت مرة أخرى عن الطبعة «الألمانية غير الكاملة». في هذه الطبعة نقدم للقارئ للمرة الأولى كتاب ابنة دستويفسكي مترجمًا عن اللغة التي كتبتها به.

قضت ابنة الكاتب العامين الأخيرين من حياتها في إيطاليا. وسوف نتعرف على بعض الظروف التي أحاطت بها في هذه الفترة من خطابات لوبوف دستويفسكايا

(1) انظر: إيفانوف أ.إ. ل.ف. دستويفسكايا» ذكريات عن أبي، مذكرات مجموعة الأكاديمية الروسية في الولايات المتحدة الأمريكية. نيويورك، 1981. الجزء 14. ص 324-ص 356.

التي بعثت بها إلى روسيا، إلى يكاتيرينا بتروڤنا دستويڤسكايا، أرملة أخيها فيودور، وهذه الخطابات محفوظة في مجموعة ن.ف.بانشيڤا الخاصة (في موسكو). في الخطاب المؤرخ خريف 1925 تقول: «اعذريني لأنني لم أستطع أن أرد على خطابك لمدة طويلة. لقد كنت مريضة بشدة في الخريف، وكنت مضطرة، بأوامر من الطبيب، أن أنتقل من نيس إلى ميران للعلاج. لقد عانيت آنذاك من صدمتين عصبيتين، وأنا الآن أجر ساقي اليسرى بصعوبة. الذنب يقع كلية على هذا السعي المضني للحصول على الإعانات من المؤسسات الخيرية المختلفة. لقد قضيت طوال الشتاء الماضي كله طريحة الفراش في المستشفى في نيس...»[1]. وهناك خطاب آخر مؤرخ يونيو 1926: «المحترمة يكاتيرينا بتروڤنا! تسلمت خطابا منك منذ فترة بعيدة للغاية، ولكن بسبب المرض لم أستطع أن أبعث إليك بالرد. لقد بدأت أعاني في فصل الربيع من مرض عُصاب القلب، مرض رذيل للغاية لا أتمناه لأسوأ أعدائي، لم يكن باستطاعتي أن أقوم بأي عمل، أو حتى أن أرفع رأسي عن الوسادة. نصحوني بقضاء الصيف في أركو، وهو منتجع صغير يقع غير بعيد من ريڤا على بحيرة جارد. لزمت الفراش هنا لمدة شهر حيث الهواء الطلق، وعلى الرغم من أنني لم أحصل على الشفاء فقد أصبح باستطاعتي على نحو أو آخر أن أبدأ في ممارسة أعمالي اليومية المعتادة[2]. في نهاية خطابها تتوجه لوبوف فيودوروڤنا دستويڤسكايا بالحديث إلى ابن أخيها أندريه، حفيد الكاتب (وكان يبلغ من العمر آنذاك ثمانية عشر عامًا): «رجائي الكبير إلى أندريه: أن ينفق الدولارات التي أرسلتها (مستحقات الورثة مقابل إخراج رواية دستويڤسكي «الأبله» على خشبة أحد المسارح الفرنسية. - ب.ت) على إقامة قُدَّاس لجده

(1) خطابات لوبوف فيودوروڤنا دستويڤسكايا الأخيرة (1925-1926)، منشورات ن.ف. بانشيف وب.ن.تيخوميروف. تعليق ب.ن.تيخوميروف/ دستويڤسكي والثقافة العالمية. 1999. رقم 13. ص250.

(2) المصدر السابق. ص 261-262.

وجدته آل دستويفسكي. نادرًا ما أنجح في عمل ذلك، لأن الكنائس الروسية في الخارج موجودة فقط في المدن الكبرى، التي ليس باستطاعتي أن أقيم فيها لضيق الحال»[1]. هذه الكلمات في ذكرى أقاربه آنّا جريجوريفنا دستويفسكايا وفيودور ميخايلوفيتش دستويفسكي.

نتعرف على الأحداث المؤسفة التي تلت ذلك من كلمات يكاتيرينا بتروفنا دستويفسكايا. فباعتبارها قريبتها الوحيدة هي وابنها أندريه فقد تم إرسال بعض المتعلقات والوثائق إليها من إيطاليا (شهادة وفاة لوبوف دستويفسكايا، عقود موقعة مع دور نشر في عدة بلدان لإصدار كتاب «Vie de Dostoeïewski par sa fille» (الصيغة الأصلية لاسم الكتاب) وغيرها من أشياء. وعن الأيام الأخيرة من حياة أخت زوجها تحكي يكاتيرينا بتروفنا لمؤرخ سلالة دستويفسكي م.ن.ڤولوتسكي: «بدأت لوبا فيودوروفنا مرضها منذ مايو 1926، الأمر الذي كتبت لي عنه عدة مرات. لقد استطاعت بفضل دعم المؤسسات الأدبية الأجنبية أن تعيش في مصحات جيدة وأن تغير أماكنها بتوجيه من الأطباء. فقد ذهبت، على سبيل المثال، في أغسطس إلى ميلان، إلى الطبيب الذي كانت تثق فيه بشدة، وقد وصف لها سيدة (نصف روسية) كانت تعتني بلوبوف فيودوروفنا في الأوقات التي يشتد فيها المرض عليها. وقد نبه على هذه السيدة أن لوبوف فيودوروفنا تعاني من الأنيميا الخبيثة، أو اللوكيميا (anemia perniciosa) وأن إنقاذها مستحيل. انتقلت لوبوف فيودوروفنا في البداية إلى أركو (بالقرب من بحيرة جارد)، ثم إلى Gries، إلى مصحة الدكتور روسلي، حيث توفيت في العاشر من نوفمبر في الساعة الرابعة والنصف ودفنت في Gries في جبانة خاصة [2].

---

(1) دستويفسكي والثقافة العالمية. العدد 13. ص262.

(2) سجل سلالة دستويفسكي. ص469.

في الختام. في عام 1889 كتبت لوبوف فيودوروفنا في ما يعرف باسم «ألبوم الاعترافات» المحفوظ في أرشيف أنّا جريجوريفنا دستويفسكايا ردًّا على بعض الأسئلة تقول:

«ما الغاية التي تتوخينها في الحياة؟

أن أجد السعادة على الأرض وألا أنسى الحياة القادمة.

ما هي أسعد لحظة في حياتك؟

لم تأت بعد.

على أي نحو ترغبين في أن يكون موتك؟

< شطب>»[1]

أتصور أنها ربما تكون قد أجابت على هذه الأسئلة على النحو نفسه...

(1) المرجع السابق. ص 451-452.

أبي فيودور
دستويفسكي

أعرف شعبنا، عشت معه في المعتقل

أكلت معه، نمت إلى جانبه، أعاد الشعب لي المسيح،

الذي عرفته في بيت والدي والذي فقدته، عندما

تحولت بدوري إلى "ليبرالي أوروبي".

"يوميات الكاتب"

أغسطس 1880

مقدمة المؤلفة

في الثلاثين من أكتوبر عام 1921 تم الإعداد في روسيا للاحتفال بذكرى مرور مائة عام على ميلاد فيودور دستويفسكي. كان كُتَّابنا وشعراؤنا يأملون في تمجيد الكاتب الروسي العظيم شعرًا ونثرًا؛ كما أبدت الشعوب السلافية عزمها على أن ترسل إلى بتروجراد وفودها لكي تكرم صاحب النزعة السلافية العظيم باللغات التشيكية والصربية والبلغارية، الرجل المخلص لفكرة الاتحاد الكونفيدرالي الموعود. كانت عائلة دستويفسكي في شتى الأنحاء تأمل أن يتم نشر المزيد من الوثائق (التي لم تنشر) المحفوظة في متحف موسكو التاريخي بحلول هذا اليوم. وكانت أمي تريد أن تصدر مذكراتها عن زوجها؛ وأنا، بدوري كنت عازمة أيضًا على كتابة بحث بيوجرافي عن أبي وأن أشارك الجمهور العريض انطباعاتي عن طفولتي.

على أن هذا العيد الرائع لم يُكتب له أن يتحقق. عاصفة عاتية اجتاحت روسيا لتجرف أمامها كل حضارتنا الأوروبية. فبعد الحرب المشئومة اندلعت الثورة، التي تنبأ بها دستويفسكي قبل ذلك بزمن بعيد، وتحولت الفجوة بين فلاحينا ومثقفينا في النهاية إلى هوة سحيقة. المفتونون باليوتوبيات الأوروبية كانوا يتطلعون إلى الغرب، بينما ظل الشعب المخلص لتقاليد أسلافه يرغب في التوجه إلى الشرق. المثقفون الروس: العدميون والفوضيون، كانوا يحاولون أن يفرضوا الإلحاد الأوروبي على بلادنا، أما من كان تدينهم عميقًا، فأرادوا أن يبقوا على إخلاصهم للمسيح. الآن نحن نرى نتائج هذا الصراع. لقد أزاح الشعب

الغاضب المثقفين، الذين كانوا يأملون أن يفرضوا سلطانهم على روسيا بدلاً من القيصر، وأن يحكموها وفقًا لخيالاتهم، باعتبارهم كائنات غبية وضارة. وها هم الآن مُشردون في أوروبا وقد غلبت عليهم الكآبة. البعض منهم أقام في قصور سفاراتنا السابقة، حيث راحوا يتظاهرون بأنهم يحكمون روسيا من على ضفاف السين والتيمز[1]، محاولين ألا يروا ضحكات السفراء الأوروبيين الساخرة، والبعض الآخر راحوا يتجمعون حول عدد لا نهاية له من الصحف الروسية، التي يصدرونها بأعداد تصل إلى مائة نسخة، يعرضونها بالمجان على كل من يرغب. هيهات، فالقراء يتناقصون يومًا وراء الآخر! لقد بدأ الأوروبيون أخيرًا يدركون أن اشتراكيينا وفوضويينا، الذين يكتبون عنهم في هذه المجلات موجودون في التصور الساذج «لأجداد وجدات الثورة الروسية».

وبعيدًا عن الفوضويين، فإن الفلاح الروسي يبني إمبراطورية شرقية هائلة، إنه يتآخى مع الشعوب المغولية، ويقيم علاقات ودية مع الهند وفارس وتركيا. إنه يحافظ على البلشفية باعتبارها خيال مآتة، لكي يُبقي على مسافة بينه وبين أوروبا القديمة، ولا يعطيها الفرصة للتدخل في شئونه وإعاقته في بناء نظام قومي جديد. وعندما ينتهي من البناء، سوف يهدم الفلاح هذا الشيء، الذي لم يعد ضروريًا، وسوف تنظر أوروبا في دهشة إلى الإمبراطورية الروسية الجديدة. إمبراطورية أكثر قوة ورسوخًا من الإمبراطورية السابقة. إن فلاحنا بنَّاءٌ ماهر، ومنذ غابر الأزمان وهو يتحاشى، بحكمته المعهودة، أن يدعو إليه المثقفين كبنَّائين (معماريين). لقد أدرك الشعب أن هؤلاء المرضى يمكنهم أن يهدموا أي حضارة، ولكنهم غير قادرين على الإطلاق على بناء حضارة أخرى بدلاً منها مهما حدث.

وما دام الأمر قد أصبح من غير الممكن في روسيا، فإنني أود لو أن مئوية دستويفسكي يتم الاحتفال بها في أوروبا، إذ إن دستويفسكي أصبح منذ زمن بعيد

(1) السين: نهر في القسم الشمالي من فرنسا. والتيمز: نهر في إنجلترا. (المترجم)

كاتبًا ذا أهمية عالميــة، واحدًا من المنـارات المجيدة، التي تنير الطريق للبشـرية كلهـا. ومـن ثم فقد قررت أن أنشـر في أوروبا سـيرة أبي، التي كنـت عازمة على نشـرها في روسـيا، وخاصة أن كل ممتلكاتي أصبحت في حوزة البلاشفة، والآن فـإن عليَّ أن أعمل لأكسـب قوت يومي. إن التفاصيل غير المنشـورة من قبل من حياة أبي، التي أُوردها في كتابي، يمكن أن تعطي لعشاق دستويفسكي مادة لكتابة دراسات تحليلية جديدة عن إبداعه، والتي يمكن أن تجعل هذا الإبداع أكثر فهمًا للقـراء الأوروبيين والأمريكيين. ربما يكون ذلك هو الوسـيلة الأفضل للاحتفال بمئوية هذا الكاتب العظيم.

أود أن أعبر عن عميق امتناني للسـيد أندريه سواريس الذي تفضل انطلاقًا من احترامه لأبي بتصحيح لغتي الفرنسية غير المصقولة.

إيميه دستويفسكايا



الفصل الأول

أصل عائلة دستويفسكي

أشعر بالدهشة دائمًا كلما قرأت سيرة أبي – لماذا ينظر إليه كُتَّاب السيرة كلهم باعتباره روسيًا على وجه الخصوص، بل وأحيانًا باعتباره أكثر الروس روسيةً. على الرغم من أن دستويفسكي روسي فقط من جهة أمه الموسكوفية، بينما عائلة أبيه من أصول ليتوانية. من بين كل أراضي الإمبراطورية الروسية تعد ليتوانيا، دون أدنى شك، الأكثر جذبًا للاهتمام نظرًا لأنها عانت على مر العصور من التحولات ومن العديد من المؤثرات. ينحدر الليتوانيون من مزيج من العرقين السلافي والفنلندي التركي، مثلهم في ذلك مثل الروس. ومع ذلك فإن هناك اختلافًا جوهريًا بين هذين الشعبين. لقد قضت روسيا زمنًا طويلاً تحت النير التتري، وتحررت بالقوة بعد أن أصبحت بلدًا ذا أوجه متعددة. أما ليتوانيا فقد تعرضت هي أيضًا بنفس القدر لتأثير النورمانديين، الذين كان نهر نيمان والدنيبر يمثلان الطريقين المائيين في تجارتهم مع اليونان. ولمَّا كانت التجارة تدر عليهم أرباحًا كبيرة، فقد أنشأ النورمانديون في ليتوانيا قواعد لهم لإعادة الشحن، وهي عبارة عن مخازن ضخمة للبضائع يقوم على حراستها رجال أشداء. وقد تحولت هذه المخازن تدريجيًا إلى قلاع، ثم تحولت القلاع إلى مدن، وما تزال بعض من هذه المدن قائمة حتى اليوم. على سبيل المثال – بولوتسك، التي كان يحكمها الأمير

النورماندي روجفولد. وقد انقسمت هذه البلاد بأكملها بعد ذلك لتصبح إمارات صغيرة؛ السكان من الليتوانيين والحكام من النورمانديين. كان النظام القائم في هذه الإمارات نظامًا نموذجيًا غير مرتبط بالشعوب السلافية المجاورة[1]. كان النورمانديون غير منعزلين عن الليتوانيين، بل كان الأمراء ومواطنوهم يتزوجون عن طيب خاطر من السكان الأصليين، وبمرور الوقت أدى ذلك إلى الاندماج التام. أعطى الدم النورماندي القوة لليتوانيين، الأمر الذي لم يكن ظاهرًا على هذا الشعب من قبل، ما جعلهم يستطيعون أن يهزموا التتر والروس والبولنديين وفرسان قبيلة التفتون، جيرانهم الشماليين. في القرن الخامس عشر أصبحت ليتوانيا إمارة عظمى تضم أوكرانيا كلها وجزءًا كبيرًا من روسيا، وقد لعبت دورًا

(1) أما وقد رأى السلافيون في منطقة بريدنيبروفيا (الواقعة على ضفاف وسط نهر الدنيبر)، وهم أسلاف الأوكرانيين والروس، الوضع الباعث على الحسد لليتوانيين، الذين يعيشون تحت حكم النورمانديين، فقد أرادوا أن يكون لهم أمراء نورمانديون، فأرسلوا إلى ليتوانيا وفدًا اقترح على الأمير ريوريك أن يُتوج أميرًا عظيمًا على كييف. كان ريوريك، الأسبق، كما يبدو، هو الابن الأصغر، أو أخًا لأحد أمراء النورمانديين، وكان يحكم جزءا ما من ليتوانيا. وقد وافق ريوريك على هذا الاقتراح ليجيء إلى كيف بصحبة حاشيته النورماندية. وقد ظل أحفاد ريوريك يحكمون روسيا حتى القرن التاسع عشر؛ وكانوا يُعرفون بالأمراء العظام، ثم عُرفوا بعد ذلك بالقياصرة. وبعد أن توفي آخر أحفاد ريوريك في موسكو حلت في روسيا فترة الانشقاق والفوضى، التي استمرت إلى أن نجح النبلاء في اختيار ميخائيل رومانوف قيصرًا للبلاد، وهو ينحدر من سلالة ليتوانية، أي أنه كان هجينًا قويًا من السلاف والنورمانديين. ظل آل رومانوف، بدورهم، قياصرة لعدة قرون، وكانوا يتمتعون بحب وتقدير الشعب الروسي. هذه الحقيقة المثيرة للاهتمام، وهي قيام الشعب الروسي باختيار رأس دولته مرتين من النورمانديين أو من السلاف النورمانديين، تعود إلى الطبع غير المنظم لأبناء وطني، المجادلين الأبديين، الثرثارين، المؤهلين للحديث أيامًا بطولها دون أن يقولوا قولاً سديدًا. فالروس لا يستطيعون إطلاقًا أن يتفقوا على شيء. أما النورمانديون، الذين يفضلون الفعل على الكلام، فقد قادتهم نزعتهم العملية الواعية إلى الاتفاق ودعم النظام في البلاد.

هامًا بين الدول السلافية، وكان لديها بلاط رائع متحضر، وجذبت إليها كثيرًا من الأجانب كانوا يعملون في خدمة العلم والفن. أما النبلاء الروس، الذين كانوا يحاربون استبداد قياصرتهم، فقد فروا إلى ليتوانيا، حيث استُقبلوا استقبالاً وديًا، على سبيل المثال - الأمير الشهير كوربسكي، العدو اللدود للقيصر إيڤان الرهيب[1].

حكم النورمانديون ليتوانيا في مطلع العصر المسيحي، وربما قبل ذلك، وقد وصلوا لسدة الحكم في عام 1392، عندما تولى الحكم ڤيتولد، حفيد الأمراء النورمانديين، كما يدل اسمه على ذلك. من البدهي أنه على مدى أربعة عشر قرنًا كان من المفترض أن تصطبغ ليتوانيا بالصبغة النورماندية بقوة. ودون أن نضع في اعتبارنا زيجات الأمراء والمقربين منهم، والعديد من التجار والمحاربين، الذين جاءوا إلى ليتوانيا من الشمال، تزوجوا برضًا تام من الشابات الليتوانيات، اللائي بفضل الدم السلافي، كن أجمل عادة من نساء القبائل الفنلندية التركية. وقد ورث الأطفال من هذه الزيجات المختلطة جمال أمهاتهم والروح النورماندية لأسلافهم

(1) معاصرونا من المؤرخين، الدارسين لتاريخ ليتوانيا وأوكرانيا، لا يتحدثون إطلاقًا تقريبًا عن النورمانديين، وفي المقابل فإنهم أحيانًا ما يأتون على ذكر قبائل «الورنك» الاسكندنافية القديمة، ويؤكدون أنها لعبت دورًا هامًا في تطور ليتوانيا بل وحتى أوكرانيا. والحقيقة أن هؤلاء الورنك ليسوا في الحقيقة سوى النورمانديين. فكلمة «ورنك» هي «ڤراتس» بالسلافية القديمة، ولمّا كان النورمانديون دائمي الهجوم على السلافيين، فقد أسموهم «ڤراجي» («الأعداء» بالروسية). السلافيون ليس لديهم الإحساس بالفضول ولا الاهتمام بقومية جيرانهم، مفضلين أن يطلقوا عليهم صفات عدوانية. هكذا رأينا أن الروس عندما عقدوا علاقات تجارية مع الألمان أسموهم «العجم»، لأن هؤلاء لم يكونوا يفهمون اللغة الروسية، ولم يكن باستطاعتهم الإجابة على أسئلة أبناء وطني. وقد ظل الشعب حتى هذه اللحظة يستخدم كلمة «عجم». المتعلمون فقط يعرفون أن الاسم الصحيح هو «ألمان».

من جهة آبائهم. في الواقع فإننا إذا ما درسنا الطبع الليتواني فسنجده يتشابه مع طبع النورمانديين. والذين يرغبون في التعرف أكثر على هذا البلد المجهول بالنسبة للكثير منهم فإنني أوصيهم بقراءة كتاب ف.س. ڤيدوناس: «ليتوانيا في الماضي والمستقبل». وسوف أقتبس لاحقًا مرارًا من هذا المؤلف، لكني أعتقد أن عمله الرائع يستحق القراءة كاملاً. من المثير للانتباه في كتاب ڤيدوناس أنه، وهو يصف الطبع الليتواني باعتباره طبعًا نورمانديا تمامًا، يتجاهل على نحو كامل قرابة الدم لمواطنيهم مع النورمانديين، مؤكدًا على نحو ساذج أنهم ينتمون فقط إلى العرق الفنلندي التركي، الذين جاءوا منذ زمن بعيد من آسيا. هذا العالِم يضع أغلبية الليتوانيين في صف الذين لم يعترفوا مطلقا بالنورمانديين باعتبارهم أسلافهم، انطلاقًا من كبرياء قومية ما غريبة[1]. فبدلاً من أن يفخروا بانتمائهم إليهم، كما يفخر الرومانيون[2] بانتمائهم إلى المحاربين الرومان القدماء، كانوا يحاولون دائما ادِّعاء أن أمراءهم النورمانديين هم ليتوانيون أصلاء. غير أن الروس في هذا الصدد لم تنطلِ عليهم هذه المقولة إطلاقًا. كانوا يعرفون أن الليتوانيين قوم ضعاف للغاية وأنهم من دون النورمانديين لم يكونوا ليستطيعوا أن يحاربوا بنجاح. ولهذا فإن أبناء وطني يطلقون على هؤلاء الليتوانيين أسماء «الجيديمينيون والأولجيرداسيون والڤيتولديون»، نسبة إلى أسماء أجدادهم النورمانديين الحقيقية – جيديمين وأولجيريد وڤيتولد. وعلى نفس النحو تصرف البولنديون والألمان؛ الأمراء النورمانديون يُصوَّرون في التاريخ العالمي بأسمائهم

(1) رفض الليتوانيون أيضًا، بسبب كراهيتهم للروس والبولنديين، الاعتراف بوجود أي قدر من الدماء السلافية في عروقهم. على أنه يمكن أن تنظر إليهم لترى على الفور أنهم أقرب كثيرًا إلى السلافيين منهم إلى الفنلنديين الأتراك.

(2) أبناء رومانيا. (المترجم)

الحقيقية. كان الأشـهر من بين هؤلاء الأمراء هو جيديمين، كان مظهره نورمانديًا نموذجيًا، لا تبدو عليه أي سمات لوجود دم فنلندي تركي في عروقه. تذكرني كل صُوره دائما بصور شكسبير، بين هذين النورمانديين هناك شـيء ما من التشـابه العائلـي. يُظهر جيديمان صفات التجرد والتسـامح الديني المميزة للنورمانديين، كان يفـرض حمايتـه على الكاثوليـك والأرثوذوكس في نفس الوقـت، بينما كان يفضل هو نفسه أن يظل وثنيًا.

اسـتطاعت روسـيا وأوكرانيـا بمـرور الوقت، وقد اكتسـبتا القـوة، أن تنفصلا عن ليتوانيا وأن تسـتعيدا اسـتقلالهما القديم. وقد أصاب الأخيرة الضعف نتيجة فقدانها المقاطعات الشـرقية والجنوبية ولم يعد باستطاعتها الصمود أمام أعدائها اللدوديـن، أبناء قبيلـة التيفتون، هؤلاء غـزوا ليتوانيا، بعد أن جـاءوا إليها بالنظام الإقطاعـي والأيديولوجـي. وقـد ظل هـذا النظام قائمًا فـي ليتوانيا لفتـرة طويلة، حتـى بعد أن ذابـت في بلاد أوروبية أخـرى. الألمان أدخلوا ليتوانيـا إلى العقيدة البروتسـتانتية بالقـوة، بيد أن الليتوانيين، مثل كل السـلافيين كانـوا صوفيين، فلم يسـتهوهم المذهب اللوثري[1]. وعندما اسـتردت بولندا بدورها عافيتها، أطلقت سـراح الليتوانيين مـن أيدي الفرسـان التفتونييـن، وعندها أسـرع الليتوانيون في العـودة إلى عقيدة أجدادهـم، فمنهم من عاد إلى الكاثوليكيـة ومنهم من عاد إلى الأرثوذوكسـية[2]. وقد دأب الإكليروس البولنـدي الكاثوليكي (وخاصة الإخوة

---

(1) في الوقت نفسـه اعتنق الفنلنديون والإسـتونيون واللتوانيون من ذوي الدماء الفنلندية التركية الخالصة- اعتنقوا البروتستانتية بحماس شديد وأخلصوا لها. يؤكد عدم اعتناق الليتوانييـن للبروتسـتانتية أكثـر مـن أي شـيء آخـر، وجود دماء سـلافية فـي عروقهم. السلافيون بطبيعتهم كانوا على اسـتعداد لاعتناق الأرثوذوكسية أو الكاثوليكية، لكنهم لم يستطيعوا مطلقًا أن يقبلوا مذهب لوثر.

(2) على أن قبائل التفتون اسـتولت على جزء من ليتوانيا تسـكنه قبائل البوروس الليتوانية. وقد أضفت هذه القبائل الصبغة الألمانية على هذا الإقليم وأطلقوا عليه اسم «بروسيا»=

اليسوعيين) على محاربة الكنائس الأرثوذوكسية بضراوة، لكن هؤلاء وجدوا الحماية لدى العديد من العائلات الليتوانية، التي اعتنقت الأرثوذوكسية. من بين هذه العائلات عائلات ذات نفوذ، مثل عائلة الأمير قنسطنطين أوستروچكي، المدافع البارز عن الأرثوذوكسية. وقد اضطر البولنديون، بعد أن واجهوا هذه المقاومة، إلى تحمل وجود الكنائس الأرثوذوكسية، ولكن بعد أن وضعوها تحت مراقبة العائلات الكاثوليكية النبيلة بهدف إخماد أي نشاط دعائي لها. وقد أسس الچزويت مدارس كاثوليكية ممتازة وأرغموا النبلاء الليتوانيين على إرسال أولادهم إليها، وسرعان ما أصبح شباب النبلاء من أصحاب الثقافة اللاتينية. وحتى تضم بولندا ليتوانيا إليها بشكل نهائيّ أقامت فيها الكثير من المؤسسات البولندية، بما في ذلك «الشلياختا»، وهو اتحاد يجمع الإقطاعيين النبلاء، كان أعضاؤه عادة ما يتحدون تحت رايات الإقطاعيين الكبار، المؤيدين لهم في الحرب والسلام، وهم بمثابة الرعاة لهم. وقد سمح هؤلاء الإقطاعيون لهؤلاء أن يحملوا شعارهم. فيما بعد أنشأت روسيا الكثير من المؤسسات، استعارت نظامها من ليتوانيا ومن بينها «اتحاد النبلاء» على غرار «الشلياختا». كان هذا الاتحاد بمثابة جمعية ذات طابع زراعي أكثر منه عسكري، لكنه كان في الوقت نفسه مثل نظيره الليتواني ذا طابع قومي.

كان أسلاف والدي ينحدرون من محافظة مينسك[1]، حيث تقع غير بعيد من إمارة بينسك حتى الآن قرية دستويفو - التي كانت تملكها سابقًا عائلة والدي. هناك في غابر الزمان كانت تقع أكبر منطقة برية في ليتوانيا، تغطيها كلها تقريبا

= البروسيون ليسوا ألمانًا، وإنما ليتوانيون من أصول نورماندية، ثم ليتوانيون اختلطوا بالدماء الألمانية. وتعود قوة طباعهم والدور الهام الذي لعبه البروسيون في ألمانيا إلى كونهم من سلالة النورمانديين؛ وغالبية طلاب الكليات العسكرية هم أحفاد مباشرون للقواد النورمانديين الغابرين.

(1) مينسك: حاليًا عاصمة جمهورية بيلاروس (روسيا البيضاء). (المترجم)

غابات بكر لم تطأها قدم؛ يمتد فيها بلا نهاية مستنقع بينسك. كان آل دستويفسكي من الإقطاعيين النبلاء من «الشلياختا» وكانوا يرفعون شعار «رادڤان»، وهو ما يعني أنهم كانوا نبلاء، قاتلوا تحت راية أميرهم رادڤان وكان لهم الحق في حمل شعاره. وقد تم، بطلب من أمي، صنع شعار رادڤان لوضعه في متحف دستويفسكي في موسكو. وقد شاهدت هذا الشعار، لكني لا أستطيع أن أصفه قبل أن أصبح ضليعة في علم وصف الشعارات والدروع Heraldry.

كان آل دستويفسكي، على ما يبدو، من الكاثوليك المتسامحين للغاية. بالبحث في جذور عائلتنا اكتشفنا وثيقة يشار فيها إلى أن إحدى الكنائس الأرثوذكسية، التي كانت تحت مراقبة آل دستويفسكي اشتكت من معاملتها السيئة للقساوسة. يمكن أن نصل بناء على هذه الوثيقة إلى استنتاجين:

1- أن آل دستويفسكي لا بد وأنهم كانوا يشغلون مكانة رفيعة للغاية، وإلا لما سُمح لهم أن يقوموا بمراقبة كنيسة أرثوذوكسية.

2- أن آل دستويفسكي باعتبارهم من الكاثوليك المتحمسين، لا بد وأنهم كانوا مضطرين لإرسال أبنائهم إلى المدارس الكاثوليكية في ليتوانيا، وأن أسلاف أبي، بالتالي، لا بد أنهم استوعبوا تلك الثقافة الرفيعة، التي كان الإكليروس الكاثوليك يقدمها لتلاميذه.

عندما جرى ضم ليتوانيا إلى روسيا في القرن الثامن عشر، لم يكن الروس يعرفون آل دستويفسكي، فقد كانوا انتقلوا قبل ذلك إلى أوكرانيا. لا علم لي بما كانوا يعملونه هناك وفي أي مدن عاشوا. ماذا كان يعمل جدي الأكبر أندريه؟ ليس لديّ أي تصور وذلك لسبب غريب للغاية.

الأمر يتلخص في أن جدي ميخائيل أندرييفيتش كان رجلاً غير عادي بالمرة. فعندما كان يبلغ من العمر خمسة عشر عامًا تشاجر مع أبيه شجارًا حتى الموت

ليفر بعده من البيت. غادر أوكرانيا ليذهب إلى موسكو لدراسة الطب. هناك لم يكن يتحدث مطلقًا عن عائلته، ولم يكن يجيب على أي أسئلة حول أصل هذه العائلة. فيما بعد، عندما بلغ الخمسين من عمره، كان على جدي أن يخامره إحساس ما، بمثابة تأنيب ضمير لأنه ترك بيت العائلة. نشر إعلانًا في الصحف يطلب فيه من أبيه وإخوته أن يعلنوا عن أنفسهم، لكن أحدًا لم يستجب لإعلانه. من المحتمل تمامًا أن يكون أهله في تلك الآونة قد رحلوا عن الحياة؛ كما أن أفراد عائلة دستويفسكي لم يكونوا يتميزون بالعمر الطويل.

زد على ذلك أن من المحتمل أن جدي ميخائيل كان لديه شيء ما يود أن يقصه لأطفاله عن نشأته، فقد استمعت أكثر من مرة من أبي وأعمامي يقولون: «نحن، آل دستويفسكي، ليتوانيون، ولكننا لسنا بولنديين. ليتوانيا ليست إطلاقًا بولندا».

ذات يوم قال أبي شيئًا ما لأمي عن أسقف ما يُدعى ستيفان كان، على حد قوله، هو المؤسس لعائلتنا الأرثوذكسية. للأسف الشديد فإن أمي لم تولِ كلمات زوجها هذه اهتمامًا خاصًا ولم تسأله عن شروح مفصلة. أستطيع أن أفترض أن واحدًا من أسلافي الليتوانيين، الذين انتقلوا إلى أوكرانيا، قد تحول إلى الأرثوذكسية، حتى يتمكن من الزواج من فتاة أوكرانية أرثوذكسية، ثم أصبح قسًا بعد ذلك، وبعد أن ترمَّل دخل إلى الدير ليصبح بعد ذلك أسقفًا[1]. على هذا النحو فإن الأسقف ستيفان، وإن كان قسًا، فقد استطاع أن يكون مؤسسًا لعائلتنا الأرثوذكسية. يبدو أن أبي كانت لديه معلومات تفصيلية عن هذا الأسقف، فقد

(1) في الكنيسة الروسية الأرثوذكسية الإكليروس الأسود هم الرهبان المتفرغون للدير هم وحدهم. الذين بإمكانهم أن يصبحوا أساقفة. الإكليروس الأبيض - هم القساوسة المتزوجون لا يتولون مناصب كنسية رفيعة، بعد أن يترمل الواحد منهم يلحقون بسلك الرهبنة، وعندئذ يصبح بإمكانهم الترقي.

أراد أن يطلق اسم ستيفان على ابنه الثاني تخليدًا له. كان دستويفسكي يبلغ من العمر آنذاك خمسين عامًا. من الطريف أن جدي كان في الخمسين عندما نشر إعلانه سابق الذكر في الصحف، بينما استعاد أبي فجأة ذكرى الأسقف ستيفان، الذي لم يرد على خاطره حتى هذه السن. هذا وذاك انجذبا في عمر الخمسين على نحو ما لإحياء علاقتهما مع أسلافهما.

لعل من المثير للدهشة أن آل دستويفسكي، كانوا محاربين سابقين في ليتوانيا، ثم أصبحوا قساوسة في أوكرانيا، على أن هذا الأمر يتفق تمامًا وطباع الليتوانيين. إليكم ما كتبه العالم الليتواني ڤ.س.ڤيدوناس: «في غابر الزمان، لم يكن باستطاعة الكثير من الوجهاء الليتوانيين أن يتصوروا مستقبلا أفضل لأبنائهم من الالتحاق بالكنيسة، ومن ثم لم يكونوا يبخلون بأي أموال حتى يوفروا لأبنائهم التعليم الضروري من أجل ذلك. فضلاً عن هذا فإن الهدف لم يكن مطلقًا مجرد تلقي التعليم وحسب، بل إن أولياء الأمور لم يكن يخطر ببالهم اختيار طريق آخر لهم. وحتى في هذا الزمن الموغل في القدم فقد كان الكثير من الشباب الليتوانيين يعانون من إصرار آبائهم الذي لا يلين في هذا الشأن، فإذا ما رفض الأبناء أن يكرسوا أنفسهم للكنيسة، كان هؤلاء يوقفون عنهم الدعم المالي للحصول على تعليم عالٍ. هذا الأمر حطَّم مصائر عدد لا يستهان به من الشباب، الذين كانت لديهم آمال كبيرة»[1].

ربما تعطينا كلمات ڤيدوماس مفتاحًا للغز الشجار الذي نشب بين جدي ميخائيل ووالديه، والذي قطع كل صلة بين أسرتنا الموسكوڤية وأسرة جدي الأكبر الأوكراني أندريه. لعل الأخير حدد لابنه مقدمًا سلك الرهبنة، بينما كان ميخائيل يشعر أن مهنة الطب تناديه. ولمّا كان أبوه راغبًا عن دفع نفقات تعليمه

(1) ليتوانيا في الماضي والحاضر: ڤينيف. دار نشر أطار.

فقد فرَّ ميخائيل من البيت. لا يمكن إلا أن نُعجب بهذه الطاقة النورماندية الخالصة لدى هذا الطفل ذي الخمسة عشر ربيعًا، والذي سافر إلى مدينة لا يعرفها دون أي مساعدة ثم ليتحايل بعد ذلك للحصول على تعليم عالٍ، وليضمن لنفسه وضعًا راسخًا في موسكو، وأن يُعيل سبعة أطفال وأن يدفع صداق ثلاث من بناته وأن يوفر تعليمًا جيدًا لأربعة من أبنائه. لجدي كل الحق في أن يفخر بنفسه وأن يصبح قدوة لأطفاله.

بالمناسبة، ليس هناك ما يدهش إزاء رغبة أندريه دستويفسكي في أن يرى ابنه قسًّا، إذ إن الإكليروس في أوكرانيا كان محط احترام دائم. كانت الأبرشيات هناك تمتلك الحق في أن تختار القساوسة بنفسها، وكان الاختيار يقع، بطبيعة الحال، على الأكثر جدارة. أما فيما يخص الإكليروس الأعلى فقد كان غالبه تقريبًا من النبلاء الأوكرانيين، خلافا لروسيا، حيث يتشكل الإكليروس من فئة خاصة تماما. من المؤكد أن ستيفان دستويفسكي سليل عائلة معروفة تمامًا وأنه تلقى تعليمًا جيدا، ما دام قد استطاع أن يصبح أسقفا أو رئيسا للأساقفة (رئيس الأساقفة هو الأعلى مقامًا في الترتيب الأرثوذوكسي: إذ لا يوجد لدينا كرادلة. في الزمن الغابر كان اختيار البطريرك يتم من بين رؤساء الأساقفة، وبعد إلغاء البطريركية كان رؤساء الأساقفة هم الذين يديرون شئون الكنيسة بالتناوب في السينود المقدس.

وهناك دليل آخر على أن آل دستويفسكي الأوكرانيين كانوا ينتمون إلى الدوائر المثقفة، فقد قصَّ عليَّ بعض من معارفي، الذين عاشوا في أوكرانيا، أنهم اطَّلعوا ذات يوم على كتاب قديم، أشبه ما يكون بالتقويم الأدبي أو المختارات الشعرية، صدر في أوكرانيا في مطلع القرن التاسع عشر يضم قصيدة رعوية صغيرة مكتوبة باللغة الروسية، وهي قصيدة لا تفتقر إطلاقا إلى المهارة الأدبية، لكنها غُفْل من التوقيع، على أننا إذا أخذنا الحرف الأول من كل شطر لتكون أمامنا اسم «أندريه

دستويفسكي». هل كان هذا هو جدي الأكبر أم واحدًا من أقاربه. لا أعرف، لكن هـذه القصيدة تسـمح لنـا أن نخرج باسـتنتاجين يمثلان مدى اهتمام كتاب سـيرة دستويفسكي:

أولا: أن أسـلافه الأوكرانييـن كانوا ينتمون إلى الأوسـاط المثقفة، إذ إن عامة الشـعب والبورجوازيـة الصغيـرة فـي أوكرانيـا كانت تسـتخدم اللغـة الأوكرانية الدارجـة، وهـي لغة جميلة شـاعرية، لكنها سـاذجة، بل إنها كانـت تثير الضحك أحيانًـا، أمـا الطبقات الراقية فكانت تتحدث دائمًا بالبولندية أو الروسـية، وعندما انفصلـت هـذه البلاد عـن روسيا وأعلنت اسـتقلالها قـام قائد الجيـش الجديد المدعـو سكوروبادسـكي بتعليق لافتات فـي كل الأماكن تدعـو المواطنين بلغة فصيحة تقول: «أيها الأوكرانيون! تعلموا لغتكم الوطنية!». الأرجح أن هذا القائد نفسه لم يكن يجيد هذه اللغة.

ثانيا: أن كوْن أسلاف أبي كانت لديهم نزعة إلى الشعر، وأنها لم تنتقل إليه إلا عن طريق أمه الموسكوفية، هو أمر من بنات أفكار رفاقه من الأدباء.

تـرك تاريـخ ليتوانيـا، وهـو تاريـخ مدهـش ومتقلـب، أثـرًا قويًّا على تشـكل شـخصية دستويفسـكي. من الممكن أن نكتشـف آثار كافة التغيرات التي عاشتها ليتوانيـا على مـدى القرن الماضي. إن شـخصية أبي نورماندية بحق، فهو إنسـان أمين، مستقيم، حر وشجاع. وعندما يواجه المخاطر يواجهها وجهًا لوجه دون أن يتراجع أو يستسـلم أمام أي تهديد، يسـير نحو هدفه المنشـود دون كلل، متجاوزًا كافة العقبات التي تعترض طريقه. لقد ورث عن أسلافه النورمانديين قوة أخلاقية هائلة يندر أن تجد لها مثيلا لدى الروس- هذا الشعب الذي ما يزال فتيًّا، ومن ثم ما يزال مفتقرا إلى الاستقرار. شعوب أوروبية أخرى تركت أثرها أيضًا في تشكيل عبقرية دستويفسكي لقد انتقلت إليه من أسلافه، أمراء قبائل التفتون، فكرة الدولة والعائلـة. يمكننـا أن نرصـد بوضـوح العديد مـن الأمثلـة على مفاهيـم العصور

الوسطى في إبداع دستويفسكي، وبالأخص في حياته الشخصية. من جانبها، فقد زرعت الكنيسة الكاثوليكية في ليتوانيا، من خلال كبار موظفيها، الذين كان يتم تعيينهم من قبل روما، زرعت في أسلاف أبي الشعور بالواجب وعلمتهم النظام والالتزام، وهي خصائص كانت ما تزال غريبة على روسيا الفتية، التي كانت تميل بعض الشيء إلى الأنارخية (الفوضوية). وفضلاً عن ذلك فقد كفلت مدارس الجزويت الكاثوليكية لهم تعليمًا حسنًا. لقد أتقن دستويفسكي اللغة الفرنسية بسرعة كبيرة وكان يفضلها على اللغة الألمانية برغم إتقانه لها أيضًا، حتى أنه اقترح على أخيه ميخائيل أن يترجما معا جوته وشيللر. كانت لدى أبي موهبة واضحة في تعلم اللغات النادرة بالنسبة للروس. وكان هناك رأي شائع لدى الأوروبيين يقول «إن الروس يتحدثون كل اللغات». على أن هؤلاء الأوروبيين لم يلحظوا أن أبناء وطني، الذين يتحدثون ويكتبون بالفرنسية والألمانية، كانوا ينحدرون جميعهم من عائلات بولندية وليتوانية وأوكرانية، وأن أسلافهم تلقوا في غابر الزمان تربية كاثوليكية. بضعة أجيال من الروس الأرستقراط فقط هم الذين كانوا يجيدون اللغات الأوروبية، وهؤلاء كان أجدادهم قد تعلموا على الطريقة الأوروبية. كان أصحاب الوظائف المختلفة يعرفون اللغات الأجنبية بصعوبة بالغة، ورغم دراستهم لها سبع سنوات في المدرسة، فقد كانوا يفهمونها على نحو رديء، وحتى بعد انتهائهم من الدراسة لم يكونوا قادرين على بناء عبارة سليمة أو فهم حتى أكثر الكتب سهولة. كان نطقهم بشعا. وكانت اللغة الروسية، التي تختلف اختلافا كبيرا عن اللغات الأوروبية تعوقهم، أكثر مما تساعدهم على فهم اللغات الأخرى.

كان لانتقال أسلافي إلى أوكرانيا أثر كبير في التخفيف من خشونتهم التي تُميز أهل الشمال، كما أنه أيقظ في نفوسهم روح الشعر. كانت أوكرانيا، من بين كل البلاد السلافية التي دخلت في كيان الإمبراطورية الروسية، أكثرها ميلاً دون شك

إلى المزاج الشعري، فما إن يستقر المرء في كييف قادمًا من بتروجراد، يشعر على الفور أنه في الجنوب: الأمسيات الدافئة، الزحام، الناس يتنزهون، يغنون، يأكلون ويشربون في الهواء الطلق، جالسين إلى الموائد المصفوفة على الأرصفة. هواء الجنوب عاطر، تنظر فترى القمر سكب ضوءه الفضي على أوراق شجر الحور، يتسع القلب في الصدر فتأخذك الرغبة في نظم الشعر، كل شيء ينضح شعرًا في هذه الأنحاء الرائعة وهو يسبح في ضوء الشمس، الأنهار الزرقاء تنساب في هدوء، وسط البساتين المزهرة تنعس البِرك، وتحت ظلال غابات أشجار البلوط الرائعة يحلو لنا أن نحلم! كل شيء في أوكرانيا شاعري: الملابس الوطنية للفلاحين، أغنياتهم، رقصاتهم، وعلى وجه الخصوص مسرحهم. أوكرانيا هي البلد الوحيد، الذي به مسرح أنشأه الشعب بنفسه، ولم تؤسسه الانتليجنسيا[1] من أجل تنوير الناس. المسرح الأوكراني مسرح موغل في شعبيته، إلى حد أن أحدًا لم يستطع أن يجعل منه مسرحًا لأبناء المدن. كانت أوكرانيا في الزمن البعيد وثيقة الصلة بالمستعمرات اليونانية الواقعة على شاطئ البحر الأسود. شيء من الدماء اليونانية يجري في عروق الأوكرانيين يتجلى في سمرتهم الجميلة ورشاقة حركتهم. ربما كان المسرح الأوكراني أيضًا صدًى للفصول المسرحية، التي كانت شعوب اليونان القديمة تعشقها.

بعد غابات ليتوانيا المظلمة ومستنقعاتها الرطبة، يمكن أن نفترض أن الشمس قد بهرت عيونهم، الزهور والشعر اليوناني في أوكرانيا جعلهم يشعرون كيف يمتلئ القلب دفئًا تحت شمس الجنوب، ومن ثم راحوا ينظمون الشعر. كان جدي ميخائيل، قد غادر بيت والده، حاملاً على ظهره حقيبة، وهو التلميذ الشديد الفقر، وبها شيء من الشعر الأوكراني، محتفظا بحرص شديد بذكرياته العزيزة

(1) الانتليجنسيا Intelligentsia: أهل الفكر (المشكلون نخبة أو طليعة فنية أو اجتماعية أو سياسية). (المترجم)

عـن وطنه البعيد، وقد نقل فيما بعد هذا الشـعر إلى ولديه ميخائيل وفيودور. كان الولـدان ينظمان الشـعر والمراثي والقصائـد الطويلة. لقد ألَّف أبـي وهو ما يزال غضًّا روايات استلهمها من الحياة في ڤينيسيا ومن المآسي التاريخية. كان يحاكي فـي رواياتـه الأولى جوجـول، الكاتـب الأوكراني العظيـم، الـذي كان معجبًا به مـن أعماق قلبه. كم من السـذاجة والسـتمنتالية[1] والرومانسـية امتلأت بها هذه الأشـعار. فقط وبعـد عودته من المعتقل، وبعد أن شـعر أنه روسـي، بدأت تظهر فـي روايات دستويفسـكي النظرة الشـاملة والأفـكار العميقة، التي تُميز الشـعب الروسـي، شعب ينتظره مسـتقبل كبير، يحمل في أعماقه شرارة العبقرية. على أنه يمكن القول أن واقعية دستويفسـكي الهائلة ربما كانت اسـتثناءً. فالروس ليسـوا واقعييـن، إنهـم صوفيون وحالمون. إنهم يحبون الاسـتغراق فـي أحلامهم، بدلاً من دراسة الحياة، وعندما يريدون أن يكونوا واقعيين، إذا بهم يقعون في المجون والإيروتيكا الفظَّة على الطريقة المغولية. إن واقعية دستويفسكي هي ثمرة أسلافه الذيـن اختلطوا بالعرق النورماندي. إن جميـع الكُتَّاب أصحاب الدم النورماندي يتميزون بواقعيتهـم العميقة. النورمانديون يتميزون أيضًا بقدرتهم على النظر إلى الحيـاة مباشـرة، ولا يخشـون وصفها كمـا هي. ليـس عبثًا أن دستويفسـكي كان معجبًا ببلزاك واتخذه مثالاً له.

عائلة دستويفسكي هم في واقع الأمر من الرُحَّل. ولهذا نراهم تارة في ليتوانيا وتارة أخرى في أوكرانيا. تارة يعيشـون في موسكو وتارة في بطرسبورج[2]. ليس

---

(1) الستمنتالية Sentimentalism : النزعة إلى التأثر بالعاطفة دون العقل. (المترجم)

(2) مُبدِّليـن محل معيشـتهم، كانوا يُبدِّلون في الوقت نفسـه مهنهم. ففـي ليتوانيا هم مُلَّاك أراضٍ وعسـكريون، وفي أوكرانيا- رجال دين، وفي روسيا- أطباء وكُتَّاب وصحفيون. هـذه التغيـرات يمكن أن نرجعها ببسـاطة إلى تأثيـر أماكن إقامتهم السـابقة. منذ البداية كان آل دستويفسـكي مُـلَّاك أراضٍ، مثلهم في ذلك مثـل كل القبائل الفنلندية- التركية، ثم عسـكريِّين كما كان السـلافيون دائما. وعندما حملوا الصبغة النورماندية أصبحوا=

في هذا ما يثير الدهشة؛ إذ إن ليتوانيا تتميز عن البلاد الأخرى بهذه الظاهرة المثيرة للفضول، مثل «المهاجرون- المثقفون». في كافة البلاد فإن الذين يقبلون على الهجرة هم، بصفة أساسية، من عامة الشعب. في روسيا يهاجر الفلاحون، الذين يتم انتزاع غالبيتهم من محل إقامتهم، إلى الأورال، حيث يضيعون في رجال آسيا. وفي أوروبا يكون المهاجرون هم الفلاحين وأصحاب المحال الصغيرة والحرفيين، الباحثين عن السعادة في أمريكا وأفريقيا وأستراليا. أما في ليتوانيا فقد ظل الشعب في الزمن الغابر في مكانه لا يبرحه، ولم يهاجر من البلاد سوى المثقفين. هاكم ما كتبه ڤيدوناس: «... اتخذ ڤيتولد إجراءً ساعد كثيرًا في إضعاف الأمة الليتوانية. فقد أرسل النبلاء الليتوانيين إلى أراض بعيدة ومعهم سكان من غير الليتوانيين. وهناك سرعان ما ذابوا فيها، وهكذا ضاع أغلبيتهم عن الشعب الليتواني». من البدهي أن يكتب ڤيدوناس إلى الأمير ڤيتولد يخبره أن هذا الفعل يفتقر إلى الحكمة. متى رأينا ملكًا يطرد النبلاء من بلاده ليُبقي لنفسه الفلاحين فقط! بالطبع لم يكن لڤيتولد شأن هنا بهذه الأمور، المسألة ببساطة أنه صار من المعتاد في زمنه أن يهاجر المثقفون الليتوانيون. وقد ظل النبلاء الليتوانيون في بلادهم، ما بقيت ليتوانيا إمارة عظيمة رائعة تجذب إليها العلماء والشعراء من أنحاء أوروبا. ولكن عندما بدأ المجد والجلال ينحسران عنها، فإن النبلاء الليتوانيّين[1] أصبح من الصعب عليهم العيش في الغابات الكثيفة والمستنقعات

= مؤمنين خُلَّصًا، وعندما أقاموا في أوكرانيا وجدوا طريقهم في خدمة الكنيسة. أما الدم اليوناني في أوكرانيا فقد أيقظ فيهم حب العلم والفنون، وعندما انتقلوا للإقامة في روسيا، اختاروا العمل بالمهن الحرة.

(1) بإمكان النقاد أن يوجهوا اللوم إليّ لكوني أستخدم كلمات لم تعد مترادفة بأي حال في الوقت الحالي مثل «نبلاء» و«مثقفون». لكنني أُذكِّرهم، على أية حال، أن كل «المثقفين» في الزمن الطيب القديم كانوا ينتمون تحديدًا إلى طبقة «النبلاء»، حيث إن بقية السكان أيًا كانوا لم يكن التعليم متاحًا أمامهم. أما الإكليروس، سواء الكاثوليكي=

التي يصعب اجتيازها، وراحوا يتمددون في البلاد المجاورة. التحقوا بالعمل في خدمة البولنديين والأوكرانيين وفتحوا أمامهم الأبواب إلى التمدين. وهكذا وجدنا أن العديد من البارزين من البولنديين والأوكرانيين من أصول ليتوانية[1]. وبعد انضمام ليتوانيا إلى روسيا فإن تيارًا جارفًا من العائلات الليتوانية تدفَّق باتجاه مدننا الكبرى. وفي مطلع القرن التاسع عشر جاء البولنديون بدورهم للعمل في روسيا لكن أبناء وطني لاحظوا بسرعة أن الـ«...سكي» البولنديين يختلفون عن الـ«...سكي» الليتوانيِّين[2]. مهما طال الزمن بالبولنديين في روسيا، ومهما حققوا من نجاحات فيها فقد ظلوا على مذهبهم الكاثوليكي، ولم يتوقفوا عن الحديث فيما بينهم بالبولندية، واستمروا ينظرون إلى الروس نظرتهم إلى همج. وعلى العكس من ذلك فإن الليتوانيين نسوا لغتهم الأم واتجهوا نحو الأرثوذوكسية ولم يلتفتوا مجددًا إلى بلادهم[3].

هذه السهولة لدى الصفوة المثقفة في النهوض والقدرة على الاندماج مع الشعوب الأصلية التي استقبلتهم، هي أكثر السمات المميزة التي ورثها

= أو الأرثوذوكسي، الذي كان يشرف آنذاك من الناحية العملية على كافة المؤسسات التعليمية في ليتوانيا، فكان يعمل به أبناء السادة فقط، الذين كانوا يضعون القوانين ويديرون شئون البلاد.

(1) يعتبر البعض أن الشاعر البولندي ميتسيكيفيتش كان ليتوانيًا، إذ تبدأ إحدى قصائده بالكلمات التالية: «ليتوانيا وطني».

(2) «...سكي» النهاية المعتادة للكنيات (أسماء الجدود) البولندية والليتوانية.

(3) ينبغي أن نذكر في البداية أن من بين العائلات الروسية العريقة ذات الأصول الليتوانية عائلة رومانوف، أسلاف البيت القيصري الحاكم، الذين ينتمون إلى قبيلة البورروس؛ وعائلة سالتيكوف. وتعود أصولها إلى عائلة «سالتيك» الليتوانية، والأمراء جوليتسين؛ أحفاد الأمير العظيم جيديمين. وفي بولندا نجد أن غالبية الطبقة الأرستقراطية من أصول ليتوانية، وكذلك عائلة ياجيلون الملكية.

الليتوانيون عن أسلافهم النورمانديين. ومن بين كافة الشعوب القديمة فقد كان لدى النورمانديين وحدهم من عرفوا بالأرستقراطيين المهاجرين، وهم من الأحفاد الشباب لأكثر العائلات عراقة، تجمعوا تحت راية أحد أمراء نورماندي واتجهوا بمراكبهم الخفيفة للبحث عن وطن جديد. من المتعارف عليه أن الأرستقراطية في شمال أوروبا قد بدأت بالنورمانديين. لا شيء هنا يثير الدهشة: فعندما ظهر النبلاء النورمانديون الشباب في بلاد كل سكانها من المتوحشين الجهلة، أصبحوا، بطبيعة الحال، زعماء لهذه القبائل. أما أحفادهم، الذين اعتادوا منذ سن مبكرة على القيادة، فقد أصبحوا هم الصفوة على مر القرون التالية. ومن الأمور المميزة أيضًا للنورمانديين أنهم لم يعيشوا بمعزل عن الشعوب التي أخضعوها، وإنما اتخذوا منهم زوجات عن طيب خاطر واقتبسوا من أفكارهم وعاداتهم واعتنقوا عقيدة لوطنهم الجديد. وبعد أن استقروا في نورماندیا نسوا لغتهم الأصلية خلال قرنين من الزمان وراحوا يتحدثون بالفرنسية. وعندما نزل فيلهلم الفاتح بقواته في إنجلترا، كان حاملاً للثقافة اللاتينية لا النورماندية. وبعد أن استولى النورمانديون من آل أوتفيللي على صقلية بسرعة كبيرة، استطاعوا أن يستوعبوا الثقافة البيزنطية والعربية لهذه البلاد بسرعة غير عادية. في ليتوانيا امتزج النورمانديون مع السكان الأصليين بشكل كامل، اقتسموا معهم قوتهم الأخلاقية بعد أن أورثوهم رسالة نقل التمدين إلى الشعوب المجاورة. في جوهر الأمر، فإن كافة المثقفين الليتوانيين المهاجرين لم يكونوا سوى صورة أخرى من هؤلاء النورمانديين. وهؤلاء واصلوا بغيرة ودأب بالغ عظيم ورجولة ودون كلل العمل العظيم لأسلافهم.

من البدهي أن ليتوانيا المسكينة التي وهبت النور للشعوب الأخرى، لم تستطع أن تصبح دولة عظمى، كانت هي نفسها تدرك ذلك وأبدت أسفها على مصيرها. يقول ڤيدوناس: «الليتوانيون كأمة يتميزون بعقل مستنير أما كونهم لم

يتركوا أثرًا على الحضارة الأوروبية فمرجعه في المقام الأول هو أن المثقفين الليتوانيين كانوا يقدمون خدماتهم دائمًا للأمم الأخرى، وبالتالي، لم يستطيعوا على نحو كامل أن يرفعوا من شأن أنفسهم». لا شك أن ڤيدوناس على حق في ذلك، وهو يعبر عن أسفه على هجرة الليتوانيين المثقفين، لكنه ليس على حق عندما يقول أن ليتوانيا لم تترك أثرًا على الحضارة الأوروبية. على العكس من ذلك فليس هناك بلد واحد استطاع أن يساعد الدول السلافية على المضي نحو التمدين مثل ليتوانيا الصغيرة.

لقد عملت الشعوب الأخرى من أجل نفسها فقط، من أجل ازدهارها الشخصي، بينما أعطت ليتوانيا ضوء أمتها لخدمة جيرانها: بولندا، أوكرانيا، روسيا، إلى أن أدركت أن هؤلاء ناكرون للجميل! ولكن سيأتي اليوم الذي يعون فيه كم هم مدينون لليتوانيا المتواضعة الصامتة.

كان آل دستويفسكي هم هؤلاء الرُّحَّل الحقيقيِّين، المتعطشين للأفكار الجديدة، للانطباعات الجديدة، الذين أسرعوا بنسيان كل ما تركوه وراء ظهورهم ولم يقُصُّوا على أطفالهم مآثر أجدادهم. ولكنهم على الرغم من تجاوزهم للماضي، فإنهم كانوا يشعرون على أية حال بالحاجة إلى ربط عائلتهم التي تشتتت في أنحاء الدنيا بخيط القداسة. هذه العروة الوثقى التي يمكن أن نتتبعها على مدى قرن تمثلت أيضًا في الاسم «أندريه». كان أمرًا مستقرًّا لدى آل دستويفسكي الكاثوليكيين في ليتوانيا أن يتوارثوا هذا الاسم فيطلقوه على واحد من الأبناء، عادة ما يكون الثاني أو الثالث، وقد حافظ آل دستويفسكي الأرثوذوكس على هذا التقليد حتى يومنا هذا. في كل جيل من عائلتنا دائما يوجد ولو أندريه واحد.



الفصل الثاني
طفولة فيودور دستويفسكي

ما إن أنهى جدي ميخائيل دراسته في أكاديمية موسكو الطبية، حتى التحق بالجيش طبيبا عسكريا، وبهذه الصفة شارك في الحرب التي اندلعت عام 1812 [1]. من الواضح أنه كان يعرف عمله على نحو جيد، إذ سرعان ما تم تعيينه كبيرًا للأطباء في المستشفى الحكومي الكبير في موسكو. وفي تلك الفترة تقريبا عقد قرانه على فتاة موسكوفية شابة تدعى ماريا نيتشايفا، كان لديها دوطة متواضعة، لكن الأساس الأهم الذي قام عليه هذا الزواج كان الحب والاحترام المتبادل. على أية حال فهذه الأسرة الفنية لم تعان شظف العيش، ويرجع ذلك إلى أن الخدمة في الحكومة آنذاك كانت تضمن حياة كريمة إلى حدٍّ ما. وعلى الرغم من أن الحكومة لم تكن تدفع راتبا كبيرا فإنها كانت توفر لموظفيها في المقابل كافة الاحتياجات الضرورية، حتى يتمكنوا من العيش في يسر ودون عناء. هكذا كان جدي ميخائيل يمتلك إلى جانب راتبه مسكنًا حكوميًا، بيتًا صغيرًا من طابق واحد على الطراز الشبيه بالكلاسيكي، وهو طراز كان شائعا في المباني الحكومية في

---

(1) الحرب الوطنية لتحرير روسيا من العدوان الذي شنه نابوليون عليها في عام 1812. (المترجم)

القرن التاسع عشر. كان البيت محاطا بحديقة ويقع قريبًا من المستشفى[1]. كان لدى جدي خادمة وفرها له المستشفى إلى جانب طاقم من المساعدين كان يرافقه في زياراته للمرضى في المدينة. وعلى الأغلب فإن عمله كان يدر ربحا مكّنه من أن يمتلك في زمن قصير ضيعتين في محافظة تولا على مسافة مائة وخمسين فرسخا[2] من موسكو. واحدة من هاتين الضيعتين كانت تسمى «داروڤويه»، أصبحت هي المقر الصيفي لآل دستويفسكي. وإلى هناك كانت الأسرة بأكملها تتوجه في الصيف، باستثناء جدي، الذي كانت مسئولياته، باعتباره كبيرا للأطباء، تلزمه بالبقاء في المدينة، على أنه كان يتمكن من الذهاب إلى هناك لبضعة أيام من شهر يوليو. كانت هذه الرحلات السنوية التي تتم باستخدام عربات الترويكا[3]، إذ لم تكن السكك الحديدية قد ظهرت بعد، تمثل عيدًا لأبي، الذي كان يحب الخيول حبا جارفا في طفولته.

بعد عدة سنوات من ميلاد أبنائه الكبار قدم جدي طلبا ليتم تسجيله هو وأبنائه في سجل العائلات النبيلة في داروڤويه الموسكوڤية[4]. كان أبي يبلغ من العمر آنذاك خمس سنوات. لعل من المثير للفضول أن جدي ميخائيل، الذي ظل طول عمره يتجنب قدر المستطاع «سادة موسكو»، قرر أن يضمن لأبنائه مكانا في صفوف طبقة النبلاء الروسية. ربما يكون قد رأى فيها شيئا ما من اتحاد النبلاء

---

(1) في هذا البيت وُلد فيودور دستويفسكي في عام 1821.

(2) الفرسخ: 1060 مترًا. (المترجم)

(3) الترويكا: عربة تجرها ثلاثة خيول. (المترجم)

(4) كان أحفاد النبلاء هم فقط الذين يُسجلون في سجلات النبلاء، ولم يكن النبلاء الروس يمانعون في ضم أحفاد النبلاء البولنديين والليتوانيين والأوكرانيين ونبلاء البلطيق والقوقاز إلى صفوفهم.

الليتوانيين، الذي كان يمثل في حقيقة الأمر نموذجا «لاتحاد النبلاء الروس»[1]، وكما وضع أجداده أبناءهم في الزمن الغابر تحت راية اتحاد النبلاء الليتوانيين، سارع جدي للحصول لأبنائه على حماية النبالة الروسية.

بعد أن أصبح نبيلاً موسكوفيًا، ظل جدي معنويًا منتميًا إلى النبلاء الليتوانيين، معتدًّا بنفسه، طموحًا، منحازًا في الكثير من آرائه إلى وجهات النظر الأوروبية. وعلى الرغم من أنه كان حريصًا على أمواله، ربما إلى درجة البخل، إلا أنه لم يكن ليبخل بهذه الأموال على تعليم أبنائه. في البداية أرسل أكبر أطفاله إلى مدرسة فرنسية في سوشار، ولمَّا كانت هذه الدراسة لا تُعلم اللاتينية، قام جدي بنفسه بإعطائه دروسًا فيها. كان الصغار يؤدون واجباتهم المنزلية في البيت باللغة الفرنسية، وفي المساء كان والدهم يرغمهم على استذكار اللاتينية. وفي حضوره لم تكن لديهم الجرأة على الجلوس فكانوا يصرِّفون الأفعال وقوفا وهم يرتعدون خوفا من الوقوع في الخطأ فيستدعون بذلك غضب أبيهم عليهم. كان جدي صارما، على أن أولاده لم يتعرضوا مطلقًا لأي نوع من العقاب البدني. هذا الأمر يشير بوضوح إلى أن الأطفال الموسكوفيين في ذلك الزمان كانوا يُعاقبون بلا رحمة. يحكي تولستوي في مذكراته عن طفولته كيف كانوا يعاقبونه بالعصا وهو في عمر الثانية عشرة. من البدهي تماما أن جدي ميخائيل كان متمسكا بوجهات النظر الأوروبية فيما يتعلق بقضايا التربية. كانت ليتوانيا وأوكرانيا بفضل جوارهما من بولندا والنمسا أكثر تحضرا من روسيا. فيما بعد كان دستويفسكي يقول لأخويه الصغيرين أندريه ونيكولاي، وهو يتذكر سنوات طفولته، أن والديهما كانا رائعين. وأنهما كانا يتميزان، وسط غالبية معاصريهما، برؤيتهما التقدمية.

---

(1) كان الروس في القرن الثامن عشر يطلقون على سلالة النبلاء منهم اسم «شلياختستفو» وقد بطل استخدام هذه الكلمة من زمن بعيد، حتى أن قليلاً من النبلاء الروس من يعرف أن سلالة النبلاء في روسيا ذات جذور ليتوانية.

مثل كثير من الليتوانيين، الذين عايش أجدادهم التأثير اللاتيني للإكليروس الكاثوليكي عليهم، كان جدي يشعر بالضعف تجاه اللغة الفرنسية. كان يتبادل الحديث مع زوجته بالفرنسية وعلّم أطفاله أن يتفاهموا فيما بينهم بهذه اللغة. وحتى تُدخل عليه البهجة، كانت جدتي ماريا تُجبر البنين والبنات على كتابة التهاني بأعياد ميلاد أبيهم باللغة الفرنسية. كانت تصحح أخطاءهم في المسوَّدات، ثم يعيد الأطفال تبييضها وكتابتها بعد ذلك بشكل جميل. في يوم العيد كان الأولاد يأتون تباعا إلى والدهم ويقدمون له على استحياء الحلوى بشكل احتفالي ملفوفة بشرائط من الحرير. كان جدي يفتحها ويقرأ التهاني جهرًا برقة ثم يُقبّل الكُتّاب الصغار. فيما بعد كان الأطفال الأكبر سنًّا لا يكتفون بمجرد كتابة التهاني، وإنما كانوا يحفظون عن ظهر قلب شيئا من القصائد الفرنسية يقرءونها على والديهم لإضافة مزيد من السعادة على أبيهم، ثم يعيدون قراءتها على إخوتهم الأصغر. وعلى هذا النحو كان الأب يقرأ مقاطع من «الهنرياد»[1]. لقد ورث دستويفسكي عن أبيه ميله الشديد إلى اللغة الفرنسية، وكثيرا ما نقابل في رواياته ومقالاته عبارات باللغة الفرنسية[2]. كان يقرأ كثيرًا باللغة الفرنسية، بينما كان يقرأ بالألمانية أقل كثيرا، على الرغم من أنه كان يجيد هذه اللغة أيضا.

---

(1) الهنرياد: قصيدة ملحمية كتبها ڤولتير في عام 1723 تكريمًا للملك هنري الرابع. (المترجم)

(2) يحكي الكاتب ستراخوف، الصديق المقرب من أبي، في مذكراته أنه كان يفضل النقاش مع دستويفسكي في الموضوعات الجادة، ولم يكن يحب أن يستمع إلى نكاته، إذ إن دستويفسكي كان يلقيها دائما «على الطريقة الفرنسية». التلاعب بالألفاظ والتعبيرات المميزة للفكاهة الفرنسية نادرًا ما كانت تلقى إعجاب مواطنينا، الذين كانوا يفضلون الفكاهة اللاذعة. كان دستويفسكي، على حد قول ستراخوف، يلقي بالنكات على الطريقة «الفرنسية» حتى في رواياته ومقالاته الصحفية، ويرجع ذلك بداهة إلى تأثر دستويفسكي فكريًا بالثقافة اللاتينية.

آنذاك لم تكن اللغة الألمانية على الموضة في روسيا. على أن أبي لم ينسها ومن المؤكد أنه احتفظ بها في خلايا ما من مخه؛ إذ إنه في كل مرة كان يضطر فيها لعبور الحدود البروسية، كان يتعامل بها وبسرعة فائقة وفقا لشهادة أمي.

بعدما أنهى الأبناء الكبار الدراسة في داخلية شوسار، أرسل بهم جدي إلى مدرسة تشيرماك الإعدادية وهي أفضل مؤسسة تعليمية خاصة في موسكو. مدرسة باهظة التكاليف، حيث كان يدرس بها أبناء الانتليجنسيا في موسكو. وحتى يتمكنوا من أداء واجباتهم المنزلية تحت إشراف مدرسين، ألحقهم جدي بمدرسة داخلية: كانوا يأتون إلى المنزل في الأعياد وأيام الآحاد فقط. كان نبلاء موسكو في ذلك الوقت يفضلون إرسال أطفالهم إلى المدارس الخاصة، إذ إن العقاب البدني القاسي كان أمرًا معمولاً به في المدارس الحكومية. كانت مدرسة تشيرماك تتميز بنظامها الأبوي، كانوا يسعون هناك إلى خلق مناخ عائلي. كان السيد تشيرماك يتناول طعام الغداء مع التلاميذ وكان يتعامل معهم بكل طيبة كما لو كانوا أطفاله. كان يستعين بأفضل مدرسي موسكو وهؤلاء كانوا يعملون بالتدريس في مدرسته بكل جدية.

كان أكثر ما يثير الخوف لدى جدي هو فظاظة عامة الناس في موسكو ولم يكن يسمح لأطفاله بالتنزه في الشوارع. قصَّ عليَّ عمي أندريه فيما بعد أنهم «كانوا يأخذوننا إلى المدرسة في عربة أبي ثم يعودون بنا بها إلى البيت». كان أبي يعرف مدينته على نحو سيئ، حتى أن القارئ لا يجد أي وصف لموسكو في رواياته. كان جدي شأن العديد من البولنديين والليتوانيين يحتقر الروس ويعتبرهم همجًا. لم يستقبل في بيته من سكان موسكو سوى أقارب زوجته. فيما بعد كان أبي عندما يأتي إلى موسكو قادمًا من بطرسبورج لا ينزل إلا في ضيافة أقاربه. لم يكن لديه أيٌّ من أصدقاء الطفولة أو من قدامى رفاقه في موسكو.

وإذا كان جدي ينظر بشك بالغ إلى الحضارة الروسية، إلا أنه لم يكشف عن ذلك لأطفاله. كان يربيهم على الطريقة الأوروبية، أي أنه كان يحاول أن يوقظ فيهم وأن ينمي لديهم حب الوطن. في «يوميات الكاتب» يحكي دستويفسكي كيف كان أبوه يحب أن يقص عليهم جهرة في المساء وهم أطفال «تاريخ الدولة الروسية» الذي وضعه كارامزين[1]، ثم يشرح لهم بعد ذلك ما قرأه عليهم. أحيانا كان يصطحبهم لمشاهدة قاعات قصر الكرملين التاريخية أو كنائس موسكو. هذه الرحلات كانت تمثل لأبنائه حِجًا وطنيًا مهيبًا.

من الجائز أن يكون ميل جدي لاجتناب أهل موسكو ناشئًا عن حب العزلة المميز لغالبية الليتوانيين. يقول فيدوناس في كتابه: «يُفضل الليتواني الوحدة، إنه يريد أن ينفرد بنفسه. الوحدة بالنسبة له نوع من الهروب». هذه العزلة الخاصة بالليتوانيين مرجعها، على الأرجح، ظروف الطبيعة في بلادهم. كان سكان السهول من الروس والأوكرانيين يجدون ما يكفيهم من الأراضي لإقامة قرى كبيرة، ومن ثم بات من السهل عليهم الوصول إلى أسواق المدن القريبة والالتقاء هناك بسكان القرى الأخرى وعقد روابط معهم، الأمر الذي بفضله تم تطوير مشاعر الألفة والضيافة فيما بينهم. أما في ليتوانيا فقد حالت الغابات الكثيفة والمستنقعات التي يصعب اجتيازها دون ظهور القرى ذات الأعداد الكبيرة. كانت هناك أراضٍ صالحة للزراعة في الواحات الصغيرة أمكن إقامة عزب فيها تضم الواحة أسرة واحدة، لكن عدم وجود طرق كان يُصعّب من التواصل بينها، ولاضطرارهم للعَيش في مثل هذه الظروف أصبح الليتوانيون ميّالين للعزلة. هذا

(1) كان كتاب «تاريخ» كارامزين هو الكتاب المفضل لأبي، الذي كان مواظبا على قراءته في طفولته، ولطالما أعاد قراءته، وفي النهاية كاد أن يحفظه عن ظهر قلب. وهو أمر له دلالته، إذ إن الأطفال في روسيا بل والكبار أيضًا كانوا يعرفون تاريخ بلادهم على نحو سيئ.

التوحش، الذي تربى لديهم على مدى قرون طويلة، كان يلزمه قرون أخرى حتى يبرءوا منه، حتى في سباق إقامتهم الطويلة في بلاد أخرى وفي ظروف مختلفة[1]. الليتوانيون في غالبهم آباء وأزواج رائعون. تجدهم سعداء فقط وسط الأجواء العائلية، العائلة عزيزة عليهم بشدة، ولهذا فإنهم غيورون في علاقاتهم بزوجاتهم وأطفالهم ويسعون دائما لحمايتهم من أي تأثير غريب. بعد أن أقام جدي لأولاده عالما ليتوانيا مصطنعا وسط موسكو، لم يدرك بشكل واضح إلى أي مدى يمكن لهذه التربية أن تجعل من الحياة القادمة لهؤلاء الأطفال، الذين هم روسٌ في واقع الأمر، أمرا صعبا. إذ إن عليهم أن يجدوا لأنفسهم مكانا وسط مواطنيهم. على أية حال فإن جدي، وقد وضع أطفاله في هذا السجن المنزلي، كان مهتما أن يجعلهم يتواصلون مع المجتمع الصالح: كانت الأسرة تجتمع بأسرها أيام الآحاد والأعياد في غرفة الاستقبال، فيتناوب أفرادها قراءة أعمال كُتَّاب روسيا الكبار بصوت مرتفع. كان أبي يعرف العديد من هؤلاء الكُتَّاب وهو ما يزال في الخامسة عشرة من عمره. كان الأطفال يتدربون على قراءة أفضل القصائد عن ظهر قلب. وأحيانا ما كان يتم تنظيم مسابقات في الإلقاء. كان أبي وأخوه ميخائيل يقرآن قصائد الشعراء الروس عن ظهر قلب، ثم يقوم والداهما بتحديد مَن منهما أفضل قراءة. كانت جدتي ماريا تولي اهتماما كبيرا لدائرة قراءة أطفالها. كانت زوجة وديعة، وسيمة، طيِّعة، مخلصة بكل كيانها لأسرتها. كانت هزيلة، ولودًا[2]، وهو

---

(1) لم ينس الليتوانيون مطلقًا غاباتهم الحبيبة، وقد ظلوا يحبونها ويتذكرونها على مدى العصور. ها هو دستويفسكي يكتب في «يوميات الكاتب» قائلاً: «كنت أحب الغابات طول عمري،...» إلخ.

(2) أنجب ميخائيل وماريا ثمانية أطفال – أربعة ذكور وأربع إناث. إحداهن هي توءم عمتي فيرا، ماتت فور ولادتها. استطاعت جدتي أن ترضع بالكاد الابن الأكبر ميخائيل، الذي كانت تفضله. أما باقي الأطفال فقد أتوا لهم بمرضعات من فلاحات ضواحي موسكو.

ما ترك أثرًا سلبيًا بالغا على صحتها. كانت تقضي أحيانًا أيامًا بطولها في الفراش، وكانت تحب أن يقرأ ولداها عليها شعرًا. الكبار، ميخائيل وفيودور، كانا يحبانها إلى درجة العبادة، وعندما ماتت، وكانت في شبابها، بكيا بمرارة وكتبا قصيدة في رثائها. أَمَر جدي بنحت تمثال لها من الرخام، ثم وضعه على قبر صديقته الحنونة.

وجريًا على الموضة السائدة في ذلك الزمن، طلب جدي من أحد فناني موسكو أن يرسم صورة له وأخرى لزوجته. كانت جدتي تظهر في الصورة وهي ترتدي ملابس أنيقة وقد صففت شعرها وفقا للموضة في عام 1830. كانت تبدو شابة، جميلة، سعيدة. كان أبوها روسيًا من أبناء موسكو، على أن وجهها كان يحمل ملامح أوكرانية. ربما كانت من أصول أوكرانية[1]. لعل هذه الملامح الأوكرانية هي ما جذب انتباه جدي ودفعته لاختيار هذه الموسكوفية زوجًا له. يبدو جدي في الصورة وقد ارتدى معطفًا استعراضيًا مطرزًا بالذهب. في روسيا في ذلك الزمن، كان كافة موظفي الدولة، بمن فيهم الأطباء، ملزمين بالسير بالملابس الرسمية فقط. يقول دستويفسكي في يومياته أن شيئا ما في والده ظل على الدوام عسكريًا. بعد أن بدأ حياته طبيبًا عسكريًا، ظل جدي طول حياته محتفظًا بمظهره العسكريّ. هذا المظهر الذي يميز أهل ليتوانيا، أبناؤه الأربعة كانوا يشبهونه تمامًا. غير أن والدي كانت له عيون بنية مثل أي أوكراني قُحّ، وقد ورث عن أمه الروسية ضحكتها الطيبة. تميز أبي عن باقي إخوته بالحيوية والحماس وعلو الهمة. كان والداه يطلقون عليه اسم «الفتى الناري!». لم يكن أبي متكبرًا ولم يحتقر يومًا

(1) كان اسم عائلتها كوتيلينيتسكي، وهي كنية شائعة في أوكرانيا. كانت تنتمي إلى عائلة مثقفة: عم جدتي الأمير فاسيلي كوتيلينيتسكي، كان أستاذا في جامعة موسكو، لم ينجب أطفالاً، وكان يحب أحفاد أبناء إخوته وكثيرًا ما دعا أبي وإخوته للنزول في ضيافته في بوفينسك.

بسطاء الناس، الأمر الذي اشتهر به المثقفون البولنديون والليتوانيون. كان عطوفًا على الفقراء، مهتمًا بأحوال معيشتهم. كانت الحديقة الملحقة ببيت كبير الأطباء منفصلة بسياج فقط عن حديقة المستشفى الكبيرة، حيث يسمحون للمرضى الذين يتماثلون للشفاء بالتنزه فيها. كان مُحرَّمًا على الصغير دستويفسكي قطعيًا الاقتراب من هذا السياج. كان أبوه يخشى أن يتجمع حوله عامة الناس الأراذل من الجهلة والأفظاظ. لكن أبي كان يتسلل نحو السياج ويتبادل الحديث مع الفلاحين والبورجوازيين الصغار، المتماثلين للشفاء، مخاطرًا بذلك بإثارة غضب والديه عليه. وفي داروڤويه كان يقيم صلات تعارف مع الأقنان. ووفقا لعمي أندريه كان تقديم المساعدة للفلاحين العاملين في الحقل سعادة لا تفوقها سعادة أخرى بالنسبة له.

كان أهل أبي أناسًا متدينين بعمق، كانوا يترددون على الكنيسة كثيرًا مصطحبين معهم أطفالهم. يذكر أبي في أعماله هذا الانطباع العميق، الذي كانت قراءة الكتاب المقدس تتركه عليه إبان إقامة الصلاة في الكنيسة. لم يكن تدين جدي ميخائيل يشبه هذا التدين الهستيري، المصطبغ بصبغة صوفية، الميَّال إلى التمزق والبكاء عند المثقفين الروس. يشكو مواطنونا دائمًا من المحن التي لا مفر منها في الحياة، ويلقون بالتُّهم على الرب لقسوته، بل ويلوحون بقبضة يدهم تجاه السماء كأنهم أطفال حمقى، وهو ما ينطبق عليهم بالفعل. أما التدين الليتواني عند جدي ميخائيل فكان تدين شعب ناضج، عانى كثيرًا وناضل كثيرًا. القساوسة الچيزويت، وربما البروتستانت أيضًا، لدى فرسان قبائل التفتون، علَّموا الليتوانيين أن يُجِلُّوا الله وأن يخضعوا لمشيئته. وعلى خطى الأتقياء الأوكرانيين، الذين كانوا يرون أن خدمة الكنيسة هي أكثر المهن تشريفًا وتكريمًا، سار آل دستويفسكي الذين ورثوا حب الرب والرغبة في التقرب إليه. بهذه الروح ربَّى جدي ميخائيل زوجته

الشابة وأطفاله. وهذه واحدة من الذكريات التي انطبعت في نفس أبي. ذات مساء ربيعي وهم في بيتهم في موسكو، إذا بباب غرفة الاستقبال يُفتح، وإذا بناظر العزبة يقف أمامهم قادمًا من داروفويه وهو يهتف قائلا: «لقد احترقت الضيعة!». قالها بصوت مأساوي.



الفصل الثالث
الشباب

بعد أن أنهى أبناؤه الكبار مدرسة تشيرماك الإعدادية، أرسلهم جدي إلى بطرسبورج. كان يرى أن مستقبلهم ليس في الطب، ومن ثم فقد اختار لهم المستقبل العسكري، حيث كان يمكن للرجل الذكيّ آنذاك أن يحقق الكثير في روسيا، فإن كل موظف حكومي، يشغل على نحو أو آخر منصبًا مرموقًا، يمكنه أن يطمح إلى مكانة لأبنائه في واحدة من المؤسسات التعليمية الحكومية العليا. أما جدي، باعتباره رجلاً عمليًا، فقد اختار مدرسة الهندسة، التي كانت تفتح أمام خريجها طريقين: إما أن يصبح ضابطًا في الحرس القيصريّ ويصنع لنفسه مستقبلًا باهرًا، أو أن يصبح مهندسًا، وهو ما يدر عليه عائدًا كبيرًا. كان جدي ميخائيل يضع آمالا كبارًا على أبنائه وظل طول الوقت يبعث في نفوسهم الإقدام على العمل بدأب وألا يبخلوا بجهدهم. «أنتم فقراء - هكذا كان يقول لهم - وليس بمقدوري أن أترك لكم ثروة؛ عليكم أن تعتمدوا على أنفسكم فقط، أن تعملوا دون كلل، أن تتصرفوا بشكل لائق، أن تزِنوا كلامكم وأفعالكم».

في تلك الفترة كان أبي يبلغ من العمر ستة عشر عامًا، بينما كان عمي ميخائيل يبلغ سبعة عشر. وقد تربيا في عزلة عن العالم، لم يغادرا بيت الأسرة تقريبًا، لا يعلمان شيئًا عن الحياة، ليس لهما أصدقاء، لم يندمجا في المجتمع،

كانا يبدوان مثل طفلين كبيرين - حالمين ساذجين رومانسيين. كانت ثمة صداقة روحية سامية تربط الأخوين. كانا يعيشان في عالم من صنع خيالاتهما، يقرآن كثيرًا، يتبادلان الانطباعات عما قرآ، معجبان بشدة بإبداع بوشكين، معبود الأخوين[1]. بعد أن سافرا إلى بطرسبورج، لم يكونا يدركان أن طفولتهما قد ولَّت، وأنهما باتا على عتبة الدخول إلى عالم جديد مختلف تمامًا. إبان رحلتهما من موسكو إلى بطرسبورج، والتي استغرقت بضعة أيام[2]، استمر الشابان غارقين في أحلامهما. يحكي والدي قائلاً: «كنا أنا وأخي نحلم بكل شيء جميل ورائع وسام. هذه الكلمات كانت تبدو لنا عظيمة، كنا ننطق بها دون سخرية. كم من الكلمات الرائعة من هذا النوع، كنا نقولها آنذاك! كنا نؤمن بحماس بالغ بشيء ما، حتى ونحن ندرك صعوبة امتحان الرياضيات، كنا نفكر فقط في الشعر والشعراء. كان أخي ينظم الشعر، بينما كنت أؤلف رواية مستوحاة من الحياة في فينيسيا.

وفي بطرسبورج كان أسًى كبير ينتظر الشابين الحالمين. فبعد أن تلقى جدي الموافقة على مكانين في مدرسة الهندسة، لم يستطع أن يُلحق بها سوى فيودور.

---

(1) يحكي عمي أندريه في مذكراته أن جدي ميخائيل لم يترك طفليه وحدهما أبدًا، ولم يكن يعطيهما مصروفا. كان يراقب سلوكهما بحزم، لم يدللهما، وحتى أبسط صور التدليل براءة لم يسمح بها. هذان الشابان العفيفان لم يجرآ على الحديث عن النساء، اللهم إلا ما مر عليهما في الشعر. يمكن أن نتصور على أي نحو كان من الممكن أن تكون هذه البراءة مثار سخرية من جانب زملائهما في الدراسة في المستقبل، وخاصة أن المغامرات العاطفية تبدأ لدى الروس في سن مبكرة جدًا. كان على دستويفسكي أن يعاني بشدة من جرَّاء مجون رفاقه. وها هو يقص في رواية «الإخوة كارامازوف» كيف أن أليوشا كان يسد أذنيه حتى لا يسمع النكات الوقحة من زملائه في المدرسة، لقد كان أبي، على الأرجح، يصف ما كان يعانيه هو نفسه.

(2) في ذلك الزمان لم تكن السكك الحديدية قد أدخلت بعد. كانوا يستبدلون العربات في الطريق ما بين موسكو وبطرسبورج، الأمر الذي كان يستغرق أسبوعًا تقريبا.

فقد اعتبروا أن عمي ميخائيل ليس بالقوة الكافية للدراسة في بطرسبورج. ومن ثم أرسلت به المدرسة هو وعدد آخر للدراسة في ريفيل، حيث كان بها فرع لمدرسة الهندسة. كان حزن أبي عظيمًا لفراق أخيه الحبيب، وخاصة أنه بعد سفر جدي ميخائيل عائدًا إلى موسكو أصبح وحيدًا تمامًا في بطرسبورج، دون أصدقاء ودون أقارب. ولمّا وجد نفسه يعيش في ثكنة عسكرية دون معارف له في المدينة، اضطر لقضاء الإجازات كلها في المدرسة[1].

كانت مدرسة الهندسة تشغل مبنى قصر بافل الأول سابقًا، حيث لقي الإمبراطور سيئ الحظ مصرعه فيه. كان القصر يقع في أفضل موقع في المدينة، أمام الحديقة الصيفية، على ضفاف نهر فونتانكا. كانت قاعاته الفسيحة المضيئة يغمرها الهواء والشمس. لا يمكن أن تجد مكانا أفضل منه للأولاد. كان جدي يدرك، بطبيعة الحال، باعتباره طبيبا، أي قيمة كبيرة للضوء ورحابة المكان لنمو الشباب بدنيًا، وخاصة أن أبي لم يكن سعيدًا بالإقامة في قلعة الهندسة[2].

كانت الحياة الجماعية ثقيلة الوطء عليه، ناهيك عن العلوم الدقيقة، التي كان عليه أن يدرسها، والتي لم تلق في نفسه الشاعرة هوى كبيرا، ها هو ممتثلاً لإرادة أبيه ينفذ واجباته بإخلاص، لكنه لم يهبها روحه أبدًا. في أوقات فراغه كان ينزوي في تجويف النافذة وينظر كيف ينساب النهر، يتأمل الأشجار في الحديقة، يقرأ

---

(1) بعد أن أرسل ولديه للدراسة في بطرسبورج، كان جدي ميخائيل يعوّل على رعاية أحد أقاربه هناك لهما، وهو الجنرال كريفونيشين، وهو شخص ذو مقام رفيع للغاية. لكن كريفونيشين لم يكن يحب قريبه من موسكو، ولم تكن لديه رغبة أن يفعل أي شيء لابنه. على أنه وبعد وفاة جدي ميخائيل تذكر الجنرال واجبه العائلي، فراح يزور أبي في مدرسة الهندسة ودعاه إلى بيته. وسرعان ما أصبح دستويفسكي، الذي كان يبلغ من العمر آنذاك ثمانية عشر ربيعا محبوبًا من كل أفراد عائلة كريفونيشين، وقد كتب بمودة بالغة عن هذه العائلة في خطاباته إلى ميخائيل.

(2) هكذا كانوا في بطرسبورج يسمون مدرسة الهندسة. في الواقع فقد كان قصر بافل أشبه ما يكون بقلعة حقيقية.

ويحلـم... كلفـه تركه لبيته الحبيب هذا الميل إلى العزلة، الذي ورثه عن أسلافه الليتوانيين. كان انجذابه للاختلاء بنفسه، أمرًا غير مقبول من رفاقه الجدد. هؤلاء كان الجـزء الأكبـر منهم من أبنـاء العقداء والجنـرالات[1]، الذين كانوا يشـغلون المناصـب القيادية في المـدن الكبرى في الأقاليم. في ذلك الزمان كان الناس في الأقاليم الروسـية قليلا ما يقـرءون، وبالتالي كانوا يفكرون أقـل. في الحقيقة فإن الكتـب الجـادة لم تكن تظهر هناك إلا نادرًا، ولذلك كان من الممكن دائمًا إزجاء الوقـت باحتسـاء زجاجة شـمبانيا من النـوع الجيد. كانوا يحتسـون الخمـر كثيرًا ويلعبون الورق بتهور ويتسـلون بمغازلة النساء. قليلاً ما كان أولياء الأمور يولون أولادهـم الاهتمـام الكافي، فـكان الخدم هم الذيـن يقومون بالاعتنـاء بهم. كان رفـاق أبي الجدد من الشـباب حيوانات تتمتع بالصحـة والعافية، مرحون إلى حد الجنـون، لم يكن يهمهم سـوى الركض والضحك واللعب. كانوا يسـخرون من جدية هذا الموسكوفي الشاب ومن هوسه بالقراءة. وكان دستويفسكي من جانبه يكِنُّ لهم مشاعر الاحتقار لجهلهم؛ كان يراهم مخلوقات من فصيلة ما أخرى. لم يكن في ذلك شـيء مثير للدهشـة: لقد تشـكل مزاج أبي على امتداد بضعة قرون، أطـول كثيرا مما لدى هـؤلاء الصبية الروس. كتب أبي يقـول: «كنت مذهولاً من غبـاء آرائهم وألعابهم وأحاديثهم ومشـاغلهم، كل ذلك، والحـق يقال، كان مهينًا ويحمل قدرًا كبيرًا من التعسف، وكان يثير لديهم السخرية القاسية. أطفال في سن السادسـة عشرة لا ينفكون يتحدثون عن الوظائف التي تدر ربحا وفيرا. لقد كانوا فاسـدين إلى حد بشـع. عندما كان دستويفسـكي ينظر إلى رفاقه، كان يستعيد في نفسه كيف تربى داخل والده هذا الاحتقار الليتواني نحو الروس. احتقار الإنسان المتحضر للجهلة والهمج[2].

---

(1) كانت رتبة جدي ميخائيل تعادل لقب عقيد.

(2) برغـم كل مشـاعر الاحتقار تجاه هؤلاء، لم يكن دستويفسـكي يشـيح بوجهـه عن رفاقه. كان دستويفسـكي، وفقا لما ورد في مذكرات بعض التلاميذ في مدرسـة الهندسة، يحب أن يشـمل التلاميذ الجدد برعايته وأن يسـاعدهم في أداء واجباتهم وأن يدافع عنهم في*

في النهاية وجد أبي لنفسه صديقًا. كان ذلك الصديق هو جريجورڤيتش[1] الشاب، والذي كان مثله، نصف روسي: كانت جدته لأمه فرنسية، وكانت تهتم كثيرًا بحفيدها من أجل أن تجعل منه شابًا مثقفًا. كان فتًى مرحًا واجتماعيًا مثل غالبية الفرنسيين. كان جريجورڤيتش يشارك رفاقه في المدرسة اللعب على الرحب والسعة، ولكنه كان يفضل صحبة أبي. شيء واحد جمع بينهما: كلاهما كان يكتب سرًّا وكانا يحلمان بأن يعملا بالأدب[2].

لم تدفع صداقة أبي لجريجورڤيتش إلى نسيان أخيه ميخائيل، فقد استمرا في مراسلاتهما: وقد نُشرت بعض من خطاباتهما. كان الأخوان يتحدثان عن راسين وكورنيل وشيللر وبلزاك ويقترحان على بعضهما البعض قراءة الكتب الهامة ويتبادلان انطباعاتهما الأدبية. استغل عمي ميخائيل وجوده في ريڤيل في دراسة اللغة الألمانية على نحو أكثر عمقًا. فيما بعد قام بترجمة العديد من أعمال شيللر وجوته. وقد لقيت ترجماته تقديرًا رفيعًا من جانب القراء.

=مواجهة استبداد الآخرين من التلاميذ. يحكي الجنرال ساڤلسيف، الذي كان ما يزال في ذلك الوقت ضابطًا مراقبًا صغيرًا في مذكراته، أن قيادة المدرسة استقر في وجدانها أن دستويفسكي شاب ذو ثقافة رفيعة، يتميز بشخصية قوية وشعور عميق بالكرامة، يخضع دون اعتراض لتعليمات المدرسة، ولكنه كان يرفض الاستسلام لطلبات التلاميذ الأقدم ولم يكن يقبل المشاركة في أعمالهم المتهورة. كل ذلك يؤكد على ما كان يتمتع به من شخصية متينة، إذ إن التلاميذ في المؤسسات التعليمية الروسية العليا كانوا يخضعون عن رضا لإرادة الأغلبية من رفاقهم أكثر من خضوعهم لمدرسيهم.

(1) ديمتري ڤاسيليڤيتش جريجورڤيتش (1822–1899): كاتب وصديق دستويفسكي منذ الأربعينيات. (المترجم)

(2) في تلك الفترة من حياته تعرف أبي على شاب آخر. كان هذا هو شيدلوڤسكي، رفيقه السابق في الدراسة في مدرسة تشيرماك. كان شيدلوڤسكي كثير الأسفار لا أعرف لأي سبب. تارة تجده في ريڤيل، وتارة أخرى في بطرسبورج. كان يعمل بمثابة رجل بريد للأخوين دستويفسكي. كان شيدلوڤسكي شاعرًا، مثاليًا وصوفيًا. كان له أبلغ الأثر على والدي. واستنادًا إلى كنيته فإن شيدلوڤسكي، كما هو واضح، من أصول ليتوانية.

وقد نُشرت خطابات الشابين دستويفسكي إلى والدهما أيضا. كانت خطابات تشي بالاحترام، لكن كانت دائمًا ما تتحول إلى طلب للنقود. كان الأولاد لا يحبون جدي ميخائيل، هذا الليتواني، الذي كان لديه كل هذا القدر من الفضائل، إلى جانب رذيلة وحيدة كبيرة: كان مدمنًا على الشراب، ليبدو إذا ما دخل في حالة السُكر شِريرًا مثيرًا للارتياب. لطالما حالت الأم بينه وبين الأولاد، وعندها كانت الأمور كلها تسير على ما يرام. كان باستطاعتها أن تحسن التصرف مع زوجها وأن توقفه عن الإسراف في الشراب. ولكن ما إن توفيت حتى راح جدي يفرط في الشراب حتى لم يعد بإمكانه الاستمرار في العمل ليحال إلى المعاش. سافر جدي إلى داروڤيه بعد أن ألحق الابنين الصغيرين أندريه ونيكولاي بمدرسة تشيرماك وزوَّج الابنة الكبرى ڤارڤارا، حيث استقر بها واشتغل بفلاحة أرضه. اصطحب جدي معه ابنتيه الصغيرتين ڤيرا وألكسندرا، اللتين عاشتا معه حياة مريرة. في ذلك الزمان كانوا يفضلون تربية الفتيات في المنزل. تلقت الابنتان هناك تعليما محدودا للغاية اقتصر على اللغتين الفرنسية والألمانية والعزف على البيانو والرقص والأشغال الفنية اليدوية ولتعيشا مثل عامة الناس. هاتان العذراوان كريمتا المحتد لم يكن أمامهما سوى طريق واحد – الزواج. وقد احتفظتا ببراءتهما، إذ لم يكن جدي ميخائيل يسمح لبنتيه الرائعتين بالخروج وحدهما ودائمًا ما كان يصطحبهما في تلك المناسبات النادرة، التي يقومان فيها بزيارة أحد من جيرانهما. هذا الحذر المفرط كان يخدش حياء عماتي بشدة. فيما بعد كانتا تتذكران وهما ترتعدان كيف كان أبوهما يظهر في المساء في مخادعهن ليتفحص ما تحت أَسرَّتهما ليرى ما إذا كان هناك عشيق ما مختبئًا هناك. آنذاك كانت عماتي أبكارًا، أنقياء عفيفات الذيل.

راح بخل جدي يزداد كلما ازداد إدمانًا للشراب. كان يرسل لأولاده القليل من المال، حتى أنهم كانوا يضطرون لرفضه. لم يكن باستطاعة أبي أن يسمح

لنفسه بقدح من الشاي بعد عودته من التدريبات، التي كانت تُجرى أحيانًا تحت المطر المنهمر. لم يكن لديه زوج احتياطي من الأحذية. كان الأهم عنده أن يوفر بعض النقود ليعطيها حلوانًا لجنود المراسلة، الذين يقومون على خدمة ضابط المستقبل. كان دستويفسكي يتميز غيظًا بسبب الحرمان والمهانة، التي كان عليه تحملها بسبب شح أبيه، وخاصة أنه كان من غير اللائق أن يكون لدى جدي ميخائيل ضيعة؛ فضلاً عن المال، الذي كان يدخره كدوطة لابنتيه. كان الفتى دستويفسكي يرى أن أباه، بعد أن اختار لابنه هذه المؤسسة التعليمية المخصصة للنخبة، كان عليه أن يوفر له ما يكفيه من المال حتى يتمكن من أن يكون ندًّا لرفاقه.

هذه الخلافات بين الأب وأبنائه استمرت زمنًا طويلًا. كان جدي ميخائيل قاسيًا دائمًا مع فلاحيه الأقنان، وبسبب السُكر راح يعاملهم بوحشية بالغة، الأمر الذي دفعهم في النهاية إلى قتله. ذات صيف غادر جدي ضيعته في داروفويه متجهًا إلى ضيعته الأخرى في تشيرماشينا، ولكنه لم يعد من هناك... فيما بعد عثروا عليه في منتصف الطريق مخنوقًا بوسادات على مقعد عربته. اختفى الحوذي ومعه الخيول؛ وفي نفس الوقت اختفى عدد من الفلاحين من الضيعة. وفي الاستجواب الذي جرى أثناء التحريات اعترف عدد آخر من فلاحي جدي أنها كانت جريمة قتل بدافع الانتقام.

لم يكن أبي حاضرًا أثناء وقوع هذه المأساة في الضيعة. لم يسافر في ذلك الوقت إلى داروفويه لأن تلاميذ مدرسة الهندسة كانوا يقومون في فصل الصيف بعمل استعدادات عسكرية في ضواحي بطرسبورج.

مثّلت هذه الجريمة، التي جرت على يد فلاحي ضيعة داروفويه، الذين كان أبي يحبهم في طفولته، صدمة شديدة له[1]، ظل يتذكرها طول عمره، وكثيرًا ما راح

(1) وفقا للرواية السائدة في عائلتنا فإن أول نوبة صرع باغتت دستويفسكي جاءت نتيجة =

يفكر في أسباب هذه المأساة. من اللافت للانتباه أن كافة أبناء جدي كانوا يرون في الموت العنيف عارًا عليهم، ولم يكونوا يتحدثون عنه ولم يسمحوا لزملاء دستويفسكي من الكُتَّاب بتناول تفاصيل حياته، أو أن يأتوا على ذكر هذه الميتة في مذكراتهم عن أبيهم. بداهة فقد كان أعمامي وعماتي يعتنقون الآراء الأوروبية في مسألة قانون القنانة، أكثر من الروس في ذلك الزمن. لم تكن جرائم القتل بدافع الانتقام، على يد الفلاحين، أمرًا نادرًا آنذاك، لكن أحدًا لم يكن يخجل من ذلك. هؤلاء كانوا يترحمون على الضحية ويتحدثون عن القتلة بمشاعر الفزع والاشمئزاز. كان الروس يؤمنون بسذاجة أن السادة من حقهم أن يعاملوا الفلاحين باعتبارهم كلابًا، وأنهم لا يملكون الحق في الاعتراض أو التمرد. كانت عائلة جدي الليتوانية تنظر إلى هذا الأمر نظرة مختلفة.

كنت أتخيل دائمًا أن دستويفسكي وهو يرسم شخصية العجوز كارامازوف، كان يفكر في والده. بطبيعة الحال، لم تكن هذه صورة طبق الأصل. فيودور كارامازوف – مهرج؛ بينما احتفظ جدي بهيبته طول حياته. كاراماروف –

= سماعه نبأ مصرع أبيه. يمكن أن نتصور فقط على أي نحو كانت حالته النفسية آنذاك؛ إذ إن كافة مراسلاته مع أخيه ميخائيل، والتي بإمكانها أن تلقي بالضوء على هذه الفترة من حياته تعرضت للتلف. في خطاباتهما الأخيرة لم يأت الأخوان على أي ذكر لأبيهما كما هو واضح، فقد كانت إثارة هذا الموضوع بالنسبة لكليهما أمرًا مؤلمًا. واستنادًا إلى بعض العبارات الواردة في الخطاب الأخير قبيل الحادثة المأساوية، يمكن أن نفترض أن دستويفسكي كان على علم على نحو ما بالظروف التي كانت تحيط بوالده في القرية. ها هو يكتب لأخيه قائلاً: «أبي المسكين! يا له من رجل غريب الطباع! أواه، كم من الألم جره على نفسه! واحسرتاه، فأنا غير قادر على مواساته! ولكن، هل تعلم؟ لم يكن والدي على دراية إطلاقا بالحياة. لقد عاش خمسين عامًا وما زالت نظرته إلى الناس كما كانت منذ ثلاثين عاما مضت». لقد حزر دستويفسكي كعادته دائما مأساة أبيه الرئيسية. في الواقع فقد عاش جدي ميخائيل حياته كلها باعتباره ليتوانيًا، دون أن يبذل أدنى جهد لمعرفة شخصية الشعب الروسي. وقد دفع ثمنًا باهظًا نتيجة لجهله.

شهواني؛ أما ميخائيل دستويفسكي فكان يحب زوجته بإخلاص وظل وفيًا لها. العجوز كارامازوف تخلى عن أبنائه ولم يكن مهتمًا بمصائرهم، أما جدي فقد اهتم بتوفير تعليم جيد لأبنائه. ومع ذلك فهناك سمات ما تخص كليهما. لعل دستويفسكي وهو يضع شخصية فيودور كارامازوف كان يتذكر شح أبيه، الذي أثار لدى أبنائه الشباب مشاعر الكآبة والتمرد إبان سنوات الدراسة؛ فضلا عن النفور البدني، الذي تولد لديهم من جرَّاء إفراطه في السكْر. لم يكن دستويفسكي وهو يحكي كيف أن أليوشا كارامازوف لم يكن يعاني من النفور من والده وإنما كان يشعر بالشفقة تجاهه، كان هو نفسه يتذكر على الأرجح أن إحساسا بالأسى قد حلَّ في قلبه الشاب محل الشعور بهذا النفور. لا شك أن دستويفسكي، عالِم النفس الواعد، كان يدرك في لحظات أخرى أن والده، في واقع الأمر، ليس سوى إنسان مريض وتعيس. ينبغي عليَّ هنا أن أنبه القرَّاء إلى أن بعض التشابه بين جدي ميخائيل والعجوز كارامازوف هو في نهاية الأمر محض افتراض من جانبي، لا أستطيع أن أؤكده دون دليل موثق. ومن المحتمل أن أكون على خطأ تمامًا. وفي الوقت نفسه فمن المشكوك فيه أن يطلق دستويفسكي اسم تشيرماشينا على القرية التي أرسل إليها العجوز كارامازوف ابنه إيفان عشية مصرعه بالصدفة[1]. يبدو لي هذا الأمر أكثر احتمالاً، فوفقا للاقتناع الذي ترسخ في عائلتنا، فقد رسم أبي صورة إيفان كارامازوف على نحو مشابه له بدرجة ما. على هذا النحو كان إيفان، كما تصوره أبي، عندما كان عمره عشرين عامًا. من اللافت للانتباه أيضا آراء إيفان كارامازوف الدينية، قصيدته «المفتش الأعظم»، واهتمامه الكبير بالكنيسة الكاثوليكية. ينبغي ألا ننسى أن ثلاثة أو أربعة أجيال، وربما أقل، كانت تفصل دستويفسكي عن أسلافه الكاثوليكيين. من المؤكد أن العقيدة الكاثوليكية كانت ما تزال حية في وجدانه. أمر آخر لافت على نحو أقوى

---

(1) كما أسلفنا فقد قُتل جدي في الطريق المؤدي إلى ضيعته في تشيرماشينا.

تمثل في إعطاء اسمه فيودور على العجوز كارامازوف. يقول سميردياكوف لإيفان في الرواية: «... من بين كل الأبناء أنت الأكثر شبها بأبيك». من الجائز تماما أن دستويفسكي ظل طول حياته يتابع شبح أبيه الملطخ بالدماء، يتأمل ذاته بعناد وإصرار وهو يتساءل – ألم يرث هو كل هذه الآثام عن أبيه؟ هذا الأمر لم يكن يخيفه: دستويفسكي كان رجلاً من طراز آخر تمامًا. لم يكن ميَّالا لمعاقرة الخمر كغالبية العصابيين، ولم يكن يحتملها. كان إنسانًا طيبًا ودودًا مع الآخرين، لا يحمل أيَّ قدر من مشاعر الارتياب، بل على العكس من ذلك، كان يهب ثقته للآخرين بسرعة. وكثيرا ما كان يُلام على عدم اكتراثه تجاه الحفاظ على النقود. في الحقيقة لم يكن باستطاعته أن يرفض طلبًا لأي شخص ويعطي للناس كل ما معه. كان يتصرف على سجيته السمحة، ربما كان يخشى أن تنمو لديه خاصية الشح التي كانت لدى أبيه، وخاصة وهو يرى كيف راحت هذه الخصلة السيئة تزداد يوما وراء الآخر لدى أخته ڤارڤارا، أكبر أخواته البنات، حتى تحولت إلى هوس. لعل دستويفسكي ساورته الظنون أن البخل هو مرض نفسي عُضال وأنه مرض وراثي في أسرته، وربما يكون مُعديًا إذا لم يتم تجنبه.

أصبح إدمان الخمر لدى جدي لعنة حلَّت بجميع أبنائه تقريبًا، فميخائيل ونيكولاي الأصغر ورثا عنه هذا الداء. ورغم أن ميخائيل كان يعاقر الخمر إلا أنه ظل محتفظًا مع ذلك بقدرته على العمل؛ أما نيكولاي المسكين، الذي حصل على تعليم رفيع فلم يكن يقوى على الوقوف على قدميه، وظل إخوته وأخواته ينفقون عليه طول حياته. وبالنسبة لمرض الصرع، الذي كان يعاني منه أبي، فالأرجح أنه كان مرضًا وراثيًا. لكن النموذج الأسوأ دون شك كانت عمتي ڤارڤارا. فقد تزوجت من رجل واسع الثراء، وورثت عنه عددًا من البيوت المؤجرة في موسكو؛ كانت تدر عليها دخلاً وفيرًا، كان أطفالها يعيشون في سعة ولم يكن ينقصهم شيء، وكان بمقدورها أن تعيش حتى أرذل العمر في بحبوحة من العيش. ولكن؛

هيهات، لقد وقعت هذه المرأة أسيرة للبخل إلى حد مرضي تمامًا. كانت أقل نفقات تمثل لها كارثة كبرى. وفي النهاية صرفت كافة الخدم حتى لا تدفع لهم أجورًا. لم تكن تدفئ شقتها، أو تخلع عن نفسها معطفها المصنوع من الفراء طول الشتاء. لم تكن تطبخ لنفسها طعامًا، وإنما كانت تخرج مرتين فقط لشراء بعض الخبز والحليب. كان الناس في الحيّ يتحدثون كثيرًا عن بُخلها. كانوا يقولون أن عمتي ڤارڤارا لا بد وأنها تكتنز كثيرًا من المال مخبوءًا في بيتها. هذه الأقاويل أغرت فلاحًا شابًا يعمل بوابًا لدى سكان عمتي، اتفق مع أحد الأفّاقين، اختبأ كلاهما ليلاً في البيت وقتلا المجنونة المسكينة[1].

أظن أن إدمان جدي ميخائيل على الخمر كان وراثيًا - ولم يكن من الممكن ألا ينعكس إدمانه للسكر على أولاده. ظلت هذه الآفة معروفة في عائلة جدي ميخائيل في الجيلين الثاني والثالث أيضًا. كان ابن عمتي ڤارڤارا غبيًا حتى أنه اقترب بشدة من الضعف العقلي. كذلك فإن الابن الأكبر لعمي أندريه، الذي كان عالمًا رائعًا، قد توفي على أثر حالة متقدمة من الشلل. كل أفراد عائلة دستويفسكي عانوا من الأمراض العصبية.

---

(1) وقع ذلك الحادث بعد مرور سنوات طويلة على موت أبي.



الفصل الرابع
الخطوات الأولى

بعد أن أنهى مدرسة الهندسة، تسلم دستويفسكي منصبه في الإدارة الهندسية العسكرية. لم يخدم بها طويلا إذ سرعان ما قدَّم استقالته. لم يعد لديه هذا الأب، الذي كان من الممكن أن يفرض عليه الالتزام بخدمة الدولة، كما أنه هو نفسه لم يشعر في أي وقت من الأوقات بميل إلى العمل العسكريّ، والأهم من ذلك أنه بات طموحًا أكثر من أيّ وقت مضي لأن يصبح كاتبًا. وقد حذا حذوه جريجوروفيتش الشاب. كلاهما قرر أن يسكنا معا، استأجرا شقة وخادمًا، كانت والدة جريجوروفيتش تقيم في الريف وترسل إليه بالنقود، أما دستويفسكي فكان يتلقى من الوصيّ معاشًا يكفي لتوفير حياة متواضعة له. للأسف فقد كان لدى أبي مفهوم خياليّ عن الاقتصاد. لقد ظل طول عمره نبيلاً ليتوانيًا، ينفق كل ما يقع تحت يده، دون أن يلقي بالاً للمستقبل. لم يتوقف هذا الأمر في كافة مراحل حياته المختلفة. أتذكر واحدة من رحلاته التي قام بها في سنواته الأخيرة، عندما سافرت أسرتنا إلى أوكرانيا في زيارة إلى عمي إيفان. كان علينا أن نتوقف قبلها عدة أيام في موسكو، وهناك استأجر دستويفسكي لنا غرفًا في أفضل فنادق المدينة، الأمر الذي أثار غضب أمي الشديد، والأدهى من ذلك أن هذه الغرف كانت في الطابق الفاخر، بينما كنا نعيش في بطرسبورج على نحو متواضع تمامًا. وعلى الرغم من

الشـجار الذي خاضته أمي فإنها لم تسـتطع أن تثني زوجها عن إسـرافه. وكنا إذا ما تصادف وانتظرنا ضيوفًا في عيد من أعيادنا الأسـرية، نجـد والدي يهرع دائمًا بنفسـه لشـراء المقبّلات والفواكه والحلوى، التي لا يمكن من دونها في روسيا، إقامة غداء حافل، ولو لا أن أمي كانت تبدي بعض التحفظات لذهب دستويفسكي إلـى أغلـى المحال ولاشـترى كل ما لـذَّ وطاب مما يجـده أمامه. لا أستطيع أن أتمالك نفسـي مـن الضحك، عندما أقرأ كيـف كان ديمتري كارامازوف يشتري كل أنـواع المخللات من محل بلوتنيكوف قبيل السـفر إلـى موكرويه، ثم أتخيل نفسي في ستاريا روسا، في نفس محل بلوتنيكوف، حيث كنت أذهب بصحبة أبي وبفضول طفل يعشق الحلوى كنت أرقب طريقته الفريدة في الشراء. عندما كنت أذهب للشـراء مع أمي، كانت تغادر المحل وهي تحمل معها كيسًا صغيرًا تحمله بإصبعيـن فقـط من أصابعهـا، أما إذا ذهبـت بصحبة أبي، فكنا نخـرج من المحل بأيـد فارغـة، بينما يسـير مـن أمامنا أو من خلفنـا عدد من الصبية يحملون سلالاً كبيرة في مرح آملين أن ينالوا بقشيشًـا سـخيًا. وباعتباره نبيلا ليتوانيا لم يطرح أبي مطلقًا على نفسـه سـؤالاً حول ما إذا كان غنيًا أم فقيرًا. في الأزمان الغابرة كان من الممكن أن تجد النبلاء المحليين في بولندا وليتوانيا يتضورون جوعًا في بيوتهم، ولكنهـم يظهرون أمام الناس وهـم يركبون العربات المُذهَّبـة وقد ارتدوا ملابس من المخمل. لم يكونوا يتهربون من الديون، يسددون ولو عشر ما اقترضوه، ولم يكونـوا يفكرون في أوضاعهم المالية، كانوا يسـتمتعون من أعماقهم، يضحكون ويرقصون. هذه الخصلة القومية غير الحميدة على الإطلاق لم تكن لتبرأ سريعًا، إذ يسـتلزم الأمر قرونًا طويلة. الكثير من أحفاد هؤلاء كان عليهم أن يعانوا تبعات إسـراف أسـلافهم الجنوني. لكن بقي هناك فارق جوهري بين النبلاء الليتوانيين وبيـن أبي. هؤلاء كانوا يقضون حياتهم لهوًا وعبثًا غير آبهين بالآخرين، بينما كان أبي يمد يد الإحسـان لكل محتاج يقابله، ولـم يسـتطع في يوم من الأيام أن يبخل

بمال على الذين يقصون عليه أحوالهم البائسة طالبين منه المساعدة. كان يعطي بسخاء مقابل أدنى خدمة، الأمر الذي كان يثير غضب أمي.

من الواضح أنه بسبب هذا السلوك غير العملي من جانب أبي، فقد كان ما ينفقه أكثر مما يرسله إليه الوصي من موسكو. تورط في الديون ولكي يتخلص من الدائنين عرض على وصيه الحق في التصرف في نصيبه من الميراث مقابل مبلغ متواضع للغاية من المال، على أن يقوم الوصي بسداده على وجه السرعة. وافق الوصي على هذه الصفقة، على الرغم من أنه ما كان له أن يفعل ذلك. كانت عماتي يرين أن أخاهم دستويفسكي ليس على دراية بالأعمال، ومن ثم فسوف يحصل عند إجراء المخالصات المالية على مبلغ أقل. فيما بعد، عندما حصلت عائلة دستويفسكي على ميراث آخر، حاولت عماتي استغلال ذلك الأمر، واضطر أبي لأن يدخل في صراع ضد مطامع أخته، الأمر الذي كان سببًا في التعجيل بالقضاء على حياته. وسوف أحكي لاحقًا هذه القصة في الفصول الأخيرة من كتابي على نحو أكثر تفصيلا. سوّى دستويفسكي ديونه وسرعان ما أنفق القليل الذي تبقى لديه. حاول دستويفسكي أن يتكسب من الترجمة[1]، لكنهم كانوا يدفعون له أجرًا ضئيلاً بطبيعة الحال. آنذاك أسرعت خالته كومانينا لمساعدته فأوقفت عليه راتبًا شهريًّا منتظمًا، كانت خالته قد تزوجت من أحد الأثرياء وعاشت في موسكو في بيت من البيوت الفاخرة، يحيطها جيش من الخدم وعدد لا يحصى من الطفيليين، من نساء فقيرات كانت فرائصهن ترتعد أمامها ويهرعن لتلبية كافة نزوات ربة البيت المستبدة. كانت تقوم على رعاية أبناء وبنات إخوتها وأخواتها وكانت تُميز أبي بشكل خاص وقد ظل دومًا هو المفضل لديها. من بين أفراد العائلة كانت هي الوحيدة التي استطاعت أن تقدره حق قدره وكانت على استعداد لمساعدته في كل وقت. كان أبي يحب خالته العجوز بشدة، وإن راح يسخر منها

(1) إلى هذه الفترة تعود ترجمته الرائعة لرواية «يوجيني جرانديه» لبلزاك.

أحيانًا، شأنه في ذلك شأن كل ابن أخت شاب، وقد رسم شخصيتها في روايته «المقامر» في «بابولينكا»، السيدة الموسكوفية، التي تسافر إلى ألمانيا لتنفق في القمار نصف ثروتها ثم تعود لتظهر فجأة في موسكو. في تلك السنوات، التي كان القمار مزدهرًا فيها في ألمانيا، كانت كومانينا شقيقة جدتي عجوزًا لا تستطيع السفر. ربما تكون قد شاركت ذات يوم في لعب الورق في موسكو وخسرت آنذاك أموالاً طائلة. لعل دستويفسكي، عندما وصفها في روايته وهي تقامر في لعبة الروليت إلى جانبه في ألمانيا أراد أن يحيطنا علمًا من أين نشأ لديه ولعه بالقمار. بالمناسبة، سوف يكون من الخطل أن نفترضِ أن إسراف والدي يعود إلى انغماسه في حياة مستهترة. لقد كان دستويفسكي الشاب إنسانًا كادحًا دؤوبًا، يقضي معظم أيامه جالسًا إلى مكتبه يتحدث إلى أبطاله، ضاحكًا تارة، باكيًا تارة، مشاركًا إياهم معاناتهم. أما صديقه جريجورفيتش، الأكثر ميلاً إلى النزعة العملية، فلم يكن يكتفي بالكتابة، وإنما كان يسعى فوق ذلك إلى عقد علاقات مثمرة، ساعيًا لأن يجد منفذًا إلى الصالونات الأدبية، التي اصطحب إليها بعد ذلك رفيقه دستويفسكي. كان جريجورفيتش فتى وسيمًا، مرحًا أنيق الملبس، يلاطف النساء وكان الجميع معجبين به. أما أبي فكان سريع الارتباك، هيَّابًا، عبوسًا، يفتقر إلى الوسامة، مُقِلًا في حديثه، يميل أكثر إلى الإنصات. في هذه الصالونات الأدبية تعرف الصديقان على تورجينيف الشاب، الذي اختار بطرسبورج أيضًا لتكون ساحة لنشاطه الأدبي، وكان أبي معجبًا به. وقد كتب ذات يوم رسالة ساذجة إلى أخيه ميخائيل، الذي كان قد أنهى الدراسة لتوه وحاز على رتبة عسكرية وبدأ الخدمة في ريفيل، يقول فيها: «أنا مُتيَّم بتورجينيف، كم هو إنسان جميل، لطيف، دمث الخلق على نحو رائع!». تقبَّل تورجينيف هذا الإعجاب بتواضع كائن رفيع المقام لكنه لم يكترث بأبي أصلاً.

نجح جريجورفيتش في التعرف على الشاعر نكراسوف، الذي كان بصدد إصدار مجلة أدبية. كانت لدى جريجورفيتش رغبة شديدة في الانضمام إلى كُتّاب هذه المجلة على أي نحو، لم تكن مخطوطات أعماله الشخصية قد اكتملت بعد، لقد كانت الحياة الاجتماعية تستولي على معظم وقته، لكنه كان يعلم أن دستويفسكي قد انتهى من كتابة رواية ما، وأنه يمضي طول وقته في تنقيحها، خوفًا ألا تكون قد بلغت مبلغ الكمال بعد.

أقنع جريجورفيتش والدي بأن يعهد إليه بالمخطوطة وحملها إلى نكراسوف. سأله نكراسوف إن كان يعرف شيئًا عن هذه الرواية، ولمّا عرف من جريجورفيتش أنه لم يتسنَّ له قراءتها بعد، عرض عليه أن يقرأ معًا فصلين أو ثلاثًا ليتأكدا إن كانت هذه الرواية تستحق الاهتمام.

قرأ الاثنان معًا الرواية الأولى[1] لأبي دون توقف. وعندما كانا يقلبان الصفحة الأخيرة، كان الصبح ينبلج خلف النوافذ. كان نكراسوف في قمة السعادة وصاح في جريجورفيتش قائلًا: «هيا بنا إلى دستويفسكي، أود أن أخبره برأيي في الرواية». اعترض جريجورفيتش قائلاً: «لكنه نائم، ما زال الوقت ليلا». «وماذا في ذلك! هذا الأمر أهم من النوم!» انطلق المتحمس وفي أثره جريجورفيتش، ليذهب في الخامسة صباحًا إلى أبي ليوقظه ويخبره أن لديه موهبة عظيمة.

(1) تحمل هذه الرواية اسم «الفقراء». كان أبي قبل أن يقوم على تأليفها، قد شرع في كتابة مأساة بعنوان «ماريا ستيوارت»، ثم أهملها ليكتب مسرحية «بوريس جودونوف». كان اختيار الموضوعين أمرًا لافتا. يمكننا أن نفترض أن دستويفسكي في مطلع شبابه كانت تتصارع بداخله الصفات الوراثية النورماندية التي ورثها عن أسلافه من جهة والده مع تلك الصفات الوراثية المغولية التي ورثها من جهة أسلافه الموسكوفيين. على أن الدم السلافي بدا أقوى ليتغلب على الطابع النورماندي والمغولي. نحى دستويفسكي جانبا كلا من «ماريا ستيوارت» و«بوريس جودونوف» وقام بكتابة «الفقراء»، رواية زاخرة بتعاطفنا السلافي الآسر.

عرضا المخطوطة على الناقد البارز بيلينسكي، الذي ما إن قرأها حتى أخذته الرغبة في التعرف على الكاتب الشاب. دخل دستويفسكي عليه يرتجف من الاضطراب. نظر إليه بيلينسكي بملامح صارمة قائلا: «أتعرف أيها الفتى ماذا كتبت؟ كلا، أنت لا تعرف! أنت نفسك لا تدرك ماذا كتبت».

نشر نكراسوف «الفقراء» في مجلته لتلقى هذه الرواية نجاحًا منقطع النظير. لقد استيقظ أبي من نومه ليجد نفسه كاتبًا مشهورًا. سعى الجميع للتعرف عليه. لم يكن يسمع سوى عبارة واحدة: «من دستويفسكي هذا؟». كان أبي آنذاك يتردد على الحلقات الأدبية، لكن أحدًا حتى ذلك الحين لم يكن يعرفه. ليتوانيٌّ شديد الحياء، كان دائمًا ما ينزوي في ركن ما، في حنية النافذة، خلف الستائر. الآن لم يعد يُسمح له بالاختفاء. راح الناس يحتشدون حوله، يغرقونه بالمجاملات، يدفعونه للتحدث على سجيته ويعترفون أنه إنسان ساحر. إلى جانب الصالونات الأدبية، التي كان يلتقي فيها الساعون لأن يصبحوا أدباء، أو، المهتمون بالأدب، كانت هناك صالونات أخرى في بطرسبورج أكثر مهابة، كانت تستقبل فقط مشاهير الكُتَّاب والفنانين والموسيقيين. كانت هذه صالونات الشاعر الكبير الأمير أو دستويفسكي والأديب الظريف الأمير سولوجوب، وصف الحياة الروسية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وصالون صهره الأمير ڤيلجورسكي، البولندي الذي تروَّس فيما بعد، كل هؤلاء السادة سارعوا إلى التعارف على دستويفسكي واستضافته في بيوتهم، وكانوا يلقونه بكل ترحاب ومودة. أكثر ما كان يثير إعجاب أبي في بيت ڤيلجورسكي هو الاستماع إلى الموسيقيين الرائعين. كان دستويفسكي عاشقا للموسيقى. على أنني أظن أنه لم تكن لديه أذنٌ موسيقية، لأنه كان ينظر بشك للأعمال التي لم يستمع إليها من قبل، والتي كلما استمع إليها أكثر، ازداد استمتاعًا بها. الأمير ڤيلجورسكي كان هاويا شديد الحماس للموسيقى، شمل برعايته الموسيقيين وكان يفتش عنهم في

أكثر أحياء العاصمة فقرًا وغموضًا. من المحتمل تمامًا أن يكون ڤيلجورسكي قد اكتشف في عُلِّيَّة[1] ما في أحد البيوت عازفًا سكيرًا على الكمان، وقد دعا هذه الشخصية النابضة بالحياة بوصفه إنسانًا عزيز النفس، يرى في نفسه عبقرية غير معترف بها، وقد أشعل هذا الرجل خيال أبي، وكان موقع الأحداث في روايته «نيتوتشكا نيزڤانوڤنا» هو بيت ڤيلجورسكي. في هذه الرواية صوَّر دستويفسكي بدقة وعلى نحو مدهش لنفسية المرأة، ولكن، ربما يكون قد قدَّمها للقارئ على نحو غير كافٍ نظرًا لكونه كان ما يزال شابًا يفتقر إلى الخبرة.

يقال إن الأميرة ڤيلجورسكايا كانت كنيتها الأميرة بيرون. وينحدر آل بيرون من سلالة نبلاء في كورلياندیا في ألمانيا، ودائمًا ما كانوا يدَّعون أنهم من أصول أوروبية أرستقراطية؛ فضلا عن كونهم من الوجهاء الإقطاعيين. ونحن إذا ما قرأنا رواية «نيتوتشكا نيزڤانوڤنا» بتمعن، سوف نلحظ بسهولة أن الأمير س، الذي تبنى فتاة يتيمة فقيرة، هو إنسان تلقى تربية جيدة، مثقف من علية القوم، بينما زوجته امرأة متعجرفة كانت تشيع في بيتها أجواء من حياة القصور. يتحدث المحيطون بها عنها حديثهم عن ملكة. كانت ابنتها كاتيا أميرة بحق، مُدلَّلة، ذات نزوات، تُرهب أبناءها تارة، وتارة تضمهم إلى محاسيبها. سرعان ما تحول حبها لنيتوتشكا إلى حب شهواني، بل وحتى إيروتيكي. وقد عاب النقاد الروس على دستويفسكي هذه النزعة الإيروتيكية، بينما كان هو على حق تمامًا، إذ إن كل هؤلاء الأميرات التعيسات، الأسيرات الدائمات للمصالح الحكومية، لم يكنَّ يملكن أي إمكانية للزواج عن حب، وهؤلاء كنَّ كثيرًا ما يتعرضن لهذا الشكل الإيروتيكي المنحرف بشكل صريح للصداقة النسائية. هذا الشذوذ، الذي راح ينتقل بالوراثة، هو تمامًا ما ظهر لدى كاتيا الصغيرة، الصبية التي لم تبلغ بعد سن الرشد. لم يكن لڤيلجورسكي بنات، وقد رسم دستويفسكي صورة كاتيا واضعًا

(1) العُلِّيَّة: الغرفة في الطبقة الثانية من البيت.

في اعتباره الخصائص المميزة لنمط عائلة من الأمراء. إن دستويفسكي هنا يكشف وهو يصف هذه الأميرة الصغيرة العصابية عن معرفة واسعة بنفسية المرأة، وهو أمر مدهش بالنسبة لشاب خجول، اعتاد على تجنب النساء والرهبة منهن. آنذاك كانت موهبته الكبيرة قد بدأت تكشف عن نفسها، للأسف لم يكن أمامه فضاء رحب يستلهم منه أبطاله. كان حوله فقط مكان قفر. بطرسبورج المساكين، الذين وُلدوا وترعرعوا فوق مستنقع[1]، مدينة تمثل محاكاة دارجة، نسخة كاريكاتورية من أوروبا. يقول الكاتب ميخائيل سالتيكوف: «كل هؤلاء الناس هم موتى من قديم الزمن، إنهم يواصلون الحياة فقط لأن الشرطة نسيت أن تدفنهم».

أصدقاء دستويفسكي، الكُتّاب المبتدئون، لم يكن بمقدورهم تحمل نجاحه المفاجئ. كانوا يكنون مشاعر الحسد الأدبي، لقد أشعل نجاحه أوار غضبهم، كيف لهذا الشاب المتواضع، الوجل، أن يرتاد صالونات المشاهير، المغلقة في وجوه الأدباء المبتدئين. لم يكونوا يدركون ما الذي في رواية «الفقراء» جعلها عملاً رائعًا. كانت الرواية بالنسبة لهم عملاً سخيفا ومملاً. راحوا يقلدونه نثرًا وشعرًا ويسخرون من هذا الكاتب الشاب[2]. وحتى يحطوا من شأنه أمام الرأي العام راح رفاقه ينشرون أحقر الوشايات في حقه. كانوا يؤكدون أن النجاح أدار رأسه وأنه يطلب الآن أن تنشر كل صفحة من روايته الجديدة في العدد القادم من مجلة نكراسوف في إطار بوصفها عملا رائعًا. لم يكن ذلك بطبيعة الحال سوى افتراء محض، فقد نشرت رواية «المثل» دون وضعها في أي إطار من الأطر. كانوا يسخرون من ارتباكه في حضور النساء: وكانوا يحكون أنه كان يصل به الاضطراب، عندما يقدمون له امرأة ما شابة إلى حد أنه كان يخر مغشيًا عليه عند

---

(1) بُنيت مدينة بطرسبورج (1703) فوق المستنقع الفنلندي على يد القيصر بطرس الأكبر (1672-1725). (المترجم)

(2) كتب تورجينيف قصيدة ساخرة صوَّر أبي فيها في أسخف صورة.

قدميها. لقد عانى أبي مرارة الإحساس بخيبة الأمل في أصدقائه. كان يتصور الصداقة على نحو آخر. كان يؤمن بسذاجة أن الأصدقاء سوف يفرحون لنجاحه، كما سيفرح هو بالطبع لنجاحهم. ظهرت ضغينة تورجينيف، الذي أغضبه نجاح «الفقراء»، واختلق أمورًا لكي يغيظ أبي، ما أحزنه كثيرًا، وهو الذي كان يكِنُّ له مشاعر الحب ويقدره بإخلاص شديد. كان ذلك وراء العداوة المستحكمة التي نشبت بين هذين الكاتبين، والتي استمرت طول حياتهما، والتي أثارت هذا القدر الهائل من الأقاويل في أنحاء روسيا.

إذا ما أشرنا إلى كل أصدقاء دستويفسكي على مدى حياته لأمكننا أن نلاحظ أن هؤلاء الذين ارتبط بهم في شبابه، يختلفون تمام الاختلاف عن أصدقائه الذين عرفهم في سنوات نضجه. عندما بلغ دستويفسكي الأربعين من عمره كان يجد الدعم بشكل استثنائيٍّ تقريبًا من أصدقائه من الأوكرانيين والليتوانيين والبولنديين ومن بلدان البلطيق. إلى هؤلاء ينتمي جريجورڤيتش نصف الأوكراني ونصف الفرنسي، صديق أبي المقرب، الذي سعى لنشر روايته الأولى؛ نكراسوف، وكانت أمه بولندية، وهو الرجل الذي يدين له أبي بنجاحه الأول؛ بيلينسكي، الناقد البارز، وينحدر من أسرة بولندية أو ليتوانية، وهو الذي كشف للقارئ الروسي عن موهبة دستويفسكي. يمكن أيضًا أن نتذكر الأمير سولوجوب، الذي ينتمي لعائلة ليتوانية شهيرة، ثم الأمير البولندي ڤيلجورسكي، اللذين استقبلاه بكل حفاوة وترحيب في صالونيهما. فيما بعد، في سيبيريا، سنرى أن سويديا وعددًا من الأصدقاء تعود أصولهم إلى بلاد البلطيق قد شملوا أبي برعايتهم. يمكن أن نتصور أن هؤلاء جميعًا رأوا فيه إنسانًا أوروبيًا ذا ثقافة غربية، كاتبًا على دراية عميقة بأفكارهم السلافية النورماندية. أما خصومه بالمناسبة فكانوا جميعًا، بلا استثناء، من الروس. زملاء الدراسة في مدرسة الهندسة كانوا يسخرون منه بقسوة، رفاقه من الأدباء الشباب كانوا يكرهونه ويستهينون به. كل منهم كان

يسعى للاستهزاء به والنيل منه. يمكن الظن أنهم كانوا يشعرون أن لديه شيئًا مخالفًا لمثلهم الروسية.

بعدما تجاوز أبي سن الأربعين انتهى إلى قبول الفكرة الروسية على نحو نهائيّ، وبشكل جذريّ تغير المُركَّب القوميّ لأصدقائه. اختفى السلافيون - النورمانديون من حياته وراح الروس يسعون لصداقته ليصطفوا كالجدار حوله. وبعد وفاته واصلوا بنفس الغيرة نسبه إلى أنفسهم. وفي كل مرة كنت أتحدث فيها عن أصل عائلتنا الليتواني، كان العبوس يعلو على الفور وجوه مواطنيّ ليقاطعونني بقولهم: «فلتنس ليتوانيا التعيسة هذه! لقد تركتها عائلتك منذ زمن بعيد. لقد كان أبوك روسيًّا، روسيًّا قحًّا، ولم يفهم أحد روسيا كما فهمها هو!». كنت أضحك عندما أرى هذه الغيرة، التي مردها الحب في الواقع. أعتقد أن الروس في نهاية الأمر على حق فهم الذين أعطوا دستويفسكي موهبته العظيمة. لقد شكَّلت ليتوانيا طباعه وارتقت بفكره، بينما أيقظت أوكرانيا الشعر في روح أجداده، على أن كل ذلك كان زيفًا ووهمًا تراكم على مدى قرون طويلة واحترق عندما أسقطت عليه روسيا المقدسة شرارة عبقريته.

لقد كتب أبي روايته الأولى، بلا شك، على نحو فائق الروعة، لكنها ليست على أيّ حال رواية أصيلة. إنها من ثمار جوجول، الذي كان متأثرًا بدوره بالأدب الفرنسي في هذا الزمان. والأكثر وضوحًا من كل هذا أن هذا التيار الأدبي كان ممثلاً في «البؤساء»، في شخصية چان ڤالچان المثالية. بالطبع فقد كُتبت «البؤساء» بعد ذلك؛ لكن نمط چان ڤالچان نفسه، السجين ذو القلب الذهبي، كان قد بدأ في الظهور في الأدب الأوروبي. لقد شجعت الأفكار الديموقراطية، التي أعلنتها الثورة الفرنسية، شجعت الكُتَّاب على رفع الفقراء والفلاحين والمواطنين البسطاء إلى منزلة الأبطال، وهي المنزلة، التي كان يشغلها من قبل النبلاء وممثلو المثقفين. هذا الاتجاه الجديد في الأدب حاز على إعجاب الروس، الذين لم

تكـن لديهـم في أيِّ وقـت من الأوقـات أرسـتقراطية إقطاعية، ومن ثـم فإن هذه الأفـكار الديموقراطيـة جذبتهـم إليها منذ البدايـة. كان الكُتَّاب الـروس في تلك الفتـرة مـن علية القوم المثقفيـن، لكنهم لم يعودوا يرغبون فـي وصف صالونات المجتمع الراقي، وراحوا يبحثون عن أبطالهم في الأحياء الفقيرة. لم يكن لديهم في الواقع أي تصور عن هؤلاء الناس؛ وبدلا من أن يصفوهم على ما هم عليه، أي أناس جهلة، بليدو الإحساس من أثر الفقر والعوز، ألبس هؤلاء الكُتَّاب أبطالهم الجـدد أحاسـيس النبلاء وأرغموهم علـى كتابة خطابات جديـرة فقط بمدام دي سـيفينيه[1]. كان ذلـك أمـرا زائفـا وعبثيـا؛ على أنه من هـذه الروايـات انبثق أدب القرن التاسـع عشـر، الذي شـكَّل مجد وطننا. شـيئًا فشـيئًا بدأ هؤلاء الكتاب في إدراك أنـه لكي تصـف بيئة جديدة، عليك أولاً أن تدرسـها. راحـوا يراقبون حياة الفلاحيـن ورجال الدين والتجار والموظفين؛ ظهر وصف رائع للحياة الروسـية، التي كانوا يعرفونها من قبل بصورة سيئة. لكن ذلك استغرق وقتًا طويلاً. في ذلك الزمن الذي أتحدث عنه، كان الروائيون يسترشدون في معظم ما يكتبونه بخيالهم الخاص، فكان إبداعهم خليطًا غير متجانس.

لا شـك أن أبـي كان يـدرك كم مـن الزيف في هـذا النوع مـن الروايات؛ وفي عملـه الجديد سـعى للخـروج على هذا التيـار الأدبـي. إن رواية «المثـل» تفوق روايـة «الفقراء» قـوة على نحو لا حدود لـه. إنها عمل فريد، عمـل مكتوب على «طريقـة دستويفسـكي». أعرب الأطباء النفسـانيون في بلادنا عـن إعجابهم بهذه الرائعة الصغيرة وأدهشـتهم مقدرة الكاتب الشاب، الذي لم يدرس الطب مطلقًا، علـى وصـف الأيـام الأخيرة لرجـل مجنـون[2]، ومع ذلـك فالروايـة الثانية لأبي

---

(1) كاتبة فرنسية اشتهرت بكتابة أعمال للمجتمع الراقي. (المترجم)

(2) كان دستويفسكي يقدر «المثل» تقديرًا رفيعًا. وبعد عودته من سيبيريا كتب عن «المثل» يقول في أحد خطاباته إلى أخيه ميخائيل: «كانت فكرة رائعة، نموذج لمغزى اجتماعي كبير أنا أول من وضعه وقدمه».

لـم تلق مـن النجاح ما لقيتـه روايته الأولـى. كان عملاً مبتكرًا للغاية، لم يستطع الجمهور أن يفهم هذا التحليل الدقيق لنفسـية الإنسـان، والذي اكتسـب فيما بعد شـعبية كبيـرة. لم يكن موضوع الجنـون «على الموضة»؛ إنهـا رواية بلا بطل ولا بطلـة، رواية تثير الملل. لم يُخفِ النقاد شـعورهم بالإحباط. كتبوا يقولون: «لقد أخطأنا، فدستويفسكي ليس على الإطلاق كاتبا موهوبا كما كنا نظن». لو كان أبي أكبر سـنًّا، لما أولـى اهتمامًا للنقاد، ولعَمِل على تطوير هـذا النوع الأدبي الجديد ولحملـه إلى الجمهور، بل ولأهدانا فوق ذلك صورًا نفسـية جديدة. لكنه كان ما يزال شـابًّا في مقتبـل العمر، نجح النقد في إرباكه. خشـي دستويفسـكي أن يفقد الرضـا الـذي قوبلت بـه روايته الأولـى فعاد إلى محـاكاة جوجـول. الآن تحدوه الرغبـة من جديد في الكتابة وقد بات يمتلك معرفة بالقضية. راح يدرس الأبطال الجدد في الأدب الروسـي، ويسـعى لعقد لقاءات مع سـكان «زوايا» المدينة في المطاعـم الرخيصة وفي حانـات العاصمة. أخذ يتجاذب أطراف الحديث معهم، يتأملهم ويتعمق في النفاذ إلى طباعهم وعاداتهم بكل انتباه. لم يكن دستويفسكي علـى دراية بكيفية الاقتراب من هؤلاء الغربـاء فكان يدعوهم للعب البلياردو. لم تكـن هذه اللعبة تسـتهويه فلـم يكن لاعبًا ماهـرًا. وبالطبع فقد كان يخسـر كثيرًا. ولكنـه لم يكن ليأسـف على ذلـك. لقد هيأ له اللعب فرصـة أن يراكم ملاحظات قيّمة وأن يحفظ عن ظهر قلب هذه الكلمات والتعبيرات الفريدة[1]. بعد أن كرّس

---

(1) يحكـي أصدقـاء دستويفسـكي فـي مذكراتهـم أنه كثيـرًا مـا كان يصطحب إلـى منزله معـارف مـن بين العابريـن مـن رواد المطاعم والبـارات، ويـروح يتحدث معهم أيامًا بطولها ويستمع إلى حكاياتهم. لم يكن أصدقاؤه يدركون ما الذي كان يجده في رفاقه الأجلاف هؤلاء. فيما بعد، عندما قرءوا رواياته، اكتشـفوا فيها تلك الشـخصيات، التي تمثل النماذج الأصلية التي قابلوها في منزل دستويفسكي. بداهة فإن أبي، مثله مثل كافة الشباب الموهوبين لم يكن باستطاعته سوى الكتابة من الطبيعة. فيما بعد لن يكون أبي بحاجة إلى موديلات، وسوف يبدع هو بنفسه أبطاله.

أبي بضعة شهور لدراسة هذه البيئة الغريبة، شرع في وصف «صغار الناس» كما هم على حقيقتهم، آملاً أن يلقى ذلك إعجاب القراء. ولكن هيهات! لقد كان بانتظاره استقبال أسوأ مما مضى. كان الجمهور على استعداد أن يولي اهتمامه للبؤساء بشرط أن يتم تقديمهم على طريقة جان ڤالجان. أما حياتهم الواقعية، الحقيقية، الفقيرة والسوقية فلم تكن تثير اهتمام أحد.

عندئذ راودت الشكوك دستويفسكي في موهبته. اعتلت صحته وأصبح عصبيًا، هستيريًا. عاودته نوبات الصرع أكثر، ولم يجد مخرجًا من هذه النوبات، التي راحت تعذبه بشدة[1]. الآن بدأ في تجنب الصالونات وأخذ يجلس في ركنه بالساعات، وكان يذهب للتجول في أكثر شوارع بطرسبورج إظلاما وإقفارًا. كان في بعض الأحيان يحدث نفسه أثناء السير محركًا يديه، كان المارة عندئذ يستديرون ناظرين إليه. كان معارفه عندما يلتقون به يظنون أن به مسًا من الجنون. لقد أطفأت بطرسبورج الكالحة الخاملة موهبته. بات المجتمع الراقي فيها مجرد كاريكاتور في أوروبا، سكان المدينة من الفنلنديين – الأتراك، جنس من الدرجة الدنيا لم يستطع أن يعطي دستويفسكي أيّ تصور عن الشعب الروسي العظيم. لم تكن لديه أموال كافية للسفر إلى أوروبا، إلى القوقاز أو القرم. في ذلك الزمن كان السفر مكلفًا للغاية. كان أبي يذوي في بطرسبورج ولم يكن يشعر بالتحسن إلا عند أخيه ميخائيل، الذي استقر في العاصمة، وبعد أن تخلى عن مستقبله العسكري قرر أن يكرس حياته للأدب. تزوج ميخائيل من امرأة ألمانية من ريڤيل

(1) يحكي الدكتور يانوڤسكي، الذي كان أبي يحبه بشدة، وكان يتردد عليه كثيرًا للاطمئنان على صحته، أن دستويفسكي كان يعاني من مرض عصبي، يشبه كثيرًا مرض الصرع، وذلك قبل مدة طويلة من ذهابه للمعتقل. وكما ذكرت سابقًا، فإنه وفقًا للحكايات العائلية، فإن أول نوبة وقعت له، كانت على أثر علمه بالوفاة المأساوية لجدي ميخائيل. بداهة فقد كان دستويفسكي مريضًا بالصرع منذ أن كان عمره ثمانية عشر عامًا. على أن المرض اتخذ شكلا قاسيًا بعد اعتقاله فقط.

تدعى إيمليا ديتمار، وأنجبا عددًا من الأطفال. كان أبي يحب أبناء أخيه، كان ضحكهم يخفف من مزاجه السوداوي.

من الغريب أن النساء لم يكنّ يشغلن أي مكان في حياة دستويفسكي في هذه الفترة المبكرة من شبابه، والتي كانت بالنسبة لمعظم الرجال هي فترة الحب. لا خطيبة لديه ولا أي شكل من أشكال العلاقات، أو حتى الغزل. هذه الاستقامة المفرطة يمكن تفسيرها فقط بتأخر النضج الجسدي لديه، وهو أمر معتاد بالنسبة لشمال روسيا. بموجب القوانين الروسية تعتبر المرأة قد وصلت إلى سن الزواج في السادسة عشرة من عمرها. قبل سنوات من اندلاع الحرب، وقف العلماء الروس ضد هذا القانون الهمجي. فهم وفق ملاحظاتهم يرون أن التكوين الجسدي للمرأة في الجزء الشمالي من روسيا لا يكتمل إلا ببلوغها سن الثالثة والعشرين، فإذا تزوجت قبل ذلك فإن أولادها يمكن أن يتعرضوا للمرض وأن يقضي ذلك نهائيا على صحتها. يرى أطباؤنا في الزواج المبكر تحديدًا أنه السبب في الأمراض العصبية والهستيرية التي تصيب كل هذه الزيجات الروسية الملعونة. لو كان العلماء على حق، فهذا يعني أن التكوين الجسدي للشباب في شمال روسيا يصل إلى ذروة النضج عند الخامسة والعشرين، حيث إن النضج في كل مكان لدى الرجال أبطأ منه عند النساء. هكذا فإن الأجسام المنحرفة عن القواعد الطبيعية، مثل تلك التي تعاني من الصرع، تصل إلى درجة النضج أكثر تأخرًا. من الجائز أن دستويفسكي لم يكن قد بلغ في تلك السنوات مرحلة الحلم بعد. كان على الأرجح، استنادا إلى نموه، أقرب إلى تلميذ- مراهق، لم يكن يشعر بالحاجة بعد إلى النساء، أو أن يعجب بهن عن بعد، كان ما يزال يتخوف منهن. لا بد أن رفاق أبي، الذين كانوا يؤلفون النكات التي تصف كيف كان يسقط مغشيًا عليه عند أقدام الشابات الجميلات، كانوا يشيرون إلى ارتباكه الفظيع أمام

النسـاء[1]. بـدأ أبي حياته العاطفية بعد عودته مـن المعتقل، ومن يومها لم يحدث أبدًا أن وقع مغشيًا عليه.

بطـلات الروايات الأولى لدستويفسـكي كـن فقيرات، غامضـات، عليلات. في تلك السـنوات نجح في رسـم نموذجين نسـائيين فقط - نيتونشـكا نيزفانوفنا الصغيـرة وكاتيا. فتاتان تبلغان من العمر عشـر سـنوات واثنتي عشـرة سـنة. هذه الروايـة، «نيتونشـكا نيزفانوفنـا»، التـي تقف على نفس مسـتوى روايـة «المثل»، يمكـن اعتبارهـا أفضل روايـة ظهرت في تلـك الفترة. لكن دستويفسـكي كان ما يـزال يعيبه شـيء واحد، شـيء ميَّـز كل رواياتـه تقريبا التـي كتبها قبـل ذهابه إلى المعتقـل: لقـد كان أبطالـه عالميين إلـى درجة كبيـرة، يمكنهم أن يعيشـوا تحت أي سـموات، فـي أي مناخ، يتحدثـون كل اللغات. لا وطن محـدد لهم، ومثلهم مثل كل الكوزموبوليتانيين، شـاحبين خامليـن، وغامضين لا ملامح لهم. وحتى يصبحوا حقيقيين، كان لا بد من منحهم قومية. وهو ما سيقوم به دستويفسكي في سيبيريا.

---

(1) فـي مذكراته يقول دكتـور ريزينكامبف، الذي كان يعرف أبي فـي تلك الفترة من حياته معرفة جيدة: «في سـن العشـرين يبحث الشـباب عـادة عن المرأة- المثـال، ويهرعون خلف كافة الجميلات. لم ألاحظ شـيئا من ذلك على دستويفسـكي. كان لامباليا تجاه النسـاء، كان يشـعر بالنفور ناحيتهن. على أن ريزينكامبف يضيف قائلاً أن دستويفسكي كان مهتمًـا بالأمور العاطفية لـدى أصدقائه، وكان يحب أن يترنـم بالأغاني العاطفية». وقـد ظلت عـادة ترديده للأغانـي العاطفية ملازمة لـه طول حياتـه. كان يغنيها همسًـا وخاصة عندما كان يظن أن أحدًا لا يقف قريبًا منه.



الفصل الخامس
مؤامرة بتراشيفسكي

في تلك الحقبة الحزينة من حياته، وجد أبي نفسه متورطًا في مؤامرة بتراشيفسكي السياسية. فيما بعد راح كل الذين عرفوا أفكار دستويفسكي حول الملكية يتساءلون في ذهول: كيف استطاع أن يعقد هذه الصلات مع الثوريين؟

في حقيقة الأمر، فإن من المستحيل أن نفسر ذلك إذا لم نعد بالذاكرة إلى أصول أبي الليتوانية. لقد انضم إلى خصوم القيصر، لأنه لم يكن يدرك بعد المغزى الحقيقي وراء الملكية الروسية: في تلك الفترة لم يكن دستويفسكي يعرف روسيا جيدا. لقد قضى طفولته في عالم ليتواني مصطنع ابتدعه والده في بيتهم في موسكو. وفي شبابه، في قلعة الهندسة، كان يتجنب، قدر المستطاع، رفاقه الروس. وباعتباره كاتبا شابا راح يتردد على الحلقات الأدبية في بطرسبورج أيام الأربعاء، منقطعا عن الحياة في البلاد وكأنه في مكان آخر. في ذلك الزمن كانت روسيا بلادًا مجهولة تقريبا؛ كان مؤرخوها وجغرافيوها قد بدءوا لتوهم في الظهور. كان السفر والتجوال أمرًا صعبًا ومُكلِّفًا. لم تكن قد ظهرت بعد في البلاد السكك الحديدية أو البواخر. كان الفلاحون الأقنان يزرعون الأرض في صمت، حتى أنهم كانوا يسمُّون الفلاح الروسي «أبا الهول». أما الكُتَّاب الروس

فكانوا يعيشون نفس الحياة الروحية الأوروبية. كانوا يقرءون فقط الكتب الفرنسية والإنجليزية والألمانية، يشاركون الأوروبيين كل أفكارهم الليبرالية. وبدلا من أن يعرِّفوا أوروبا بالآراء التي يعتنقها الروس لاح كُتَّابنا يسألون عن ماهية روسيا. وإذا كان أبناء وطني في هذا الوقت يعرفون روسيا على نحو سيئ، فإن أوروبا لم تكن تعرفها إطلاقا.

لم يُقبل العلماء والكُتَّاب ورجال الدولة والدبلوماسيون الأوروبيون على دراسة اللغة الروسية، لم يسافروا إلى روسيا، لم يكلفوا أنفسهم عناء دراسة الفلاح في بيئته الطبيعية. كانوا راضين بالمعلومات التي يستقونها من المهاجرين السياسيين، الذين ذابوا في مدنهم. وحتى كل هؤلاء اليهود والبولنديين والليتوانيين والأرمن والفنلنديين واللاتفيين لم يكونوا يتقنون الحديث باللغة الروسية. كانت لغتهم الركيكة مجرد رطانة خرقاء، ولم يمنعهم ذلك أن يخاطبوا أوروبا نيابة عن «الشعب الروسي». كانوا يؤكدون للأوروبيين أن الفلاح الروسي يعاني من نير حكم الفرد، وأنه ينتظر بفارغ الصبر أن تأتي الشعوب الأوروبية لتحرره وأن تهبه في النهاية جمهورية على النمط الأوروبي، وهي الجمهورية التي يحلم بها الفلاح الروسي ليل نهار (حسب تأكيد المهاجرين). لقد صدَّقت أوروبا كلامهم حرفيا. الآن فقط وبعد أن شاهد الأوروبيون بأُمِّ أعينهم في أيامنا الحالية انهيار النظام القيصري وظهور البلشفية، بدءوا يدركون أن من المحتمل أن يكون المهاجرين الروس قد خدعوهم. على أنه سيمضي زمن غير طويل قبل أن تدرك أوروبا من هي روسيا الحقيقية. وحتى الآن فإن العملاق الروسي ما يزال يحتفظ لها بالمزيد من الاكتشافات المؤلمة والمفاجآت المزعجة.

عندما اشترك أبي في مؤامرة بتراشيفسكي لم يكن روسيًّا قحًّا، بقدر ما كان ليتوانيًّا، وكانت أوروبا أعز لديه من وطنه. لم تكن رواياته التي كتبها قبل المعتقل سوى صدًى للروايات الأوروبية. كان معلموه هم شيللر وبلزاك وديكنز وجورج

صاند ووالتر سكوت. كان يؤمن بالصحف الأوروبية كما يؤمن الناس بالإنجيل. كان يحلم بالسفر إلى أوروبا معتبرا أنه قد يمكنه هناك فقط أن يتعلم كيف يكتب على نحو جيد، وفي خطاباته كان يتحدث عن هذه الرحلة المأمولة ويأسف على أنه لا يملك المال الكافي للقيام بها. لم يخطر بباله قط أنه لكي يصبح كاتبا روسيا فإن الأفضل له أن يتجه نحو الشرق، لا نحو الغرب. كان دستويفسكي يكره كل ما له صلة بالمغول في روسيا، في تلك الفترة من حياته كان يشبه تمام الشبه إيفان كارامازوف.

آنذاك لم يكن إلغاء القنانة قد لاح في الأفق بعد. كان الجميع يتحدثون عن ذلك، وكانوا يدركون مدى ضرورته. لكن الحكومة، كعهدها دائما، كانت تماطل في اتخاذ القرار. كان الروس يعرفون طابعهم القومي، الثقيل في النهوض والمتسم بالبطء. كانوا يدركون أن الإصلاح أمر حتمي، ينبغي الانتظار فقط بضع سنوات. بينما لم يكن البولنديون والليتوانيون وأبناء بلدان البلطيق يدركون طبيعة هذا البطء، وكانوا يظنون أن القيصر لن يوافق على إعطاء الأقنان حديثهم. كانوا يريدون إسقاط القيصر وأن يقوموا هم بأنفسهم بتحرير الفلاحين. عندما كانت أي فكرة تبدو للقيصر صحيحة، كان ينفذها على الفور. لم يكن يضع في اعتباره كسف وتثاقل البيروقراطية الروسية. لم يكن بإمكان دستويفسكي أن ينسى النهاية المأساوية لوالده. وكان يتمنى من كل قلبه أن يتم إلغاء القنانة، الذي جعل من السادة أناسًا غلاظ القلوب، ودفع بالعبيد لارتكاب الجرائم. هذا هو الوضع الروحي الذي كان أبي عليه في تلك الفترة. كان لقاؤه ببتراشيفسكي[1] في هذه

(1) بتراشيفسكي (بوتاشيفيتس- بتراشيفسكي) ميخائيل فاسيليفيتش (1821-1866) اشتراكي طوباوي، وُلد في أسرة جراح شهير كان يعالج مشاهير الشخصيات في روسيا. كان له عديد من الأصدقاء والمعارف من شتى طبقات المجتمع. بداية من عام 1845 راح ينظم اجتماعات «الجمعة» في بيته وكان يحضرها طلاب ومدرسون وضباط وأدباء وموظفون وفنانون وغيرهم. تعرَّف عليه دستويفسكي في عام 1846 وقرأ في حلقته أجزاء من رواياته وكذلك خطاب بيلينسكي إلى جوجول، الذي كان=

اللحظة قدرًا محتومًا. ليس من الصعب أن نخمن استنادا إلى كنية الرجل أنه كان دون أدنى شك إما بولنديا، أو ليتوانيا، وهذا الاشتراك في الأصل جعلهما يتقاربان على نحو أقوى. كان بتراشيفسكي رجلاً محنكًا، حسن البيان، استطاع أن يجمع حوله كل الحالمين والشباب في بطرسبورج وأن يلهب حماسهم. كانت التضحية بالنفس من أجل القريب - إغراءً كبيرا بالنسبة للشباب وأصحاب القلوب النبيلة، وخاصة إذا كانت حياتهم الشخصية على هذا القدر من البؤس، ولا بد أن أبي قد حدثته نفسه في تلك الفترة، وقد راح يذرع شوارع بطرسبورج المعتمة أكثر من مرة، أن من الأفضل له كثيرا أن يهب حياته من أجل قضية عادلة. من أن يعيش حياة لا معنًى لها.

حظيت قضية بتراشيفسكي بشهرة تفوق أي قضية سياسية أخرى في روسيا. واستنادا إلى الوثائق السرية التى نشرت مؤخرا، يتولد لدينا انطباع بعدم خطورة هذا الأمر: إنها حلقة سياسية عادية ساذجة للغاية، يجتمع فيها شباب غض لكي يتبادلوا آراء تقليدية مُعادة عن الأفكار الأوروبية الجديدة، يتبادلون الكتب المحظورة من قبل أجهزة الرقابة، يقرءون مقتطفات حماسية من الكتيبات الثورية. على أن أبي كان يؤكد دائما أن الحلقة كانت بالفعل تنظيما سياسيا يهدف إلى إسقاط القيصر وتحويل روسيا إلى جمهورية تحكمها الصفوة المثقفة - من المحتمل أن يكون بتراشيفسكي، بعد أن اختار أفرادا متطوعين، قد أخفى هدفه الحقيقي، ليكشف عنه لعدد قليل فقط من خلصائه. الأرجح أنه استنادا إلى شجاعة وفكر والقوة الأخلاقية لدستويفسكي قد كلَّفه للقيام بأحد الأدوار الرئيسية في جمهوريته الواعدة[1].

= السبب المباشر في توجيه الاتهام له. في عام 1849 تم القبض على 40 شخصا من هذه الحلقة، حُكم على 21 متهما بالإعدام وبناء على مسرحية أعدها القيصر تم تعديل عقوبة الإعدام قبل تنفيذها بدقائق إلى الأشغال الشاقة. وقد صوَّر دستويفسكي بتراشيفسكي في رواية «الشياطين» في شخصية بيتر ڤيرخوڤينسكي. (المترجم).

(1) في رأي واحد من أعضاء حلقة بتراشيفسكي كان دستويفسكي هو الوحيد الذي كان=

كان عمي ميخائيل مهتما هو الآخر بهذه الحلقة، ولكنه كرجل ذي أعباء عائلية، اعتبر أن من الخطورة عليه أن يظهر كثيرا في اجتماعات بتراشيفسكي، الذي كانت مكتبته العامرة بالكتب المحظورة متاحة على أية حال. في تلك الفترة كان عمي ميخائيل من أشد المعجبين بفورييه[1] وراح يدرس بكل إعجاب نظرياته الرومانسية. حضر عمي أندريه أيضا إلى اجتماعات بتراشيفسكي، وكان آنذاك شابا صغيرا التحق لتوه بأحد المعاهد التعليمية العليا. كان هناك فارق كبير في السن بينه وبين إخوته الكبار، وكانت علاقته بهما علاقة الابن بأبويه. وفي الوقت نفسه كان إخوته الكبار ينظرون إليه باعتباره طفلا. ليس لدى الروس هذه التراتبية العائلية، ولكن العائلات البولندية والليتوانية تعد ذلك من الأمور المعتادة. لم يكن أبي يتحدث مطلقا مع أخيه الأصغر في أمور السياسة، ولم يكن عمي أندريه يدرك أبدا الدور الذي كان يلعبه أبي في حلقة بتراشيفسكي. لم تكن لدى أندريه دستويفسكي موهبة أدبية مثل التي كانت لدى أخويه الأكبر، لكن القراءات العائلية، التي واظب عليها جدي ميخائيل مع أبنائه الصغار نمَّت لديه اهتماما حقيقيا بالأدب. فيما بعد، تسنى له أن يعمل في المدن في الأقاليم الريفية، وهناك كان باستطاعته أن يجمع حوله كل المثقفين المحليين. بعد أن سمع أندريه عن وجود جماعة ما هامة تجتمع عند بتراشيفسكي، طلب من أحد رفاقه أن يصطحبه إليها. وهناك استمع باهتمام بالغ إلى الجدل الدائر حول السياسة، وفجأة ظهر أمامه أخوه فيودور وقد كساه الشحوب وتصعر وجهه من شدة الغضب.

= يشبه تماما شخصا متآمرا: كان صموتا، متحفظا، لا يميل للجهر بمكنون روحه للجميع أو إلى أي شخص، الأمر الذي يشتهر به الروس. وقد ظل على تحفظه هذا طول حياته حتى مع أمي: في بداية حياتهما الزوجية نجحت بصعوبة في جره للحديث عن ماضيه، فيما بعد، عندما أدرك أن زوجته الثانية مخلصة له تماما، فتح لها قلبه ولم يعد يخفي عنها أي شيء.

(1) فورييه، شارل (1772-1837): اشتراكي فرنسي طوباوي.

سأله بصوت مخيف: ماذا تفعل هنا؟ اخرج، اخرج من هنا فورًا، إياك أن أراك مرة أخرى في هذا البيت!

ارتعد عمي من غضبة أخيه الأكبر وهرع مغادرا بيت بتراشيفسكي لينقطع عن الذهاب إلى الأبد إلى هذا البيت. بعدما اكتشفت الشرطة المؤامرة تم القبض على الإخوة دستويفسكي ثلاثتهم. ونظرا لسذاجة أجوبة أندريه أدرك المحققون أنه لا يعلم شيئا بالمرة عن المؤامرة وسرعان ما أطلق سراحه. لقد أنقذه غضب أخيه. اضطر ميخائيل لقضاء عدة أشهر في السجن. كتب دستويفسكي مؤخرا في «يوميات الكاتب» يقول أن أخاه ميخائيل كان يعرف أمورًا كثيرة. الأرجح أن أبي لم يكن يخفي عنه أي أسرار. كان ميخائيل يعرف الكثير بالفعل لكنه نجح في أن يظل صامتا: لم يعترف بشيء. أثبت بسهولة أنه زار بتراشيفسكي مرات قليلة ليستعير منه بعض الكتب. فى النهاية أطلقوا سراحه، أما الأمير جاجارين، الذي كان يدير قضيته وكان على علم بالصداقة القوية التي تربط الأخوين، فقد أسرع بإبلاغ أبي أن ميخائيل قد أُطلق سراحه وأن بإمكانه ألا يخاف عليه بعد ذلك. لم ينس أبي هذا التصرف النبيل من جانب الأمير جاجارين وحكى عنه في «يوميات الكاتب».

لكن الأمر كان أشد وطأة على دستويفسكي من إخوته. اقتيد إلى قلعة بتروبافلوفسك، وهي سجن مخيف أُعد للمجرمين السياسيين. كانت الأشهر التي قضاها هناك هي أكثر الأوقات كآبة في حياة أبي. لم يكن يحب الحديث عن هذه الفترة مفضلاً نسيانها. ولكن الأمر العجيب، أن الرواية التي كتبها في السجن[1] كانت أهم أعماله شاعرية وجاذبية، وأكثرها حداثة وطزاجة، عندما يقرؤها المرء يشعر أن دستويفسكي كما لو كان بوده أن يستدعي إلى سجنه الكئيب عطر الزهور، شاعرية ظلال البساتين والأشجار العتيقة، الضحك

(1) رواية «البطل الصغير».

الطفولي الغض، وجمال النساء الشابات الأنيقات ورشاقتهن. حل فصل الصيف على بطرسبورج، وخلف حوائط القلعة القديمة كانت الشمس تتسلل بالكاد...

امتدت قضية بتراشيفسكي زمنا طويلا كما يحدث دائما في روسيا. وفي الخريف قررت الحكومة في النهاية ضرورة النظر إلى المتهمين بشكل جاد. عندنا في روسيا يُحاكم المتهمون السياسيون دائما تقريبا أمام محاكم عسكرية مكونة من جنرالات يقومون بنظر القضية. كانت المحكمة برئاسة الجنرال ياكوف روستوفتسيف، وقد جرى تعيينه فيما بعد رئيسا للجنة تحرير الفلاحين وهو نفسه الذي أدار صراعا مريرا مع التحالف القوي الذي أسسه المُلّاك الأشداء، الذين أرادوا أن يستولوا على أراضي الفلاحين الذين تم تحريرهم. انتصر روستوفتسيف بدعم من ألكسندر الثاني، الذي كان يكن له احتراما كبيرا، وتسلم الفلاحون زمام أراضيهم. كان الجنرال روستوفتسيف قوميا متحمسا وكان يعتبر أن أي مؤسسة سياسية تقف ضد الحكومة هي مؤسسة إجرامية. قام باهتمام شديد بدراسة المستندات التي حصلت عليها الشرطة عند بتراشيفسكي والشباب، الذي كان يتردد على اجتماعاته، وقد أبدى دهشته، كما اتضح، بعد أن اكتشف فيها الكثير من الأسس لتوجيه الاتهام لهم. لم يكن روستوفتسيف رجلاً يفتقر إلى الذكاء، لقد أدرك أن الأمر الرئيسي في هذه القضية ما يزال غامضًا ولا يعرفه سوى قلة مختارة. وبعد أن قدَّر عن حق عقل وموهبة دستويفسكي ساورته الشكوك في أن يكون واحدا من رؤوس هذه الجمعية السرية فقرر استدعاءه للإدلاء بشهادته. في يوم المحاكمة كان روستوفتسيف لطيفا حَسَن المعاملة مع أبي كان يتحدث مع دستويفسكي حديثه إلى كاتب شاب موهوب، مع رجل ذي ثقافة أوروبية رفيعة، وجد نفسه لسوء حظه متورطا في مؤامرة سياسية من دون أن يدرك خطورة هذه الخطوة. بداهة فقد سعى الجنرال لأن يضع على لسان أبي الكلام الذي عليه أن يلتزم به حتى يتفادى ما ينتظره من عقاب قاس. كان أبي دوما إنسانا ساذجا حسن

الطويـة. لـم يفهم أي شـيء وسـرعان ما تأثـر بالتعاطف الحقيقي نحـو الجنرال، الـذي كان يتعامل معه لا بوصفه مجرما وإنما كإنسـان مثقف ومن ثم راح يجيب على أسـئلته بكل أريحية. هنا قد يكون روستوفتسـيف قد زلَّ في حديثه على نحو مـا دون حـذر، إذ أدرك أبي فجأة أنهـم يعرضون عليه أن يشـتري حريته مقابل أن يبيع رفاقه. هذا العرض، الذي كان بمثابة صفقة، أهان دستويفسكي في الصميم، فتحول تعاطفه مع روستوفتسيف إلى كراهية شديدة. امتلأ قلبه بالعزم والحماس وتحـول الاسـتجواب إلى معركة. هذا الشـاب العصبي، الهسـتيري، الذي أنهكه السـجن لأشـهر طويلة، وجد نفسه أقوى من الجنرال. بعد أن رأى روستوفتسيف أن خدعتـه لن تنطلي عليه، اشـتط غيظا وغادر المحكمـة، تاركا للقضاة الآخرين أمر القيام بالاستجواب. بين الفينة والفينة كان يأتي ليفتح الباب ويلقي نظرة على القاعة من غرفة جانبية متسائلا: «هل انتهوا من استجواب دستويفسكي؟ لن أعود إلى قاعة المحكمة حتى يقتادوا هذا المجرم العتيد».

لم يغفر أبي مطلقا لروستوفتسـيف تصرفه العدواني. نعته بالممثل وظل طول حياتـه يتحدث عنه بازدراء. تضاعف هذا الازدراء في نفسـه لكون دستويفسـكي مؤمنـا إبـان المحاكمة بعدالة قضيته وكان يعتبر نفسـه بطـلا كان يريد إنقاذ وطنه. إن هـذه المحنـة التي كان على أبي أن يعانيها في المحكمة، ظلت منطبعة بقوة في ذاكرته. وقد صوَّرها فيما بعد في المبارزة الكلامية التي دارت بين راسكولنيكوف والمحقق بورفيري[1] وفي المبارزة الأخرى، التي جرت بين ديمتري كارامازوف[2] والمحققين الذين جاءوا لاستجوابه في موكرويه.

رفع الجنرالات برئاسة روستوفتسيف إلى نيكولاي الأول حكم الإعدام الذي توصلوا إليه فرفض أن يوقع عليه. لم يكن الإمبراطور نيكولاي بالرجل الفظ، لكنه

(1) في رواية «الجريمة والعقاب». (المترجم)

(2) في رواية «الإخوة كارامازوف». (المترجم)

كان ضيق الأفق، ولم يكن يعرف شيئا عن علم النفس. في ذلك الزمن لم يكن هناك أحد في روسيا لديه أي تصور عن هذا العلم. كان الإمبراطور رافضا أن يفقد المتهمون حياتهم، لكنه قرر «أن يلقن الشباب درسًا جيدًا». اقترح عليه مستشاروه أن يؤدي كوميديا ما كئيبة. أعلنوا على المتهمين أنه قد حكم عليهم بالإعدام. اقتيدوا إلى الميدان، حيث أقاموا فيه عشية النطق بالحكم منصة للإعدام، ثم دفعوا بهم لاعتلائها. ربطوا عيني أولهم ثم شدوا وثاقه إلى العمود. وجّه الجنود بنادقهم كما لو كانوا سيطلقون النار على هذا المسكين... وفي اللحظة الأخيرة ظهر رسول من الإمبراطور يحمل مرسوما بتخفيض حكم الإعدام إلى الأعمال الشاقة.

الذين يذكرون هذا الزمن يزعمون أن بنادق الجنود لم تكن معبأة، على سبيل الاحتياط، وأن رسول الإمبراطور الذي جاء على وجه السرعة قادما من القصر مباشرة. كان موجودا في الميدان قبل وصول المتهمين بفترة طويلة. لا شك أن ذلك هو ما حدث بالفعل. لكن هؤلاء الشباب المساكين لم يكونوا على علم بذلك، وكانوا قد تأهبوا لملاقاة الموت. لو أن نيكولاي الأول كان أكثر كياسة، لأدرك، ربما، أن إطلاق الرصاص على المتهمين الشباب، كان سيعد عملاً أكثر رحمة من أن يجعلهم يعانون هذا العذاب. على أية حال هذا ما تصوره الإمبراطور وفقا لأخلاق ذلك الزمان: إذ كان أجدادنا يعشقون هذا الإخراج المسرحي شبه العاطفي. ربما افترض نيكولاي الأول أنه سيُسعد هؤلاء المتآمرين الشباب، بعد أن يهبهم الحياة لحظة وجودهم على منصة الإعدام. البعض تحمل هذه السعادة، والبعض فقد عقله، ومنهم من مات شابًا. من المحتمل تماما أنه لولا هذه الكوميديا شديدة القسوة، لما أُصيب أبي بالصرع على هذه الصورة المريعة.

دستويفسكي العصبي الهستيري، الذي تعذب لأشهر طويلة في السجن، صعد إلى منصة الإعدام ليواجه الموت بكل شجاعة. يقول أنه جرّب في هذه اللحظة

فقد هذا الخوف الصوفي الغامض وهو يفكر أنه الآن سيقف أمام الله، وأنه غير مستعد بعد لهذا اللقاء الرهيب. يحكي أصدقاؤه الذين كانوا يقفون حول منصة الإعدام في مذكراتهم، أن دستويفسكي كان هادئا وكان متماسكا إلى أقصى حد من الوقار. يصف أبي في رواية «الأبله» كل ما عاناه آنذاك. وصف أبي مدى الألم الذي يعانيه المحكوم عليه بالموت، لكنه لم يتحدث مرة واحدة عن سعادته التي أحس بها بعد أن عرف أنه قد تم العفو عنه. يمكن أن نفترض أنه عندما ترامت إلى سمعه الموجة الأولى للسعادة الغريزية، شعر بالحزن من جراء الحزن بالإذلال العميق، بعد أن أدرك كيف سمح هؤلاء الناس لأنفسهم أن يسخروا من مشاعره وأن يقودوه عبر هذا الطريق الشاق من العذاب. ربما شعرت روحه الطاهرة، التي كانت قد استعدت بالفعل للصعود إلى السماء، بالأسى لاضطرارها للهبوط إلى الأرض لتنغمس من جديد في هذا الدنس الذي يحيط بنا جميعا.

أُعيد أبي إلى قلعة بتروباڤلوڤسك. وبعد عدة أيام أرسل إلى سيبيريا في حراسة الجند. غادروا بطرسبورج عشية عيد الميلاد. أثناء مروره على الزحافات عبر شوارع العاصمة كان أبي ينظر إلى النوافذ المضيئة وهو يفكر: «الآن يضيئون شجرة عيد الميلاد عند أخي ميخائيل. أبناء أخي يتأملونها، يضحكون، يشكلون جوقة، وأنا لست معهم. الله وحده يعلم إن كنت سأراهم مرة أخرى». كان دستويفسكي يشعر بالأسى فقط على أصدقائه الصغار، وهو يغادر بطرسبورج، هذه المدينة ذات القلب الذي قُدَّ من الجليد...

لدى وصوله إلى سيبيريا، وفي واحدة من المحطات الأولى، زارت أبي سيدتان. كانتا زوجتين لاثنين من الديسمبريين[1]، أخذتا على عاتقيهما مهمة

(1) شارك الديسمبريون في مؤامرة سياسية ضد نيكولاي الأول في بداية تسلمه للسلطة. وقعت محاولتهم لإسقاط الملكية في شهر ديسمبر، ولذلك سُموا بالديسمبريين. كانت نساؤهم يتمتعن بالحرية أكثر من الأزواج، الذين كانوا قد أنهوا مدة الأشغال الشاقة، عندما وقعت مؤامرة بتراشيفسكي، ولكن كان عليهم أن يبقوا في سيبيريا تحت=

مقابلة المساجين السياسيين، يشدون من أزرهم بكلمات تعبر عن التعاطف معهم وتقديم المساعدة لهم بالنصائح العملية فيما يتعلق بالحياة التي تنتظرهم في المعتقل. هاتان السيدتان أهدتا أبي الإنجيل - الكتاب الوحيد المسموح به في السجن. وبينما كان الجنود ملتفتين بعيدا، قالت إحداهن له بالفرنسية أن يتأمل في هذا الكتاب جيدا، عندما يكون وحيدا. وبين ورقتين من الكتاب وجد أبي ورقة مالية مدسوسة قيمتها خمس وعشرون روبلا. بهذه النقود استطاع أبي أن يشتري لنفسه ملاءة وصابونا وتبغا وخبزا أبيض، لينوع قليلا من طعام السجن الرديء. لم يتسلم أي نقود أخرى طول عام بأكمله من وجوده في المعتقل. إخوته وأخواته، عمته وأصدقاؤه - تبرءوا في جبن منه، خشية جريمته وعقابه...

= مراقبة الشرطة. كان الديسمبريون يعتزمون إقامة جمهورية أرستقراطية في روسيا، بعد أن يتقاسموا السلطة مع أبناء النبلاء. كان النبلاء الروس يكنون مشاعر الاحترام للديسمبريين دائما وكانوا يرون فيهم أناسا معذبين.



الفصل السادس
المُعتقَل

عندما يرى الإنسـان أنه مُضطَرٌ، نتيجة لوقوع تغيـر حاد في الظروف المحيطة بـه، أن يُمضـي عددًا من السـنوات في مـكان مختلف تمامًا، ينتقـل فيها إلى عالم غريب لـم يألفه، ليعيش مع أناس بإمكانهـم، نظرًا لما جُبلوا عليه من طبيعة قاسـية أو لنقـص في تعليمهم، أن يوقعوا به أذًى كبيرا، فإنه يُسـرع منذ البداية في البحث عن وسـيلة للدفاع عن نفسـه في مواجهة أكثـر الضربات إيلامًا، ثم يختار لنفسـه أسـلوبه في التصرف. البعـض يعكفون على التزام صمتٍ مزرٍ، آملين أن يتركهم الناس وشـأنهم؛ البعض الآخر يتخذون من التملق وسـيلتهم ليشـتروا لأنفسـهم وجودًا آمنا مسـتخدمين في ذلك أحط وسـائل الاسـترضاء. المحكوم عليه بعدد من سـنوات الأشـغال الشـاقة، مكتوب عليه أن يعيش في خطر محدق من جانب مجرمين ليس لديهم ما يخسـرونه، ومن ثمَّ فهم لا يخشـون شيئًا بل إنهم قادرون علـى ارتـكاب أي فعـل كان. لقد اختار دستويفسـكي طريقا آخـر: طريق الأخوة باسم المسيح. لم يكن هذا الطريق غريبًا عليه تماما: لقد تسنى له من قبل أن يسير فيـه، فعندما كان طفلا كان يتسـلل نحو سـياج حديقة أبيه مخاطـرا بتلقي العقاب علـى ذلـك، ليتبـادل الحديث مع الفقراء – مرضى مسـتشـفى مارينسـكايا، أو في قريـة داروفويه، عندما كان يخالـط الفلاحين الأقنان محاولاً أن يكتسـب حبهم،

أو عندما كان يساعد الفلاحين الفقراء في أعمالهم الزراعية. فيما بعد ساعدت هذه العلاقات الأخوية في دراسة فقراء بطرسبورج في مطاعم العاصمة وحاناتها الحقيرة، حيث راح يلعب معهم البلياردو ويدعوهم إلى الشراب، في هذا الوقت كان يسعى للتعرف على مكنون أنفسهم وأن يجتلي أسرارهم. كان دستويفسكي يدرك أنه لن يحصل على أي معلومات عنهم، إذا ما اكتفى بقضاء وقته في صالونات علية القوم. في صحبة أناس مستحمين يفوحون عطرًا، يرتدون فاخر الثياب وربطات العنق على أحدث موضة، رؤوسهم فارغة وأرواحهم خاملة وقلوبهم خامدة. إن كل كاتب ينبغي أن يكون مرتبطًا بالشعب، بالبسطاء، الذين تلقوا تربية حسنة علمتهم ألا يخفوا آلامهم في عبارات فارغة. لقد علّم فلاحو ياسنايا بوليانا تولستوي أكثر مما علّمه أصدقاؤه الموسكوفيون. وكذلك استمد تورجينيف أكثر أفكاره أصالة من الفلاحين، الذين كان يخرج معهم للصيد، أكثر من أصدقائه الأوروبيين. كان دستويفسكي مرتبطًا أيضًا بالفقراء وقد سعى منذ طفولته في البحث بشكل غريزي عن وسيلة للاقتراب منهم. هذه الخبرة، التي كانت لديه، جزئيًا، قبل ذلك، أفادته كثيرًا إبان وجوده في معتقله بسيبيريا.

لم يُخفِ دستويفسكي عنًا على أي نحو من الأنحاء كيف استحوذ على مشاعر المساجين. في رواية «الأبله» يصف تفصيلا خطواته الأولى. الأمير ميشكين سليل أجيال من أصحاب الثقافة الأوروبية، يسافر في يوم من أيام يناير قارسة البرودة. إنه روسي، ولكنه وقد أمضى شبابه كله في سويسرا، كان يعرف بلاده على نحو سيئ للغاية. كان منجذبًا نحو روسيا، كانت تفتنه على نحو كبير. كان يود لو أنه استطاع أن ينفذ إلى روحها، وأن يجلو أسرارها. كان الأمير فقيرًا، ما جعله يسافر على الدرجة الثالثة. لم يكن الأمير ميشكين متكبرًا؛ لم يثر مظهر المسافرين في الطريق وأشكالهم المزرية أي اشمئزاز من جانبه. كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها الأمير روسًا أقحاحًا: لم يتسنَّ له في سويسرا أن يرى سوى مثقفينا،

الذين كانوا يقلدون الأوروبيين كالقردة، أو بالمهاجرين السياسيين، وهؤلاء كانوا يتحدثـون الروسـية على نحـو رديء، لم يفلحـوا أن يجعلوا من أنفسـهم وطنيين حقيقيين، يعبرون عن الأحلام المقدسـة لشـعبنا. كان الأمير ميشكين يدرك جيدًا أنه لم يشـاهد حتى الآن سـوى نسخٍ وصورٍ كاريكاتورية، كان يود أن يتعرف في النهايـة على مواطنين أصلاء. ها هو يتفحص بكل تعاطف وجوه جيرانه في عربة الدرجـة الثالثـة، كان ينتظر فقط أول بادرة حتى يتجـاذب معهم أطراف الحديث. كان رفـاق الطريق يرقبونـه من كل جانب بكل فضول. هؤلاء أيضًا لم يتسـنَّ لهم مـن قبل مشـاهدة مثـل هذا الطائر عن قـرب. كان الأدب الجم الـذي أبداه الأمير وكذلـك بذلته الأوروبية مدعاة للضحـك. انخرطوا معه في الحديث وهم يظنون أنهـم وقعوا على مهرج. ما إن نطق الأمير ميشـكين بكلماته الأولى حتى انفجروا فـي الضحـك بوقاحة وهم يلكـزون بعضهـم بعضًـا بمرافقهم، وعندمـا وجدوه مسـتمرًا في حديثـه، انقلب ضحكهـم صمتًا. جعلتهـم لباقته الآسـرة، غياب أي قـدر من الكبْر لديه، صفاء قلبه في التعامل معهـم باعتبارهم أندادًا، يدركون أنهم أمـام كائـن مثير تمامًا للفضول، كائن يندر أن تجد مثيلا له، مسـيحي صادق. كان الشـاب روجوچين قد وقع أسـيرًا لجاذبية هذا المسيحي الطيب فإذا به يسارع في بـث همومه لهـذا الغريب اللبق، الذي ينصت إليه بـكل اهتمام. روجوچين رجل لـم يحصـل من التعليـم إلا على أقل القليـل، وهو مع ذلك يتمتع بـذكاء حقيقي؛ كان يدرك أن الأمير ميشكين يفوقه روحيًا بكثير. أُعجب به، انقاد له ورأى بشكل واضح أن الأمير الفقير ليس سوى طفل كبير، حالم ساذج لا يدري من أمور الدنيا شيئًا، بينمـا روجوچين رجل خَبَرَ هـذه الحياة الصعبة المرعبـة، ويعرف جيدًا أن هذا العالم، عالم غادر لا يعرف الرحمة. في هذه اللحظة اشتعل قلب روجوچين النبيل بالرغبة في أن يبسط رعايته على هذا الأمير الرائع. يقول روجوچين للأمير وهو يودعه على محطة قطار بطرسبورج: «عزيزي الأمير! تعال لزيارتنا! سألبسك معطفًا جميلا من الفراء وسأعطيك نقودًا وملابس فاخرة تليق بلقبك».

لـم يكن المسـاجين يرون في أبي مجرد إنسـان حزين، شـاب مريـض؛ كانوا يدركـون أيضًا عبقريته. هؤلاء الفلاحون الجهلة لم يكونوا يعرفون معنى الرواية، لكـن الفطـرة النقية لدى هذا الشـعب العظيم كانت تدلهم إلى أن الله أرسـل إلى الدنيـا بهذا الحالم من أجل تحقيـق إنجازات عظيمة. لقد أدركـوا أهميته فراحوا يشـملونه برعايتهـم قدر استطاعتهم. يحكي دستويفسـكي في «مذكراتـه»[1] أن ذات يـوم أخـذوا المسـاجين إلى الحمَّـام. وهناك طلب منه أحدهم أن يسمح له أن يقوم هو بنفسـه بغسـله، وقد قام بذلك بأكبر قدر من الحذر وراح يساعده كأنه طفل، حتى لا ينزلق على الأرض المبتلة. يقول دستويفسـكي «لقد غسـلني تمامًا كمـا لو كنـت مصنوعًا من الخزف»، معبرا بذلك عن دهشـته لهـذا الاهتمام. لقد كان أبـي على حـق: لقد كان بالفعـل كائنًا هشًّـا وعزيزًا في عيون رفاقـه الطيبين. كانـوا يشـعرون أن أمامـه الكثيـر ليعطيـه للعالـم الروسـي بأسـره، وراح الجميع يسـعون لحمايته. ذات يوم عمَّ المسـاجين شـعور بالاستياء بسـبب نوعية الطعام السـيئ الذي يُقدم لهم، فنظموا ما يشبه المظاهرة، مطالبين أن يستمع إليهم رئيس قلعة أومسـك بنفسـه. وقد رأى أبي أن من واجبه أن ينضم إلى هذه المظاهرة[2]. لكن المسـاجين لم يسـمحوا له بذلـك. صاحوا فيه من كل جانـب وأجبروه على العـودة إلى عنبر السـجن قائلين له: «هذا ليس مكانك». كان المسـاجين يعلمون جيـدا أنهـم باحتجاجهم على سـوء الطعام إنمـا يخاطرون بتعريض أنفسـهم إلى تعذيب قاسٍ، فأرادوا أن يجنبوا دستويفسكي هذا التعذيب. كان هؤلاء الفلاحون البسطاء يتمتعون بروح الفروسية. كانوا كرماء في علاقتهم بأبي أكثر من رفاقه في بطرسـبورج، هؤلاء التافهين، أشـباه الكُتَّاب المبتذليـن، الذين لم يكونوا يعرفون ماذا يختلقون لمجرد أن يفسدوا عليه نجاحه الأدبي الشاب.

---

(1) المقصود هنا «مذكرات من البيت الميت». (المترجم)

(2) ذكـرت سـابقا أن دستويفسـكي لم يشـارك فـي المظاهرات التـي قام بها طـلاب قلعة الهندسة في هذه المرة كان أبي يرغب في الانضمام إلى المساجين، كاشفا هنا بوضوح عن احترامه لهم أكثر من احترامه للنبلاء الروس والمثقفين.

عندما يرغب دستويفسكي في أن يقدم لنا صورته الشخصية حتى خلال واحد من أبطاله، وأن يحكي عن مرحلة ما من حياته، فإنه يُعير هذا البطل كل أفكاره ومشاعره التي عايشها بنفسه في تلك الفترة. يبدو من الغريب بعض الشيء أن الأمير ميشكين[1]، الذي لم يكن مجرمًا، ولم يتعرض إطلاقًا للحكم بالإعدام، راح يتحدث عن الدقائق الأخيرة في حياة محكوم عليه بالإعدام بمجرد وصوله إلى بطرسبورج. يشعر المرء أن هذا الموضوع كان شاغله الشاغل والذي ملك عليه كل أفكاره. يشرح دستويفسكي هذا الرعب في سياق حكايته عن الكيفية التي اصطحبته بها مدير المصحة التي أوكل أقارب ميشكين، الأمير المسكين، أمر رعايته له، إلى جينيف ليريه عملية إعدام مجرم. كان للسويسريين أساليب غريبة في علاج المرضى النفسانيين. ليس من المدهش أن هذا الأمير التعس لم يكتب له الشفاء مطلقًا على أيديهم. استخدم أبي هذا الشرح شديد الحساسية لكي يخفي عن الجمهور العريض أن الأمير ميشكين، في واقع الأمر، ليس سوى هذا السجين سيئ الحظ، المتآمر السياسي فيودور دستويفسكي[2]، الذي ظل طول العام الأول من وجوده في المعتقل كأنه منومٌ مغناطيسيًا بتأثير ذكريات وقوفه فوق منصة الإعدام، ولم يستطع آنذاك أن يفكر في أي شيء آخر. يحكي الأمير ميشكين في رواية «الأبله» عن كافة صنوف العذاب التي عاناها المتهم إلى خادم آل إيبانتشين. وعندما راحت عائلة إيبانتشين فيما بعد تستفسر منه عن الإعدام أجاب الأمير بقوله: «لقد حكيت عن انطباعاتي لخادمكم؛ لا أريد أن أتحدث عن ذلك معكم أكثر من ذلك». لكن أسرة إيبانتشين نجحت بصعوبة في إقناع

---

(1) بطل رواية «الأبله».

(2) لم يكن لدى دستويفسكي أي هاجس، بطبيعة الحال، بالكبرياء، وهو يقاسم صاحب لقب الإمارة (الأمير ميشكين) بعضًا من صفاته الشخصية. كان يريد هنا أن يرينا كم من أثر كبير يمكن أن يتركه على الشعب إنسان ورث ثقافة رفيعة، إذا ما تعامل مع الشعب باعتباره أخًا، مسيحيًا حقيقيًا، وليس إنسانًا متكبرًا.

ميشكين أن يعود لهذا الموضوع. وعلى نفس المنوال تمامًا تصرَّف دستويفسكي أيضًا فهو يحكي عن معاناة المساجين ويرفض الحديث عن ذلك فيما بعد مع مثقفي بطرسبورج، الذين عندما سألوه بلهفة عن ذلك، تجهم وجهه وأدار دفة الحديث إلى موضوع آخر.

من المثير للفضول أن الأمير ميشكين المتيَّم بناستاسيا فيليبوفنا لم يتحول إلى عشيق لها، وإنما قال للفتاة الشابة التي أحبته، والتي ربما أرادت الزواج منه: «أنا مريض ولا أستطيع الزواج». الأرجح أن ذلك ما كان دستويفسكي مقتنعًا به في شبابه المبكر، لكن ذلك الاقتناع تغير تمامًا بعد قضاء فترة السجن. إن التشابه بين دستويفسكي وبطله يمكن تتبعه حتى في الأمور البسيطة. الأمير مشيكين يصل إلى بطرسبورج دون أمتعة، لا يحمل سوى صرة صغيرة بها بعض الملابس، لا يملك قرشًا واحدًا، وقد أعطاه الجنرال إيبانتشين بعض النقود - خمسة وعشرين روبلا. ودستويفسكي يصل إلى سيبيريا ومعه قليل من الملابس فقط، وهو ما سمحت له به الشرطة، لا يملك قرشًا واحدًا، وقد أعطته زوجات الديسمبريين خمسة وعشرين روبلا، طُويت بين صفحات الإنجيل.

وإذا كان المساجين قد شملوا أبي برعايتهم فإنه بدوره قد ترك فيهم أثرًا أخلاقيًا عظيمًا. كان دستويفسكي شديد التواضع لكنه لم يكن يكشف عن ذلك، لكن نكراسوف، الشاعر الروسي صاحب البصيرة النافذة، قد تولى عنه هذه المهمة. لقد سارع نكراسوف بنشر رواية أبي الأولى «المساكين» في مجلته عندما أدرك حينها مدى الموهبة الكبيرة التي يتمتع بها دستويفسكي. وبعد أن تعرف عليه، كان مأخوذًا بالنقاء الروحي والنبل، اللذين يملكهما هذا الكاتب الشاب. لكن الوسط الأدبي التافه والحسود والمليء بالدسائس في ذلك الزمن لم يسمح لنكراسوف أن يصبح صديقًا حميمًا لأبي الذي، مع كل ذلك، لم يستطع أن ينساه. عندما أُرسل دستويفسكي إلى المعتقل، ظل نكراسوف يفكر

فيه كثيرًا. لقد ميزت هذا الشاعر عن غيره تلك المعرفة العميقة بروح الفلاحين. هو نفسه قضى طفولته كلها في ضيعة صغيرة تعود لأبيه، وبعد ذلك كان يزورها كل صيف. ولمّا كان نكراسوف على علم تام بالشعب الروسي وبدستويفسكي، فقد طرح على نفسه سؤالاً: ترى أيَّ نوع من العلاقة كان من الممكن أن تقوم بين المساجين وبين هذا الكاتب الشاب. الشعراء يفكرون شعرا، وقد ترك لنا نكراسوف قصيدة رائعة أسماها «البؤساء»، يصف فيها حياة دستويفسكي وسط المجرمين. لم يذكر لنا من كان بطله فيها، كانت الرقابة في تلك الفترة شديدة الصرامة ولم تكن لتسمح بذلك، لكن أصدقاءه الأدباء اكتشفوا الأمر، وسوف يحكي نكراسوف لدستويفسكي عن ذلك فيما بعد.

تتحدث القصيدة على لسان سجين من صفوة القوم، قام بقتل امرأة بسبب الغيرة، وبعد أن أُرسل إلى المعتقل، عقد صداقة مع أكثر المساجين الميئوس من صلاحهم. كان يشرب معهم ويلعب معهم الورق، وفي نفس الوقت كان يحتقر المساجين. وقد لفت نظره واحد من المساجين لا يشبه الآخرين في شيء. كان سجينًا ضعيف البنية، صوته يشبه صوت طفل، له شَعر فاتح خفيف مثل الزغب[1]. كان صموتًا، ينزوي في مكانه، لا يصاحب أحدًا. كان المساجين لا يحبونه، كان من أصحاب «الأيدي الناعمة»، أي أنه لم يكن معتادًا على الأعمال الخشنة – ولمّا كانوا يرونه يعمل طول اليوم ثم يكسب قليلا نظرًا لضعف بنيته، كانوا يسخرون منه وأطلقوا عليه اسم كروت (الخُلْد)[2]. كانوا يضربونه بأقدامهم على سبيل المزاح، وكانوا يضحكون عندما يعتريه الشحوب ويعض على شفتيه عند سماعه صيحات

---

(1) يقول دستويفسكي في معرض وصفه لمظهر الأمير ميشكين في رواية «الأبله»، أنه كان نحيفًا للغاية، تبدو عليه سمات المرض، وكان شعره فاتحًا بشدة حتى يكاد يكون أبيض اللون.

(2) الخُلْد: حيوان من القواضم يشبه الفأر يعيش ويعمل تحت الأرض. (المترجم)

الحراس الخشنة. ذات يوم راح المساجين يلعبون الورق ويسكرون مساء في زنازينهم. كان أحد المساجين يعاني من المرض منذ فترة طويلة، وقد راح ينازع سكرات الموت، أخذ المساجين يتهكمون عليه ويغنون له «قُدَّاسًا» ساخرًا. فجأة إذا بهم يسمعون صوتًا رهيبًا يصيح بهم: «أيها البؤساء! ألا تخافون الله؟!». وإذا بالمساجين يتلفتون وقد أخذهم الذهول. كانت الكلمات آتية من كروت الذي بدا الآن مثل نسر. هذا الصَّمُوت يأمرهم بالسكوت وأن يحترموا الدقائق الأخيرة من حياة المحتضر. حدثهم عن الله وأراهم الهوة السحيقة التي ينزلقون إليها. منذ هذا اليوم أصبح معلمًا ومرشدًا لكل المجرمين، الذين لم يفقدوا وعيهم بإجرامهم. كان جَمْعٌ لا يستهان به يحيط به من كل جانب، يستوعبون كلماته بنهم. هذا السجين المثقف كان يتحدث مع المساجين عن الشعر، عن العلم، عن الله، ولكن أكثر ما كان يتحدث عنه هو روسيا. إنه وطني، مُتيَّم بوطنه، يتنبأ له بمستقبل عظيم. ليس في أحاديثه أي تنميق، ولا يزينها بأسلوب جميل، لكنه يمتلك موهبة التحدث إلى النفس، يمس شغاف قلوب تلاميذه. في قصيدته يموت السجين - المثال في السجن محاطًا باحترام وحب رفاقه. إبان مرضه كانوا يولونه رعايتهم بكل إخلاص، وقد جهزوا له شيئا بمثابة محفة، وفي كل يوم كانوا يحملونه عليها من السجن إلى الفناء حتى يتمكن من استنشاق الهواء النقي والنظر إلى الشمس التي كان يحبها بشدة. بعد وفاته اعتاد السكان المحليون أن يأتوا إلى قبره، الذي أصبح مزارًا. يحج إليه سكان المنطقة.

بعد أن عاد أبي من سيبيريا، عرض عليه نكراسوف هذه القصيدة قائلا له: «إن بطلها هو أنت!» تأثر أبي بشدة بكلماته وأبدى إعجابه بقصيدة «البؤساء»، ولكن عندما سأله أصدقاؤه الأدباء إن كان نكراسوف قد وصفه بصورة صحيحة، أجاب وهو يبتسم «أوه كلا، لقد بالغ في أهميتي. لقد كنت بالعكس من ذلك تلميذًا للمساجين».

من الصعب علينا أن نحكم مَن منهما كان على حق - نكراسوف أم دستويفسكي. يمكن أن تكون هذه القصيدة مجرد ثمرة من ثمرات خياله الشاعري، على أنها تشي بما يحمله نكراسوف لأبي من تقدير رفيع. بعد أن وصف نكراسوف دستويفسكي على النحو الذي رأيناه في قصيدته «البؤساء»، ردَّ نكراسوف بذلك ردًّا مفحمًا على كل الوشاة السفلة، الأدباء - المنافسين، الذين عجزوا عن اختلاق أية أكاذيب لمجرد أن يهيلوا القذارة على هذه الموهبة العظيمة التي تفوقهم جميعًا. وهاكم الأمر المثير للدهشة: ليس هناك كاتب واحد من كُتَّاب سيرة دستويفسكي إلا وكتب عن قصيدة نكراسوف[1] بكل مهابة بل ونقلوا في الوقت نفسه الوشايات، التي أشاعها الكُتَّاب الشباب بعد نجاح رواية «المساكين». على أنه لم يكن من الصعب أبدًا أن يعرف كُتَّاب سيرة أبي أنه هو - بطل قصيدة «البؤساء»، إذ إن دستويفسكي نفسه كتب في «يوميات الكاتب» عن الحديث الذي دار بينه وبين نكراسوف بعد عودته من سيبيريا. وقد ساد انطباع أنهم كانوا يريدون أن يخفوا عن الجمهور العريض دعم الشاعر الكبير لأبي.

(1) باستثناء نيكولاي ستراخوف، الذي حكى عنها في مذكراته.



الفصل السابع
ما الذي علّمه المساجين لدستويفسكي؟

لدى دستويفسكي من الأسباب ما يجعله يقول أن المساجين كانوا معلميه. في الحقيقة فقد كانوا هم من كشف له عن الأمر الأكثر أهمية بالنسبة له: أن يعرف وأن يحب، للمرة الأولى، بلادنا روسيا الرائعة السمحة. عندما وجد دستويفسكي نفسه في بيئة قومية بحق، شعر أن صوت تدفق دم أمه الروسية يتعالى في قلبه. وهنا بدأ السحر، الذي يتمثل فيه، في جوهر الأمر، القوة الحقيقية لبلادنا، يؤتي أثره فيه. لم تُخضع روسيا جيرانها بالنار والسيف، لكن قلبها هو الذي شكّل الإمبراطورية الروسية الكبرى. جيشنا ضعيف، جنودنا فقراء، مهزومون في كثير من الأوقات. ولكنهم أينما ساروا فإنهم يتركون ذكرى لا تمحى. تجدهم يتآخون مع المهزومين بدلاً من أن يضطهدوهم، أرواحهم منفتحة، يتعاملون معهم كرفاق، فيتأثر المهزومون بهذا التسامح ويحفظون ذلك لهم في ذاكرتهم للأبد. يقولون في روسيا «أينما رفرف العلم الروسي في يوم من الأيام، فسوف يرفرف دومًا». إن مواطني بلدي يعرفون قوة جاذبيتهم جيداً.

الفلاح الروسي القذر، المتوحش، رث الثياب، هو في واقع الأمر ساحر عظيم، قلبه وديع، رقيق، مرح كقلب طفل. إنه أمّي، لكنه ذو عقل راجح،

واضـح، ذو نظـرة ثاقبة، يلاحـظ الكثير من الأمـور، ويُعمل فكره في أشياء ربما لـم تخطر ببـال البورجوازي الأوروبي مطلقًا. يقضي طـول عمره في العمل لكنه ليس حريصًا على المال. حاجاتـه المادية محدودة، أما الروحية فإنها أكبر بكثير. هو إنسـان حالم، تهفو روحه إلى الشـعر. أحيانا ما يهجر أرضـه وعائلته ويذهب للتجـوال. يصلي عند أضرحة القديسـين، يزور مختلـف الكنائس، يذهب للحج في أورشـليم. إنه ينتمي لهذه الشـعوب الشرقية، التي أعطت للعالم كريشنا وبوذا وزرادشـت ومحمد. الفلاح الروسـي مسـتعد دائمًا للخروج من العالم والبحث عـن الله في الصحـراء. إنه يعيش في عالـم الغيب أكثر مما يعيـش على الأرض. العدالـة هـي مثله الأعلـى. كثيرًا ما نسـمع من الفلاحيـن الروس قولهـم: «لماذا نتجـادل، لمـاذا نتخاصم؟ علينا أن نعيـش وفقًا لحقيقة اللـه». إن حقيقة الله هذه أمر هامٌّ للغاية بالنسـبة لهم، إنهم يسعون للعمل في الحياة وفقًا للإنجيل. تجدهم مسـتعدين دائمًا لتدليل الأطفال ومواسـاة المرأة الباكية ومساعدة من بلغوا أرذل العمر. نادرًا ما يلتقي الإنسـان في المدن الروسـية برجـال مهذبين، أما في القرى فهم كُثُرٌ.

كان دستويفسكي وهو يدرس رفاقه في السجن، يُقدِّر -والحق يقال- قلوبهم النبيلـة، جمـال أرواحهـم وثراءها. لقد تعلـم في نهاية الأمـر أن يحب وطنه على النحو الذي هو جدير به. بفضل المسـاجين السـيبيريين الطيبين انتصرت روسيا علـى قلب دستويفسـكي الليتواني، مـرة وإلى الأبد. لم يكن أبي يشـرع في عمل شـيء إلا ويتمه. لقد انصرف بكل قلبه إلى روسـيا، ومن حينها راح يخدم النسر الروسـي أيضًـا بإخلاص كما خدم أجداده من قبل علم رادفـان[1]. الذين يريدون أن يفهموا طريقة تفكير دستويفسكي على نحو أفضل عليهم أن يقرءوا خطابه إلى الشـاعر مايكوف، الذي كتبه في سـيبيريا فور خروجه من المعتقل. هذا الخطاب

---

(1) علم رادفان: علم عائلة دستويفسكي ويحمل شعارها. (المترجم)

هو بمثابة نشيد وطني لروسيا. يكرر دستويفسكي في كل سطر فيه تقريبا قوله: «أنا روسي، قلبي روسي، أفكاري روسية». عندما نقرأ هذا الخطاب ندرك بسهولة ما الذي حدث في نفسه. إن كل شاب جاد تكوَّن عقله على نحو مثالي، مُهيَّأ ليكون وطنيًا، لأن الوطنية هي وحدها التي يمكن أن تعطيه القوة لأن يعمل لخير بلاده. الشاب الروسي وطني بالفطرة منذ ولادته، لكن السلافي، الذي ينتسب أسلافه من جهة أبيه إلى بلد آخر، والذي تربى على ثقافة أخرى، لا يمكن أن تكون لديه هذه الوطنية العزيزية. لقد أراد الشاب الليتواني، من قبل أن يكرس نفسه لخدمة روسيا، أن يجد تفسيرًا للهدف الذي وضعته لنفسها هذه البلاد. ما إن تخرَّج دستويفسكي في مدرسة الهندسة حتى راح يبحث عن هذا التفسير في مجتمع بطرسبورج، لكنه لم يجده. كان يلتقي في صالونات بطرسبورج فقط بالوصوليين أو المثقفين، الذين يكرهون بلادهم ويخجلون من كونهم روسًا. هؤلاء الشاحبون الخامدون، لم يكن بإمكانهم أن يعطوا أبي سوى مفهومٍ ضعيفٍ عن عظمة بلادنا روسيا. في رواية «المراهق» هناك شخصية مثيرة للفضول - الطالب كرافت، روسي من أصل ألماني، أنهى حياته بالانتحار، لأنه توصل إلى استنتاج مفاده أن روسيا مُقدَّر لها أن تلعب دورًا ثانويًّا فقط في الحضارة الإنسانية. من الممكن تمامًا أن يكون دستويفسكي في شبابه المبكر قد عانى هو نفسه من مرض كرافت، هذا المرض الذي تعرض له، بدرجة أو أخرى، كل الروس الذين ينحدرون من أصول أجنبية. وقد تحدث أبي أكثر من مرة مع أصدقائه عن اقترابه في تلك المرحلة من حياته من حافة الانتحار، وذكر أن الاعتقال هو الذي أنقذه. ولكن إذا كان أهل بطرسبورج الأغبياء لم يستطيعوا أن يعطوا دستويفسكي أي فكرة عن الوطنية، فإن الشعب الروسي الذي قابله أبي في المعتقل سرعان ما نقل إليه الفكرة الروسية العظيمة عن الأخوة المسيحية. الفكرة العظيمة، التي وحَّدت عددًا كبيرًا من الشعوب تحت رايتنا! كان الليتواني الشاب منبهرًا بجمالها أيضا.

كان يريـد أن يقف تحت هـذه الراية. هل كان هو السـلافي - النورماندي الأول، الذي أعطى روحه وكيانه لروسـيا؟ كلا! كل النبلاء الموسـكوفيين، الذين أسسوا روسيا الكبرى، الذين دافعوا عن الكنيسـة الأرثوذوكسـية، الذين قاتلوا بشجاعة ضد المغول - التتار، كانوا أيضًا سـلافيين - نورمانديين، أحفاد الأمير ديوريك. هـؤلاء النـاس ذوو البصيرة النافذة هم أول الوطنيين الـروس الذين فهموا فكرتنا العظيمـة أفضـل كثيرًا من فهم الروس أنفسـهم لها، هؤلاء الذين كانـوا ما يزالون شـبابًا وعميانًا. كثيرًا ما تتبع الشـعوب الشـابة فكرتها القومية بشعور غريزي دون أن تـدرك مغـزى هـذه الفكرة بشـكل جيد، ولذلك فـإن نزعتها الوطنيـة لا تكون مرتفعـة إطلاقًـا. وعندما تنضج هـذه الأمم فإنها تبـدأ تدريجيًا فـي إدراك الفكرة التـي تعمل عليها. وفي النهاية فإنها تتفهم الخدمة التي قدمها أجدادهم للبشـرية، وعندمـا تشـعر بالفخر بوطنها. أحيانًـا ما تصل النزعة الوطنية عند الشـعوب التي بدأت الشيخوخة تصل عندها إلى ذروتها، وكثيرًا ما يسبب لها ذلك قدرًا كبيرًا من الغـرور، عندئذ يظهر أمثال نابوليون وفيلهلم، الذين يتمنون، وقد ملأهم الاعتزاز بثقافتهم القومية أن يفرضوا هذه الثقافة على العالم بأسره بالقوة.

بعد أن فهم دستويفسكي أخيرًا الفكرة الروسية راح بكل حماس يتبع النموذج السـلافي - النورمانـدي المجيـد، الذي كان يعـرف تاريخه جيدًا. لقد درسه في طفولتـه، قـرأه وأعاد قراءته، وحفظ عن ظهر قلب كتـب كارامزين، وقبلها جميعًا الكتابات التاريخية للأمراء الموسكوفيين العظام. وكما شرح هؤلاء الموسكوفيون العظام الفكرة الروسـية فـي غابر الزمان، أخذ دستويفسـكي يشـرحها لمواطنيه، ومثلـه مثلهـم، كان حريصًـا على كل مـا كان أصيلاً في روسـيا: طريقـة تفكيرنا، عقائدنـا، عاداتنا وتقاليدنا. لقد بدأ دستويفسـكي خدمته الوطنية عندما تخلى عن أفكار الجمهوريين. في السـابق كانت أفكارهم تبدو له رائعة، عندما كان يطرحها في صالونات بطرسبورج في محيط المشتعلين حماسًا من البولنديين والليتوانيين

والسويديين من فنلندا، والألمان من بلاد البلطيق والشباب الروسي، الذي تلقى، مثل دستويفسكي، تربية كوزموبوليتانية. الآن وقد أصبح موجودًا في سيبيريا وراح يتناقش كل يوم مع ممثلي الشعب الروسي، الذين أرسِلوا إلى سيبيريا من شتى أنحاء بلادنا الشاسعة، وقد بدت له الآن فكرة إدخال روسيا المقدسة في شكل جديد من أشكال نظام الدولة اقتداء بالنماذج الأوروبية فكرة عبثية. لقد رأى أن تراث الشعب الروسي كله منحصر في الثقافة البيزنطية، التي توقفت عن التطور، عندما غزا الأتراك بيزنطة. لم يعد باستطاعة رجال الدين الأرثوذوكس، الذين تعرف مسيحيونا من خلالهم على هذه الثقافة، تطويرها، واستمر الشعب الروسي يعيش كما لو كان ما يزال في القرن الخامس عشر، معايشًا لكل الرؤى الصوفية الساذجة التي كانت سائدة في ذلك الزمن. بداهة فإن نقل الأفكار الأوروبية في القرن التاسع عشر إلى بيئة غير مستعدة بعد لاستيعابها، لم يكن من الممكن أن يثمر سوى فوضوية بشعة، وربما اختفت بسببها كل براعم الحضارة الأوروبية التي غرسها أحفاد بطرس الأكبر في روسيا بجهود عظيمة قيمة. عندما انضم أبي إلى جماعة بتراشيفسكي السرية، كان يحلم بتغيير النظام الملكي إلى آخر جمهوري يديره المثقفون، لكنه رأى أن الأمر مستحيل، لأن الشعب يكره كافة «الأمراء» (سواء أكانوا من النبلاء أم من الانتلجينسيا البورجوازية) كراهية شديدة بلا هوادة. لم يستطع الفلاحون أن ينسوا قسوة سادتهم وكانوا ينظرون بريبة إلى النبلاء جميعهم وإلى المتعلمين عمومًا. أدرك دستويفسكي أن إقامة جمهورية في روسيا لا يمكن أن تنجح إلا إذا كانت جمهورية يقودها الفلاحون فقط، وعندئذ تكون مملكة للجلافة والجهل، الأمر الذي سيأخذ بلادنا روسيا بعيدًا عن أوروبا. لن يطيق الشعب الروسي صبرًا على الأوروبيين، إنه يكِنُّ مشاعر الحب للبلاد السلافية فقط، لقبائل آسيا المغولية، التي يجذبه إليها صوت الدم[1]. قد يُحوِّل النظام الجمهوري روسيا إلى بلد مغولي، لتذهب بذلك كل جهود

(1) المقصود الدم المغولي الذي يجري في عروق الروس. (المترجم)

قياصرتنا ونبلائنا للأَوْرَبة هباءً. كان دستويفسكي في تلك الفترة من حياته مولعًا بأوروبا، وكان يتمنى ألا تبتعد روسيا عن التأثير الأوروبي. وكلما انجذبت البلاد نحو هاوية الجهل والجلافة، راح يفضل التخلي عن وجهات نظره السياسية. لكن ذلك الأمر كان يتطلب منه بعض الوقت. إليكم ما كتبه دستويفسكي في «يوميات الكاتب»: «لم تفت في عضدنا سنوات السجن والمعاناة»[1]. شيء آخر غيَّر قلوبنا وعقائدنا: إنه التلاحم مع الشعب، التلاحم الأخوي في الشقاء المشترك. لكن ذلك لم يحدث على الفور، بل على العكس، تم بالتدريج وبعد زمن طويل للغاية. كان أكثر ما خفف عني من بين رفاقي كلهم هو عودتي إلى الفكرة الروسية، فأنا أنحدر من أسرة روسية خالصة نبيلة! كنا في أسرتنا نعرف الإنجيل منذ نعومة أظافرنا. كنت أبلغ من العمر تسع سنين، عندما عرفت كل المقاطع الرئيسية تقريبًا من كتاب التاريخ الروسي لكارامزين، التي كان يقرؤها علينا أبي في الأمسيات. آنذاك كانت زيارة الكرملين وكنائس موسكو بالنسبة لي أمرًا مهيبا دائما.

بعد أن آمن أن الأشكال الأوروبية لنظام الدولة في القرن التاسع عشر لا تلائم الشعب الروسي، راح دستويفسكي يبحث عن طرق أخرى لتطوير الحضارة في بلده. كان يفكر في أنه قد ينبغي أن يبذل الجهود لتطوير الثقافة البيزنطية، التي كانت قد غُرست في عقل وقلب فلاحينا. في ذلك الوقت كان مستوى الثقافة البيزنطية أعلى بكثير مما في وسط أوروبا. وبعد أن وجد العلماء اليونانيُّون، الذين طُردوا من القسطنطينية على يد الغزاة الأتراك، مأوى لأنفسهم في المدن الأوروبية الكبيرة، بدأت أوروبا في الخروج من ظلام العصور الوسطى. وإذا كانت الحضارة البيزنطية قد ساهمت في تطور الحضارة الأوروبية، فربما كان

---

(1) يقصد أبي رفاقه أتباع بتراشيفسكي، الذين تغيرت رؤاهم السياسية بعد خروجهم من المعتقل.

بإمكانهـا أن تلعب نفس الدور في روسـيا أيضا. آنذاك راح دستويفسـكي يدرس كنيستنا، التي استطاعت الحفاظ على هذه الحضارة التي تسلمتها من بيزنطة بكل تبجيـل. بـدأ آخر الآباء الموسـكوفيين، الأكثر ثقافة من سـابقيهم، في تطوير هذه الحضـارة بالفعـل وفقًا للروح الروسـية، لكن عملهم، الـذي كان من الممكن أن يؤتي ثماره، قد جرى وقفه بشـكل حاد على يـد بطرس الأكبر. قبل ذلك كان أبي يولي اهتمامًا قليلا بالكنيسة الأرثوذكسية. ومهما بحثت، فلن تجد في أي واحد مـن كتبـه، التي كتبها قبـل المعتقل، أي ذكـر لها. من الآن فصاعدا سـوف تكون الكنيسـة موجودة في كل رواية من رواياته، وسـوف يتحدث أبطال دستويفسكي عنهـا أكثـر فأكثر، أما في روايتـه الأخيرة – «الإخوة كارامازوف» – فسـوف نجد أن الكنيسـة الأرثوذوكسـية تعلو فوق كل شـيء. لقـد رأى أبي الآن الـدور الهام الـذي يلعبـه الديـن في روسـيا، وراح بكل حماس يدرسـه. فيما بعـد واصل أبي هـذه الدراسـة. أقبل علـى زيارة الكنيسـة والتحدث مع القساوسـة، والمشـاركة في اتباع التقاليد الأرثوذوكسـية. أصبح مدافعًا عن الكنيسـة، وكان أول من تجرأ علـى القـول بأن الكنيسـة ظلت منذ عهد بطـرس الأكبر على حالهـا، وراح يدعو لكي تصبح الكنيسـة كيانا مسـتقلا يرأسـه بطريرك. وقد أسـرعت القيادة الروحية الروسـية بالاسـتجابة له. تعاطفت الكنيسـة، التي اعتادت أن تـرى فقط الازدراء من جانب المثقفيـن الروس، الذين اعتبروها من مخلفات الماضي، تعاطفت مع دستويفسـكي وأطلقوا عليه اسـم «ابن الكنيسة الأرثوذوكسـية البار» وظلت أمينة لذكراه.

درس أبـي أيضًـا الملكيـة الروسـية وفهـم أخيـرًا أن القيصر، وكانوا يسـمونه المستبد الشـرقي، ليس سـوى رئيسٍ لمجتمعه كله، الشـخص الوحيد في البلاد الملهـم من اللـه. بموجب العقيدة الأرثوذوكسـية فـإن التتويج يُعد من الأسـرار المقدسـة: الروح القدس تتنزل على القيصر وترشـده في أعماله. في الزمن الغابر

كانت أوروبا بأسرها تتشارك هذه العقيدة، ولكن وبقدر انتشار الإلحاد فقد انتهت تدريجيًا وقد أصبحت في الوقت الحالي مثارًا لسخرية الأوروبيين. أما الشعب الروسي، الذي كان ما يزال يعيش في القرن الخامس عشر، فإنه ظل محافظًا على هذه العقيدة بكل تبجيل. الإنسان الروسي، الصوفي بطبعه يبحث عن العون من الله ولا يستطيع العيش بدونه. لا يخضع الروس إلا لمن تم تتويجه في واحدة من كنائس موسكو على يد أسقف أو بطريرك. رئيس الجمهورية الروسية، حتى ولو كان في حكمة سليمان، فإنه في عيون فلاحينا ليس سوى ثرثارٍ مثيرٍ للضحك لا أقل ولا أكثر، سوف ينقصه دائما تلك الهالة التي يهبها التتويج. سوف يعامله الشعب بريبة، وهذا الرئيس يعلم بدرجة كبيرة كيف يمكن بسهولة شراء موظف حكومي. ومهما وقَّع رؤساؤنا على اتفاقات، ومهما بذلوا من وعود للأوروبيين بمساعدة الجيش الروسي لهم فلن يستطيعوا ضمان فاعلية توقيعاتهم. إن أصغر شائعة تقول أن أوروبا اشترت الرئيس، سوف تثير انقلابًا على الفور.

بعد أن أدرك الدور الهائل الذي يلعبه القيصر في روسيا، أي سلطة أخلاقية يفرضها على فلاحينا باعتباره مباركًا من الله، وبعد أن أدرك أنه الوحيد، الذي يُوحد الشعب ويحميه من الفوضوية، التي تتربص بكل الشعوب المغولية، أصبح دستويفسكي ملكيًا. عندئذ اشتط غضب كل كُتَّابنا، كل انتليجينسيا بطرسبورج، هؤلاء «المحاربون ضد النظام القيصري»، عندما علموا أن دستويفسكي تخلى عن أفكاره الثورية. وبينما كان أبي عاكفًا على دراسة الشعب الروسي في المعتقل، كان هؤلاء السادة يواصلون الثرثرة في صالونات بطرسبورج، مستمدين معلوماتهم عن روسيا من الكتب الأوروبية، متعاملين مع فلاحينا باعتبارهم حمقى، يمكن فرض أي قوانين وأي أنظمة عليهم، دون أن يبذلوا جهدًا حتى لمعرفة آرائهم. لم يفهم المثقفون الأسباب التى دفعت دستويفسكي لأن يعيد النظر في معتقداته، ومن ثم لم يسامحوه على «خيانته لقضية الحرية المقدسة». لقد أضمروا الكراهية لأبي

طول حياته واستمروا في كراهيته حتى بعد موته. وفي كل مرة كانت تصدر فيها رواية جديدة لأبي لم يكن النقاد المحايدون هم الذين يقومون بالتحليل العميق وإبداء الملاحظات الذكية التي ينتظرها كل كاتب بفارغ الصبر، وإنما كانت تظهر عصابة من الكلاب المسعورة، كانت تنهال على روائعه وتحت ستار النقد راحوا ينهشون دستويفسكي ممزقينه إرْبًا، كانوا يقذفونه بالسفالات والإهانات بكل قسوة، على أن الأثر المعنوي لأبي على طُلاَّب بطرسبورج، الذين كانت أعدادهم تتزايد يوما بعد يوم كلما تألقت موهبته، دفع بهؤلاء الكُتّاب الروس إلى مزيد من الغضب. وعندما أراد تريتياكوف[1] أن يضع في «قاعة الكُتّاب الروس العظام» صورة أبي وكلّف رسامه الشهير[2] للقيام بهذه المهمة، أثار ذلك سخط خصوم دستويفسكي السياسيين الذي فاق كل حدود وجعلهم يفقدون صوابهم. راحوا ينبحون على صفحات مجلاتهم: «اذهبوا إلى المعرض، انظروا إلى وجه هذا المجنون وستفهمون في النهاية من هذا الذي تحبونه على هذا النحو، إلى من تستمعون، من تقرءون».

كانت هذه الكراهية الضارية التي لا تخمد تثير الأسى والغم في نفس أبي. كان يريد أن يعيش في سلام مع الكُتّاب الآخرين، أن يعمل معهم لصالح بلاده ومجدها. لم يكن باستطاعته أن يتخلى عن أفكاره، التي تأسست على دراسة عميقة للشعب الروسي، التى بدأها في المعتقل والتي استمرت طول حياته. لم يكن له الحق في أن يكتم الحقيقة عن روسيا، كان عليه أن يعرض عليها، إلى أي هوة سحيقة يجرهم الاشتراكيون والفوضويون في صالونات بطرسبورج. وقد

---

(1) التاجر الموسكوفي الثري، الذي أوصى بإهداء قاعته الفنية لمدينته الأم والتي تحوي مجموعة من اللوحات الروسية الرائعة.

(2) فاسيلي بيروف (1833–1882): رسام روسي. رسم بورتريه دستويفسكي الشهير عام 1872.(المترجم)

أعطاه الشعور المفعم بالواجب، أعطاه القوة للكفاح، لكنه عاش حياة صعبة. لقد توفي دستويفسكي دون أن يتمكن من أن يثبت أنه كان على حق. لقد كان من نصيبنا، نحن ضحايا الثورة الروسية التعساء، أن نرى كيف تحققت الآن كل تنبؤاته، وعلى ليبراليِّينا أن يدفعوا ثمن ثرثرتهم الغبية...

لم يكتفِ أبي إبان وجوده في المعتقل بدراسة النفس الروسية فقط؛ بل إنه تعمق أيضًا في جوهر الكتاب المقدس، الكتاب الوحيد الذي كان مسموحًا بقراءته في السجن جميعنا كنا فخورين أننا مسيحيون، لكن مَن مِنا كان يعرف الإنجيل جيدًا؟ كان غالبية الناس راضين بسماعه في الكنائس. وبالذكريات المبهمة عن حفظ أول قربان. من المحتمل أن يكون أبي في شبابه كان يعرف الكتاب المقدس، كما كان يعرفه عادة الشباب في محيطه، أي بصورة سطحية. وهو يعترف بذلك في سيرة حياة الأب زوسيما[1]، التي تعتبر بمعنى من المعاني سيرة حياة دستويفسكي نفسه. يقول زوسيما وهو يحكي عن شبابه: «لم أقرأ الكتاب المقدس، ولكنني لم أفترق عنه أبدًا. كان لديَّ إحساس أنه سوف يكون ضروريًّا لي يومًا ما». ويتضح لنا من خطابات دستويفسكي إلى أخيه ميخائيل أنه شرع في دراسة الكتاب المقدس في قلعة بتروبافلوفسك كما درسه وهو في المعتقل، حيث لم يكن هناك شيء يقرؤه لمدة أربع سنوات سواه. لقد قرأ هذا الكتاب المقدس بروية وتمعن، هذا الكتاب القيِّم، الذي أهدته إياه زوجات الديسمبريين ما إن وطئت أقدامه سيبيريا. راح يتأمل كل كلمة، يحفظ كل شيء عن ظهر قلب، ولم ينسه بعد ذلك مطلقًا. لم يكن هناك كاتب واحد في ذلك الزمن يمكن أن يكون ندًّا لدستويفسكي في مستوى ثقافته المسيحية. وقد تغلغلت هذه الثقافة في كافة أعماله، وفي ذلك إنما تكمن قوتها. كثيرًا ما كان محبو أبي يرددون على مسامعي هذه الكلمات: «يا لها من مصادفة غريبة ألا يكون أمام أبيك شيئًا

---

(1) في رواية «الإخوة كارامازوف».

ليقرأه سوى الإنجيل في تلك السنوات الأربع التي حددت حياة هذا الإنسان، التي تشكلت فيها شخصيته على نحو نهائيّ». مصادفة؟ وهل هناك مصادفات في الواقع في حياتنا؟ أليس كل شيء مُقدَّرًا منذ البداية؟ لم يكتمل عمل المسيح: في كل جيل يختار تلاميذه، يعطيهم علامة ليتبعوه ويهبهم نفس السلطان على قبول البشر التي وهبها في يوم ما لصيادي الجليل الفقراء...

لم يفارق دستويفسكي أبدًا إنجيله القديم، الذي قضى وقته معه في المعتقل، مع هذا الصديق الوفي، الذي كان يخفف عنه أكثر الأوقات حزنًا، كان يحمله دائمًا تحت إبطه، يضعه في درج مكتبه. أصبح من عاداته أن يبحث فيه عن النصيحة في الحالات الضرورية. كان يفتح الإنجيل كيفما اتفق ليقرأ السطور الأولى التي تقع عليها عيناه ويستوعبها باعتبارها إجابة على ما يعتريه من شكوك.

لم يكتب دستويفسكي شيئًا في المعتقَل[1]. لكنه خرج من سجن أومسك كاتبًا أكثر قوة مما كان عند دخوله إليه. هذا الليتواني الشاب، الذي أحب روسيا بطبيعة الحال، ولم يكن يدرك شيئًا عنها، تحول في المعتقل إلى روسي حقيقي. والسبب في ذلك يرجع للطابع الليتواني والثقافة الليتوانية لأسلافه والذي ظل بداخله طول حياته، لكنه أحب روسيا على نحو أعمق. كان يحكم عليها باعتباره سلافيًا حسن الطوية، مفتونًا بالروس. لم تكن نقائصنا تخيفه؛ كان يفهم أن سببها يعود إلى أن شعبنا ما يزال في عنفوان شبابه، وأن هذه النقائص سوف تختفي مع الزمن. دستويفسكي ابن ليتوانيا الصغيرة، التي كان انتماؤه لها من حسن الطالع، لن يعود، على الأرجح ليتوانيًا بعد ذلك مطلقًا، لقد قرر أن يكرس موهبته

(1) كان أبي يُسجِّل هناك بعض الأمور فقط – مثل الكلمات والتعبيرات الخاصة التي يستخدمها المساجين، والتي استخدمها فيما بعد في رواية «مذكرات من البيت الميت». كان يُسجل ذلك في دفتر صغير صنعه بنفسه. وهذا الدفتر موجود في متحف دستويفسكي في موسكو.

لخدمة روسيا العظيمة. ربما، هذا ما فهمه، أنه مدين بهذه الموهبة للدماء التي ورثها عن أمه الروسية، ومن ثم فإن للروس عليه حقوقًا، أكثر من الليتوانيين أو الأوكرانيين.

بعد أن أصبح مؤمنًا عميقًا بالمسيح وتابعًا متحمّسًا له، ولديه بلد يود خدمته، أصبح دستويفسكي الآن مستعدًا لإبداع أعماله الكبرى، التي لم يتمكن من كتابتها قبل المعتقل. لم يعد الآن بحاجة لأن يُقلد كُتّاب أوروبا العظام، وقد أصبح بمقدوره أن يستلهم موضوعاته من الحياة الروسية، وأن يستدعي من ذاكرته اعترافات المساجين وأفكار ومعتقدات فلاحينا! هذا الليتوانيّ، الذي توصل في نهاية الأمر إلى فهم النموذج الروسي انحنى أمام الكنيسة الروسية، ليعكف كلية على وصف أخلاق وتقاليد بلادنا العظيمة بعد أن أدار ظهره لأوروبا.



الفصل الثامن

دستويفسكي جنديًّا

كان العام الأخير من المعتقل أكثر سهولة على دستويفسكي من الأعوام الثلاثة التي سبقته. أخيرًا تم تغيير هذا المخلوق الفظّ الذي كان قائدًا لقلعة أومسك والذي كان يسوم المساجين سوء العذاب. كان القائد الجديد شخصًا أوروبيّ الثقافة، مثقفًا جيدًا. اهتم بأبي وحاول أن يهوّن عليه مصيره. كان القانون يسمح له باستخدام المتعلمين في الأعمال المكتبية الخاصة به. أرسل إلى أبي وعرض عليه إمكانية الذهاب إلى المدينة برفقة واحد من الجنود. كما فوّض دستويفسكي في القيام بعمل ما بسيط في بيته، وأمر بتقديم طعام شهيّ له وأعطاه كتبا وقدم له بعض المجلات، التي انقض عليها أبي بشغف[1]. سنوات أربع لم يمسك فيها أبي بيديه بجريدة حتى بات جاهلاً بكل ما يدور حوله في هذا العالم.

لقد بُعث أبي من جديد وسرعان ما سيغادر «البيت الميت»[2]. يحكي في «مذكراته» كيف صاح في سرور وهو يغادر المعتقل: «يا لها من لحظة مجيدة!».

(1) لم يذكر أبي أي شيء عن هذا القائد علنًا، خشية أن يسبب له ضررًا من جانب الحكومة، ولكنه كان يأتي على ذكره كثيرًا في محيط الأسرة. وبقدر ما كان دستويفسكي يكره الحديث عن معاناته التي عاشها في السجن، بقدر ما كان يحب أن يتذكر هؤلاء الناس الذين عاملوه برفق في ذلك الزمن الصعب.

(2) المقصود بـ«البيت الميت» هو سيبيريا. (المترجم)

في نفس الوقت غادر معه السجن رفيقه في حلقة بتراشيفسكي دوروف. يالأسف! هذا الشاب الفقير لم تعد لديه القدرة على الفرح بالحرية. يقول عنه أبي: «لقد ذبل مثل شمعة. لقد دخل السجن شابًا جميلا، والآن يغادره شبه محطم، اشتعل رأسه شيبًا، لا يقوى على الوقوف على قدميه، مصابًا بضيق التنفس. ومع هذا فإن دوروف لم يكن يعاني من الصرع مثل أبي، بل كان قبل القبض عليه في تمام الصحة والعافية. كيف يمكن إذن أن نفسر هذا الفارق في تأثير أربع سنوات من الاعتقال على هذين المتآمرين. يخيل إليّ أن علينا أن نبحث عن هذا التفسير عن أصولهما القومية. دوروف روسي، ينتمي إلى شعب ما يزال شابًا للغاية. كان يفقد قواه بسرعة. تخور عزيمته عند اصطدامه بأول عائق، لا يمتلك مهارة الصراع. أما دستويفسكي فكان ليتوانيًا، ينتمي إلى شعب أكثر نضجًا، تختلط في عروقه الدماء النورماندية. كان الليتوانيون يشعرون دائمًا بالسعادة عند دخولهم أي صراع. انظر ما قاله المؤرخ فيدوناس، الذي درس شعبه جيدًا في هذا الصدد: «مهما حدث لليتواني فإنه لا يجعل لليأس سبيلا إلى نفسه. إن هذا لا يعني أنه يظل لا مباليا تجاه كل شيء وهبته له الحياة، فهو يمتلك قدرة كبيرة على التأمل؛ لكن هذا التأمل يمتلك احتياطيًا كبيرًا من المرونة والطاقة، فما لا يستطيع أن يُغيّره يتحمله بصبر كبير، وهو على استعداد أن يدخل معه في صراع من جديد. إنه يسعى تلقائيًا لضبط تصرفاته أمام تقلبات الدهر. وهو أمر ملحوظ في تلك الظروف التي يكون فيها في أشد الحاجة إلى أن يدفع بالأمور إلى منتهاها. كما أن اليقظة العقلية تظهر لديه كلما ازداد الأمر صعوبة وهو أكثر ميلاً لأن يتعامل معه بهدوء وبساطة ومرح».

يمكن أن نفترض أن دستويفسكي بدأ صراعه من أجل الحياة منذ أيامه الأولى في المعتقل. لقد تجاوز اليأس وراح يدرس باهتمام شخصيات المساجين؛ أخلاقهم، طباعهم، عاداتهم، طريقة تفكيرهم، آراءهم. فهو يرى فيهم أبطال رواياته

القادمة. راح دستويفسكي بكل دأب وإتقان يجمع الملاحظات الثمينة، التي كان يقدمها له المساجين. إن المُشاهد الغريب لا يمكنه أن يتصور صدق أحكام ونفاذ بصيرة وقوة ملاحظة الفلاح الروسي. عندما كان المساجين يسرفون في الشراب في أيام الأعياد على نحو بهيميٍّ، كان دستويفسكي يتغلب على اشمئزازه باللجوء إلى الإنجيل. كان دستويفسكي يقول لنفسه وهو ينظر إلى أحد المساجين وقد راح يرفع عقيرته بالغناء الفاحش وهو يترنح من السُكْر: «ليس بإمكاني أن أرى روحه، من يدري، ربما كانت أفضل من روحي». سرعان ما أدرك دستويفسكي أن الدواء الناجع من اليأس هو العمل الشاق. بهذه الرغبة الغريزية الإيجابية في العمل، والتي تعيش داخل كل ليتوانيٍّ، راح ينظر إلى الأعمال الشاقة كما ينظر المرء إلى الرياضة البدنية التي انهمك فيها بكل الحماس، الذي كان يؤدي به كل عمل يهمه. من خلال بعض فصول «البيت الميت» نرى بوضوح كيف أعجبه العمل في الهواء الطلق وتكسير الصخور[1]. كان دستويفسكي يتحكم في أعصابه، مضطرًا لإخفاء غضبه واشمئزازه من المساجين الآخرين، التي كانت تثيرها في نفسه بعض تصرفاته. لقد بدأ من المخاوف التي خلقها خياله بفضل هذه الحياة الحقيقية الشاقة التي لا ترحم. كتب إلى أخيه ميخائيل فور خروجه من السجن يقول فيه: «لو تصورت أنني ما زلت هذا الإنسان العصبي، سريع الغضب، صريع أفكاري عن المرض، على النحو الذي كنت عليه في وقت ما في بطرسبورج، فإن عليك أن تطرد هذه الفكرة على الفور، هي والكثير من الأفكار القديمة».

هناك فكرة وحيدة مثَّلت أهمية كبرى بالنسبة لدستويفسكي، ظلت هي الفكرة الداعمة والمواسية له. وبرغم إيمانه العميق، الذي لازمه دائما، كان عليه حتما

---

(1) عن الأعمال التي كان على أبي أن يقوم بها في المعتقل كتب أبي يقول: «كان عليَّ أن أدير عجلة، وكان هذا يتطلب جهدًا كبيرًا، ولكن هذا الجهد الصعب كان يبعث في حركة هائلة. يحكي بعد ذلك كيف كان عليه أن يحمل على ظهره أحجارًا. كان هذا العمل يعجبه لأنه كان يُحسِّن قوته البدنية.

أن يطرح هذا السؤال: لماذا عاقبه الله على هذا النحو من القسوة وهو الذي لم يرتكب إثمًا. لماذا يُستشهد من أجل فكرة رائعة. في هذا الوقت كان يعتبر نفسه بطلا، فخورًا باشتراكه في مؤامرة بتراشيفسكي. لم يخطر بباله، إلا في وقت متأخر، ربما بعد عشر سنوات من إطلاق سراحه، أن فكرة هذه المؤامرة كانت جريمة، وأنه كان من الممكن أن تدفع بروسيا إلى الفوضوية، وأن شرذمة من الشباب الحالم لم يكن من حقها أن تفرض إرادتها على بلد كبير. كان يرى نفسه غير مذنب، وأن ما حدث كان مجرد هواجس نقية نبيلة لا عيب فيها. كان دستويفسكي يتساءل ما الذي فعله ليغضِب الله، وهو الذي كان يصلي له دائمًا بكل حب. عندئذ وجد الجواب: إن الله لم يرسل إليه بالألم ليعذبه ولكن ليقويه وليجعل منه كاتبًا كبيرًا مفيدًا لبلده وشعبه.

يخلط الناس عن جهل بين الموهوب وموهبته ولا يستطيعون الفصل بينهما. هناك أناس من أصحاب المواهب لا يقعون في هذا الخطأ، هم يعرفون أن موهبتهم، سواء أكانت عظيمة أم متواضعة هي هبة ليست لهم بصفة شخصية، وإنما للإنسانية جمعاء. إن أي كاتب، موسيقيٍّ، نحّات، عالم، لديه إيمان ولو قليل للغاية، يدرك أنه يحمل رسالة ما ويحمل معها صليبه خاضعًا. كل منهم يشعر بوضوح تام أن الله أعطاه الموهبة لا ليتعالى على الناس، بل على العكس. مكتوب عليه أن يضحي بنفسه من أجل سعادة الآخرين وأن يجعلهم خدمًا للإنسانية كلها. وكلما نمت الموهبة فإن فكرة تضحية حامل الموهبة تبدو أكثر تألقًا. أحيانا ما يتمرد المرء على قَدَره في أن يكون ضحية ليرفض في غضب كأس المرارة التي حملها له هذا القدر، وفي لحظات أخرى يعلل نفسه بالأمل في أن الله اختاره لكي يحقق أفكاره على الأرض. وعندما يعي الإنسان الموهوب رسالته، فإنه يتحرر من الشر ومن النزوات المتمردة. إنه يحلق فوق الجمهور، شاعرًا أنه أقرب إلى الله من الآخرين الزائلين. وأن حمية تسمو به يومًا بعد

الآخر. يقول أبي مخاطبًا الله بشجاعة: «فلتعذبني، إذا كان ذلك سوف يضاعف من موهبتي، ويزيد من تأثيري في الناس. لا ترحمني! سوف أتحمل كل شيء، فقط من أجل أن تتحقق القضية التي أرسلتني إلى الأرض من أجلها على الوجه الأفضل». عندما يبلغ المرء هذا القدر من إنكار الذات، لا يوجد هناك شيء يخيفه، ويصبح إخلاصه لخير البشرية بلا حدود. يقول دستويفسكي لأصدقائه بعد عودته إلى بطرسبورج، الذين كانوا يرون أنه اتُّهم ظلمًا: «كلا، لقد كان عدلا، كان الشعب سيدينا. لقد فهمت ذلك في المعتقل. ثم من يدري، لعل الله أرسلني إلى هناك لأتعلم الأمر الأهم، الذي لولاه لما أصبحت قادرًا على الحياة، لولاه لالتهم بعضنا بعضًا. جئت لأحمله للآخرين، لعلهم يصبحون في حال أفضل ولو قليلا، ولو لعدد قليل. فمن أجل شخص واحد يستحق الأمر أن يذهب المرء للمعتقل».

بموجب القوانين الروسية، لم يكن انقضاء مدة الأعمال الشاقة يعني حصوله على حريته. لقد تم تجنيده جنديًا عاديًا في أحد الأفواج في سيميبالاتينسك[1]، ليترقى بعدها إلى رتبة ضابط ويعود إلى وضع الشخص الحر. لكن الخدمة كجنديٍّ كانت بمثابة حصوله على الحرية مقارنة بما عاناه في المعتقل. كان ضباط الفوج يعاملونه كرفيق، أكثر من كونه مرؤوسًا. في تلك الأزمان البعيدة كان أهل سيبيريا ينظرون باحترام عميق للمساجين السياسيين. إن الديسمبريين، الذين كانوا ينتمون إلى أفضل عائلات البلاد، والذين احتملوا عذاب الأشغال الشاقة والنفي بكل ثبات وعزة نفس ولم يشتكوا مطلقًا، كانوا قد هيئوا التربة لجماعة بتراشيفسكي. كانت المدينة كلها تستقبل أبي بحفاوة وترحيب بغض النظر عن كونه كاتبًا. إن رواياته، التي قرأها عديد من الناس في الأقاليم جذبت إليه تعاطف سكان سيميبالاتينسك. وكان أبي يسعى من جانبه لعقد أواصر الصداقة معهم.

(1) مدينة صغيرة في سيبيريا.

لقد شَفَاهُ القرب الاضطراري من المساجين إلى الأبد من نـزوع الليتوانيين إلى العزلة. لم يعد ينظر باحتقار إلى الجنود الموسكوفيين الجهلة. الآن عرف أبي أن نقص الثقافة لم يمنع الروس من أن تكون لديهم قلوب من ذهب. الآن راح يتردد على المجتمع ويشارك في البهجة مع أهالي سيميبالاتينسك. أصبح محبوبًا منهم جميعًا. لقد بات أبي روسيًّا بحق. أصبح مفعما بحب الحياة، وبينما ذوى دورروف المسكين مثل شمعة ليموت سريعا بعد خروجه من السجن، بدأ دستويفسكي حياته من جديد من تلك النقطة التي قطعها الحكم. أسرع في استعادة علاقاته الودية مع أقاربه في موسـكو وبطرسبورج[1]. لم يحمل لهم أي ضغينة كونهم قد تخلوا عنه طـول السـنوات التي قضاها فـي المعتقل، وفي غمرة فرحتـه بالحرية التي حصل عليها أخيرا وصف أخواته، اللائي عاملنه بجفاء «بالملائكة». كتب إلى أصدقائه، كُتَّـاب «بطرسـبورج» يطلـب منهم أن يرسـلوا إليـه أعمالهم، معبرا عـن اهتمامه بإبداعهم طول فترة «موته». عقد صداقة مع ضباط وجنود فوج[2]. وبمناسبة سفر واحد من أصدقائه الجدد، المدعو ڤاليخانوف، حرص دستويفسـكي على التقاط صورة معه لدى مصور غير ماهر تمامًا من سكان سيميبالاتينسك، ونحن مدينون لهذه المناسبة بالصورة الوحيدة لأبي إبان شبابه.

بعد مرور عدة أشهر على خروجه من السجن، تعرف دستويفسكي على شخص من حلقة أصدقائه، البارون الشاب فرانجيل[3] الذي وصل إلى سيميبالاتينسك في

(1) كتب أبي خطاباته الأولى إلى أخيه ميخائيل وكان ما يزال في المعتقل. وقد حصل على إمكانية إرسال خطابات واستلام بعض النقود من أخيه بفضل أريحية القائد، الذي أخذ على عاتقه القيام بدور الوسيط.

(2) يحكي دستويفسكي فيما بعد في مجلة «جراچدانين» (المواطن) كيف كان يحب القراءة جهرًا على رفاقه الجنود عندما يجتمعون في الشقة مساءً. ويعترف أبي أنه كان يتم تبادل الآراء بعدها معهم وكان الأمر مثل متعة كبرى بالنسبة له.

(3) فرانجيل، ألكسندر يجوروڤيتش (1833-1915): محام، دبلوماسي وعالم آثار، صديق=

شئون تخص إدارته. كان فرانجيل من سكان البلطيق، من أصل سويدي، تروَّس بشكل تامٍّ. كان من الذين يقدرون موهبة أبي تقديرًا كبيرًا، وهو الذي اقترح على دستويفسكي أن يسكنا معا فوافق أبي. من المثير للاهتمام أنه في كلتا الحالتين التي وافق دستويفسكي فيهما على اقتسام السكن مع رفاقه، أنهما كانا روسيين من أصول أوروبية: جريجوروفيتش- فرنسي، فرانجيل- سويدي، من الأرجح تمامًا أبي لم يكن يستطيع مطلقًا أن يصبر على أسلوب الحياة شبه الشرقي في حياة الروس، لعب الورق طول الليل، ثم النوم بعد ذلك طول النهار. كان أبي في حاجة إلى حياة منظمة، إلى رفيق تلقى تربية حسنة، يحترم ساعات عمله وتأملاته.

كانت حياته مع فرانجيل تسير سيرًا حسنًا. كانا يقضيان فصل الشتاء في المدينة؛ وفي الصيف يستأجر الصديقان كوخًا ريفيًّا في ضواحي سيميبالاتينسك باعتباره بيتًا صيفيًّا، وكانا يقومان معًا بزراعة الزهور، التي كانا كلاهما يحبها.

فيما بعد انتقل فرانجيل إلى مصلحة حكومية أخرى ليخدم بالقسم الدبلوماسي. كانت له علاقات مع الكثير من البارزين من الناس. ولكنه بعد أن بلغ من العمر أرذله لم يكن يأتي إلا على ذكر صداقته بدستويفسكي. الذين التقوا به من الروس عندما كان قنصلا لبلادنا في درزدن (آخر مدينة خدم بها) كانوا يحكون أن أول ما كان يقوله لأصدقائه الجدد، أنه كان صديقا للكاتب الكبير دستويفسكي، ويصف لهم على نحو مفصل الحياة المشتركة التي قضياها معًا في سيميبالاتينسك. كان ذلك، كما حكى لي أصدقائي الروس بسذاجة «نوع من الهوس الحقيقي لديه». كان من الممكن أن يكون ذلك مفهومًا لهم لو أنهم كانوا يتحدثون عن صداقة مع أمير ما أو ماركيز، ولكنه مجرد كاتب! ولكن هاكم

=دستويفسكي، مؤلف كتاب «مذكرات عن دستويفسكي في سيبيريا» (1854-1856) (سان بطرسبورج، 1912).

من أصبح مصدرًا للفخر! هذا البارون من البلطيق كان أكثر ذكاء وأعلى ثقافة من هؤلاء المدَّعين المساكين - مواطني بلدي الجهلة إلى حد كبير، واحسرتاه، المخدوعين في الذوق والأفكار التقليدية المكررة. عند منحدر الحياة أدرك البارون فرانجيل وهو يتأمل الطريق الذي قطعه أن أفضل الصفحات في كتاب حياته كانت صداقته مع الكاتب الكبير، وأنه قد خدم الإنسانية تحديدًا في تلك الأشهر، عندما استطاع بفضل ذوقه وتربيته أن يوفر الهدوء والسكينة لعبقرية، لهذا المريض، الذي هجره أقرب الناس إليه، وكان في أمس الحاجة للحصول على قدر من الراحة بعد التجارب المريرة التي عانى ويلاتها...

نشر البارون فرانجيل مذكراته عن أبي، لكنه لم يستطع أن يعكس فيها الحياة الباطنية لدستويفسكي (لم يتحدث أبي قط مع أحد عن أموره الشخصية، اللهم إلا مع أصدقائه والمقربين إليه الذين صمد إخلاصهم أمام اختبارات الزمن). على أنه استنادًا إلى وصفه، يمكن أن نتصور بشكل جيد المجتمع على النحو الذي كان موجودًا في سيميبالاتينسك وأي دور لعبه أبي في هذه المدينة الصغيرة. إن مذكرات البارون فرانجيل هي الشاهد الوحيد على تلك الفترة من حياة دستويفسكي، والتي يمكننا الاعتماد عليها.



الفصل التاسع
الزواج الأول لدستويفسكي

كانت الأشغال الشاقة التي تعيَّن على أبي أن يقوم بها شديدة القسوة، لكنها عادت عليه بنفع كبير إذ أكسبته قوة بدنية. لم يعد مريضًا ولا مراهقًا متأخر النمو. لقد أصبح رجلا وعندئذ شعر بالحاجة إلى الحب. استولت على قلبه أول امرأة صادفها، رغم أنها لم تكن أكثر رقة وجمالا من حسناوات مدينة سيميبالاتينسك. هذا ما حدث له بعد عدة أشهر من خروجه من السجن. ولكن يا لها من امرأة بشعة أرسلها القدر إلى أبي المسكين!

من بين ضباط فوج سيميبالاتينسك كان هناك ضابط برتبة نقيب يُدعى إيسايف، ضئيل الجسم، ضيق الأفق، معتل الصحة. أقر كل أطباء المدينة أنه لا جدوى من شفائه. كان يُقدِّر أبي كثيرًا وكان يدعوه أحيانًا لزيارته. كانت زوجته ماريا ديمترييفنا تستقبل دستويفسكي بترحاب وحفاوة، ساعية أن تخلب لُبّه وأن تكسب وده. كانت تعلم أنها سرعان ما ستصبح أرملة دون أي مورد للعيش، باستثناء معاش زهيد تدفعه الحكومة الروسية لأرامل الضباط، وهو ما يكفيها بالكاد هي وابنها ذا السنوات السبع. وباعتبارها امرأة بعيدة النظر فقد راحت تبحث لنفسها عن زوج ثانٍ، وهنا تراءى لها أن دستويفسكي هو أنسب رجل لها في المدينة: فهو كاتب موهوب ولديه عمة ثرية في موسكو، عادت من جديد

لترسل إليه بالنقود. أخذت ماريا ديمتريفنا تتظاهر بأنها امرأة ذات طبيعة شاعرية لا يفهمها المجتمع الريفي في مدينة صغيرة نائية، وأنها متعطشة لأن تجد شخصًا من الصفوة له قلب سامٍ كقلبها. استطاعت بسرعة أن تستولي على قلب أبي الغرير، الذي يقع في الحبّ للمرة الأولى وهو في الثالثة والثلاثين من عمره.

هذه الصداقة العاطفية انقطعت فجأة. لقد نقلوا النقيب إيسايف ليخدم في كوزنتسك، تلك المدينة السيبيرية الصغيرة، حيث يعسكر فوج آخر تابع لنفس الوحدة في سيميبالاتينسك، وقد اصطحب معه زوجته وطفله. بعد عدة أشهر تُوفي النقيب بمرض السل الرئوي، الذي كان يعاني منه منذ فترة طويلة. أبلغت ماريا ديمتريفنا دستويفسكي بوفاة زوجها وحرصت على تبادل الرسائل معه بكل نشاط. ظلت تعيش في فقر مدقع إلى أن اعتمدت لها الحكومة معاش أرملة، وكان دستويفسكي يرسل إليها تقريبًا كل ما يتلقاه من مال يصله من أقاربه. كان متعاطفًا معها بإخلاص، وكان مستعدًّا أن يحميها. الحقيقة أن ما كان أبي يشعر به نحو ماريا ديمتريفنا لم يكن حبًا وإنما كان نوعًا من الشفقة، فعندما أخبرته ماريا ديمتريفنا أنها وجدت خطيبًا لها في كوزنتسك وأنها ستتزوج قريبًا سعد بذلك بدلا من أن يحزن: لقد كان سعيدًا من أجل هذه المرأة، التي وجدت أخيرًا سندًا لها، حتى أنه خاطب أصدقاءه راجيًا إياهم أن يتوسطوا له ليجد وظيفة في مصلحة حكومية كان الخطيب قد التمسها. بالطبع لم يكن أبي يعتبر أبدًا أن زوج المستقبل لماريا ديمتريفنا يمثل منافسًا له. في تلك الفترة لم يكن أبي متأكدًا أن بإمكانه أن يتزوج، مفترضًا أنه مريض على أي حال. كان الصرع، الذى كَمُن لديه منذ فترة طويلة قد عاد للظهور مرة أخرى، وبدأت تحدث له نوبات غريبة- تشنجات مفاجئة يشعر بعدها بالإجهاد فلا يستطيع القيام بأي عمل. أطباء الفوج، الذين كانوا يتولون علاجه، لم يستطيعوا أن يقطعوا عن يقين بطبيعة هذه النوبات. فقط بعد زمن طويل شخّصوا مرضه على أنه صرع. وحتى هذا الوقت

كان الجميع ينصحونه بعدم الزواج: أطباؤه ورفاقه في الفوج، أقاربه، البارون فرانجيل، وأخوه ميخائيل. وقد تصالح دستويفسكي وهو حزين مع قدره كعازب عجوز. واصل حياته مع الأمير ميشكين[1]، الذي ارتضى لناستاسيا فيليبوفنا[2] أن تهجره لتذهب إلى روجوجين رغم حبه لها، وإن أبقى على علاقة الصداقة بينه وبين منافسه.

في هذا الوقت انفصلت ماريا ديمترييفنا عن خطيبها، الذي غادر مدينة كوزنتسك. وأخيرا بدءوا في صرف معاش الأرملة لها، ولكن أنّى لامرأة متقلبة الأهواء، طموحة، أن تكتفي بهذه القروش الزهيدة. لقد عادت إلى فكرتها القديمة - أن تتزوج من دستويفسكي[3]. في خطاباتها التي راحت تزداد يومًا بعد الآخر، كانت تبالغ في وصف بؤسها، مؤكدة له أن الفقر قد أرهقها، وهددت بأنها ستنتحر هي وابنها. وفي نوبة خوفه تمزق دستويفسكي شوقًا إليها ليراها ويلومها ويردها إلى صوابها. وباعتباره مسجونًا سياسيًّا سابقا، فلم يكن من حقه أن يترك سيميبالاتينسك[4]. رفاقه الضباط، الذين أفضى إليهم برغبته في السفر إلى كوزنتسك، وجدوا طريقة لإرساله إلى هناك «لدواعي العمل». الفوج

---

(1) «الأبله».

(2) ناستاسيا فيليبوفنا: بطلة رواية «الأبله». (المترجم)

(3) في ذلك الوقت تمت ترقية أبي إلى رتبة ضابط.

(4) في تلك الفترة كانوا أحيانا ما يعينون دستويفسكي حارسًا عسكريًّا، يرافق البعثات العلمية، التي تقوم بدراسة سيبيريا بأمر من الحكومة. يحكي أبي في أحد خطاباته كيف ذهب إلى بارناول، وهي مدينة صغيرة تقع بين سيميبالاتينسك وكوزنتسك برفقة بيوتر سيميونوف ورفاقه، أعضاء الجمعية الجغرافية. وعندما علم الجنرال جريجوروس محافظ بارناول بوصولهم، دعا البعثة إلى حفل أقامه وتعامل مع أبي على وجه الخصوص بكل لطف وحفاوة. كان رجلا من البلطيق ينظر إلى أبي الذي أنهى لتوه عقوبة السجن نظرته إلى كاتب بارز، لا إلى مجرم.

الموجود في سيميبالاتينسك أرسل إلى كوزنتسك مركبة بضائع تحمل حبالاً، ووفقا للقانون فإنه ينبغي أن يرافقها ضباط وجنود مسلحون. كان الضباط بشكل سريٍّ لا يكلفون أبي بمثل هذه المهام ودائمًا ما يبعدونه عنها. ولكن في هذه المرة كان سعيدًا أن ينتهز هذه الفرصة وأن يقطع مئات الفراسخ[1] جالسًا على الحبال التي كان مكلفًا بحراستها. استقبلته ماريا ديمترييفنا بحفاوة وترحاب وسرعان ما فرضت عليه سلطانها القديم، الذي ضعف أثره قليلا، ربما بسبب طول الفراق. متأثرًا بشكاواها وإحساسه بالشفقة لبؤسها، منزعجًا من تهديداتها بالانتحار، نسي أبي نصيحة أصدقائه وقبّل يدها وقبّلها، بعد أن بذل لها وعدًا أن يعتني بها وأن يكون في منزلة الأب لابنها باڤل. سارعت ماريا ديمترييفنا بقبول خطبته، ليعود أبي إلى سيميبالاتينسك في نفس مركبة البضائع ليطلب من قائد الفوج السماح له بالزواج. أُعطي له التصريح مشفوعًا بإجازة لمدة عدة أسابيع، ليعود أبي إلى كوزنتسك مرة أخرى وقد تهيأت له أسباب الراحة أكثر من المرة السابقة: استقل عربة جيدة وكان بنيته أن يحضر فيها إلى سيميبالاتينسك مع زوجته الجديدة السيدة دستويفسكايا وربيبه. لكن الإجازة التي قدمت لأبي لم تستمر طويلا - كانت الحكومة تخشى أن يُسمح للمساجين السياسيين بالانتشار في الطرق الكبيرة، فاضطر دستويفسكي أن يتزوج على عجل بعد بضعة أيام من وصوله إلى كوزنتسك. كم كان سعيدًا آنذاك وهو ذاهب معها إلى الكنيسة ليقيما مراسم التكليل! أخيرًا السعادة مستعدة أن تبتسم له. لقد كافأه القدر على كل معاناته التي عاشها في المعتقل، ليهديه زوجة رقيقة مُحبَّة، ربما تجعل منه أبًا. الآن راح دستويفسكي يهدهد نفسه بهذه الأحلام الجميلة عن السعادة، ولكن، ما

---

(1) الفرسخ أطول قليلا من الكيلومتر، والمسافة بين سيميبالاتينسك وكوزنتسك طويلة. ولا أظن أن أبي قد قطع كل هذا الطريق جالسًا على الحبال. الأرجح أن رفاقه نظموا الأمر بحيث يرافق أبي في البداية أيا من القادة الكبار ثم يسافر بعد ذلك في مركبة البضائع إلى برناول.

الذي كان يدور في عقل خطيبته؟ عشية الزفاف قضت ماريا ديمترييفنا ليلتها لدى عشيقها - المدرس الشاب الوسيم، الذي كانت قد تعرفت عليه فور وصولها إلى كوزنتسك، والذي كانت تربطها به علاقة سرية منذ فترة بعيدة[1].

هذه المخادعة كانت ابنة لمملوك لنابوليون تم أسره إبان انسحاب الفرنسيين من موسكو واقتيد إلى استراخان الواقعة على بحر قزوين، وهناك استبدل اسمه وعقيدته حتى يتمكن من الزواج من عذراء شابة من عائلة طيبة أحبته إلى درجة الجنون. استطاعت أن تلحقه بالجيش الروسي ليصل بعد ذلك إلى رتبة العقيد ويصبح قائدًا لأحد الأفواج في بقعة ما نائية في الأرياف. لم يره أبي أبدًا. وبفضل لعبة من ألعاب الطبيعة ورثت ماريا ديمتريبفنا الملامح الروسية التقليدية عن أمها. لقد رأيت صورتها: لا شيء فيها يشي بأصولها الشرقية أما ابنها پاڤل، الذي تسنى لي أن أتعرف عليه لاحقا، فكان يبدو خلاسيًا تقريبا، كان لون جلده يميل إلى الاصفرار، له شعر أسود مصقول، يحرك عينيه مثلما يفعل الزنوج، إيماءاته عصبية سريعة. كان شريرًا، وقحًا وغبيًا.

عندما تزوجت أمه للمرة الثانية، كان طفلا جميلا، نشطًا ومرحًا، وكان أبي يلاطفه لكي يدخل السرور على قلب ماريا ديمتريبفنا، لم يشك أبي في أن لزوجته أصولا أفريقية، لقد أخفت عنه هذا الأمر بإتقان شديد، لكنه اكتشف ذلك مؤخرًا للغاية. الماكرة، مثلها مثل كل الزنجيات، تظاهرت بدور الزوجة النموذجية. استطاعت أن تجمع حولها كل مثقفي سيميبالاتينسك، وراحت تدير شيئًا ما أشبه بصالون أدبي. ادعت أنها فرنسية، وكانت تتحدث الفرنسية كأنها لغتها الأم. كانت

---

(1) الأرجح تماما، أن الخطيب من كوزنتسك، الذي لا أعرف اسمه، رفض الزواج من ماريا ديمتريبفنا بعد أن عرف بعلاقتها الغرامية مع هذا المدرس. لم يستطع أبي أن يعرف شيئًا عن هذه العلاقة السرية لخطيبته إذ لم يتوقف في كوزنتسك سوى مرتين قصيرتين، كانت ماريا ديمتريبفنا تتظاهر في وجوده بالجدية والعفاف.

تقرأ كثيرا فقد تلقت تعليمًا جيدًا في أحد معاهد الفتيات النبيلات الحكومية. استقبل مجتمع سيميبالاتينسك العروس الجديد، السيدة دستويفسكايا باعتبارها امرأة جادة جديرة بالاحترام. البارون فرانجيل كتب عنها في مذكراته باحترام ووجد فيها سيدة جذابة. طول هذه الفترة كانت تلتقي سرًّا بمدرسها الوسيم، الذي تبعها إلى سيميبالاتينسك. لقد تسلت بجنون بهذه اللعبة حتى استغفلت كل المدينة ومعها زوجها الحالم المسكين. كان دستويفسكي يعرف الشاب كما يعرف الناس كلهم بعضهم بعضًا في تلك المدن الريفية الصغيرة، ولكن لم يخطر بباله قط أن يكون هذا النكرة منافسًا له. كان يعتبر أن ماريا ديمترييفنا زوجة وفية، مخلصة له تمام الإخلاص. في الوقت نفسه كانت امرأة بشعة، تنتابها نوبات مفاجئة من الغضب المخيف، كان أبي يرجعها إلى ضعف صحتها (لم تكن حالة رئتي ماريا ديمترييفنا الصحية على ما يرام). كان يغفر لها المشاهد العاصفة، التي كانت تطلقها بأي ذريعة. كانت ربة بيت ماهرة قادرة على إدارة «البيت» وتوفير كل وسائل الراحة له. بعد تلك الحياة الكريهة التي عاشها دستويفسكي أصبح بيته جنة حقيقية. وعلى عكس مخاوف أقاربه وأصدقائه، سارت الحياة الزوجية لصالحه. امتلأ بدنه، أصبح أكثر مرحًا وبدا راضيًا. في الصورة التي التقطت له في سيميبالاتينسك، التي تحدثت عنها في الفصل السابق، سنرى إنسانا في ذروة قوته، مليء بالحيوية والطاقة. ليست هذه صورة الأمير ميشكين في رواية «الأبله» بأيِّ حال من الأحوال، ولا هذا السجين- النبي في قصيدة نكراسوف. صرع أبي، الذي تم تشخيصه في النهاية كان يفرغ توتره. كانت النوبات تعذبه كثيرًا، على أنه كان يشعر بعدها بحالة من النورانية والسكينة. الهواء النقي والجاف، الخدمة العسكرية، التي كانت بمثابة ممارسة للرياضة بالنسبة له، الحياة الآمنة في مدينة ريفية صغيرة- كل ذلك ساعد على تحسين صحته، وكعهده دائما، كانت كل أفكاره موجهة إلى العمل على رواياته التي كان عازمًا على كتابتها. كان يقوم على تلبية كل واجباته المهنية بضمير خالص، لكنه لم يكن يعطيها روحه. لم يكن أبي

يفعل شيئًا سوى أن يحلم، متطلعًا إلى اللحظة التي سوف يستطيع فيها أن يتقاعد من الخدمة ليصبح من جديد كاتبا حرًا مستقلاً. إبان وجوده في سيميبالاتينسك كتب دستويفسكي عملين «حلم العم» و«قرية ستيبانشيكوفو». أبطال هاتين الروايتين لم يكونوا كوزوموبوليتانيين كما في الأعمال التي كتبها قبل المعتقل. إنهم لا يشبهون إلا قليلا سكان بطرسبورج الشاحبين: إنهم سكان القرية أو المدينة الريفية، روس أقحاح ممتلئين بالحياة. عندما نقرأ الروايات الأولى التي كتبها عقب خروجه من السجن يمكننا أن نلحظ أن دستويفسكي قد تخلى نهائيًا عن نوع الرواية الكاذبة عند جوجول ليعود إلى فكرته في رواية «المثل»[1]. في هاتين الروايتين تظهر شخصيات غير طبيعية: مُخرِّف، يرتد إلى طفولة الأمير ك، المغامر فوم أوبيسكين، الذي يمتلك قدرة كبيرة على التنويم المغناطيسي. تتميز هاتان الروايتان اللتان كتبهما أبي بنبرة الفكاهة والسخرية، بينما نجد في كل رواياته التي كتبها قبل المعتقل نوعًا من الميلودراما. بداهة فإن دستويفسكي وصل إلى مرحلة من الوجود، الذي لا يتأمل الإنسان فيها الحياة على نحو تراجيدي، وإنما بسخرية بعض الشيء، ينظر إليها بحياد ليبدأ في إدراك أنه هو نفسه مجرد عابر في هذا المكان، وأن هذه الحياة، ليست سوى مشهد من مشاهد طويلة أكثر، بات حتما أن تقطعها روح الإنسان. راحت هذه السخرية تزداد وضوحًا كلما ازدادت موهبة الكاتب اكتمالا، أصبح قادرًا على فهم الناس والحياة على نحو أفضل. إنها لن تصبح مطلقًا أكثر مرارة أو شرًا، لقد راح حب دستويفسكي للإنسانية يتنامى أكبر في قلبه وكذلك إحساسه بالأخوة في الإنجيل.

---

(1) رواية «المثل» The Double روايته التي ظهرت بهذا الاسم في ترجمة د.سامي الدروبي و«المزدوج» و«القرين» في ترجمات أخرى وتعالج الرواية مسألة الازدواجية في الإنسان وهو من الموضوعات التي عالجها دستويفسكي في معظم رواياته التالية. (المترجم)

حصل أبي على تصريح بنشر هاتين الروايتين، لكن مخطوطات روايته «مذكرات من البيت الميت» اضطرت لانتظار الوقت المناسب لصدورها. كان أبي قد بدأ العمل في «المذكرات» منذ زمن بعيد. كان يعلم قدْرها، ولكنه كان يعلم أيضًا أن ظهورها سيكون مستحيلا بسبب الرقابة الشديدة على كل ما يمس موضوع السجن. الآن بات دستويفسكي حرًّا في اختيار أي مدينة من مدن سيبيريا ليعيش فيها، لكنه لم يكن بمقدوره العودة إلى روسيا. لم يكن دستويفسكي يحلم بشيء سوى إمكانية العودة إلى بطرسبورج، وهو حلم لم يكن يطيق عليه صبرًا، وهي التي كان يكرهها مع ذلك. وهذه سمة أخرى بارزة من سمات المهاجرين الليتوانيين المثقفين: هم لا يطيقون الحياة في القرى والأقاليم. في أيِّ بلد يذهبون إليه يشعرون بضرورة أن يكونوا موجودين هناك، حيث نبض مدنيتها. كانت الإصلاحات الكبرى، التي وهبت المجد للقيصر ألكسندر الثاني تجري على قدم وساق. كان أبي يود لو كان هناك وسط الكُتَّاب الروس الآخرين. كان يخشى لو أنه بقي في سيبيريا فسوف يعجز عن فهم التوجهات الجديدة، التي كانت تهز البلاد آنذاك. كان دستويفسكي يسعى بشكل محموم إلى طريقة للحصول على تصريح للعودة للحياة في روسيا. لم يتوقف أبدًا عن الكتابة إلى كل أصدقائه القدامى إلى أن وجد راعيًا له في النهاية. آنذاك كانت ذكرى حصار سيفاستوبول[1] ما تزال ماثلة في الأذهان. كان اسم الجنرال توتيلبان الذي أبلى بلاء حسنا في هذه الحملة والذي حصل على لقب أمير يتردد على ألسنة الجميع. تذكر أبي في هذه اللحظة الإخوة توتيلبان، الذين تعرف عليهم ذات يوم في قلعة الهندسة كتب إليهم راجيًا أن يتوسطوا من أجله لدى السلطات. كان الإخوة توتيلبان يتذكرون جيدًا زميل الدراسة. لم يكن دستويفسكي بالنسبة لهم مطلقًا هذا الإنسان غريب الأطوار، على النحو الذي كان ينظر به إليه رفاقهم الروس: توتيلبان كانوا من

(1) سيفاستوبول: ميناء في منطقة القرم يقع على البحر الأسود، والحديث يدور هنا عن بطولة المدينة إبان حرب القرم (1854-1855). (للمترجم)

سلالة من كورلياندیا[1]، لعل أجدادهم قد التقوا بجدود دستويفسكي أكثر من مرة على شواطئ نهر نيمان. وقد طلبوا من أخيهم صاحب الشهرة العريضة أن يتوسط من أجل أبي. لم يكن باستطاعة الحكومة الروسية أن ترفض طلبا للأمير توتيلبان، الذي كانوا يسمونه «المدافع عن سيفاستوبول» مهما كلف الأمر. سرعان ما تلقى دستويفسكي تصريحًا للإقامة حيثما أراد في روسيا باستثناء العاصمتين[2]. وقد اختار أبي مدينة تفير للإقامة الدائمة بها. وهي مدينة تقع على نهر الفولجا وبها محطة للسكك الحديدية تقع على الطريق بين بطرسبورج وموسكو. خرج أبي على التقاعد بسرور بالغ وذهب ليودع رفاق الفوج وأهالي سيميبالاتينسك الطيبين، الذين استقبلوه بكل مودة ليسافر إلى روسيا مع زوجته وربيبه. وقد اشترى دستويفسكي من أجل هذه الرحلة الطويلة عربة باعها بعد ذلك في تفير. على هذا النحو كان يتم السفر في بلادنا. كم كان أبي سعيدًا وهو يسافر حرًّا طليقا متخذًا نفس الطريق الذي قطعه منذ عشرة أعوام خلت، وهو الطريق الذي اقتادوه عبره سجينًا برفقة الجنود! سرعان ما سيرى أخاه ميخائيل مرة أخرى. ثم يعود إلى عالم الأدب، حيث سيتمكن من مشاركة أصدقائه أهم الأفكار العزيزة على قلبه. سيقدم على الفور زوجته الرائعة، التي يحبها حبًّا كبيرًا إلى أسرته! وبينما كان دستويفسكي في عربته مستسلمًا لهذه الأحلام، كان المدرس الوسيم يسير في أثره على مسافة غير بعيدة راكبًا عربة خفيفة[3]، إذ كانت عشيقته تأخذه معها أينما ذهبت مثل كلب المنزل. وفي كل محطة كانت تقتنص دقيقة لتترك رسالة غرامية قصيرة لتخبره فيها أين سيتوقفان للمبيت، وتوصيه بالتوقف في المحطة القادمة لكي لا يسبقهما. هذه الزنجية البيضاء لا بد وأنها كانت تتسلى بشكل جيد أثناء الطريق، وهي تنظر إلى هذا الزوج الرومانسي المسكين، السعيد الساذج.

---

(1) كورلياندیا: الاسم التاريخي لليتوانيا. (المترجم)

(2) موسكو وبطرسبورج. (المترجم)

(3) عربة مكشوفة.

بعد أن استقر به المقام في تفير، عقد على الفور صداقة مع الأمير بارانوف محافظ المدينة. كانت زوجة المحافظ تنحدر من عائلة ڤاسيلتشيكوف وهي ابنة عم الأمير سولوجوب، الكاتب، كان يعقد فيما مضى صالونًا أدبيًا في بطرسبورج. وهذا الصالون كان أبي يتردد عليه أحيانًا في شبابه. وفي تلك الفترة تم تقديم الآنسة ڤاسيلتشيكوڤا في ذروة نجاح رواية «المساكين» وقد ظل هذا اليوم منطبعًا في ذاكرتها. وما إن عرفت أن دستويفسكي موجود الآن في تفير حتى سارعت بتجديد التعارف معه، وكثيرا ما كانت تدعوه للزيارة بل وراحت تدفع زوجها للاهتمام بأمره. وقد بذل الأمير بارانوف جهده لكي يحصل لأبي على تصريح للإقامة في بطرسبورج، لكنه عرف أن المنع يعود إلى الأمير دولجوروكي رئيس الشرطة. وهنا نصح الأمير بارانوف والدي بالكتابة مباشرة إلى الإمبراطور. ومثله مثل الكثير من المتحمسين في هذا الزمن، كان أبي مُتيَّما تماما بألكسندر الثاني، فكتب قصيدة بمناسبة تتويجه وانتظر تنصيبه قيصرًا. كتب أبي خطابًا للإمبراطور تميز بالبساطة والوقار وصف فيه بؤسه وتوسل إليه أن يسمح له بالإقامة في بطرسبورج. نال خطاب أبي إعجاب ألكسندر الثاني ليلبي بعده طلب أبي. كان أبي سعيدًا للغاية: الآن أصبح بإمكانه الحياة في عالم الأدب إلى جوار أخيه ميخائيل. سافر بعدها فورًا إلى بطرسبورج ومعه زوجته وربيبه، ليلحقه بإحدى المدارس العسكرية. وعلى الفور تسلم تصريحًا بإصدار «مذكرات من البيت الميت». كان حكم نيكولاي الأول قد انتهى بالفعل. حققت «المذكرات» نجاحًا هائلا وضمنت لدستويفسكي مكانة في صف الكتاب الروس الأوائل. ومن تلك اللحظة ظلَّ محتفظًا بهذه المكانة الرفيعة. وكانت كل رواية جديدة له توطد من مكانته. وهكذا بدأت الحياة تبتسم لأبي ولكن واأسفاه، لقد أعد القدر له ابتلاءً جديدا أشد قسوة.

لم يأت تغيير المناخ على هوى ماريا ديمتريڤنا. لقد هيج الهواء الرطب لمستنقع بطرسبورج السل الرئوي، الذي كان يهددها منذ زمن طويل. عادت

ماريا ديمتريفنا إلى تفير في حالة من الفزع الشديد. ولكن سبق السيف العذل، لم يعد هناك إمكانية لوقف المرض، وما هي إلا بضعة أشهر حتى بات من الصعب التعرف على ماريا ديمتريفنا. سرعان ما أثارت هذه المرأة التي راحت تسعل وتبصق دمًا اشمئزاز عشيقها الشاب، الذي كان يتبعها من قبل مثل ظلها. لم يعد راغبًا في معرفتها وإذا به يهرب من تفير دون أن يترك له عنوانًا. هذا الهجر أفقد ماريا ديمتريفنا توازنها النفسي بشكل نهائيٍّ. وفي مشهد من المشاهد الدورية التي كانت تفتعلها لزوجها، اعترفت لدستويفسكي وكشفت له عن كافة تفاصيل علاقتها بالمدرس الشاب[1].

وبكل قسوة خبيثة راحت تقص على أبي كيف راحا يتسليان معا ساخرين من هذا الزوج المخدوع، وأعلنت له أنها لم تحبه في يوم من الأيام، وأنها تزوجته زواج مصلحة. قالت لأبي هذه الكلمات الوقحة: «ليست هناك امرأة تحترم نفسها تقع في حب إنسان قضى أربع سنوات في المعتقل بصحبة اللصوص والقتلة».

يا لأبي المسكين! كان يستمع إلى الاعترافات المجنونة لزوجته كالمقتول. هل كان ذلك هو الحب العظيم، هذه السعادة التي آمن بها بسذاجة طول هذه السنين! ليقبل بهذه المرأة السليطة التي كان يظن أنها امرأة محبة مخلصة! الآن شعر ناحيتها بالنفور فيفر منها عائدًا إلى بطرسبورج، باحثًا عن السلوى لدى أخيه ميخائيل ووسط أقاربه وأبناء وبنات إخوته. يرى نفسه وقد بلغ الثانية والأربعين دون أن يحبه أحد حبًا حقيقيًا. راح يستعيد كلمات ماريا ديمتريفنا الوضيعة بحزن بالغ «ليست هناك امرأة محترمة تحب سجينًا سابقًا». مثل هذه الفكرة المنحطة لا يمكن أن تظهر إلا لدى ابنة عبد، هذه فكرة لا يمكن مطلقًا أن تخطر ببال أوروبية لها قلب نبيل. وأأسفاه! في تلك الفترة من حياته كانت معرفة دستويفسكي بالنساء

(1) كان دستويفسكي يعيش في بطرسبورج ويستعد لإصدار روايته، ولكنه كان أحيانًا ما يذهب إلى تفير للاطمئنان على زوجته.

معرفة رديئة. كان يشعر بالحسرة وهو يفكر أن القدر قد كتب عليه أن يُحرم من الأطفال أو من عائلة تسانده. وقد بث غضبه ولواعجه كزوج مخدوع في رواية «الزوج الأبدي»، التي كتبها فيما بعد. ومن المثير للفضول أن دستويفسكي رسم بطل «الزوج الأبدي» باعتباره كائنًا يستحق الاحتقار، عجوز، دميم، مثير للسخرية وحقير. لعل أبي نفسه كان يحتقر نفسه على سذاجته، على ثقته المفرطة وعلى أنه اكتشف الخيانة الدنيئة ولم يقتص من هؤلاء العشاق الخونة. في هذا الوضع من القهر الأقرب إلى اليأس واصل دستويفسكي إرسال النقود إلى ماريا ديمترييفنا وفوّض لعنايتها خدمًا موثوقًا بهم، وكتب إلى أخواته في موسكو راجيًا منهن أن يزرنها في تفير؛ هو نفسه كان يقوم بزيارتها من حين لآخر ليتأكد من أن هذه المرأة المريضة لا تحتاج إلى شيء. لقد انهار زواجهما، لكن شعور الواجب تجاه تلك المرأة التي تحمل اسمه ظل راسخًا في قلب دستويفسكي. لم تستسلم ماريا ديمترييفنا، ظلت تُكِن لأبي تلك الكراهية التي لا تخمد أبدا، والتي لا تقدر عليها سوى الزنجيات. الذين كانوا يقومون على رعايتها إبان مرضها حكوا فيما بعد أنها كانت تجلس في كرسيها بلا حراك ساعات طويلة مستغرقة في أفكار مؤلمة، ثم تهب واقفة فجأة في حالة من الهياج المحموم لتمشي في الغرفة جيئة وذهابًا. وفي غرفة الاستقبال تتوقف أمام صورة دستويفسكي وتظل تنظر إليها طويلا، ثم تصيح مهددة بقبضة يدها: «أيها السجين، أيها السجين السافل!» وفي تلك اللحظات كانت تعبر أيضًا عن كراهيتها لزوجها الأول وتتحدث عنه بازدراء. لم تكن تتحمل ابنها پاڤل وكانت راغبة عن رؤيته. كانت ماريا ديمترييفنا امرأة طموحة دائما، كانت تتمنى بشدة أن تلحق ابنها بمدرسة الليسيه، مدرسة الأرستقراط في بطرسبورج، وقد اتخذ أبي بعض الخطوات في هذا الاتجاه إرضاء لها، لكنه نجح فقط في إلحاقه بالمدرسة العسكرية، وكان ذلك من حق الصبي باعتباره ابنًا لضابط. ولمّا رأت ماريا ديمترييفنا أنه كسول وليس لديه رغبة

في التعلم امتلأت بمشاعر الازدراء العميق نحوه ليتنامى هذا الشعور ويتحول إلى كراهية بشعة. وكلما تنازل دستويفسكي بشيء لزوجته من أجل الصبي باقل، ازدادت تعنتا ولم تعد ترغب في رؤيته. وقد اضطر أبي أن يرسل ربيبه في أوقات الإجازات إلى عائلة أخيه ميخائيل.



الفصل العاشر

مغامرة عاطفية

عندما عاد أبي من سيبيريا وجد أخاه ميخائيل دستويفسكي محاطًا بحلقة من شباب الكُتَّاب الواعدين. لقد استطاع عمي ميخائيل أن يسطر اسمه في عالم الأدب بفضل ترجماته لشيللر وجوته، كان يحب أن يستقبل في بيته الأدباء المعاصرين. وهنا اقترح عليه دستويفسكي أن يصدرا مجلة. كان أبي متوقدًا بالرغبة في أن ينقل إلى الانتليجنسيا الفكرة الروسية الكبرى، التي اكتشفها في المعتقل، والتي لا يعرف بوجودها المجتمع الروسي الأعمى والأصم. أطلقا على المجلة اسم «الزمن» (ڤريميا) وتقاسم الأخوان مسئوليتها بينهما: تولى ميخائيل الجزء الخاص بالطباعة والشئون المالية، وتولى أبي الجزء الأدبي. نشر أبي في «الزمن» رواياته ومقالاته النقدية، وقد حققت المجلة نجاحًا كبيرًا. أُعجب القراء بالفكرة الجديدة، وقد قام الأخوان دستويفسكي بدعوة أفضل الكتاب والشخصيات الجادة للتعاون معهما. وبدلا من أن يسخر هؤلاء منهما، كما كان رفاقه في وقت ما يسخرون من الأدباء الشباب، أصبحوا أصدقاء ومعجبين بدستويفسكي. من بين هؤلاء الأدباء ينبغي أن نشير بصفة خاصة إلى أبوللون مايكوف (الذي كان دستويفسكي على معرفة قليلة به قبل المعتقل) والفيلسوف نيكولاي ستراخوف، اللذين ظلا أصدقاء لدستويفسكي طول حياته وكانا إلى جواره لحظة وفاته.

بعد «مذكرات من البيت الميت» أصدر أبي أولى رواياته الكبيرة- «المُذلون والمهانون»، والتي نالت من النجاح ما لا يقل عن النجاح الذي حققته «المذكرات». وفي صالونات بطرسبورج الأدبية، التي بدأ دستويفسكي من جديد في التردد عليها، تزاحم الناس حوله مغدقين عليه بكلمات الثناء. الآن بدأ دستويفسكي في الظهور أمام الجمهور. أثناء الفترة التي كان أبي يقضي فيها عقوبة الأشغال الشاقة في سيبيريا، كان طلاب وطالبات بطرسبورج يلعبون دورًا ملحوظًا في الحياة الفكرية. كانوا ينظمون أمسيات أدبية لمساعدة المحتاجين من رفاقهم، حيث كان الكُتّاب البارزون يقرءون مقاطع مختارة من أعمالهم. وكان الطلاب يكافئونهم بالتصفيق المدوي، موفرين لهم دعاية كبيرة. كان الروائيون يطمحون إلى مزيد من هذه الدعاية، وكان هؤلاء يكيلون المديح بدورهم للطلاب. لم يكن أبي من هؤلاء الطموحين لكي يمالئ الطلاب، على العكس من ذلك كان يخبرهم بالحقيقة دائما دون مواربة مهما كانت مرارتها. وهذا هو السبب في أن مستمعيه من الشباب كانوا يحترمونه أكثر من الكُتّاب الآخرين، وكانوا يصفقون له على نحو أكثر حرارة، وقد جذبت شعبية دستويفسكي في أوساط الطلاب نحوه اهتمام إحدى الفتيات الشابات وتدعى بولينا. وهي فتاة تنتمي إلى هذا الصنف الفضولي التقليدي المعروف باسم «الطلبة الخالدون»[1] وهو صنف لا تجده سوى في روسيا. وصلت بولينا إلى بطرسبورج قادمة من إقليم ريفي ما، والداها من الأثرياء كانا يرسلان لها ما يكفيها من المال بحيث كانت تستطيع أن تعيش في بطرسبورج في بحبوحة. كانت تسجل اسمها كل خريف بانتظام كطالبة[2]

---

(1) «الطلبة الخالدون»- يسمونهم أحيانًا الطلبة المسنون، حيث كان نظام الامتحانات في روسيا آنذاك يسمح للطلاب بأن يؤدوا الامتحانات الحكومية خلال خمسة أو عشرة أعوام أو عشرين سنة. (المترجم)

(2) في ذلك الوقت في روسيا لم تكن هناك فصول دراسية عليا للنساء، وقد سمحت الحكومة لهن بالالتحاق بالجامعة بصورة مؤقتة ليدرسن جنبا إلى جنب مع الشباب.

لكنها لم تدخل أبدًا الامتحانات ولم تدرس أي علم من العلوم، ومن ثم فقد راحت تتسكع في جامعة بطرسبورج، تغازل الطلاب، تذهب لزيارتهم وتعوقهم عن استذكار دروسهم وتحرضهم على التمرد، مُوقِّعة على كافة الاحتجاجات، مشاركة في كل المظاهرات السياسية. كانت تسير على رأس الطوابير ملوحة براية حمراء، منشدة «المارسيليز»[1]. كانت تتحرش بالقوزاق وتوجه لهم الإهانات وتسوط خيول جنود الخيالة، وكانت هي نفسها تتعرض للضرب من قبل الشرطة، ثم تقضي الليل في القسم، لتعود منتصرة إلى الجامعة، حيث يحملها رفاقها على أذرعهم باعتبارها الضحية البطلة «للقيصرية الملعونة». كانت بولينا حاضرة دومًا في جميع حفلات الطلاب الراقصة وكذلك في الأمسيات الأدبية، ترقص وتصيح وتصفق مع الجميع. تقاسم الشباب كل الأفكار الجديدة المثيرة للجدل. كان الحب الحر موضة آنذاك. لم تلبث أن انضمت بولينا الشابة الجميلة إلى هذه الموضة الجديدة، منتقلة من طالب إلى طالب. كانت تعتبر نفسها خادمة للإلهة فينوس، مفترضة أنها تمثل بذلك الحضارة الأوروبية، وبالطبع لم يكن من الممكن ألا يلفت انتباهها نجاح دستويفسكي. سرعان ما اشتعلت بهذا الحماس الجديد الذي شمل الطلاب جميعهم فراحت تحوم بالقرب من أبي فاتحة الباب له للتقرب منها، لكن والدي لم يلحظ ذلك. عندئذ كتبت له خطابًا - اعترافًا بالحب. ما يزال هذا الخطاب موجودًا في أوراق أبي وهو مكتوب بأسلوب شاعري ساذج، تظن أنك تستمع من خلاله إلى فتاة شابة خجولة، مأخوذة بعبقرية كاتب كبير. مسَّ هذا الخطاب الذي كتبته بولينا مشاعر أبي. لقد جاء هذا الاعتراف بالحب في تلك اللحظة التي كان في أشد الحاجة إليه أكثر من أي شيء آخر. كانت خيانة زوجته تعذبه. وكان يحتقر نفسه كزوج مخدوع وتحول إلى شخص بائس مثير للضحك. وإذا به فجأة أمام فتاة شابة في شرخ الصبا تهب

---

(1) المارسيليز: النشيد الوطني الفرنسي. (المترجم)

له قلبها! وهذا يعني أن زوجته ليست على حق. يمكنه أن يكون محبوبًا حتى بعد أن عاش في المعتقل مع اللصوص والقتلة. التقط دستويفسكي على الفور هدية القدر، هذه السلوى. لم تكن لديه أي فكرة عن أسلوب الحياة المستقل الذي تحياه بولينا، ولا عن أخلاق الطلاب. كان أبي يعرف فقط ما يراه من فوق منصته التي يقرأ منها عليهم أعماله. كان الطلاب يحيطونه بزحام مهيب. تحدث معهم عن الله، عن الوطن، عن الحضارة، عن أخطائهم الشبابية الصغيرة. ولو أنهم لاحظوا مؤخرا عاطفة دستويفسكي المشبوبة تجاه بولينا، لخشوا، بطبيعة الحال، أن ينبهوه إلى حقيقة هذه الفتاة التي اختارها. كان أبي يرى في بولينا ريفية شابة، تَمْلَى إلى حدٍّ كبير «بقضية المرأة» التي جرى تضخيمها بشكل مبالغ فيه، والتي سيطرت آنذاك على العقول في روسيا. في هذا الوقت كان يعرف، بناء على آراء الأطباء، أن أيام ماريا ديمترييفنا معدودة، وأنه خلال بضعة أشهر يمكنه أن يتزوج من بولينا. لم يكن قادرًا على الانتظار أو التخلي عن هذا الحب الفتيّ للفتاة التي أعطته نفسها طواعية، دون أن يعير العرف أو آراء المجتمع أي اعتبار. كان دستويفسكي يبلغ من العمر اثنين وأربعين عاما، ولم يكن قد جرَّب أن يكون محبوبًا...

قرر العاشقان أن يقضيا شهر العسل في الخارج. كان أبي يحلم منذ زمن بعيد بالقيام برحلة يزور فيها أوروبا. كان إيفان كارامازوف صورة من دستويفسكي وهو في العشرين من عمره. كان يحلم أيضًا بالسفر إلى الخارج. كان يتصور أن أوروبا لا تزيد عن كونها مقبرة كبيرة، لكنه كان يريد في الوقت نفسه أن يصلي بخشوع عند مقابر الراحلين العظام. والآن بعدما ظهرت النقود أخيرا لدى دستويفسكي، بات يتعجل تحقيق حلمه الذي راوده كثيرًا. كان يوم السفر يقترب، ولكن في اللحظة الأخيرة اضطر للتأخر في بطرسبورج لأسباب تتعلق بسير العمل في مجلة «الزمن». كان على دستويفسكي أن يأخذ على عاتقه كافة

شئون إصدار المجلة، عندما راح عمي ميخائيل يعاني من السكْر، وقد راح يقبل عليه أكثر فأكثر. سافرت بولينا وحدها، بعد أن ضربت له موعدًا للقاء في باريس. بعد أسبوعين وصله خطاب منها أخبرته فيه أنها وقعت في هوى شخص فرنسيٍّ تعرفت عليه في باريس. قالت: «انتهى كل ما بيننا. أنت المذنب! لماذا تركتني طويلا وحيدة!». ما إن قرأ دستويفسكي هذا الخطاب حتى انطلق مسافرًا إلى باريس. كان كالمحموم. هذه هي المرة الأولى التي يسافر فيها للخارج، مر ببرلين وكولن، لكنه لم يُلقِ عليهما حتى بنظرة. لكنه زار بعد ذلك شواطئ الراين وطلب العفو من كاتدرائية كولن لأنه لم يلاحظ من قبل جمالها. استقبلته بولينا ببرود، وأخبرته أنها وجدت أخيرًا رجل أحلامها، وأنها لا تود العودة إلى روسيا، وأن عشيقها الفرنسيَّ يكِنُّ لها عاطفة حقيقية، وأنها سعيدة معه للغاية. كان أبي يحترم كثيرًا حرية الآخر، وكان يعترف بها سواء للرجال أو النساء. لم تكن بولينا زوجته ولم تقطع له عهودًا، لقد أعطته حبها دون قيد أو شرط ومن ثم فهي حرة في أن تسترجع هذا الحب. رضخ أبي لإرادتها ولم يحاول مرة أخرى أن يقابلها أو حتى يستوضح الأمر. ولمّا لم يعد هناك سبب لبقائه في باريس فقد سافر إلى لندن ليقابل ألكسندر جيرتسين. في ذلك الوقت كان الناس في لندن يذهبون إلى جيرتسين مثلما يذهبون إلى ضيعة تولستوي، عندما يكونون في ياسنايا بوليانا. لم يكن أبي يشارك أفكار جيرتسين الثورية إطلاقًا، لكنه كان معجبا به كإنسان، ولهذا انتهز الفرصة ليتعرف عليه. تركت لندن على دستويفسكي انطباعًا أكبر من الذي تركته عليه باريس. قضى في لندن فترة طويلة درس فيها المدينة طولا وعرضًا وانبهر بجمال الشابات الإنجليزيات، وفي يوميات الرحلة ذكر أنهن يمثلن النموذج الكامل للجمال الأنثوي. لهذا الرأي المتحمس لدستويفسكي عن الإنجليزيات دلالة بالغة. فالروس الذين يسيحون في أوروبا يرون أن الفرنسيات والإيطاليات والإسبانيات والمجريات يبدون أكثر جمالا من غيرهن، أما الإنجليزيات فلا

يحظين باهتمامهم، فأبناء وطني يرون أنهن «عجفاوات للغاية». ألا يعني هذا أن لدى دستويفسكي ذوقا أقل شرقية، وأن جمال الإنجليزيات الشابات قد مس وترًا ما نورمانديًا في قلبه الليتواني[1].

أخيرًا عاد أبي إلى باريس، وهناك عرف أن صديقه نيكولاي ستراخوف يتأهب للسفر إلى الخارج، وقد اقترح عليه أن يلتقيا في چينيف ليذهبا معا إلى إيطاليا. وفي خطاب أرسله دستويفسكي إلى ستراخوف نجد هذه العبارة اللافتة – «لنذهب للتنزه في روما، لعلنا نجد فتاة مليحة من ڤينيسيا فنغازلها في الجندول». مثل هذه العبارة لا يمكن أن توجد إطلاقا في خطابات أبي. بداهة أن دستويفسكي في تلك الفترة كان يتحرق شوقًا إلى أن يدخل في علاقة عاطفية مع أي امرأة أيا كانت لكي يستعيد احترامه لنفسه وليثبت لنفسه أنه أيضا يمكن أن يكون محبوبًا. على أنه لم يكن هناك أي «حسناء من ڤينيسيا في الجندول». طول رحلة الصديقين معا ظل قلب دستويفسكي معلقًا ببولينا. زد على ذلك أن دستويفسكي لم يكن يرغب في الذهاب إلى باريس بصحبة ستراخوف، خشية أن يلتقي ببولينا هناك، فعاد وحده إلى روسيا. وقد وصف أبي انطباعاته عن الرحلة الأولى إلى أوروبا في مجلة «الزمن».

عندما اقترب فصل الربيع كتبت بولينا خطابًا لدستويفسكي من باريس تبثه أحزانها العاطفية. لقد تبين أن عشيقها الفرنسي يخونها، ولمَّا لم تجد لديها القوة الكافية لتقطع علاقتها به، راحت تتوسل إلى أبي ليذهب إليها في باريس. لم يقدر أبي على الفور أمر هذا السفر وهنا راحت بولينا تهدده بالانتحار – التهديد المفضل للنساء الروسيات. وعندما شعر أبي بالخوف، سافر على الفور إلى فرنسا وهناك حاول أن يرد المُعذِّبة الجميلة إلى رشدها. وعندما وجدت مشاعره فاترة للغاية

(1) تنبأ دستويفسكي بأن الإنجليز سرعان ما سيهجرون الجزر البريطانية، «إذا لم ير أبناؤنا خروج الإنجليز من أوروبا، فإن أحفادنا سيرونه»، هذا ما قاله أبي.

تجاهها، لجأت إلى استخدام حلول أخرى أكثر تطرفًا، ففي أحد الأيام ذهبت إلى أبي في السابعة صباحًا، أيقظته وراحت تلوّح بسكين ضخم اشترته لتوها، وأعلنت له أن عشيقها الفرنسيَّ وغد وأنها تريد أن تنتقم منه وسوف تغمد هذا السكين في رقبته، وأنها ستهرع إليه الآن مباشرة، ولكنها قررت أن ترى أبي أولا وأن تخبره بالجريمة التي سترتكبها. لا أعلم إن كانت هذه التراجيديا السوقية قد انطلت على أبي. على أي حال فقد نصح أبي بولينا أن تترك هذا السكين في باريس وأن تذهب معه إلى ألمانيا، وافقت بولينا، وهذا ما كانت تريده. ها هما الآن على ضفاف الراين وقد توقفا في ڤيسبادن[1]، وهناك وقع أبي في هوى جامح بالروليت، كان يرتوي بالسعادة عندما يربح، وعندما يخسر يقع في هوة اليأس، الذي كان يجد فيه أيضًا نوعًا خاصًا من اللذّة. عاشا معا بعد ذلك فترة في إيطاليا، التي تركت انطباعًا آسرًا على أبي. أقاما في نابولي وروما. كانت بولينا تغازل كل رجل يقع في طريقها وتسببت في تعاسة كبيرة لعشيقها، وقد صوَّر أبي هذه الرحلة الغريبة فيما بعد في رواية «المقامر»، ولكنه غيَّر موقع الأحداث، وإن أبقى على اسم بولينا بطلة الرواية.

نتساءل في ذهول ونحن نتأمل تلك الفترة من حياة دستويفسكي كيف لإنسان كان نموذجًا لحسن الخلق وهو في سن العشرين، فإذا به يرتكب وهو في الأربعين مثل هذه الحماقات. إن التفسير الوحيد الممكن لذلك يعود إلى النمو غير الطبيعي لجسده. في العشرين من عمره كان أبي مراهقًا خجولا، أما في الأربعين فقد عانى تلك الاضطرابات العاصفة للشباب التي يمر بها كل الرجال تقريبًا. يقول المثل الحكيم: «من لم يرتكب الحماقات في العشرين، فسوف يرتكبها

---

(1) تعرف أبي على القمار إبان رحلته الأولى إلى أوروبا، بل وربح مبلغًا طائلا. في أول الأمر كان أبي غير مبال بالقمار، لكنه أولع به في رحلته الثانية فقط، عندما كانت بولينا بصحبته.

في الأربعين»، وهـذا المثل يؤكد أن هذا الانحراف العمري المثير للاهتمام ليس أمرًا نادر الحدوث كما يبدو. كان هروب دستويفسكي بمثابة تمرد إنسان شريف، زوج مخلص لزوجته، التي كانت في هذا الوقت تسخر منه مع عشيقها. كان أبي، بداهة، يريد أن يثبت لنفسـه أنه باسـتطاعته أيضًا أن يخون زوجته، أن يقضي حياة لاهيـة مثل غيـره من الرجال، أن يتسـلى مع الفتيات الحسـناوات. وهناك أشياء كثيرة تدل على ذلك. من المثير للانتباه، على سـبيل المثال، أن دستويفسكي كان يتصرف في رواية «المقامر» باعتباره مدرسًا[1]. مرفوضًا من فتاته التي يحبها. هذا المدرس وجد لنفسه هنا زوجة مخدوعة، هو نفسه كان يحتقرها، ليسافر معها إلى باريـس انتقامًـا من الفتاة التي ظل مع ذلك يحبها. وبالإضافة إلى مشـاعر الانتقام عند زوج مخدوع، تحتوي هذه الرواية التي كتبها دستويفسكي على عشق حقيقي. إليكـم ما قاله بطـل «المقامر» عن بولينا: «مرت بي لحظـات تمنيت فيها أن أهب نصف عمري في سـبيل أن أخنقها! أقسـم أنه لو كان في وسـعي أن أغمد خنجرًا مسنونًا في صدرها على مهل، لشعرت من ذلك بمتعة فيما أظن، ومع ذلك أقسـم بأقدس ما أقدّس أنها لو طلبت مني ونحن على جبل شـلانجبرج، أن ألقي بنفسي من أعلى قمة يرتادها الناس لرميت نفسي فورا، ولشعرت من ذلك بغبطة».

منتقمًا من ماريا ديمتريفنا مع بولينا، كان دستويفسـكي في الوقت نفسه يتخذ كل إجـراءات الحيطة والحذر لكي لا تعرف زوجته المريضة عن أمره شيئًا. كل ما كان يريده هو أن يستعيد ثقته بنفسـه. لكنه لم يكن يريد أن يتسبب بأي حال من الأحوال في أي أذى لهذه المسـكينة المصابة بالسـل الرئوي. في هذا الصدد فقد كان شديد الحذر حتى أن أحدًا لم يكن يعرف بقصته سوى أهله وأقرب أصدقائه إليه. فـي الوقت نفسـه فهـذه الروايـة العاطفيـة ألقـت بالضوء على شـخصيات العديـد من بطلات دستويفسـكي صاحبات النزوات، متقلبـات الأهواء - أجلايا

(1) ذكرت سابقًا أن ماريا ديمتريفنا كانت تخون أبي مع مدرس.

في «الأبله»، ليزا في «الشياطين»، جروشنكا في «الإخوة كارامازوف» وغيرهن كثيرات. كل هؤلاء هن بولينا بعينها على نحو أو آخر.

في هذه الرواية العاطفية التي عاشها أبي مع بولينا يمكن أن نجد، من وجهة نظري، تفسيرًا لظاهرة الحب - الكراهية عند روجوچين تجاه ناستاسيا فيليبوڤنا في رواية «الأبله».

في الخريف عاد دستويفسكي إلى بطرسبورج وهناك عرف أن مرض زوجته قد وصل إلى مرحلته الأخيرة. مفعمًا بالشفقة تجاه هذه المرأة التعيسة[1]، متناسيًا كل ما سببته له من أذى، سارع بالذهاب إليها في تڤير ليقنع هذه المحتضرة بالسفر معه إلى موسكو، حيث يمكنه أن يوفر لها الرعاية من قبل أفضل الأطباء، استمر عذاب ماريا ديمتريڤنا طول الشتاء. لم يبتعد عنها أبي وقام بالاهتمام بها بكل الوسائل. كان مشغولا أينما حلّ برواية «الجريمة والعقاب» التي كان يكتبها آنذاك. وعندما ماتت ماريا ديمتريڤنا أخيرًا أرسل أبي إلى أصدقائه خطابات يخطرهم فيها بالأمر، تحدث فيها عن الراحلة بكل احترام. كان يعترف بأنه لم يكن سعيدًا معها، لكنه كان يؤكد أنه على الرغم من الخلافات التي كانت تقع بينهما فإن زوجته كانت تحبه. شرف العائلة كان يعني الكثير عند دستويفسكي وكان حريصًا على أن يخفي عن أصدقائه الخيانة التي كان ضحية لها. أهله فقط هم الذين كانوا مطّلعين على حكايته المحزِنة. كان على أبي أيضًا أن يخفي هذه الحقيقة من أجل ربيبه پاڤل، الذي علمه دستويفسكي أن يحترم ذكرى والديه. أذكر واقعة حدثت فيما بعد على غداء ما عائلي عندما تحدث پاڤل إيسايف عن أبيه باستهانة وازدراء، ناعتًا إياه أنه لم يكن سوى «خرقة مبتلة» في يد زوجته، وهنا

---

(1) في فترة علاقته ببولينا لم يتوقف دستويفسكي عن رعاية زوجته المريضة. أثناء رحلته مع بولينا في إيطاليا كان كثيرًا ما يكتب إلى أخيه ميخائيل مفوضًا إياه في إرسال النقود إلى ماريا ديمتريڤنا، التي كانت مجلة «الزمن» مدينة له بها مقابل ما يكتبه فيها من مقالات.

غضب دستويفسكي غضبًا شديدًا طالبًا منه أن يحترم ذكرى النقيب إيسايف وأمر ربيبه ألا يتحدث مطلقًا بعد ذلك بهذا الأسلوب عن والديه.

وكما ذكرت آنفًا، كان دستويفسكي ينتوي الزواج من بولينا بعد وفاة زوجته. ولكنه بعد رحلته معها إلى أوروبا تغيرت نظرته لعشيقته تغيرًا كبيرًا. وحتى بولينا لم تعد هي الأخرى طامحة إلى الزواج. كانت لديها رغبة قوية في الحفاظ على حريتها كاملة باعتبارها فتاة جميلة. لم يكن أبي هو الذي جذبها إليه وإنما شهرته الأدبية، والأهم هو النجاح الذي كان يتمتع به في أوساط الطلاب، فما إن انقضت موضة دستويفسكي حتى تركته بولينا على الفور. سرعان ما بدأ أبي في نشر رواية «الجريمة والعقاب». وكعادة النقاد فقد وجهوا سهامهم نحو هذا العمل الأدبي الرائع منذ نشر الفصول الأولى وراحوا يتنافسون على النباح فيما بينهم. أحدهم أعلن أن دستويفسكي يحط من قدْر الطالب الروسي في شخصية راسكولينكوف[1]. هذه الحماقة مثلها مثل كل الحماقات عموما قوبلت على أية حال بترحاب من بطرسبورج كلها. حتى الطلاب الذين كانوا منذ زمن غير بعيد ينحنون أمام عبقرية دستويفسكي وقفوا ضده على قلب رجل واحد. الآن لم يعد دستويفسكي على الموضة، ولم يعد يثير اهتمام بولينا. أعلنت لدستويفسكي أنها لا تستطيع أن تغفر له إهانته للنموذج المضيء للطالب الروسي، المقدس بالنسبة لها، وأنها تقطع علاقتها به. لم يعد أبي بدوره متمسكًا بها، لقد تبددت أوهامه بشأن هذه المرأة المغامرة.

---

(1) في روايته ذائعة الصيت أظهر دستويفسكي موهبته في التنبؤ، فبعد عدة أيام من ظهور الفصل الأول من «الجريمة والعقاب» وقعت في موسكو جريمة تشبه تمامًا جريمة راسكولنيكوف، فقد قتل طالب مرابية بعد أن قرر بينه وبين نفسه «أن كل شيء مباح». أصدقاء أبي كانوا مشدوهين بشدة بهذه المصادفة، لكن النقاد لم يعطوا لهذه الحادثة أي اهتمام. لكن بصيرة دستويفسكي أجبرتهم بالضرورة على أن يدركوا أنه لم يخطر بباله لحظة واحدة أن يهين طلابنا. لقد رأى، قبل الآخرين، هذا الأثر المميت للطوباوية الفوضوية التي ترسلها أوروبا بوفرة لنا على شبابنا الذي لم ينضج بعد.



الفصل الحادي عشر
صداقة أدبية

وضعت قصة بولينا مع أبي نهاية لفترة الأهواء الغرامية الجامحة في حياة دستويفسكي، هذه الحياة التي استمرت عشر سنوات، منذ أن كان عمره ثلاثة وثلاثين عامًا وحتى بلغ الثالثة والأربعين. لا أظن أن دستويفسكي كان يذكر بالخير حبه الأفريقي لماريا ديمترييفنا، ناهيك عن الولع الشرقي لبولينا: كلاهما قصتان غريبتان تتناقضان بشدة مع طبيعته ومع المثال الحقيقي لأسلافه. كان يبحث عن فتاة عفيفة طاهرة، زوجة فاضلة، رفيقة مخلصة في الحياة. ستكون له حكايتان روحيتان وليستا شهوانيتين. نتعرف على الحكاية الأولى. في تلك السنوات كان يعيش في ليتوانيا مالك ثري هو السيد كورفين- كروكوفسكي، كان ينتمي إلى طبقة النبلاء الليتوانيين، وكان يزعم أنه سليل آل كورفين، الملك الأسطوري لليتوانيا في زمن الوثنية. كان متزوجًا ولديه ابنتان، وفر لهما تعليمًا رفيعًا - الصغرى صوفيا[1]، وقد تزوجت فيما بعد بالسيد كوفاليفسكي وأصبحت أستاذة للرياضيات في جامعة ستوكهولم - وهي أول امرأة تحصل على هذا اللقب. أما الكبرى فهي آنّا، فتاة رائعة الحسن، تبلغ من العمر تسعة عشر عامًا،

(1) في ذلك الزمن، الذي تدور فيه هذه الأحداث، كانت صوفيا تبلغ من العمر خمسة عشر عامًا، وهذه لم تلعب أي دور في حياة دستويفسكي.

كانـت تفضـل الأدب الرفيع. كانت معجبـة بأبي وكانت على درايـة بكل أعماله. وقـد تركت رواية «الجريمة والعقـاب» انطباعًا قويًا عليهـا، فكتبت خطابًا مطولاً لدستويفسكي أثار إعجابه بشدة. وعلى الفور قام بالرد على الآنسة كروكوفسكايا، وانعقدت بينهما مراسـلات استمرت بضعة أشـهر. بعدها استمالت آنًا أباها حتى يأخذها إلى بطرسـبورج لكي تتعرف على كاتبها المفضل. سـافرت الأسـرة كلها إلـى بطرسـبورج وأقامت في شـقة مفروشـة، وسـرعان ما دعـوا أبي واستقبلوه بترحاب بالغ. أصبح دستويفسـكي يتردد كثيرًا علـى هذا البيت المضياف وانتهى الأمـر بـأن تقـدم بطلب يد آنّـا كروكوفسـكايا. كان أرمـلًا وكان يعاني من مرارة الوحـدة. وقد تعود مع ماريا ديمترييفنا على الحيـاة العائلية التي يمكن أن تتحقق في بيت فيه امرأة فقط. كان يود أن يكون له أطفال وراح ينظر في جزع إلى شبابه وهـو ينقضـي يومًا وراء الآخـر. لم يكـن دستويفسـكي مُتيَّما بآنّـا ولكنها أثارت إعجابـه كفتاة حسـنة التربيـة، مرحة، ذكية، بشوشـة. كانت هذه الأسـرة الليتوانية تناسـبه تمامًا. لم تكن كروكوفسـكايا الشـابة مغرمـة بأبي، ولكنهـا كانت معجبة بموهبته أشـد الإعجـاب. وقد قبلت أن تكـون زوجته بكل سـرور. لكن خطبتها لم تسـتمر طويلا. الأمر يعود هنا إلى وجهات نظرهما السياسية المتناقضة تمامًا. كان كل يـوم يمر يجعل من دستويفسـكي ملكيًا أكثر، روسـيًا وطنيًـا، بينما كانت آنًا كروكوفسـكايا كوزموبوليتانية وفوضوية شديدة التعصب. عندما كان الحديث يدور حول الأدب، كان كل شـيء يسـير على ما يرام، وما إن يتطرقا للحديث عن السياسـة حتى يبدآ في الجدل والشـجار. على هذا النحو كانت الأمور تسير كثيرًا في روسـيا، حيث لم يكـن الناس قد تعلموا بعد فن مناقشـة القضايا السياسـية في هدوء. هنا أدرك الخطيب والخطيبة في الوقت المناسب أن الزواج قد يتحول إلى جحيـم حقيقـيّ لكليهما فتراجعا عن إتمامه. لكـن التخلي عن صداقتهما لم يكن

أمرًا هينًا. فبعد أن عادت إلى قريتها، استمرت أنّا في الكتابة إلى أبي، وراح هو يرد عليها كسابق عهده. وفي الشتاء التالي وصلت عائلة كروكوفسكي مرة أخرى إلى بطرسبورج، وعاد دستويفسكي لزيارتهم كثيرًا كما حدث في الشتاء السابق. لم تكن علاقة أبي بأنّا كروكوفسكايا في جوهرها سوى علاقة أدبية يحتاجها الكُتّاب لا أقل من حاجتهم إلى الحب. وعندما خَطَبَ أبي أمي، كانت أنّا كروكوفسكايا أول من هنأه من القلب. بعد زواج أبي مباشرة، سافرت أنّا بصحبة عائلتها إلى أوروبا، حيث قابلت في سويسرا السيد M.J وهو فوضوي مثلها. وفي نقاشاتهما راح الشابان يهدمان العالم ثم يعيدان بناءه من جديد على أسس الانسجام الشامل، لقد استهواهما هذا العمل بشكل كبير لدرجة أنهما تزوجا. سرعان ما سنحت لهما الفرصة ليطبقا نظرياتهما الفوضوية على أرض الواقع. فقد اندلعت الحرب الفرنسية البروسية، وتم حصار باريس، وسيطرت الكومونة. شارك الزوجان بدور نشيط في هذه الأحداث، وبعد أن نجحا في إحراق مجموعة من الأعمال الفنية القيمة، وقد افترضا أن من الضروري إحراقها لكي تكون الإنسانية أكثر سعادة! هربت السيدة J من باريس وتم اعتقال زوجها وأودع السجن. خضع العجوز كورفين - كروكوفسكي، الأب المحب، لتوسلات ابنته ليبيع جزءًا من أراضيه ويسافر إلى باريس وينجح في تهريب زوج ابنته مقابل مائة ألف فرنك. لم تتمكن عائلة J لمدة طويلة من العودة إلى فرنسا. عاشا في بطرسبورج وظلت السيدة J صديقة لأبي. وإكرامًا لخطيبته السابقة كان أبي يعامل زوجها عضو الكومونة بمودة كبيرة، رغم أنه لا يوجد بينهما على الإطلاق ما يجمعهما فكريًا. بدورها أصبحت السيدة J صديقة لأمي، وكان ابنهما الوحيد چورج J رفيقًا لي في طفولتي.

أعتقد أن أبي رسم كاتيا، خطيبة ديمتري كارامازوف، استنادًا إلى شخصية أنّا كروكوفسكايا. كاتيا - ليست روسية، وإنما فتاة ليتوانية بحق. ذات كبرياء، شريفة، تضع شرف العائلة في أعلى مكانة، مستعدة أن تضحي بنفسها لكي تنقذ سمعة أبيها، تحافظ على العهد الذي قطعته لخطيبها. كانت رسالتها تتلخص في إنقاذ ديمتري كارامازوف وتقويم أخطائه. الفتيات الروسيات أكثر بساطة. تهيمن عليهن الأهواء الشرقية الجامحة أو الشفقة السلافية أكثر من أي اعتبارات أخرى لديهن.



الفصل الثاني عشر
دستويفسكي رب الأسرة

في نفس الوقت، تقريبًا، الذي صدرت فيه رواية أبي ذائعة الصيت - «الجريمة والعقاب»، بدأ أخوه ميخائيل دستويفسكي يواجه العديد من المصاعب في عمله. تم إيقاف مجلة «الزمن» عن الظهور بسبب مقال سياسيٍّ ما، لم تفهمه الرقابة على وجهه الصحيح. وبعد عدة أشهر حصل ميخائيل دستويفسكي على تصريح بإصدار مجلة جديدة تحت اسم «العصر»[1]. ولكن المجلة الجديدة، وهو ما يحدث كثيرًا في روسيا، لم تلق هذا النجاح، الذي كانت تحققه المجلة الأولى، على الرغم من أن عمي دعا نفس الكُتّاب للتعاون معه للعمل فيها. استمرت مجلة «العصر» في الظهور لعدة أشهر وأخيرًا أغلقت أبوابها لعدم وجود مشتركين. كانت هذه ضربة قاصمة بالنسبة لميخائيل دستويفسكي. لم تتحمل صحته التي أضر بها بشدة إقباله على الخمر، وبعد مرض لم يستمر طويلا فارق الحياة. ومثل غالبية أبناء وطني كان عمي ميخائيل مسرفًا ولم يدخر شيئًا أملاً في أن يُورِّث أولاده المجلة، التي كانت تدر عائدًا لا بأس به. كان الأولاد ما يزالون صغارًا لم يغادروا مقاعد الدرس بعد. ومن ثم لم يكن باستطاعتهم أن يساعدوا أمهم. كانت

---

(1) فقط بعد وفاة أخيه ميخائيل، تولى أبي، الذي كان موجودًا في موسكو في تلك الفترة مع زوجته المريضة، شئون مجلة «العصر».

هناك ديون كبيرة مستحقة على عمي. وهذه الديون، بموجب القوانين الروسية، تسقط بوفاته، ولما لم ترث عائلته شيئًا فهي ليست ملزمة بسدادها. ولذلك فقد ذُهل الجميع، عندما أعلن أبي لدائني ميخائيل دستويفسكي، أنه سوف يتحمل مسئولية هذه الديون التي وقَّعها أخوه، وسوف يعمل دون هوادة لكي يسدِّدها لهم في أسرع وقت ممكن؛ فضلا عن ذلك فقد وعد زوجة ميخائيل بالإنفاق عليها هي وأطفالها الأربعة إلى أن يتمكنوا من الاعتماد على أنفسهم. أثار هذا القرار الهلَع في نفوس أصدقاء أبي، وحاولوا بكل ما لديهم من قوة أن يثنوه عن تحمل ديون أخيه، التي يعفيه القانون من تحملها. لكن دستويفسكي رأى أنهم يدفعونه لاتخاذ تصرف يراه هو غير شريف. لم يستطع أن يفهمهم ولم يستطيعوا هم أيضا أن يفهموه. رفاق أبي كانوا ينظرون إلى الأمر على الطريقة الروسية، أما دستويفسكي فكان ينظر إليه باعتباره ليتوانيًا. وبرغم كل ما يكِنُّه من حب لروسيا، فقد ظل على سابق عهده وفيًا لتقاليد أجداده. عندما ندرس شخصية دستويفسكي علينا ألا ننسى أن ليتوانيا نقلت فكرة العائلة والدولة من فرسان قبائل التفتون، الذين بعد أن فتحوا ليتوانيا «بالنار والسيف»، أدخلوا إليها كل أفكار وقوانين الفروسية في العصور الوسطى. ووفقا لهذه الأفكار، فإن المكانة الأولى في نظام القيم احتلها شرف العائلة، الذي كان مفهومًا آنذاك على نحو أكثر اتساعًا عما هو مفهوم في أيامنا هذه. كل من كان يحمل اسم العائلة هو عضو في أسرة واحدة وعليه أن يتحمل مسئوليته أمام الآخر. كان شرف العائلة بالنسبة لهم أمرًا مقدسًا، الجميع، رجالا ونساء، كانوا يعيشون به. بوفاة الوالد رب الأسرة يحل الابن الأكبر محله ويأخذ على عاتقه مقاليد السلطة فيها. فإذا توفي الابن الأكبر مبكرًا، يتولى الابن الثاني مكانه ويرث واجباته كلها. ليس عبثًا أن دستويفسكي كان معجبًا بالجمال القوطي لكاتدرائية كولن، فقد كان هو نفسه يمتلك روحًا قوطية. لقد تراءى له أنْ لا شيء عنده أسهل وأكثر طبيعية من التضحية بنفسه من أجل أسرة أخيه وأن

يتحمل عنها ديونها. رفاق أبي أيضًا كانوا من جانبهم على حق وهم يرون أن هذا التصرف يتسم بالغرابة الشديدة، إذ إن فكرة العائلة بالنسبة لروسيا ذات الحضارة البيزنطية كانت فكرة مجهولة. الروس يعتنون بالأولاد على نحو أو آخر، لكنهم عادة لا يبالون بمصير الإخوة والأخوات. إن أيَّ روسيٍّ في مكان أبي كان سيقول: «أنا لم أتسبب في هذه الديون، فلماذا يجب عليَّ أن أسددها» وسيعتبر هذا السلوك رومانسيًا بل ومثيرًا للضحك. دستويفسكي أخذ أمر كونه أصبح في موقف رب الأسرة على محمل الجِد. وطالما أنه وضع حياته قربانًا لذكرى أخيه، فقد طلب من أبناء وبنات أخيه أن يعاملوه من جانبهم باعتباره قائدهم والمدافع عنهم، وأن يطيعوا نصائحه. هذه الطلبات أفزعت أولاد عمي ميخائيل. كانوا يرون أن معيشتهم على نفقة عمهم أمرًا طبيعيًا تمامًا، لكنهم لم يفكروا في طاعته. كانوا يسخرون من دستويفسكي من وراء ظهره ويخدعونه دون أن يهتز لهم ضمير. كان لابنة أخيه المفضلة حبيب، وهو شخص تافه تمامًا، كان يكره دستويفسكي بزعم أنه «أهان الطالب الروسي في شخصية راسكولنيكوف». دخل في جدال مع أبي في السياسة وراح يهاجمه على نحو مهين. غضب دستويفسكي وأمر زوجة أخيه بطرد هذا الوقح من البيت. تظاهروا بطاعته ولكنهم كانوا يستقبلون الطالب العاشق سرًا. ما إن أنهى هذا الشاب الجامعة وحصل على وظيفة في إحدى الإدارات، حتى سارع بالزواج من ابنة عمي، التي وبخاصية نكران الجميل وجدت متعتها في أن تتزوج سرا دون أن تدعو عمها إلى الزفاف، ذلك العم الذي كان يعمل في نفس الوقت كالعبد من أجل دعم أسرتها، فيما بعد، عندما التقت ذات يوم بالصدفة في بيت أمها بدستويفسكي، راحت تقهقه في وجهه وتعاملت معه باعتباره عجوزًا غبيًا، وقد جرح هذا الجحود مشاعر أبي بشدة. كان يحب ابنة أخيه ماريا كابنته، ويفخر بموهبتها الموسيقية[1]، ويسره نجاحها في المجتمع.

---

(1) كانت ابنة عمي ماريا واحدة من أفضل تلميذات أنطون روبنشتاين. وعندما كان أبي =

سرعان ما أدرك زوج ماريا ابنة عمي تلك الحماقة التي ارتكبها، عندما تشاجر مع هذا الكاتب الكبير. بعد ست - سبع سنوات، عندما عاد والداي من الخارج، سعى هذا الشاب أن يستعيد علاقة الصداقة مع أبي وأن يثير اهتمامه بمصير أبنائه الكثيرين. سمح دستويفسكي لابنة أخيه بزيارته، لكن المودة القديمة لم تعد كما كانت - لقد ماتت.

أما ابنة عمي الأخرى فقد جرحت مشاعر دستويفسكي على نحو أكثر إيلامًا. لقد وقعت في غرام عالم شهير جدًّا، هجرته زوجته، هذه الزوجة، على الرغم من أنها كانت تحب شخصًا آخر، رفضت أن تعطيه الطلاق وأن تعيد الحرية لزوجها المخدوع[1]. ظلت ابنة عمّي هذه عشيقة، أو كما كانوا يقولون آنذاك «زوجة مدنية» لهذا العالم الذي لم يكن له الحق في أن يتزوج منها، دون أن تقيم وزنا للرأي العام، وقد عاشت معه ما يزيد على عشرين عامًا وحتى وفاته، وكان جميع أصدقاء هذا العالم ينظرون إليها باعتبارها زوجته الفعلية. وعلى الرغم من أنه لا يوجد ما يعيب هذه العلاقة واعتبارها أمرًا مشينًا، فإن أبي لم يسامح ابنة أخيه. حدث كل ذلك وكان والداي قد تزوجا منذ عدة سنوات، وقد قصّت عليَّ أمي فيما بعد أن دستويفسكي بكى مثل طفل بعد أن عرف بهذا «العار» الذي حملته ابنة أخيه. «كيف تجرأت أن تلطخ اسم دستويفسكي؟»، كان يكرر هذه الكلمات وهو يبكي. وقد حظر على أمي أن تكون لها أيّ علاقة مهما كانت مع هذه المذنبة. أما أنا فلم تكن تجمعني بابنة عمي أي معرفة.

بداهة لم يكن أبي بمقدوره أن يكون سعيدا في عائلة أخيه ميخائيل، التي لم تكن مؤهَّلة لفهمه. دستويفسكي ينتمي لتلك النوعية من البشر، الذين يندر

= يُدعى أحيانا للقراءة في بعض الأمسيات الثقافية، كان يشترط أن تتم دعوة ابنة أخيه ماريا للعزف على البيانو، وكان يفخر بنجاحها أكثر من نجاحه هو.

(1) في هذه الفترة في روسيا كان الحصول على الطلاق أمرًا بالغ الصعوبة، بل مستحيلا تقريبا من دون موافقة الزوجين.

وجودهم في أيامنا هذه، هؤلاء الذين يموتون كمدًا بكل معنى الكلمة إذا ما اقترف ابن لهم فعلا قبيحًا أو انحرفت ابنة من بناتهم عن جادة الصواب. كان الشرف عنده فوق كل شيء. كان يعيش ملتزمًا بوصايا أجداده النبلاء، بينما حاد أبناء أخيه عن الثقافة الأوروبية لعائلتهم الليتوانية وفضّلوا التقاليد السهلة، التي تميز بها المجتمع الروسي شبه الشرقي؛ بالإضافة إلى ذلك فقد ورثوا عن أمهم بلادة القلب التي يتسم بها كثيرًا ألمان البلطيق.

فضلا عن رعايته لأبناء أخيه، كان أبي مضطرًا أيضًا للعناية بأخيه نيكولاي سيئ الحظ الذي أدمن الخمر، والذي بعد وفاة عمي ميخائيل لم يجد ملاذًا سوى في كنف أبي. كان أبي مشفقًا عليه وكان يعامله دائمًا بكل طيبة. وفي نفس الوقت لم يكن يحب إطلاقا أخاه الأصغر بنفس القوة التي كان يحب بها أخاه الأكبر. كان عمي نيكولاي إنسانًا على سجيته. لم يكن لدى هذا المسكين من اهتمامات سوى الزجاجة. كذلك كان أبي يساعد عمتي ألكسندرا، الوحيدة من بين شقيقاته الثلاث، التي عاشت في بطرسبورج، كان زوجها مريضًا للغاية، غير قادر على العمل. ومع ذلك لم تكن تعتبر نفسها مدينة لأخيها على مساعدته الكريمة وكانت لا تكفُّ عن الشِّجار معه. كانت عائلة دستويفسكي عائلة غريبة، فبدلا من أن يفخروا بقريبهم العبقري، راحوا يحقدون عليه لأنه استطاع أن يرتقي إلى مرتبة عالية. فقط عمي أندريه هو الذي كان يفتخر بالموهبة الأدبية لأخيه الأكبر، لكنه كان يخدم في الريف ولم يكن يأتي إلى بطرسبورج إلا نادرًا.

مهما بلغ أقارب دستويفسكي من سماجة فقد غفر لهم الكثير إكرامًا لذكرى أمه ولذكريات الطفولة والشباب الجميلة. الأمر الأكثر صعوبة كان تحمله لإيذاء ربيبه باڤل إيسايف وسوء طباعه، وهو الذي لا تربطه به أي قرابة دم. كان باڤل كسولاً وغبيًا، لم يفعل شيئًا في المدرسة العسكرية التي ألحقه بها أبي سوى التكاسل عن الدراسة، وفي النهاية تم طرده منها. هذا الرُّبع مملوكي أصبح ضحية

للمجد الأدبي الذي حققه زوج أمه: فبسبب نجاح دستويفسكي كان يعيش حالة من الضجر والاكتئاب. وكلما ظل أبي على بساطته وتواضعه، ازداد ربيبه غطرسة وتبجُّحًا. كان يعامل الجميع بتعالٍ ودون توقف. كان يأتي على ذكر «بابا» الكاتب الكبير دستويفسكي، ولم يعوقه ذلك من أن يتصرف مع زوج أمه بوقاحة وصلَف بالغين. لقد افترض أنه ليس بحاجة الآن لا إلى الدراسة ولا إلى العمل. فهناك «بابا»، الذي يعطيه النقود، ولم يكن يخجل مطلقًا من طلبها. لم يستطع دستويفسكي أن يحسن تربيته مطلقًا. كان طول الوقت مستغرقًا في العمل على رواياته ومقالاته لمجلة «الزمن» ولم يستطع بشكل جديٍّ أن يهتم بهذا الصبي. أما ماريا ديمتريفنا فكانت تتعامل مع ابنها بصرامة، ناهيك عن أنها كانت تقسو عليه أحيانًا دون سبب، الأمر الذي كان يدفع دستويفسكي للشفقة أكثر على هذا اليتيم المسكين، ويدلله ضِعفَين بديلا عن أمه: يغدِق عليه بالحلوى واللُّعب، ويعطيه مصروفا أكثر بكثير مما يعطونه في المعتاد لمن في مثل سنه. بعد أن اعتاد على هذا الأسلوب، ألا يفعل شيئًا، وألا يُرفض له طلب، لم يستطع پاڤل بعد ذلك أن يقلع عن ذلك. كان دستويفسكي يلوم نفسه، لأنه ربَّى ربيبه تربية سيئة. «أيّ زوج أمٍّ آخر أكثر حزمًا، كان من الممكن أن يجعل من پاڤل إنسانًا مفيدًا لوطنه»، -كان هذا ما قاله أبي لأصدقائه واحتفظ في بيته بهذا العاطل وكأن الله كان يعاقبه به على سوء أدائه لواجبه.

عندما كان أقاربه في بطرسبورج يبالغون في إرهاقه إلى الحد الأقصى، كان دستويفسكي يسافر إلى موسكو ليستريح منهم، هناك حيث أخته ڤيرا: كانت ڤيرا متزوجة من رجل من أبناء موسكو، وكان لديهم ثلاثة أطفال. كان أطفال أخته أكثر لينًا وتواضعًا من أطفال ميخائيل دستويفسكي ذوي الأصول الألمانية. كان أبي يحبهم لمرحهم وروحهم الشابة. وقد وصف أبي هذه الأسرة في رواية «الزوج الأبدي» تحت اسم آل زاخليبين. هو نفسه أدى دور ڤيلتشانينوف في هذه الأسرة

-رجل ناضج في الأربعين من عمره، يحب الشباب ويسعد بمشاركتهم الغناء ويرقص مع الفتيات الشابات. وقد أعجب دستويفسكي على وجه الخصوص بنات أخته. كانت الكبرى ماريا كانت التلميذة المفضلة لنيكولاي روبنشتاين، مدير كونسرفاتوار موسكو. كثيرًا ما كان روبنشتاين يقول عنها: «لو أن لديها إلى جانب هذه الأصابع «رأسا» جيدًا، لأصبحت «موسيقية عظيمة». يبدو أنه لم يكن لديها «رأس» كافٍ. إذ إن ماريا لم تصبح موسيقية شهيرة، على أنها كانت عازفة بيانو جيدة للغاية، ولم يكن أبي يمَلُّ من سماع عزفها الرائع. وكذلك أعجب دستويفسكي بواحدة أخرى من بنات أخته، وهي صوفيا، فتاة جادة وذكية. كان يرى، لا أدري على أيِّ أساس، أنها ورثت عنه موهبته الأدبية. كانت ابنة عمي صوفيا تتحدث كثيرا عن أنها تريد كتابة رواية، ولكنها لم تجد موضوعًا مناسبًا. العائلة بأكملها، بمن فيهم أبي، اقترحت عليها كافة الموضوعات الممكنة للاختيار. لكن أيًا من هذه الموضوعات لم يجذب اهتمامها. بعد عدة سنوات وبعد زواج والديَّ، تزوجت صوفيا أيضًا وتركت طموحاتها الأدبية. بسبب هذا الحب الذي يعود إلى القرون الوسطى، والذي أبداه أبي لكل أقاربه كثيري العدد، عانت أمي بعد كثيرًا من الأحداث. وحيث إنها تربت على المفاهيم الروسية، فقد كانت ترى أن النقود التي يكسبها زوجها، يجب أن تذهب إلى زوجته وأولاده، وخاصة أنها لم تدخر جهدًا في مساعدة زوجها في عمله. لم تتصور أمي لماذا كان زوجها يمنع عنها أشياء كانت تراها ضرورية لأسرتها، من أجل أن يقدم المساعدة لهذا أو ذاك من أفراد عائلته، التي لا تحبه والتي تحسده على شهرته ككاتب كبير. فيما بعد فقط، عندما بدأ إخوتي في النمو وأنا أيضًا، تحول حبه كاملا نحونا، ولكنه لم يتوقف حتى لحظة وفاته عن مساعدة أخيه نيكولاي المريض وذلك العاطل بافل إيسايف.



الفصل الثالث عشر

أصول عائلة أمي

سرعان ما أدرك دستويفسكي معنى أن تكون مديونًا. ما إن وضع إمضاءه على كمبيالات أخيه ميخائيل، حتى راح الدائنون، الذين كان عليهم أن يشعروا تجاهه بالجميل، لأنه سوف يتحمل سداد الديون لهم (والتي تعد باطلة بموجب القانون)، أظهروا حقارتهم وراحوا يطالبونه بسرعة السداد مهددين إياه بالسجن. وحتى يلبي الحاجات الملحة اضطر دستويفسكي أن يقوم بنفسه، بدوره، باقتراض المال، زد على ذلك أنه كان عليه أن يدفع على ديونه فوائد باهظة، وهنا وقع في يد ناشر معدوم الضمير يُدعى ستيلوفسكي، اشترى مقابل ثمن بخس حقوق نشر أعماله الكاملة؛ وفضلا عن ذلك أضاف على العقد شرطًا آخر يلزم أبي بكتابة رواية جديدة طويلة، عليه تقديمها بحلول أول نوفمبر من نفس العام، فإذا لم يُسلم هذه الرواية في الوقت المحدد تؤول كافة حقوق ملكية أعماله الأخرى إلى ستيلوفسكي. ولمّا كان أبي مستهدفًا من جانب دائني أخيه ميخائيل، فقد اضطر أبي إلى الموافقة على هذه الشروط الوحشية. أجّل استكمال «الجريمة والعقاب» وفي حمى العجلة راح يعمل على كتابة رواية «المقامر» ليل نهار. كلَّ بصره، وعندما لجأ إلى طبيب العيون، حظر عليه أي عمل كتابيٍّ وإلا فقد بصره.

وقـع أبي فريسـة لليأس. كان أكتوبر قد بدأ ولـم يكتب من الرواية سـوى بضع مسوَّدات. كان أصدقاؤه قلقين عليه وراحوا يبحثون عن وسيلة لمساعدته[1]. قال لـه ميليكوف «ولماذا لا تسـتخدم مختزلا، قد تتمكن من إمـلاء روايتك عليه، ثم يقوم هو بكتابتها». آنذاك كان الاختزال ما يزال في بدايته في روسيا. كان المدعو أولخين، الذي درس الاختزال في الخارج قد بدأ لتوه في تأسـيس فصول، حيث كان قد أعد أول مختزلين روس بواسـطة منهج سـريع أعده. ذهب أبي إليه وقصَّ عليه مشـكلته ورجاه أن يرسـل إليه مختزلا ماهرًا. أجاب أولخين: «واأسفاه! لا أستطيع أن أقدم لك أحدًا من تلاميذي. لقد افتتحت هذه الفصول في الربيع فقط. وستغلق أبوابها في الصيف[2]، وأثناء إجازة الصيف يكون تلاميذي قد نسوا حتى القليل الذي تعلموه. لدي فقط تلميذة مجتهدة، لكنها ليسـت بحاجة إلى النقود، وهـي تدرس الاختزال للتسـلية أكثر من رغبتها في التكسـب مـن ورائه، وهي ما تزال صغيرة جدًّا ولست أعلم إن كانت أمها ستوافق أن تعمل في بيت رجل. على أي حال، سوف أعرض عليها هذا العمل غدًا وسأبلغك بجوابها».

(1) كان ستيلوفسكي مرابيًا عتيدًا. هدَّد أبي بالسجن، وقد أرسلت الشرطة بالفعل عميلا لها إلى دستويفسكي لكي يحيطه علما بهذه التهديدات. وقد قابل أبي هذا العميل بترحاب كبيـر وقـص عليه بقلب مخلص وضعه المالي، الأمر الذي مس مشـاعر رجل الشـرطة بعمق، وبدلا من أن يساعد ستيلوفسكي على مقاضاة أبي، راح يضع كل خبرته القانونية لصالح أبي، محاولا أن ينقذه من بين مخالب هذا المرابي مصاص الدماء. وقد أعجب بأبي أشـد الإعجـاب، وكان يمر عليـه أحيانا فيحكي لـه عن كثير من المشـاهد المثيرة للفضول، التي تسنى له أن يراها بنفسه على مدى حياته العملية. بفضل هذا العميل نجح أبـي في وصف كل ما يتعلق بعمل الشـرطة في رواية «الجريمـة والعقاب». هذه القصة تعد مثالاً واضحا على الكيفية التي كان دستويفسـكي يكتسـب بها الأصدقاء. أليس من العجيب أن نرى أن أكثر المساجين الميئوس منهم تحولوا إلى أصدقاء مخلصين له. إن هذا ليؤكد أيضا أن الأمير ميشـكين في رواية «الأبلـه» كان يمتلك موهبة تحويل أعدائه إلى أصدقاء. لقد كان دستويفسكي يشاركه بالفعل طباعه الشخصية.

(2) الإجازة الصيفية تمتد في روسيا إلى ثلاثة أشهر.

هذه الفتاة التي كان أولخين يتحدث عنها ستصبح فيما بعد أمي. وقبل أن أحكي عن الرواية العاطفية لدستويفسكي، أودُّ لو ذكرت بضع كلمات عن الأسرة التي تربت فيها زوجته الثانية، التي ستصبح ملاكه الحارس على مدى الأربعة عشر عاما الأخيرة من حياته.

جدي لأمي هو جريجوري إيفانوفيتش سنيتكين، من أصول أوكرانية. أسلافه كانوا من القوزاق، الذين سكنوا ضفاف نهر الدنيبر في ضواحي مدينة كريمينتشوج. كانت كنيتهم سنيتكو وقد حولوها إلى سنيتكين بالروسية. وقد فعلوا ذلك لا من قبيل التدني أو الرغبة في التملق وإنما بإخلاص تام: بالنسبة لأجدادي من جهة أمي كانت أوكرانيا دائما هي روسيا الصغرى[1]، الأخت الصغرى لروسيا الكبرى، التي كانوا معجبين بها في قرارة نفوسهم. وبعد أن استقر بهم المقام في بطرسبورج، استمر أجدادي بالتمسك بالتقاليد الأوكرانية. في تلك الأزمان كانت أوكرانيا تحت تأثير القساوسة الكاثوليكيين، الذين اشتهروا بأنهم أفضل مربِّين للشباب. لهذا السبب فقد ألحق جدي إيفان سنيتكين ابنه جريجوري بمدرسة تتبع الچيزويت، وكانت قد افتتحت لتوها في بطرسبورج[2]. وقد تلقى جدي أيضًا تعليمًا جادًّا، كالذي يتلقاه عادة تلاميذ الآباء القساوسة، لكن تأثير النزعة الچيزويتية ظل قليلا عليه في نفسه للغاية طول حياته. كان سلاڤيًّا قحًّا: ضعيف الإرادة، خجولا، طيبًا، عاطفيًّا ورومانسيًّا. في شبابه المبكر عاش قصة حب عنيفة - كانت بطلتها أسينكوڤا الشهيرة، نجمة التراجيديا الكلاسيكية المتألقة عندنا في روسيا. كان جدي يقضي كل أمسياته في المسرح وكان يحفظ عن ظهر قلب كافة مونولوجاتها. في ذلك الزمن كانت إدارة المسارح الإمبراطورية تسمح للمعجبين بالممثلات بالصعود إلى خشبة المسرح لكي يعبروا لهن

---

(1) الاسم القديم لأوكرانيا. (المترجم)

(2) تم إغلاق هذه المدرسة فيما بعد بقرار من الحكومة الروسية.

عن إعجابهم. كانت طريقة إعجاب سنيتكين، الخجول، الرزين تثير إعجاب أسينكوفا، فمنحت لجدي امتيازات خاصة. فقد سمحت له أن يمسك بشالها وباقة من الزهور، عندما تخرج إلى الجمهور على خشبة المسرح لتقرأ أشعار راسين وكورنيل الرائعة، مستندة إلى ذراعه وهي تقف بالكاد على قدميها، كانت تعود إلى غرفتها في حالة من الضعف الشديد، بينما يستمر الجمهور في التصفيق المدوّي لممثلته المفضلة. كان المعجبون الآخرون بأسينكوفا يشعرون بالغيرة طامحين إلى الحصول بدورهم على الحق في حمل شالها ومرافقتها إلى غرفتها. كلا! - كانت أسينكوفا تقول لهم - هذه امتيازات خاصة بجريجوري إيفانوفيتش. «إنه من دواعي سروري أن أستند إلى ذراعه!» كانت أسينكوفا المسكينة ضعيفة للغاية ومريضة بشدة، وقد ماتت في عز شبابها متأثرة بالسُّل الرئوي. وقع جدي فريسة لليأس. سنوات طويلة ظل على حبه لها. لم يجد في نفسه الشجاعة على أن يخطو عتبة المسرح. كذلك لم يستطع أن ينسى هذه الممثلة العظيمة. وكان كثيرًا ما يذهب لزيارة قبرها. قصّت أمي عليَّ أنه ذات مرة عندما كانت ما تزال صغيرة، اصطحبها أبوها هي وأخاها وأختها الكبرى إلى قبرها، وهناك طلب منهم أن يجثوا على أقدامهم أمام اللوحة التذكارية لأسينكوفا وقال لهم: «يا أطفال، صلُّوا من أجل سكينة روح أعظم ممثلة في عصرنا!».

أظن أن أحدًا لم يكن يعرف قصة حب جدي سوى أسرتنا. كم كانت دهشتي عندما وقعتُ صدفة على نبذة عنها في إحدى المجلات التاريخية كتبها أحد المحررين لمجلة مسرحية. وهذا يؤكد أن ولع جدي لم يكن نزوة شاب تجاه امرأة جميلة، وإنما هو الإعجاب الشديد بموهبة ممثلة عظيمة.

يمكن أن نفترض أن هذا الشعور كان شيئًا نادرًا في روسيا، ما دام قد ظل في ذاكرة صحفي مهتم بالأخبار زمنًا طويلا. كان لدى هذا الصحفي بعض التفاصيل، التي لم أكن على علم بها، فبعد زمن على وفاة أسينكوفا قامت إحدى

أخواتهـا بأداء أول دور لها باعتبارها ممثلة تراجيدية. وفي الليلة التي قدّمت فيها عرضها الأول لاحظ أحدهم جدي بين الحضور، وكان قد اختفى عن الظهور في المسرح بعد وفاة معبودته. كان يستمع باهتمام إلى الممثلة الشابة المبتدئة، لكن أداءها لم يرق له ليختفي بعدها مرة أخرى.

كان جـدي مـن هذا الصنف من الناس الذين يشيخون قبل الأوان. عندما بلغ الخامسـة والثلاثين من العمر كان قد فقد شـعره وعددًا كبيرًا من أسـنانه واكتسى وجهه بالتجاعيد ليبدو عجوزًا. على أنه وفي هذه السـن تحديدًا تزوج في ظروف غريبة تمامًا.

كانـت جدتي من جهة أمي، ماريا – آنّا ميلتوبيوس، سـويدية من فنلندا. كانت تزعـم أن أسـلافها كانوا من الإنجليز، الذين اضطروا في القرن الثامن عشـر إلى مغـادرة بلادهم نتيجـة للاضطهاد الديني الذي تعرضوا له. استقر بهم المقام في السـويد وتزوجـوا من سـويديات، ثم انتقلـوا بعد ذلك إلـى فنلندا واشـتروا فيها أراضـي. كانـت كنيتهـم الإنجليزيـة «ميلتـون» وربمـا «ميلتوب»، أضيفـت إليها اللاحقـة «أوس» وهـي لاحقـة تضاف في السـويد عادة على اسم العائلـة، التي تمارس عادة عملا ذهنيًا – أساتذة، كتابًا، علماء، أطباء، رجال دين. لا أعرف ماذا كان يعمـل جدي الأكبر ميلتوبيوس على وجه الدقة: أعرف فقط أنه قدّم خدمات جليلة لمواطنيه، وأنهم دفنوه في كاتدرائية ويستمنستر فنلنـدا في دير كاثوليكي يقع في مدينة آبو، وقد أقاموا على قبره نُصبًا تذكاريًا من الرخام.

فقـدت جدتي والديها في فتـرة مبكرة جدًا من حياتها، وقد قامت عماتها على تربيتهـا، ولم تكن سـعيدة معهـن. ترعرعت ماريا – آنّا لتصبـح فتاة جميلة تحمل ملامـح نورمانديـة فحـة، طويلـة، ممشـوقة القـوام، تقاطيعهـا سـليمة على نحو كلاسـيكيّ، لـون وجهها يأسـر العيون، عيونها زرقاء، ذهبية الشـعر. اسـتحوذت على إعجاب الجميع. كان صوتها سـاحرًا. وكان أصدقاؤها يسـمونها «كريستينا

نيلسون» الثانية. أدار المديح رأس جدتي فقررت أن تصبح مغنية. سافرت إلى بطرسبورج، حيث كان إخوتها يعملون ضباطًا في الحرس الإمبراطوري، لتطلعهم على خططها فإذا بهم يصيحون رعبا: «هل جننت! هل تريدين أن يطردونا من الحرس؟ لن يسمح رفاقنا أن نبقى هنا إذا أصبحت مغنية». على هذا النحو من الصرامة كانت الأمور تجري في روسيا: فإذا ما أراد أحد الضباط أن يتزوج من ممثلة فعليه أن يتقاعد. الأرجح أنه في زمن شباب جدتي لم يكن مسموحًا للضباط أن يكون لهم أقارب يعملون في المسرح. اضطرت ماريا - أنّا أن تضحي بطموحها في الغناء من أجل مستقبل إخوتها العسكري. وافقت على ذلك بكل رضا، حتى أنها سرعان ما وقعت بعد وصولها إلى بطرسبورج في هوى واحد من رفاق إخوتها، ضابط شاب من أصول سويدية. تمت خطبة العاشقين، وأعدا عدتهما للزواج، وهنا اندلعت الحرب. أُرسل الخطيب إلى الجبهة وكان من أوائل الذين لقوا حتفهم هناك. منعتها كبرياؤها من أن تذرف الدموع، لكن قلبها كان قد انكسر. عاشت مع إخوتها لكنها لم تعد تولي الرجال اهتمامًا. كان من الصعب على زوجات إخوتها أن يتعايشوا مع هذه الفتاة شديدة المراس، العنيدة. في ذلك الزمن كانت المرأة من العائلات الكريمة لا يسمح لها بالعيش وحدها - إما مع زوج أو مع الأقارب. ومن ثم كان عليهم أن يزوجوها لكي يتخلصوا منها. راح زوجات إخوتها يعملن بدأب من أجل ذلك: كانوا ينظمون حفلات ساهرة ويدعون إليها الشباب. كان غناء الحسناء السويدية يهز النفوس ويجذب انتباه الجميع فتهافتوا على خطبتها، لكنها أبت أن تقبل أحدا وكانت تقول لأقاربها: «لقد انكسر قلبي ولن أحب أحدا». وقد أغضب موقفها هذا زوجات إخوتها، وبدا لهم موقفًا سخيفًا ولم يتوقفوا عن محاولة رد قريبتهم العنيدة إلى رشدها. ذات مرة حاولوا إقناعها بالموافقة على خطبة أحد المتقدمين من ذوي الحظوة. وإذا بماريا - أنّا نفسها تقول لهم: «كم هو مقزِّز هذا الرجل صاحب المكانة الرفيعة، ولو كان محتما عليّ أن أتزوج لفضلت الزواج من العجوز

المسكين سينيتكين فهو على الأقل إنسان لطيف. هذه الكلمات التي اندفعت من ماريا – أنّا بحرارة بلا حرص ودون أي تفكير مسبق التقطتها زوجات إخوتها على الفور. أرسلن إلى جدي شخصًا ما من بين صديقاتهن الحميمات، اللاتي رحن يصوِّرن له ماريا بأجمل الكلمات، وعن الحب الذي أشعله سحره في قلب الآنسة ميلتوبيوس. ألجمت الدهشة جدي، بالطبع فقد أُعجب بهذه الحسناء السويدية، وكان قد استمع بسرور بالغ إلى غنائها للقصائد الأوبرالية، لكن فكرة أن يحوز على إعجاب هذه الفتاة الرائعة لم تخطر بباله. إنها لم تظهر له أي اهتمام خاص، وإذا صادف وأن ابتسمت له فقد حدث ذلك على نحو عابر، ونادرا ما تبادلا كلمة أو كلمتين. ليكن: إذا كانت تحبه بحق فإنه مستعد للزواج منها.

راحت زوجات إخوة ماريا – أنّا وقد غمرتهن السعادة يبلغنها بطلب جدي يدها. شعرت الفتاة المسكينة بحيرة شديدة قائلة لزوجات إخوتها: «لكنني لا أريد أن أتزوج من هذا العجوز، لقد جئت على ذكر اسمه لمجرد المقارنة لكي تفهموا إلى أيِّ حد كان الخطيب الآخر مقرزًا بالنسبة لي». ولكن تبريرها الذي كانت تعنيه كان قد تأخر. أعلن أهل ماريا – أنّا لها بحسم أن الفتاة التي تربت تربية حسنة ينبغي ألا تتفوه بكلمات طائشة. وأنه من الممكن، على أقل تقدير، أن ترفض شخصًا تقدم لخطبتها، ولكن أن ترفض من شجعته هي نفسها فهذا يعني إهانة رجل شريف دون وجه حق، وأن ماريا – أنّا قد بلغت السابعة والعشرين، وأنها لن تعيش مائة عام لدى إخوتها، وأنه قد حان الوقت لأن تفكر في مستقبلها. أدركت جدتي أن زوجات إخوتها قد نصبن لها فخًا لتخضع أخيرا لقدرها المحتوم. من حسن الحظ أن «العجوز المسكين سنيتكين» كان لطيفًا بالنسبة لها. لم يكن زواج هذين الحالمين زواجًا بائسًا تمامًا. لم يستطع جدي أن ينسى أسينكوفا الشهيرة، أما جدتي فظلت تتذكر خطيبها الحبيب، الضابط المسكين ذا الشعر الأشقر، الذي سقط في ساحة القتال، ومع ذلك فقد أنجبا العديد من الأبناء. لقد كانا

مناسبين كل منهما للآخر من ناحية الطباع: كانت جدتي صاحبة الأمر والنهي، بينما كان جدي خجولا، كانت تأمر وكان يطيع، على أن جدي استطاع أن ينال ما يريد إذا تعلق الأمر بشيء يمثل أهمية بالنسبة له. أعرب عن رغبته في أن تغير زوجته مذهبها بعد أن شرح لها أن الأولاد لا يمكن أن يكبروا كمسيحيين جيدين، إذا كان والداهم ينتميان إلى مذاهب مختلفة، وقد اعتنقت جدتي الأرثوذكسية لكنها كانت تقرأ الإنجيل باللغة السويدية. فيما بعد عندما بدأ الأولاد في التكلم منع جدي زوجته من أن تعلمهم لغتها الأم، قال لها: «سيكون من المضجر لي أن تتحدثوا فيما بينكم بلغة لا أفهمها». لم يأت هذا المنع على هوى جدتي، التي لم تتعلم الحديث بالروسية بطلاقة، فكانت طول حياتها تتحدث بلغة طريفة خاصة بها، فكانت تثير ضحك أصدقائها. وعندما كانت تريد أن تتحدث عن شيء جادٍّ كانت تفضل الحديث مع الأولاد بالألمانية.

بعد زواج جدي وجدتي استأجرا في البداية شقة في بطرسبورج كما كان سائدا آنذاك. لكن ذلك لم يعجب جدتي، التي تعودت على حياة أكثر براحًا في فنلندا. طلبت من جدي أن يشتري قطعة أرض معروضة للبيع على شاطئ النيفا، في حيٍّ غير مزدحم بالسكان غير بعيد عن كنيسة سمولني. وهناك قاما ببناء بيت واسع بناء على توجيهاتها أحاطوه بحديقة كبيرة. على الفور عاشت في بطرسبورج وكأنها تعيش في قرية. كان لديها زهورها، فواكهها وخضرواتها. لم تكن جدتي تحب أقارب زوجها الأوكرانيين، وكانت تستقبلهم في بيتها في الأعياد العائلية فقط. في مقابل ذلك، كان كل السويديين، الذين على صلة، على نحو أو آخر، بأحد من أقاربها العديدين في فنلندا يأتون إليها عندما يحضرون إلى بطرسبورج، فيتناولون طعام الإفطار والغداء، بل وأحيانا ما يبيتون لديها. كان البيت رحبا والغرف المخصصة للضيوف كافية. وعندما كانت جدتي تذهب إلى فنلندا، كانت صديقاتها السويديات يفوضْنها في رعاية أولادهن، الذين يتلقون تعليمهم في مختلف المعاهد الدراسية الحكومية، والذين التحقوا بسلك الضباط في هذا

الفوج الروسي أو غيره. في أيام الأعياد - عيد الميلاد والفصح - كان صوت الضحك واللهجة السويدية للضيوف الصغار تلاميذ الأفواج العسكرية، الضباط الشباب الخجولين، الذين ما يزالون يتحدثون الروسية بشكل رديء يدوي في جنبات البيت والحديقة. كانوا جميعًا سعداء لحصولهم على ركن صغير لفنلندا في بطرسبورج المجهولة بالنسبة لهم. ومثلها مثل كل نساء الشعوب الجرمانية لم تكن جدتي تهتم بوطنها الجديد إلا قليلا. لم تكن تحفل كثيرًا سوى بمصالح هؤلاء الذين ينتمون إلى جنسها. هذا الطغيان الفنلندي في بيت والديها لم يكن يعجب أمي كثيرًا. السيدات السويديات بهيئتهن الصارمة وأدبهن المفرط والتزامهن بالرسميات وتكلفهن وهن يتحدثن بلغة غير مفهومة، كن يثرن الخوف في نفسها. كانت أمي، أنَّا الصغيرة، تبحث عن ملجأ لها لدى أبيها، محبوبها الذي كانت تشبهه للغاية. كان يأخذها معه إلى الكنيسة، يزوران كاتدرائيات بطرسبورج، يحجان كل عام إلى جزيرة ڤالام الواقعة في بحيرة لادوجا، حيث توجد بها كاتدرائية شهيرة. ظلت أمي طول حياتها تتذكر بكل حنين هذا الرجل البسيط الطيب، الرومانسي العاطفي. وقد أصبحت مؤمنة على شاكلته وظلت مخلصة للكنيسة الأرثوذكسية. لم تجذبها الأفكار الدينية التي شدت بشدة صديقاتها الروسيات، بل جعلها ذلك تؤمن بحكمة آباء الكنيسة أكثر من إيمانها بالنظريات الدارجة. ومثل والدها أحبت روسيا بحماس بالغ ولم تستطع أن تسامح أبدًا جدتي على لامبالاتها، التي كادت تصل حد الاستهانة، التي كانت تنظر بها إلى وطن زوجها. كانت أمي تعتبر نفسها روسية حقيقية. على أنها كانت في الواقع نصف روسية: كانت تمتلك على الأرجح طباعًا أقرب إلى السويدية. لم تكن تعرف التكاسل الشرقي الحالم لدى المرأة الروسية، قضت حياتها كلها امرأة عملية: لم أر أمي مطلقًا جالسة وقد عقدت يديها. كانت قادرة على أن تجد دائمًا أعمالا جديدة. تنهمك في العمل بغيرة وتسعى لأن تستمر فيه إلى نهايته. لم تملك أبدًا رحابة العقل، التي تميز النساء الروسيات، اللائي كنَّ يعملن على

زيادتها بالقراءة بشكل لا يصدق، في المقابل تميزت أمي بنزعتها العملية، التي لم تكن تملكها غالبية بنات وطني. هذه النزعة العملية ألهمتها احترام صديقاتها الروسيات، فبعد أن أصبحت أمي أرملة اعتدن أن يلجأن إليها طلبًا للنصيحة في الأحوال الصعبة، ودائمًا ما كانت هذه النصائح التي كانت تسديها لهن ما تؤتي ثمارها. إلى جانب كرم محتِد أجدادها السويديين فقد ورثت أمي عنهم شيئًا ما من عيوبهم. كانت مغرورة دائمًا إلى حد مبالغ فيه، وعلى نحو مَرَضِيٍّ تقريبًا. كانت تشعر بالإهانة على أشياء تافهة وكانت فريسة سهلة لكل من ينجح في تملقها. كانت أمي تميل بعض الميل إلى الأمور الغيبية، تؤمن بالأحلام والتنبؤات، وكانت لديها ملكة طريفة، هي القدرة على الاستبصار ولو بدرجة صغيرة، وهي ملكة يتميز بها كثير من النورمانديين. كانت تتنبأ دائمًا بشيء ما على نحو ساخر، وكأنها تمزح، تحكي نكتة دون أن تعطي أي أهمية لحديثها، وكانت هي نفسها أول من تصيبه الدهشة بل وتشعر بالخوف عندما تتحقق نبوءتها كالسحر حتى ولو كانت خيالية تمامًا. اختفت هذه الملكة تمامًا في الخمسينيات إبان معاناتها من الهستيريا التي أصابتها في سنوات شبابها. كانت صحتها ضعيفة دائمًا، كانت مصابة بفقر الدم، عصبية، لا تأخذ قسطًا كافيًا من الراحة، وكثيرًا ما كانت تقع فريسة لنوبات عصبية، كانت تتضاعف بسبب ترددها المَرَضِيّ الذي يميز النساء الأوكرانيات، عندما يكون عليهن الاختيار بين آلاف الحلول، هذا التردد الذي يحوّل أكثر الأشياء عادية إلى دراما وأحيانًا إلى ميلودراما.



الفصل الرابع عشر
شباب أمي

عندما كبر الأطفال، نشـأ في أسرتنا معسكران: هذا ما كان يحدث كثيرًا عندما ينتسب الوالدان إلى أجناس مختلفة. كانت جدتي وابنتها الكبرى، وهي شخصية شابة قوية الشكيمة ميالة للتسـلط، تمثلان المعسكر السـويدي، أما المعسكر الأوكراني فيمثله جدي وابنتـه المفضلة أنّا. كان للسـويديين الكلمة العليا، بينما كان الأوكرانيون يتذمرون، ثم يخضعون في النهاية. كان عمي إيڤان همزة الوصل بين هذين المعسـكرين. ورث عن أمـه جمالها النورمانديّ، وعن أبيه شـخصيته الأوكرانية، وكان محبوبا من كليهما.

كانت خالتي ماريا على قدر وافر من الجمال – طويلة، رشيقة، ذات عينين زرقاوين وشعر ذهبي رائع. كان المجتمع يستقبلها بترحاب بالغ، وكان الطامحون لخطبتها كثيرين. تزوجت عن حب من البروفيسور پاڤل سڤاتكوڤسكي، الذي أوكلت إليه الأميرة العظيمة ماريا أمر تربية أبنائها الذين تيتموا: الأمراء لايختنبرج. عندما تزوجت خالتي منه كانت تربية الأمراء الصغار قد انتهت، لكن السيد سڤاتكوڤسكي ظل يعيش كسابق عهده في قصر آل مارينسكي باعتباره صديقًا، وقد عاشت خالتي في هذا القصر الرائع وأصبح لها أصدقاء رائعون، كانت تمتلك ملابس أنيقة وتحت إمرتها عربات فخمة، وعندما كانت تزور

والـديّ كانت تتصرف على نحو كبير من الغطرسـة. كانت تعامل أختها الصغرى كتلميـذة، الأمـر الـذي لم يكن، فـي الحقيقة، مثيـرًا للدهشـة؛ إذ إن أمي في تلك الفترة لم تكن قد أنهت بعد المدرسة الثانوية، التي أرسلها أبواها إليها. وقد جرح طغيان الأخت الكبرى مشاعر عزة النفس لدى الأخت الصغرى. كانت أمي فتاة ذات كبرياء، لم تكن تريد أن يفرض أحد وصايته عليها، كانت تحلم بالاستقلال. في تلك الفترة اجتاحت روسيا موجة جارفة من حب الحرية شملت البلاد كلها. الفتيات الروسيات، اللائي تعلمن في هذه الفترة تعليمًا فرنسيًّا، رفضن الزواج مـن الرجال، الذيـن اختارهم آباؤهن لهـن. كذلك رفضن أن يظهرن في أوسـاط الطبقـات الراقيـة. كانت أمهاتهن مغرمـات بالحفلات الراقصة، أمـا بناتهن فكن يحتقرن هذه الحفلات ويفضلن عليها الأمسيات الثقافية أو المحاضرات العلمية وقـد أعجبن بأعمال داروين. لم يكنَّ يولـيـن مظهرهن عناية خاصة. كن يقصصن شعرهن حتى لا يهدرن وقتهن على تصفيفه. يرتدين النظارات والملابس السوداء وقمصانًا كتلك التي يرتديها الرجال. كان حلمهن المنشـود أن يدرسن بالجامعة. فـإذا مـا حاول أوليـاء أمورهن أن يوقفوهـن عن ذلك، كانت الفتـاة تهرب مع أي طالب – مثالي، فيتزوجها لكي يخلصها من استبداد «الوالدين البشع». معظم هذه الزيجات ظلت أفلاطونية تمامًا: كان الزوجان يعيشان منفصلين ونادرًا ما يلتقيان. ومن ثم فقد كانت الزوجة الشـابة تتخير لنفسـها عشـيقًا من بين الطلبة المحيطين بهـا في الجامعـة لتعيش معه «زواجًـا مدنيًّا». كان الحب الحر يمثل بالنسبة لهذا الشـباب الطائش شكلا مثاليًّا للحب. بل إن البعض سار أبعد من ذلك: كان هناك طلاب وطالبات يشـتركون معا في استئجار شـقة كبيرة ويؤسسون كومونة تكون كل النساء فيها ملكًا لجميع الرجال. كانوا يفخرون بشدة بهذا الشكل الخاص من أشـكال الحياة العائلية، التي ظنوا بسـذاجتهم أنها الموضـة الأخيرة في الحضارة العالميـة. لم يخطر ببالهـم أنهم، على عكس ذلك، إنمـا يتراجعون للخلف، إلى قبائل ما قبل الطوفان، عندما لم تكن هناك مؤسسة للزواج بعد.

بطبيعة الحال، فإن أمي التي تربت على مفاهيم مغايرة تمامًا، لم يكن بمقدورها أن تشارك في هذه الأفكار المتهورة. كانت مطيعة لوصايا الكنيسة الأرثوذكسية. كانت تنظر إلى الحب الحر باعتباره خطيئة قاتلة. كان الشعر القصير والنظارات يبدوان لها مسخًا، كانت أمي من أصحاب الذوق الجميل في اختيار ملبسها وكانت تصفف شعرها على نحو رائع. حاولت أن تقرأ داروين لكنها وجدته مملاً فأن يكون أجدادنا قرودًا أمر لم يكن يثير ضحكها. كانت روايات الكُتّاب الروس وأشعارهم هي وحدها التي تثير مخيلتها الشابة. لم تراود أمي أي رغبة ولو ضئيلة في أن تهرب سرًّا مع أيِّ طالب. كانت تفضل لو أنها غادرت منزل أسرتها يدها في يد زوجها وهي تتلقى منها البركة. من كل هذه الحركة التحررية اختارت أمي لنفسها فقط، وهو ما كان يُحسب لها بالفعل – العمل والاستقلال، اللذين ينالهما كل من يجتهد كما ينبغي. درست جيدا في المدرسة الثانوية وأنهت الدراسة بحصولها على الميدالية الفضية، وقد ظلت تفخر بها طول حياتها. درست في بعض الفصول العليا التي أشرف عليها أولياء الأمور لصديقاتها في المدرسة الثانوية. في تلك الفترة اكتسبت أخلاق الطلاب سمعة سيئة مما دفع أولياء الأمور القلقين إلى الاشتراك معًا ودعوة المدرسين إلى نظام خاص ليقرءوا على بناتهم محاضرات حتى يعطوهم الفرصة لمواصلة التعليم وحمايتهم في الوقت نفسه من الفساد. دفعت جدتي الاشتراك، لكن الفصول العليا لم تستهوِ ابنتها أنَّا. لم يجتذب العلم هذه الفتاة الحاصلة على الميدالية، الأهم أنها لم تدرك لماذا يتوجب عليها أن تحصل على هذا العلم. الفتيات الروسيات يعشقن المطلق، إنهن يتعلمن لكي يطورن عقولهن، لكي يفهمن الحياة أكثر، لكي يستمتعن بالآداب على نحو أكثر اتساعًا – هذه في الأغلب هي أهدافهن، أمي السويدية الصغيرة العملية ملَّت المطلق. كانت تود أن تتعلم شيئا ما يمكن أن يوفر لها فرصة الحصول على المال لكي تتمكن من شراء الكتب وتذاكر المسرح والرحلات بعد ذلك. كانت جدتي تتصرف في ميزانية العائلة، لم تكن تحب إنفاق المال على ما تراه غير مفيد.

أمي، من جانبها، كانت تأنف من الإلحاح في طلب المال، كانت تفضل أن تكسبه بنفسها. طالعت في إحدى الصحف إعلانا بشأن افتتاح فصول للاختزال، وعد فيها السيد أولخين أن من سيجيد هذا العلم سوف يجد عملا له في المحاكم وفي كافة اللقاءات والمؤتمرات العلمية. باختصار، في كل مكان يتطلب كتابة كلمات المشاركين بسرعة. أُعجبت أمي بهذا الإعلان، سجلت اسمها في الفصول بكل دأب. هذا العلم الميكانيكي الخالص يعوزه فتاة ذات خيال واسع، لكن أمي التي لم تكن تحتاجه على الأغلب وجدت فيه أمرًا شيقًا. كان أبوها آنذاك مريضًا بشدة وظل طريح الفراش عدة أشهر. كان أول ما تفعله أمي لدى عودتها من الدروس أن تدخل عليه. كان جدي يطلب منها أن تسنده عاليا إلى الوسائد ويروح بيده المرتعشة يقلب صفحات كراسة ابنته. كان يسألها باهتمام ما الذي تعنيه هذه العلامات الغامضة. كان المريض المسكين سعيدًا من كل قلبه أن ابنته المفضلة وجدت لنفسها في النهاية عملا جذابًا. بعد عدة أسابيع توفي جدي، بكته ابنته بحرقة، وحتى تنشغل عن حزنها راحت تدرس الاختزال بجد واجتهاد. الاهتمام الذي أبدته بالدروس التي كانت عزيزة على أبيها الراحل زاد من حميتها. عندما انتهت الفصول في الإجازة الصيفية وخشية أن تنسى أمي الاختزال، عرضت على أولخين أن تعيد نسخ الكتب بطريقة الاختزال وترسلها مكتوبة إليه لتصحيحها. وافق أولخين الذي كان يميزها عن بقية التلاميذ بكل سرور. قضت أمي الصيف بطوله تعمل بدأب وفي الخريف كانت الأفضل في الفصل. وبهذه الطريقة أصبحت هي الوحيدة التي كان باستطاعة أستاذها أن يرشحها لدستويفسكي. وفي الوقت نفسه كان على حق عندما أعرب عن تخوفه من رفض جدتي، التي كانت مثل كل السويديات في جيلها تتسم بالصرامة تجاه آداب السلوك واللياقة. لكن المجد الأدبي الذي كان يتمتع به أبي هو الذي أنقذ الموقف.

يتلخص الأمر في أن دستويفسكي كان الكاتب المفضل لجدي جريجوري، الذي أصبح مُتيَّما به منذ روايته الأولى، ومن ثم راح يتابع بكل تعاطف مستقبله الأدبي. الأرجح أن الشاعرية الأوكرانية التي ميزت الأعمال الأولى لدستويفسكي قد استولت على مشاعر جدي. وعندما أرسلوا كاتبه المفضل إلى المعتقل، اعتبر جدي أنه سيختفي دون عودة وظل مخلصًا لذكراه وكان كثيرًا ما يقول لأولاده: «إن الكُتَّاب المعاصرين لا يساوون شيئًا. في زمني كان الكُتَّاب أكثر جدية، خذوا دستويفسكي الشاب مثلاً. يا له من موهبة عظيمة، ويا لها من نفس سامية! كم من المؤسف أن توأد موهبته مبكرا هكذا!». عندما عاد دستويفسكي مرة أخرى للكتابة، عاد جدي بدوره ليصبح من جديد واحدًا من معجبيه. كان يهرع للاشتراك في المجلات التي تُنشر فيها أعمال أبي، ثم ينكب على قراءتها. كان أطفاله، ما يزالون صغارًا، عندما كان دستويفسكي شابًا، الآن ها هم يشاركون أباهم ولعه. لقد أشعلت رواية «المذلون والمهانون» خيالهم الفتيَّ بعمق. وفور صدور العدد الدوري من المجلة، كانت العائلة بأكملها تترقب وصول ساعي البريد على أحرَّ من الجمر. كان جدي أول من يستولي على المجلة لينسحب سريعًا إلى غرفته للقراءة، وما إن يضطر للخروج منها لدقيقة، حتى تتسلل أمي إلى هناك، وبعد أن تخفي المجلة في مريلة المدرسة، حتى تذهب لقراءتها في الحديقة، أسفل شجرتها المفضلة. خالتي ماريا، ولم تكن قد تزوجت آنذاك بعد، كانت توقف أختها في مكان الجريمة وتنتزع منها المجلة بحكم أنها الأكبر سنًا. كان أفراد الأسرة يتخاطفون «المذلون والمهانون»، ثم يروحون يذرفون الدموع على ناتاشا المسكينة وعلى الطفلة نيللي[1] ويظل الجميع يعانون تقلبات الأحداث في الرواية. جدتي هي الوحيدة التي لم تكن تهتم بها. لم تكن تطيق الروايات ولم تقرأ أيًا منها على الإطلاق. كانت السياسة هي شغلها الشاغل. أذكر كيف

(1) نيللي بطلة رواية «المذلون والمهانون». (المترجم)

أن جدتـي بعـد فترة طويلة، في السـبعينيات، كانت تقرأ المجلات باستمتاع وقد وضعت نظارتها على أنفها. كانت تتابع بشـغف بالغ كافة الأحداث السياسـية في أوروبا. تدرسـها بعناية يومًا بيوم. كانت مشـغولة بشـدة بـزواج فرديناند كوبورج وهـل يا تـرى نجحت الأميرة كليمنتيـن في العثور على رفيق مناسـب لها من بين أمراء أوروبا الشـباب؟ مثل هذه الأسـئلة هي التي كانت تثير قلق جدتي المسكينة بشدة...

كان جـدي لا يكـفُّ عـن الحديث عـن دستويفسـكي بوصفه كاتبـه المفضل إبـان شـبابه، أمـا أمي فكانـت تقاطعـه مؤكدة لـه أن هـذا الكاتب هـو الآن رجل طاعـن في السـن. وعندمـا عرض عليهـا أن تعمل لدى السـيد دستويفسـكي في بيته أحسـت بإطراء شديد وأبدت موافقتها بكل سـرور، وحتى جدتي التي كانت تتصور دستويفسـكي عجوزًا محترمًا لم تعترض. عندما تأهبت أمي للذهاب إلى دستويفسـكي للمرة الأولى حرصت أن تصفف شـعرها بطريقـة صارمة، وكانت تشـعر بالأسـف لأنها لا تضع نظارات. حاولت في الطريق أن تتخيل كيف ستسير الجلسـة الأولى. راحت تحلق مع أحلامها بسـذاجة، «سـنعمل ساعة من الزمن، ثـم نتحدث بعدها حول الأدب. سـأعترف له بمدى إعجابـي بموهبته وأحكي له عـن بطلاتـي المفضلات... حبذا لو لـم أنس أن أسـأله لماذا لم تتزوج ناتاشـا في «المذلون والمهانون» من فانيا الذي كان يهيم بها حبًا... ربما يستحق الأمر أيضا أن أنتقد بعض مشـاهد الرواية لأثبت لدستويفسـكي أنني لسـت مجرد فتاة غريرة وأنني أفهم في الأدب، عند ذلك سـوف يزيد احترامه لي...». واأسـفاه، سـرعان ما بدد الواقع الأحلام السـاذجة لدى أمي. لقد هاجمت دستويفسـكي نوبة صرع عشية اللقاء وها هو يبدو شارد اللُّب حادَّ المزاج. لم يعر المختزلة الشابة اللطيفة أيّ اهتمـام وتعامـل معها كأنـه يتعامل مع آلة كاتبة من طـراز «ريمينجتون». أملى عليهـا علـى نحو متقطع الفصـل الأول من الرواية ولاحظ أنهـا تكتب ببطء بالغ:

أرغمها على إعادة قراءة ما أملاه عليها لتوه وقال لها غاضبًا أنها لم تفهم شيئا. كان يشعر أنه لم يبرأ تمامًا من أثر نوبة الصرع، ومن دون لباقة صرف المختزلة بعد أن طلب منها أن تعود في الغد في نفس الموعد. شعرت أمي أنها قد جُرحت جرحًا عميقًا، وهي التي لم تتعود على مثل هذه المعاملة من الرجال، ربما لم تكن فتاة فائقة الحسن، لكنها كانت نضرة، مرحة، بشوشة، وكانت تحوز على إعجاب الشباب، الذين كانوا يترددون على بيت جدتي. كانت أمي تبدو طفلة على الرغم من سنوات عمرها التسعة عشر. لم تكن تدرك أن التعامل مع امرأة تعمل من أجل المال لن تكون دائمًا مثل تلك المعاملة التي تلقاها باعتبارها آنسة في مقتبل العمر تلاطف المعجبين الشباب في صالون استقبال أمها. عادت إلى البيت وهي تغلي من الغضب، آوت إلى فراشها لتنام، عازمة عزمًا أكيدًا على أن تكتب لدستويفسكي غدًا تخبره أنه نظرًا لضعف صحتها فإنها لن تتمكن من مواصلة الاختزال. لكن الصباح رباح. ما إن استيقظت أمي حتى قالت لنفسها أنها ما دامت قد بدأت العمل فإن عليها أن تنهيه فربما يغضب ذلك مدرس الاختزال. فهي إذا تخلت عن أول تكليف لها بأداء هذه المهمة بسبب نزوة، فإنه لن يوصي بها لأحد بعد ذلك. وأخيرًا فإن رواية «المقامر» لا بد أن تنتهي كتابتها في الأول من نوفمبر، وأن شيئا بعد ذلك لن يجبرها على التعامل مع هذا الدستويفسكي البغيض. نهضت أمي وراحت تعيد بكل همة كتابة كل ما أملاه عليها أبي بالأمس، وفي الموعد المحدد توجهت إليه. لعل رعبًا ما كان سيعتريها لو أن أحدًا تنبأ لها في هذا اليوم أنها ستظل تختزل أعمال دستويفسكي أربعة عشر عاما كاملة.



الفصل الخامس عشر

الخِطبة

كان لـدى أمـي واحـد مـن تلـك الألبومـات ذات الأوراق الورديـة والزرقاء والخضراء، التي تحب الفتيات الشـابات أن يسـجلن فيها قبـل النوم أهم أحداث اليـوم المنصـرم. كانـت أمـي تفضـل أن تسـجل كل انطباعاتها عن طيـب خاطر مستخدمة الاختـزال، فـكان باسـتطاعتها أن تحكـي الكثيـر خلال فتـرة قصيرة. احتفظت أمي بهذا الدفتر السـاذج منذ أيام شـبابها، الأمر الـذي أتاح لها فيما بعد أن تدون على نحو منتظم أحداث فترة خطبتها وشـهر العسـل يوما بيوم. كان من المفتـرض أن تظهـر هـذه المذكـرات الهامة على وجـه السـرعة، لكنها اضطرت لتأجيل نشـرها لاندلاع الحرب. لا أريـد أن أحرم أمي متعة القص تفصيلا، لكنني سـأكتفي بأن أقـدم في خطوط عامة كيف عاش دستويفسـكي في تلك الفترة وأن أصف قصة حب والديّ من وجهة نظري، بناء على تصوري لطباعهما.

بعد أن برأت من الإهانة الأولى، أقبلت أمي بكل شـجاعة على العمل، كانت تذهـب يوميًا لتسـجيل نـص رواية «المقامـر»، الـذي كان يمليه عليها أبي. شـيئا فشـيئا بدأ أبي يلاحظ أن آلته الكاتبة - هذه الفتاة الشـابة الفاتنة، شديدة الإعجاب بموهبتـه. نظر فوجد أن مختزلته لطيفة وجذابة، أعجب بلهفتها وهي تتحدث عن أبطالـه وبطلاته. تأثر دستويفسـكي بعاطفة المختزلة الشـابة، وأصبـح من عاداته

أن يوليها ثقته، يكاشفها أحزانه ويحكي لها كيف عذبه دائنو أخيه وأفعال أقاربه الكثيرين. كانت أمي تستمع إليه في ذهول. كان خيالها العذري يصور لها قبل ذلك هذا الكاتب الشهير محاطًا بزحام من المعجبين، الذين يشكلون حوله حرس شرف يحميه من كل ما يهدد صحته ويعوقه عن إبداع روائعه. وبدلا من هذه اللوحة المبهجة، إذا بها أمام إنسان مريض، مُهمَل، يعيش في مكان غير لائق به، سيئ التغذية، يلاحقه الدائنون بلا شفقة، إنسان يجري استغلاله من قبل أقاربه الأنانيين بلا شفقة. لم يكن إلى جوار هذا الكاتب العظيم سوى نفر من الأصدقاء، الذين اكتفوا ببذل النصائح له، ولكنهم لم يبذلوا أي جهد ليحيطوا الرأي العام الروسي أو حكومة بلدهم عن الوضع المزري الذي يعيش فيه هذا العبقري، عن المستنقع الذي يحيطه والذي يوشك أن يُغرق هذه الموهبة العظيمة. أجداد أمي النورمانديون، الذين سكنوا روحها، كانوا مستائين وهم يرون هذا الإهمال الذي يعاني منه هذا الروسي العظيم. هؤلاء الإنجليز المؤمنون، الذين فضلوا أن يهجروا بلادهم بسرعة على أن يخونوا عقيدتهم. هؤلاء العلماء السويديون، الذين أضافوا في نهاية ألقاب عائلاتهم حروف «أوس» اللاتينية لكي يظهروا مدى عمق احترامهم للعلم قالوا لجدتي بحزم: «ما دام قد كُتب عليكِ العيش في هذه البلاد، وما دامت هذه البلاد ما تزال فتية وجاهلة، غير مؤهلة لأن تدرك أن موهبة واحد من أبنائها يعني أنها ملك للشعب كله، وأن الجميع يستفيد وسيستفيد منها، فإن على الجميع حمايتها. وإذا كان معاصروك ما يزالون يجهلون هذه الحقائق البسيطة، فإن هذا يعني أن عليك بصفتك من أحفادنا حماية هذا الإنسان العظيم». أجدادي، الذين شيَّد الرومان الحكماء المحاريب في بيوتهم، كانوا يؤدون دورًا في حياتها أهم من غالبية ما يظن بعضنا. كانوا يحافظون على أحفادهم ويتابعون خطواتهم الأولى بكل يقظة، يوجهونهم نحو الطريق الصواب في شبابهم. وكلما تشكلت شخصية الأحفاد، انسحب الأجداد من حياتهم، فلا يظهرون

من جديد إلا في اللحظات الحاسمة في حياتهم، عندما يقف الأحفاد مترددين أمام مفترق الطرق، غير عارفين أيَّ طريق يختارون، فينصاعون عندئذ لتأثير أجدادهم الأوروبيين الطاغي. فكرت أمي أن تأخذ على عاتقها مشروعًا لرعاية دستويفسكي: أن تشاركه حمله الثقيل الذي ينوء به، أن تنقذه من أقاربه معدومي الضمير وأن تساعده في عمله وتخفف عنه أحزانه. لم تكن أمي، بطبيعة الحال، واقعة في هوى هذا الرجل الذي يكبرها بسبعة وعشرين عامًا. لكنها فهمت روحه الرائعة بسرعة. كما فهم أبوها يوما ما روح أسينكوڤا النقية وانحنى تقديرًا لها. لقد أحست أمام زوجها بنفس الخصال الكريمة، أي موهبة ممثلة التراجيديا الشابة، التي ألهمت أباها آنذاك. كان أبوها آنذاك يعتبر أسينكوڤا هي أعظم ممثلة في عصره وظل مخلصًا لهذا الإيمان طول حياته. وهو ما فعلته أمي طول حياتها، فهي لم تكن تعترف أبدًا أن من الممكن أن يكون هناك كاتب واحد في روسيا، أو في أيِّ مكان آخر في العالم ندًّا لدستويفسكي. في هذين المعبودين المتشابهين، هناك شيء ما من العبادة الهيلينية للفن، الأمر الذي يندر وجوده في روسيا، الذي ربما يكون الأوكرانيون قد ورثوه عن المستعمرين اليونانيين، الذين أقاموا في غابر الزمان على شاطئ البحر الأسود. كانت أمي نصف أوكرانية، لكن العاطفة الروسية لم تكن غريبة عليها. فهي قد شعرت بهذه العاطفة المسيحية الرائعة لدى شعبنا. عندما رأت أمي هذا الإنسان العبقري، الطيب، الصريح، سليم الطوية، الذي لا يفكر في نفسه إطلاقا، المستعد دوما لأن يهب الآخرين كل ما يملك. قررت، وهي الشابة المفعمة بالقوة، أن تصبح حارسة لهذا الكاتب الشهير، الذي يسير عمره نحو الأفول. كان من الممكن أن تبث هذه الديون الباهظة والمسئوليات الجسام الرعب في قلب هذه الفتاة الشابة الهيابة. لكن التعطش لاقتحام الصعاب، الذي يجري في الدم النورماندي لأمي، ساهم، على العكس من ذلك، في أن تعلن الحرب على العالم بأسره.

لـو أن فتاة روسـية كانت في مكان أمي لحلقت في السـحاب، ولتخيلت كل المواقف التي يمكن أن تعطي فيها حياتها من أجل دستويفسـكي. أما السويديات فهـن يقفن دائمًـا على الأرض الصلبة، ولا يستسـلمن أبدا للأحـلام. أقبلت أمي على الفور بكل همة على العمل وبدأت في إنقاذ أبي من مخالب الناشر. توسلت إلى دستويفسكي أن يملي عليها عمله أيامًا بطولها تقريبًا، وكانت تذهب في الليل لتعيـد كتابـة مـا أملاه بالنهار. هكذا سـار العمل علـى نحو موفق، حتـى أن رواية «المقامر» انتهت كتابتها في الموعد الذي حدده ستيلوفسـكي، الذي وجد نفسـه فـي حـرج لا يسـتهان به، واقتنـع أن المصيدة التـي نصبها بخبث لـم تُفلح. أدرك دستويفسـكي أنه لم يكن ليسـتطيع أن يكتـب روايته على هذا النحو من السـرعة من دون مختزلته الشابة، كان يشعر تجاهها بالامتنان العميق على اهتمامها الحار بأعمالـه. كانـت لديه الرغبة في ألا يفتـرق عنها فعرض عليهـا أن يعملا معا على إتمـام الفصول الأخيرة من رواية «الجريمة والعقاب»، التي كان مقدرًا أن يكتبها. رحبت أمي بسـرور بالغ ودعته لشرب الشاي في بيتها احتفالا بهذا الإنجاز الرائع لعملهمـا الأول معـا، ولتقدمه إلى أمهـا. جدتي، التي كانت تقرأ قلـب ابنتها مثل كتاب مفتوح، تنبأت منذ زمن بعيد ما ستسـفر عنه جلسـات الاختزال، اسـتقبلت دستويفسكي باعتباره صهرها القادم. هذا الركن السويدي، الذي انتقل إلى روسيا أعجـب أبـي. لعله ذكّره بالركن الليتواني، الذي نقله أبوه إلى قلب موسـكو، التي قضى فيها طفولته. أدرك دستويفسـكي القواعد الصارمة التي تربت على أساسها مختزلتـه الصغيـرة، وكيـف أنها لا تشـبه فتيات ذلـك الزمن، اللائي يعشـن حياة العاهـرات بدعوى السـعي إلـى الحرية. هنا ظهرت لديه الرغبـة في أن يتزوج من مختزلتـه، علـى الرغـم من أنه هو أيضًا لـم يكن متيمًا بهـا. كان أبي على الأرجح بارد المشـاعر، ولكي تشـتعل الشـهوة بداخله، كان يلزمه ذلـك الخبث الأفريقي كالـذي كان لـدى ماريـا ديمتريفنـا، أو قوة الشـكيمة التي كانت لـدى بولينا. إنه بـإزاء فتاة حسـنة التربية، تتصرف بتحفظ شـديد، لا تتجـاوز مطلقا حدود الدلال

الساذج، لم تكن لتستطيع، بطبيعة الحال، أن توقظ فيه تلك الأحاسيس الحارة على وجه الخصوص. لكن دستويفسكي افترض أن هذه الفتاة التي تربت وفقا لقواعد صارمة، سوف تصبح أمًّا رائعة للأسرة، وهذا ما كان يبحث عنه أبي منذ زمن بعيد. ناداه صوت الدم: ها هي ابنة سويدية أوكرانية، أمي كانت تعتبر نفسها مزيجًا من الدم السلافي والنورمانديّ مثله تمامًا. على أن أبي لم يحزم أمره بعد في طلب يدها. كانت تبدو بالنسبة لدستويفسكي صغيرة للغاية. كانت تقريبًا في تلك السنوات في نفس عمر آنّا كروكوفسكايا، لكنها لم تكن تملك هذه الثقة في النفس، التي كانت لدى تلك الفوضوية الشابة. لقد اتخذت الآنسة كروكوفسكايا قرارها مرة واحدة وإلى الأبد في كل القضايا السياسية والأخلاقية والدينية. كانت تتناول بالنقد اللاذع الكون كله وترى أن الله فكَّر فيه وأنشأه بطريقة رديئة، وكانت تنوي بحزم أن تصحح أخطاء الخالق. أما أمي فكانت تميل إلى الخضوع لإرادة الله ولم تُقدم على الحكم أبدًا على صنعه. كان تصورها عن العالم ما يزال مبهما للغاية، كانت تتصرف على الأرجح بغريزتها لا بوعيها. عندما كانت تتحدث مع دستويفسكي كانت تضحك وتثرثر كالأطفال. وقد كانت في الواقع مجرد طفلة. وعندما كان أبي يستمع إليها كان يبتسم وهو يحدث نفسه على نحو لا يخلو من الخوف: «كيف سأتصرف مع هذه الطفلة التي أحملها على يدي؟» كان يتصور أن هذه الفتاة الصغيرة، كانت منذ عام واحد مضى، تسير وقد ارتدت مريلة المدرسة، وأنها لم تصل بعد إلى سن الزواج. لعل دستويفسكي تردد طويلا، لولا أن حلمًا تنبئيًا رآه دفعه لاتخاذ القرار. رأى أبي فيما يري النائم أنه فقد شيئا ما عزيزًا، راح ليبحث عنه في كل مكان، يقلب هنا وهناك بشكل محموم في الدواليب والكومودينات، بعثر على الأرض كل ما ليس له قيمة. وفجأة إذا بشيء في قاع أحد الأدراج يتلألأ، وإذا هي قطعة صغيرة من الماس ولكنها كانت تلمع بشدة لدرجة أنها أضاءت الغرفة. ظل أبي ينظر إليها ويتعجب: كيف لهذا الشيء الثمين أن يكون موجودًا في الدرج؟ من الذي وضعه هناك؟ وفجأة، كما يحدث في

الأحلام، أدرك أن هذه الماسة هي المختزلة الصغيرة. استيقظ مضطربًا وسعيدًا: «اليوم سأطلب يدها». هذا ما قرره دستويفسكي. لم يحدث إطلاقا أن اتخذ أبي قرارًا وندم عليه. ربما كان سيقول عن زوجته نفس ما قالته يوما ما المسكينة أسينكوفا: «إنه لمن دواعي سروري أن أستند إلى ذراعه...».

كخطيب مُعترف به لأمي، أصبح دستويفسكي يتردد عليها كل يوم، لكنه لم يتعجل في إخبار أهلها عن خطبته الوشيكة. كان يتصور جيدًا كيف ستستقبل أسرته هذا النبأ. كان أول من عرف بهذا السر هو ربيبه، الذي ذُهل «لخيانة» زوج أمه. هذا المملوك كان معتمدًا على استمرار هذه الحياة المرفهة! زوج أمه يكسب المال، وهو يستمتع به، ثم يؤول إليه بعد ذلك الميراث الإبداعي لدستويفسكي، ليعيش على عائده بعد ذلك، وإذا بهذه العذراء التي تعرف عليها لتوه، تأتي لتحطم كل آماله المتفائلة! كان پاڤل إيسايف ساخطًا إلى درجة الاختناق. راح يُحذر دستويفسكي من عواقب النزوات القاتلة «السن الشيخوخة»[1]، شارحًا له الأضرار الكارثية للزواج من فتاة شابة، مذكرًا إياه بواجباته باعتباره زوج أمه. قال له: «أنا أيضا أنوي الزواج يوما ما، وسيصبح لديَّ على الأرجح أطفالاً، من يا ترى سواك سوف ينفق عليهم؟» غضب أبي وطرد هذا الوقح من غرفته. على هذا النحو عادة ما كانت تنتهي الشروح بين زوج الأم والربيب.

سارع پاڤل إيسايف بإبلاغ أفراد العائلة كلهم بالخطر الذي يهدد معيشة هؤلاء المرفهين الطفيليين. أصيب أبناء وبنات أخي دستويفسكي بالذعر: كانوا يأملون هم أيضًا، أن عمهم سيظل طول عمره ينفق عليهم، كما كانوا يعولون بدورهم على الميراث. رأت زوجة أخي دستويفسكي ضرورة الحديث معه على نحو جاد. قالت له بلهجة غاضبة: «لماذا ينبغي عليك أن تتزوج مرة أخرى. أنت لم تنجب من زواجك الأول وكنت ما تزال شابا آنذاك. كيف تستطيع أن تأمل في

---

(1) كان أبي يبلغ من العمر آنذاك سبعة وأربعين عامًا.

الإنجاب في سنك هذه؟» كانت رغبته في أن يتزوج من فتاة تبلغ من العمر تسعة عشر عاما بالنسبة لأقارب أبي أمرًا منافيًا للعقل بل ورذيلة تقريبا. حتى رفاق أبي من الأدباء لم يستطيعوا أن يفهموا لماذا اختار دستويفسكي زوجة تقاربه في العمر عندما كان في الثالثة والثلاثين من عمره، وربما أكبر. وها هو الآن وقد تجاوز الأربعين لا ينجذب إلا إلى الفتيات الصغيرات تماما. كانت آنّا كروكوفسكايا وأمي في نفس السن تقريبا، عندما تقدم لخطبتهما. أظن أن غرابة هذا الأمر تعود إلى الخيانة التي اقترفتها ماريا ديمتريفنا: لقد تركت هذه الخيانة على أبي انطباعا عميقًا لا يمحى. ومنذ تلك اللحظة لم يعد أبي يولي ثقته للنساء الناضجات. الآن بات لا يهب ثقته إلا لقلب يراه بريئًا وروحًا يحس أنها نقية يمكنه كزوج حكيم أن يشكلها على هواه[1]. وبعد أن تزوج من أمي، كان دستويفسكي يهتم اهتماما كبيرا بكمالها الأخلاقي. كان يتابع قراءاتها ويحظر عليها الكتب ذات المحتوى الإيروتيكي، يصطحبها إلى المتاحف، يريها اللوحات الفنية الرائعة والتماثيل، ساعيا إلى أن يوقظ في روحها الطفولية حب كل ما هو عظيم وسامٍ ونبيل. كانت مكافأته هي إخلاص زوجته الذي لا يتزعزع على مدى حياتها؛ فضلا عن إخلاصها له بعد وفاته. لعل أجداد أمي النورمانديين كان لهم دور في ذلك.

ومثل معظم الليتوانيين، كان دستويفسكي طاهر القلب عفيفًا. يقول ڤيدوناس: «إن الليتواني يحتقر المجون والعهر. لا تجد في أغنياته فاحش القول. وفي ليتوانيا لا تجد على الحوائط أو الأسوار تلك الرسوم الهزلية البذيئة، التي يراها المرء عادة في البلاد الأخرى». عندما ذهب دستويفسكي إلى باريس، كان يتردد على مختلف المقاهي وشاهد الرقص في كازينو الإليزيه. وقد أثارت الأغنيات الخليعة التي استمع إليها هناك والرقصات الإباحية التي شاهدها استياءه. وقد حكى عنها

---

(1) بعد وفاة زوجة بطل رواية «الزوج الأبدي» الخائنة راح يعطي اهتمامه للفتيات الصغيرات فقط.

لأصدقائه بشعور كبير من التقزز. ربما لذلك تحديدا لم يصطحب دستويفسكي في رحلاته التالية زوجته الشابة إلى فرنسا، بينما اصطحبها إلى ألمانيا وسويسرا وإيطاليا والنمسا. على أن هذا الشعور السلبي الذي بقي لدى دستويفسكي تجاه هذا الجانب من حياة باريس، لم يهز إعجابه بالأدب الفرنسيّ. كان واحدًا من الرجال القلائل، الذين استطاعوا أن يتبينوا الفارق بين فرنسا الكادحين وفرنسا المنغمسين في الملذات.



الفصل السادس عشر
الزواج الثاني لدستويفسكي

على الرغم من اعتراض أقارب دستويفسكي، فقد تزوج أبي من أمي في الثاني عشر من فبراير في نفس الشتاء[1]، بعد خمسة أشهر من تعرفه عليها للمرة الأولى. ولمّا كان مفلسًا، لم يستطع أن يسافر مع زوجته الشابة في رحلة شهر العسل. أقام العريسان في شقة جهزتها لهما جدتي. كان قضاء شهر العسل في بطرسبورج تهورًا كبيرًا من جانبهما كاد أن يحطم سعادتهما.

عندما عجز أقارب دستويفسكي عن الحيلولة دون إتمام الزواج، فكروا في طريقة لإيقاع الخلاف بين الزوجين. غيّروا من خططهم. تحولوا من أعداء لأمي إلى أصدقاء لها وادعوا أنهم معجبون بشدة بها. راحوا يملؤون بيت والديّ ولم يكونوا يدعونهم ينفردان أبدًا. هؤلاء الذين لم يكونوا يولون أبي أيَّ اهتمام أو رعاية، وكانوا نادرًا ما يزورونه، يمكثون الآن لديهما أيامًا بأكملها، يتناولون طعام الإفطار والغداء ولا يغادرون البيت إلا بعد منتصف الليل. تعجبت أمي للغاية

(1) لم يتزوج أحد من إخوة دستويفسكي من روسية. كانت أمي نصف أوكرانية، نصف سويدية. زوجة عمي ميخائيل كانت ألمانية من البلطيق، بينما كانت زوجة أندريه دستويفسكي أوكرانية (ظل نيكولاي أعزب). في المقابل لم يتزوج أبناء وبنات عمي إلا من روس فقط. الأرجح أن الترويس الحقيقي بدأ منذ الجيل الثالث.

من هذه التصرفات، لكنها لم تجرؤ على الاحتجاج. لقد اعتادت منذ طفولتها أن تكون مهذبة وبشوشة مع جميع ضيوف أمها وحتى مع هؤلاء الذين لم تكن ترتاح إليهم. استغل المتآمرون خجل الزوجة الشابة. كانوا يستولون على الأدوات المنزلية ويتصرفون فيها كما يحلو لهم. كانوا يقنعون أمي، صانعين من أنفسهم ناصحين ومستشارين، بألا تزعج زوجها أكثر من اللازم، وألا تذهب إليه في غرفة مكتبه. «أنت شابة صغيرة للغاية بالنسبة له - هكذا يقول الناصحون الماكرون - إن ثرثرتك الساذجة لا يمكن أن تهمه. زوجك رجل جاد، يلزمه التفكير في رواياته». أقارب آخرون كانوا يستدرجون أبي، يوهمونه أنه عجوز جدا بالنسبة لزوجته الشابة وأنها تشعر معه بالملل، «انظر كيف تضحك وتغرد مع أبناء أخيك الشباب بود، هكذا كانت تنفث زوجة أخيه حديثها في أذن دستويفسكي، إن زوجتك بحاجة إلى صحبة من نفس سنها، اتركها تلهو معهم وإلا أحست بالنفور فجأة تجاهك». كان ذلك الحديث من شأنه أن يجرح أحاسيس أبي كلما راحوا يكررون عليه بلا نهاية أنه عجوز للغاية بالنسبة لزوجته الشابة، أما أمي فكانت تشعر بالإهانة جرَّاء فكرة أن هذا الإنسان العظيم، زوجها، يعتبرها بلهاء مملة. أصبحت علاقاتهما متوترة، كانا كلاهما ذوي كبرياء شديدة حتى أنهما لم يتحدثا بصراحة حول هذه الأمور. لو كان والداي يحبان بعضهما بعضا لانتهى الأمر ربما بشجار وتبادل للوم على هذه الادعاءات الكاذبة ولتحطمت مكيدة المتآمرين. لكن والديَّ عندما تزوجا، لم يكن يربطهما سوى التعاطف. إن التعاطف في الظروف الحسنة يمكن أن ينمو ليتحول إلى حب كبير، كما أنه من الممكن أن يتحول إلى نفور عميق. لاحظت أمي في جزع كيف راح الإعجاب الذي كانت تحمله لدستويفسكي قبل الزواج يتناقص بسرعة شديدة. بدا لها الآن إنسانًا ضعيفًا، ساذجًا وأعمى، كانت العروس المسكينة تحدث نفسها قائلة: «إن من واجبه كرجل أن يحميني من هؤلاء المتآمرين وأن يطردهم خارج المنزل. وهو بدلا من أن يدافع عني يسمح لأقاربه أن يتصرفوا في بيتي، يأكلون طعامي

ويسخرون مني في وجهي بسبب نقص خبرتي كربة بيت شابة» كانت أمي تبكي في غرفتها، بينما كان أبي يجلس في نفس الوقت وحيدًا في غرفة مكتبه. وبدلا من أن يعمل على روايته، كان يفكر في حزن في أن فكرة بناء بيت للزوجية بات أمرًا صعب التحقيق. كان يلقي باللوم في نفسه على زوجته الشابة متسائلا: «كيف لم تدرك الفرق بيني وبين أبناء أخي الأغبياء؟» كان يحكم عليها بقسوة بسبب السطحية المزعومة لزوجته الشابة ناسبًا إليها هذا الغباء! هنا كان أقارب دستويفسكي يفركون أيديهم فرحًا لأن خططهم باتت تعمل على نحو أفضل...

اقترب الربيع، كان من الضروري وضع الخطط لقضاء الصيف. زوجة أخي أبي اقترحت عليه أن يستأجرا بيتا صيفيًا كبيرًا في باڤلوفسك، الضاحية القريبة من بطرسبورج. قالت لدستويفسكي: «ربما نستطيع أن نقضي الوقت هناك جميعنا معا، وألا نفترق أبدا. لعلنا نقضي صيفًا رائعًا! ولذهبنا كل يوم إلى مكان ما نأخذ إليه زوجتك طول اليوم، ولبقيت أنت في البيت لتعمل على روايتك في هدوء، بحيث لا يعطلك عن العمل شيء». هذه الخطط لم ترق لأبي وبدرجة أكبر لزوجته. قالت أمي لزوجها إنها تفضل لو قضت الصيف في الخارج، لأنها منذ زمن بعيد وهي تحلم بمشاهدة ألمانيا وسويسرا. كان أبي أيضا يود لو رأى أوروبا مرة أخرى، وقد كان يحتفظ لها بذكريات ساحرة. كان قد ذهب إلى أوروبا ثلاث مرات من قبل، كانت المرة الأخيرة لمجرد أن يلعب الروليت فقط. وقد اعتقد أنه الآن قد شُفي من هذا المرض القاتل، ولكنه كان مخطئا. إبان وجوده في أوروبا مع أمي أصيب بنوبات من هذا المرض ذاته، الذي لم يبرأ منه إلا عندما بلغ الخمسين من عمره. ومثلما استمر ولعه بالنساء في ظروف بالغة الصعوبة حوالي عشر سنوات، استمر ولعه بالقمار أيضا عشر سنوات.

راح أبي يبحث عن النقود الضرورية لرحلة الزواج المخطط لها. لم يشأ أن يطلب من عمته الثرية كومانينا، إذ إنها كانت قد أعطته منذ بضعة أشهر فقط عشرة

آلاف روبل، ذهب جميعها على نفقات مجلة «العصر»، ففضَّل أن يتوجه إلى السيد كاتكوف، أحد أكبر الناشرين في موسكو والذي كان دستويفسكي ينشر أعماله آنذاك في مجلته. سافر أبي إليه في موسكو وعرض عليه روايته الجديدة، التي يفكر في الشروع في كتابتها، وطلب منه بضعة آلاف مقدما. كاتكوف، الذي كان ينظر إلى دستويفسكي باعتباره مصدر جذب كبير لمجلته Great attraction لبى طلبه على الفور. عندئذ أعلن أبي أمام الأسرة أنه ينوي السفر في أقرب وقت ممكن إلى الخارج بصحبة زوجته الشابة. المتآمرون، الذين أصيبوا بالذهول والارتباك الشديدين، أعلنوا لدستويفسكي أنه ما دام في الحقيقة ينوي أن يتركهم لمدة ثلاثة أشهر فإن عليه أن يترك لهم على الأقل نقودا. أعد كل منهم قائمة باحتياجاته، وبعد أن أرضاهم جميعًا، لم يتبق معه إلا القليل، لدرجة أنه فكر مضطرا للتخلي عن رحلته المأمولة.

وقعت أمي فريسة لليأس. أجهشت بالبكاء وهي في طريقها إلى أمها، قالت لها: «سوف يسعون طوال هذا الصيف ليوقعوا في النهاية بيني وبين زوجي! أنا أشعر بذلك وأرى إلى أين ستؤدي بي مؤامراتهم!» خيم هم ثقيل على جدتي. لقد أخذت الحياة الزوجية لابنتها الشابة، بلا شك، منعطفا خطرًا. هي أيضا ساورها الخوف من قضاء الصيف في پاڤلوفسك وفضَّلت أن تسافر ابنتها للخارج. ولكن للأسف لم يكن بمقدور جدتي أن تعطيها ما يكفيها من نقود لهذه الرحلة. كانت ثروة جدي جريجوري موضوعة في بيتين بناهما للإيجار، إلى جانب البيت الذي تعيش فيه الأسرة. كانت جدتي تعيش من عائد هذين البيتين بعد أن ترملت، وقد اضطرت أن تنفق فوق هذا مبلغا من المال كصداق لابنتها وأن تؤثث لها شقة جديدة، ولهذا فإن الحصول فورا على مبلغ كبير كان أمرًا بالغ الصعوبة. بعد تفكير عميق، أشارت جدتي على ابنتها أن ترهن أثاث بيتها قائلة لها: «عندما تعودين في الخريف إلى بطرسبورج، سوف يكون باستطاعتي أن أحصل على

بعض المال لكي نسترد أشياءنا المرهونة. المهم الآن أن ننقذ زوجك من التأثير المميت لكل هؤلاء المتآمرين».

إن كل عروس تفخر بجهاز عرسها. إنها تحب أثاث بيتها الجميل، فضياتها، أطقم الصيني الرائعة، الأواني المصنوعة من البللور، وحتى أدوات مطبخها الجديدة واللامعة. هذه الأشياء الأولى، التي تخصها هي وحدها بالفعل، والتي يمكن أن تستخدمها كما يحلو لها. إن الأمر يستلزم شجاعة كبرى بل غلظة قلب لكي تفارق هذه الأشياء بعد ثلاثة أشهر فقط كانت تؤدي فيها دور ربة البيت النموذجية. ينبغي هنا أن نحكم حكما عادلا على أمي: لم تتردد لحظة واحدة وسرعان ما نفذت نصيحة جدتي الحكيمة. كانت سعادة الأسرة بالنسبة لها لا تقاس بأغلى الفضيات في العالم. طلبت من جدتي أن ترهن كل شيء وأن ترسل إليها بالمال إلى الخارج. وهذا المبلغ غير الكبير، الذي تمكنت جدتي من أن تعطيه لأمي، سارعت في استخدامه لاصطحاب زوجها على الفور، والذي كانت لديه رغبة شديدة في الرحيل. انطلقا في رحلتهما قبيل يومين من عيد الفصح، وهو أمر يخالف التقاليد الدينية، التي كانت أمي توليها اهتماما شديدا. كانت خائفة بشدة من أن يخترع هؤلاء المتآمرون الخبثاء مكيدة ما في اللحظة الأخيرة، ولم تتنفس الصعداء إلا عندما عبرت الحدود. كم كانت أمي ستعاني من الرعب، لو أن أحدًا ما أخبرها آنذاك أنه سوف يكون عليها أن تعبر نفس هذه الحدود مرة أخرى ولكن في الاتجاه المعاكس وإنما فقط بعد أربع سنوات...



الفصل السابع عشر

الحياة في أوروبا

(الجزء الأول)

تحدثت أمي أيضا في مذكراتها[1] عن رحلة شهر العسل مع أبي بأدق التفاصيل. أحيل القارئ إلى هذه المذكرات، التي كان من المفترض أن تصدر في كتاب بعد الحرب، أما أنا فسوف أذكر هنا بضع كلمات فقط عن حياتهما في الخارج.

بعد أن التقطا أنفاسهما في مدينتَي ڤيلني[2] وبرلين، واصل والداي رحلتهما إلى درزدن وهناك أقاما لمدة شهرين. لقد سافرا من بطرسبورج في يوم من تلك الأيام التي ضربت فيها العواصف الثلجية المدينة، وهو ما يحدث كثيرًا في روسيا في شهر أبريل، أما في درزدن فقد استقبلهما فصل الربيع. كانت الأشجار جميعها مزهرة، والطيور تغرد، والسماء صحو، زرقاء، والطبيعة بأسرها تبعث على البهجة. هذا التغير المفاجئ في المناخ ترك انطباعًا بالغًا على والديَّ. تناولا غداءهما في الهواء المنعش في شرفة بريوليڤايا، ثم ذهبا لسماع الموسيقى في Grossen Garten. انطلقا يتجولان وسط المناظر الخلابة لسويسرا السكسونية.

---

(1) صدرت الترجمة الكاملة لهذه المذكرات عن المركز القومي للترجمة بعنوان: آنّا جريجوريڤنا دستويڤسكايا. مذكرات زوجة دستويڤسكي. ترجمة: أنور محمد إبراهيم. 2015.

(2) ڤيلني (ڤيلنو) حاليا ڤيلنوس: عاصمة ليتوانيا. (المترجم)

تكاشـفا بمكنـون قلبيهما. من الآن فصاعدًا لن يحول بينهمـا أحد هنا. أصبح كل منهمـا يفهـم الآخر على نحو أفضل ممـا كان عليه الأمر قبل ذلـك. العاطفة التي جمعـت بينهما قبل الـزواج تمت لتتحول إلى حـبٍّ حقيقيٍّ. وأخيرًا بدأ يعيشان شهر عسل حقيقيًّا بالنسبة لهما. لم تستطع أمي أن تنسى هذين الشهرين الساحرين بعـد أن ترملـت. وفي كل مرة كانت تذهب فيها للاستشـفاء بمياه كارلسباد وفي ڤيسبادن، كانت تنهي علاجها بقضاء بضعة أسابيع في درزدن. كانت تزور خلالها كافـة الأماكـن التي تجولت فيها مع زوجها، فتزور قاعة الفنون الشـهيرة لتشـاهد لوحاتـه المفضلة، تتنـاول طعام الغداء فـي المطاعم التي ذهبا إليها معًا، تستعيد أفكار الماضي وتسـتمع إلى الموسـيقى فـي Grossen Garten... كانت تقول أنه مـن بيـن كافة الرحلات التي قامـت بها في أوروبا فإن أفضلهـا جميعًا كانت تلك الأسابيع التي قضتها في درزدن.

مـا يـزال أمر هذا الحب الذي اشـتعل أُواره في قلب فتاة تبلغ من العمر تسـعة عشـر عامًا تجاه رجل في التاسـعة والأربعين شـيئًا غير مفهوم لي، وكثيرًا ما كنت أسـأل أمـي كيف وقعَـتْ في هـوى زوج يبلغ مـن العمر ضعف عمرهـا، فكانت تجيب وهي تبتسـم: «لقد كان شـابًّا! آه لو علمت أن أباك كان ما يزال شـابا! كان دائم الضحك، يلقي بالنكات، كل شـيء كان يثير الفرح في نفسـه وكأنه شاب في مقتبـل العمـر. كان أبوك أكثـر لطفًا وإثارة للاهتمام من شـباب تلك الأيام، الذين يمشـون وراء الموضـة ويضعـون جميعهـم النظـارات ليبـدون مثل أسـاتذة علم الحيوان الطاعنين في السن».

على العموم، فإن الليتوانيين هم خليط عجيب من السـلاڤيين والنورمانديين، وفي الحقيقة، فهم يظلون لزمن طويل محتفظين بروحهم الشـابة، وعندما يبلغون العقد السـادس من العمر، يظل باستطاعتهم أحيانًا أن يمرحوا كالأطفال، وعندما تنظـر إليهم لا تملك إلا أن تظن أنهم مهمـا تقدم بهم العمر فإنهم لن يهرموا أبدًا.

وهذا ما كان من أمر دستويفسكي، لقد فارق الحياة وهو في التاسعة والخمسين، لكنه ظل شابا حتى يومه الأخير، حتى أن الشيب لم يغز رأسه. ظل شعره على لونه الأصهب الداكن. وعلى الجانب الآخر فقد ورثت أمي الطابع السويديَّ لأسلافها. لدى السويديات خاصية واحدة يتميزن بها عن كافة نساء أوروبا. إنهن لا يسمحن لأنفسهن بانتقاد أزواجهن. إنهن يرون كل نقائصهم بوضوح تام، فيحاولن أن يقوِّمْنها، لكنهن لا يُدنَّهم بسببها. يخيل إليّ أن السويديين فقط هم وحدهم الذين يجسدون في زماننا هذه الفكرة الرائعة التي جاء بها الحواريُّ بولس، وخلاصتها أن الزوج والزوجة هم كائن واحد. كانت السويديات يشعرن بالاستياء عندما أتحدث معهن عن هذه السمة القومية الغريبة. تقول السويديات: «كيف يمكن أن نوجه نقدًا للزوج؟ إنه أعز لدينا من أن ننقده». كانت هذه تحديدًا وجهة نظر أمي. كان زوجها أعز عليها من أن يشوب تعاملها معه أي نقد. إنها تفضل أن تحبه، وهذه في نهاية الأمر هي الوسيلة الأفضل للحصول على السعادة في الحياة الأسرية. كانت أمي تتحدث عن زوجها أثناء حياته كما يتحدث المرء عن شخص مثاليٍّ، وعندما ترمَّلت خلقت من دستويفسكي معبودًا، وربت أطفالها على هذا المفهوم.

عندما ساد الحَر مدينة درزدن في شهر يوليو، انتقل والداي إلى بادن-بادن. يا لها من فكرة تعيسة. ما إن رأى والدي عجلة الروليت، حتى تملَّكه هوس اللعب، الذي تحول إلى مرض عضال لديه. كان يقامر، فتارة يربح فيصل إلى قمة السعادة، ثم تارة أخرى يخسر فيسقط في هاوية اليأس. أصاب الذعر أمي. وعندما كانت تكتب رواية «المقامر» اختزالا، لم تكن تعرف أن أبي كان يصوِّر فيها نفسه. كانت تجهش بالبكاء وهي تتوسل إليه أن يغادرا بادن- بادن، ونجحت في النهاية أن تأخذه إلى سويسرا. عندما ذهبا إلى جينيف ثاب أبي إلى رشده وراح يلعن ولعه الذي جلب عليه الشقاء. أُعجب والداي بجينيف وقررا أن يقضيا فيها الشتاء بطوله.

لم تعد لديهما الرغبة في العودة مرة ثانية إلى بطرسبورج، كانا سعيدين بالحياة في الخارج وكانا يرتعدان من الخوف من مجرد التفكير في مؤامرات الأقارب. ومع ذلك فإن أمي لم تستطع أن تذهب بعيدًا في هذا الطريق: كانت تنتظر طفلا، وكان حملها الأول تكتنفه صعوبات بالغة. الآن بات من المحتّم الابتعاد عن الحياة في الفنادق الصاخبة. استأجر والداي غرفتين مفروشتين من اثنتين من العوانس كبار السن، كانتا تتميزان بحنوِّهما الشديد على أمي، التي كانت تقضي معظم الوقت في فراشها ولا تقوم إلا لكي تتناول طعامها لتعود سريعًا لترقد مرة أخرى، أما زوجها فكان يظل جالسًا في المقهى يطالع المجلات الروسية والأجنبية. الآن، وهو يعيش في الخارج، ازداد اهتمامه كثيرًا بقضايا أوروبا[1].

في چينيف عاش والداي في عزلة تامة. في البداية وما إن وطئت أقدامهما أرض سويسرا، حتى راحا يلتقيان فيها بواحد من معارفهما الروس، وكان يأتي أحيانًا لزيارتهما. وسرعان ما رحل هذا الرجل إلى باريس، ولم يبحث والداي بعده عن معارف جدد، كانا يُعدان العدة للحدث الكبير، الذي سرعان ما سيغير حياتهما.

جاءت أختي البكر إلى الوجود في فبراير وأُطلق عليها اسم صوفيا تيمنًا بابنة عمتي ڤيرا المفضلة لدى أبي. كاد أبي يُجنُّ من الفرح، أخيرًا باتت السعادة من نصيبه وقد أصبح أبًا، وهو ما كان يحلم به منذ زمن بعيد. كتب لأحد أصدقائه يقول: «هذه أكبر سعادة يمكن للمرء أن يعرفها هنا، على الأرض» اهتم أبي اهتمامًا كبيرًا بطفلته، كان يتفرّس في روحها، التي انبثقت من أجله من خلال عينيها الغائمتين الطفوليتين. كان يؤكد أن الطفلة تعرفه وتبتسم له. واأسفاه، لم تستمر هذه السعادة طويلا!

---

(1) كانت «INDEPENDENCE BELGE» هي صحيفته المفضلة، وقد جاء على ذكرها مرارًا في أعماله.

كان الإنجاب عند والدتي شديد الصعوبة، كانت إصابتها بفقر الدم وراء وفاة الطفلة. لم يكن لديها لبن، ولم يكن بإمكانها أن ترضع الطفلة بنفسها. راحا يبحثان عن مرضعة، لكنهما لم يجدا في چينيف مرضعة واحدة. الفلاحات السويسريات لم يكُنَّ يغادرن أماكنهن، التي كنَّ يقمن فيها، أما النساء، اللائي كن يبحثن لأطفالهن عن مرضعات، فكن مضطرات لأن يرسلن أطفالهن إليهن في الجبال. رفضت أمي في غضب أن تفترق عن كنزها وقررت أن ترضع الوليدة صوفيا من الرضَّاعة. كانت صوفيا نحيلة مثل غالبية الأطفال البكر. أمي لم تكن تفهم كثيرًا في أمور رعاية الوليدة، وحتى العجوزان العانستان الطيبتان اللتان كانتا تساعدانها، كانتا أقل منها معرفة بهذه الأمور. امتدت حياة صوفيا الصغيرة المسكينة ثلاثة أشهر، لم تستطع الاستمرار أكثر ففضلت الانتقال إلى العالم الآخر.

كان والداي في حالة من اليأس لا يمكن للكلمات أن تصفها. راحت جدتي، التي قدمت من بطرسبورج لتشاهد حفيدتها الجديدة، تهدِّئ من روعهما قدر ما استطاعت. وعندما رأت أن ابنتها تذهب إلى المقبرة طول الوقت، وأنها تبكي بمرارة عند قبر طفلتها الغالية، نصحت أبي أن يذهب بها إلى ڤيينا. وهناك قضيا معا أسوأ صيف في حياتهما. كانت أمي تتسلل أحيانا من البيت وتستقل الباخرة لتذهب إلى چينيف لتضع الزهور على قبر الطفلة الراحلة العزيزة، ثم تعود وقد غرقت عيونها في الدموع. أخذت صحتها في التدهور، وكذلك أبي بات معتل الصحة في سويسرا. هذا الرجل الذي اعتاد على الحياة في السهول، الذي أَلِف الأماكن الرحبة، أحس بالجبال المحيطة ببحيرة چينيف تكتم أنفاسه. راح يشتكي لأمي قائلاً: «إنها تخنقني، إنها تبدد أفكاري. في هذه البلاد لن أستطيع أن أكتب شيئا ذا قيمة».

عندئذ قرر والداي أن ينتقلا إلى إيطاليا، آملين أن تعيد شمس الجنوب إلى أمي عافيتها. سافرا وحدهما، بينما بقيت جدتي في سويسرا لرعاية أحفاد

سفاتكوفسكي، الذين كان عليهم أن يقضوا الشتاء في چينيف بناء على نصائح الأطباء.

عبر والداي مضيق سيمبلون الجبلي، مستقلين مركبة جياد عامة (دائما ما كانت أمي تتذكر هذه الرحلة بسعادة). كان ذلك في شهر أغسطس وكان الجو رائعًا. كانت العربة تصعد الجبل ببطء. بعض الركاب كانوا يفضّلون السير على أقدامهم مختصرين الطريق عبر الطرق المتعرجة. كانت أمي تسير مستندة على ذراع زوجها، كانت تظن أنها تترك أحزانها على الجانب الآخر من جبال الألب، وهنا في إيطاليا، سوف تبتسم الحياة لها من جديد. كانت قد أكملت آنذاك لتوها عامها الحادي والعشرين، وفي هذا العمر يكون لدى الإنسان تعطُّش كبير للسعادة، بحيث إن موت رضيع عمره ثلاثة أشهر لم يكن ليستطيع أن يبقيه حزينًا زمنًا طويلا.

لدى وصولهما إلى إيطاليا توقف والداي في ميلان. كان أبي يود من جانبه أن يشاهد مرة أخرى تلك الكاتدرائية الشهيرة، التي شاهدها وأعجب بها خلال رحلته الأولى لأوروبا. راح يتأملها بكل تفاصيلها، أعجبته واجهتها حتى أنه أراد أن يتسلق إلى سطحها، حتى يستطيع أن يرى المنظر الذي يمتد عبر سهل لومبارديا. عندما بدأت أمطار الخريف في الهطول، سافر والداي إلى فلورنسا وأقاما فيها بقية الشتاء. لم يكونا على معرفة بأحد وظلا شهورا عدة وحيدين معا. لم يكن دستويفسكي يحب العلاقات العابرة التي لا تلزمه بشيء، فعندما يعجبه شخص فإنه يهبه قلبه ويظل صديقًا له مدى حياته. كان يرى أنه من غير الضروريّ أن يوزع صداقته على العابرين.

في فلورنسا كان أبي مشغولا للغاية. كان يكتب رواية «الأبله» التي بدأها في چينيف. كانت أمي تساعده مختزلة ما كان يمليه عليها. على أنها كانت خائفة أن تصرف انتباهه في ساعات تفكيره العميق فوجدت لنفسها عملا آخر هو أن تدرس

بشكل أساسي مدينة فلورنسا بكنائسها الجميلة ومجموعاتها الفنية الرائعة. كانت عادة ما تضرب موعدًا لزوجها للقاء أمام إحدى اللوحات الشهيرة، بعد أن ينهي عمله اليوميّ. كان دستويفسكي ينضمُّ إليها فيذهبا إلى متحف قصر بيتي للفنون. لم يكن أبي يحب دراسة لوحات المتحف ممسكًا في يديه بدليل السياح، الذي وضعه Baedecker الألماني، فمنذ زيارته الأولى اختار عددًا من اللوحات التي أعجبته، كان يعود المرة تلو الأخرى ليتأملها من دون أن يولي اهتمامًا لباقي اللوحات. كان يتوقف طويلا أمام أعماله المفضّلة، شارحًا لزوجته الأفكار التي أثارتها في نفسه هذه اللوحات الشهيرة. بعد ذلك كانا يذهبان للتنزُّه في المدينة على امتداد ضفة نهر أرنو. وفي طريقهما إلى المنزل كان يعرّجان أحيانًا ليشاهدا الأبواب البرونزية لكنيسة بابتيستيري Babtistery، وكان أبي مولعًا بها. عندما يكون الجو صحوا فإنهما يذهبان إما إلى منتزه كاشيني أو إلى حديقة بوبولي. الزهور التي كانت تزدهر هناك في شهر يناير كانت أمرا مثيرًا للدهشة بالنسبة لسكان الشمال. في هذا الوقت من العام اعتاد والداي أن يشاهدا الأنهار وقد كساها الجليد والشوارع وقد طمرتها الثلوج والمارة وهم يرتدون الفِراء. تحدث أبي عن زهور بوبولي مع أصدقائه، أما أمي فقد حكت عنها في مذكراتها.

كان والداي في غاية السعادة في فلورنسا. أتصور أنها كانت أكثر شهور رحلة زواجهما انسجاما. أحب دستويفسكي إيطاليا كثيرًا. كان يقول أن الشعب الإيطاليّ يذكّره بالروس. في واقع الأمر فإن لدى سكان شمال إيطاليا خليطًا من الدم السلافي. أما بناة ڤينيسيا فكانوا من أصول سلافية وكانوا ينتمون إلى نفس القبيلة السلافية التي ينتمي إليها الروس، الذين توجد جذورهم عند سلسلة جبال الكاربات[1]، ومن خلال الزواج المختلط نقل سكان ڤينيسيا دمهم السلافيّ

---

(1) سلسلة جبال تمتد عبر أوروبا- في التشيك وسلوڤاكيا وبولندا والمجر وروسيا ورومانيا لمسافة 1500 كيلومتر. (المترجم)

لسكان شمال إيطاليا، وانتشر هذا الدم عبر وادي نهر بو حتى وصل إلى شبه جزيرة أبينين Apennine penisula. الروس الذين يسيحون عبر إيطاليا يصابون بالدهشة لدى مشاهدتهم في أعماق إقليمي توسكانيا أو أومبريا لفلاحين على شاكلة الفلاحين الروس. نفس النظرة التي تتسم بالصبر والرقة، نفس الحماس في العمل، نفس التفاني وإنكار الذات. يرتدون ملابس شبيهة بملابس الفلاحين الروس، ويربطون رؤوسهم بمناديل بنفس الطريقة. بسبب هذا الدم السلافي يحب الروس إيطاليا كثيرا، ونحن نعتبرها أقرب إلى وطنٍ ثانٍ لنا.



الفصل الثامن عشر

الحياة في أوروبا

(الجزء الثاني)

بحلول الربيع أحسَّت أمي أنها حامل للمرة الثانية. كان أبي سعيدًا جدًّا، لقد أيقظ ميلاد صوفيا الصغيرة من جديد رغبته في الأبوة. ولمَّا كان مناخ فلورنسا مناسبًا لأمي، فقد قرر والداي أن يقضيا عامًا آخر في إيطاليا، على أنهما اضطرا مع اقتراب موعد الولادة أن يغيرا قرارهما، ويعود السبب في ذلك إلى أن الفنادق والشقق المفروشة في فلورنسا لم يكن لديها خدم يعرفون أكثر من لغة. في هذا العصر كان الخدم الموجودون يتحدثون بلغة إيطالية جيدة مكتفين بها. تعلمت أمي بسرعة على نحو أو آخر كيف تتفاهم بهذه اللغة وعملت مترجمة لأبي، الذي لم يستطع أن يتعلم اللغة الإيطالية على نحو جاد نظرا لانشغاله التام بكتابة روايته. الآن عندما أصبح لزامًا عليها أن تلزم الفراش وربما في حالات مرضها الشديد، كانت أمي تتساءل كيف سيتفاهم زوجها مع الخدم الإيطاليين أو الجليسات. هذا السؤال نفسه كان يؤرق قلب أبي. قال لزوجته أنه يفضل لو أنهما قضيا الشتاء في بلد يعرف هو لغته. آنذاك بدأ أبي في الاهتمام بالمسألة السلافية، التي استولت عليه تمامًا فيما بعد. عندئذ اقترح على أمي أن ينتقلا للعيش في براغ، حيث يود لو تعرف عن قرب على التشيك ودراستهم. غادر والداي فلورنسا في نهاية الصيف،

وحتى لا يرهق أمي، فقد سافرا على مهل فتوقفا في ڤينيسيا وتريستا وڤيينا. في براغ كان الإحباط في انتظار والديَّ. آنذاك لم يكونوا يسمحون في هذه المدينة بتأجير الشقق المفروشة. أراد أبي أن يعود إلى ڤيينا، آملا أن يجد فيها جالية ما تشيكية، سواء أكانت أدبية أم غير ذلك. لكن ڤيينا لم تعجب أمي. عرضت على أبي أن يقيما في درزدن، التي كانت تحتفظ لها بأعز الذكريات. وافق أبي، هو أيضًا كان يتذكر في سعادة أشهرهما الأولى معا في سكسونيا.

وصل والداي إلى درزدن قبيل مولدي بأسبوعين. كان دستويفسكي سعيدًا. مرة أخرى ستكون لديه ابنة صغيرة يمكن أن يغمرها بحبه. كتب لواحد من أصدقائه يقول: «لقد رأيتها بعد خمس دقائق من مجيئها إلى الكون. إنها فتاة حسناء وهي صورة منِّي». كانت أمي تضحك بشدة من كلامه وقالت لزوجها: «إنك تكيل المديح لنفسك، وهل تظن أنك على هذا القدر من الوسامة؟» لم يكن دستويفسكي فتى وسيمًا على الإطلاق، ابنته أيضًا لم تكن رائعة الحسن، لكنها كانت تفخر دائما بأنها تشبه أباها.

صاحب الغرف المفروشة، التي كان يقيم فيها والداي نبه دستويفسكي إلى ضرورة الذهاب على الفور إلى قسم الشرطة وأن يبلغ السلطات السكسونية، بموجب قوانين مدينة درزدن، بميلاد طفلته.

وهكذا ذهب دستويفسكي إلى المؤسسة المعنية وأعلن للسادة رجال الشرطة أنه الرجل السعيد والد الفتاة التي اسمها إيميه[1]. رأى السكسونيون أن هذه

(1) اسمي بالروسية لوبوف، وهو اسم يصعب نطقه على الأجانب، ولذلك فقد تعودنا في روسيا أن نترجمه إلى Aimée، وهو الاسم المطابق له في المعنى. كان أبي يدعوني تحببا «لوبا» وهو تصغير للاسم الروسي «لوبوف»، وكنت أظهر في جميع خطاباته التي أرسلها من درزدن باسم التصغير هذا. عندما كبرت، كنت أفضل اسم التصغير ليليا، الذي كانت تدللني به جدتي، وكان اسما أسهل بالنسبة للغتي كطفلة. وحتى يشعرني=

المعلومات غير كافية، وكان على أبي أن يقدم لهم كل ما لديه من بيانات: اسم العائلة، الاسم، السن، الحالة الاجتماعية، تاريخ الميلاد. وبعد أن فرغوا مما يخص أبي، انتقلوا إلى زوجته واهتموا بمعرفة اسم عائلتها قبل الزواج.

اسم العائلة قبل الزواج؟ يا للشيطان! يا للشيطان! لقد نسي دستويفسكي. حاول أن يتذكر، لكن اسم العائلة طار من رأسه. شرح دستويفسكي الأمر للشرطة وطلب السماح له بالذهاب وسؤال زوجته. السكسونيون الطيبون حملقوا فيه في دهشة. منذ زمن بعيد لم يروا في درزدن مثل هذا الزوج شارد اللب. سمحوا لدستويفسكي أن يستعلم من زوجته، فانطلق إلى البيت كالمجنون.

سأل زوجته بحدة: - ما اسمك؟

أنا؟ اسمي آنّا- أجابت أمي وقد أخذتها الدهشة.

أعرف أنه آنّا! أنا أسأل عن اسم عائلتك قبل الزواج!

ولماذا تريد أن تعرف؟

لست أنا الذي يريد أن يعرف، وإنما الشرطة هنا.

هؤلاء الألمان الفضوليون. إنهم يريدون أن يعرفوا حتمًا اسم عائلتك قبل الزواج وقد نسيته تمامًا.

أوضحت أمي الأمر لزوجها وأشارت عليه أن يسجل الاسم على ورقة «وإلا نسيت مرة أخرى»، قالت له ذلك بنبرة ساخرة وهي تضحك. استجاب أبي لنصيحتها وهرع منتصرا ليقدم الورقة إلى السلطات السكسونية.

= أهلي بالسعادة استمروا ينادونني باسم ليليا، وهو الاسم الذي دعاني به دستويفسكي في جميع خطاباته، التي كتبها في السنوات الأخيرة من حياته.

وافق المناخ في إيطاليا صحة أمي. تحسّنت صحتها واستطاعت أن ترضعني بنفسها. تولت رعايتي مربية ألمانية؛ إذ إن أمي لم تكن تثق في نفسها ثقة كافية للعناية بطفلة رضيعة. كانت جدتي قد وصلت لتكون إلى جوار ابنتها لحظة الولادة، ولتسهر على راحتي خوفًا من أن تقع لي مأساة جديدة. على أيٍّ حال لم أكن أشبه أختي الكبرى إطلاقًا. كنت أتمتع بقوة السلافيين النورمانديين، لديَّ تصميم على ألا أترك هذا العالم من دون أن أدرسه كما ينبغي.

منذ وفاة صوفيا الصغيرة لم تعد جدتي إلى روسيا أبدًا. عندما قررت أن تغادر بطرسبورج لتقضي في الخارج بضعة أشهر فحسب، فوضت أحد أقربائها في إدارة شئون بيوتها. هذا الرجل، كان مشغولا بأمور أخرى. قام بتأجير كل عقاراتها لأجَل طويل من دون أن يكلف نفسه عناء التشاور على ذلك مع جدتي. ولمّا لم يعد بإمكانها الحياة في بيتها الخاص في بطرسبورج، فضّلت جدتي البقاء مع ابنتها أنّا، وهو ما كانت تفضله أيضا ابنتها المفضّلة ماريا، التي كانت تعيش منذ زمن طويل في أوروبا. كان زوجها يعتني هناك بشئون تلميذه الأسبق، الدوق لايختنبيرج، الذي كان يعيش في الخارج، والذي كان كثيرًا ما يأتي تارة إلى چينيف، وتارة أخرى إلى روما. خالتي ماريا كانت على علاقة ودية مع زوجة الدوق وكانت من طبقة أقل، كانت ترافق زوجها في تلك الرحلات وكثيرًا ما كانت تصطحب معها الأطفال. كانت جدتي تنزل تارة في ضيافة إحدى ابنتيها، وتارة في ضيافة الأخرى، وكانت تشعر في الخارج وكأنها في وطنها. كانت أوروبا بالنسبة لهذه السويدية أكثر ظرفًا من روسيا. لكنها كانت تشعر بالملل جرّاء فراقها لابنها، الذي كان يدرس آنذاك في أكاديمية بتروفسكي الزراعية بالقرب من موسكو. كانت أمي تحب أخاها إيڤان بشدة وهي أيضا كانت تود لو رأته بعد كل هذه السنوات من الفراق. كلتاهما كتبتا إلى جدتي ترجوان أن يأتي إيڤان لزيارتهما في درزدن. بعد أن حصل على إجازة جاء إلى ألمانيا، إلى أمه

وأخته أنّا، التي كان يكِنُّ لها حبًا خاصًا. كان خالي إيفان قد خطط للمجيء إلى درزدن للإقامة بها شهرين فقط، لكنه اضطر للبقاء فيها ما يزيد على عامين. كان القدر العجيب متربصًا بعائلة أمي، ففي كل مرة يسافر فيها أحد من أفراد عائلتها إلى أوروبا لبضعة أشهر، إذا به يستقر فيها لأسباب أو أخرى لأعوام، حتى أن خالتي ماريا بقيت فيها إلى الأبد، وقد توفيت منذ عامين في روما ودفنت بها.

كان لخالي إيفان رفيق في الأكاديمية يدعى إيفانوف. كان خالي يحبه ويكِنُّ له إعجابًا شديدًا. إيفانوف الذي كان يكبر خالي سنًّا، فرض رعايته وتعهده بالعناية والاهتمام كما لو كان يرعى أخًا صغيرًا له. عندما علم إيفانوف أن أمه تود بشدة أن تراه، أصر على أن يقبل خالي دعوتها من دون تأجيل، ولعلمه بكون رفيقه الأصغر شديد التردد، فقد توجَّه بنفسه إلى مدير الأكاديمية وأقنعه أن يعطي لخالي إجازة لمدة شهرين، وتوسط له لكي يحصل بسرعة على جواز سفر، وقام بنفسه بتوصيله إلى القطار. لقد أصيب خالي ببعض الدهشة للسرعة التي قام بها هذا الشخص لإبعاده، لكنه لم يعط هذا الأمر أهمية خاصة. في درزدن راح يقص بحماس بالغ عن صديقه العزيز. كتب له خطابات وراح ينتظر منه ردًّا بصبر نافد. في غضون تلك الفترة تم العثور على إيفانوف المسكين بعد عدة أسابيع مقتولا في زاوية مهجورة من الحديقة المحيطة بالأكاديمية. راحت الشرطة تتحرى عن القاتل، وفي النهاية اكتشفت وجود مؤامرة سياسية تورط فيها العديد من الطلاب. هؤلاء الشباب المجنون بدلا من أن يدرس الزراعة، يروح يستعد لقلب الحكومة. كان إيفانوف واحدًا من أنشط المتآمرين، لكن الشكوك كانت تراوده، راح يعيد النظر في معتقداته وفي النهاية أعلن لرفاقه أنه ينسحب من هذه الجمعية السرية. امتلأ شباب المتآمرين بالغيظ، وعندها قرروا عقاب الخائن بالموت. أخذوه بليل إلى مكان ناءٍ في الحديقة وهناك قام واحد من رفاقه يُدعى نيتشايف بقتله، بينما كان الآخرون قد قيدوه من يديه. هذه الجريمة التي عُرفت باسم «قضية نيتشايف»، ذاع صيتها في روسيا بأسرها، وما يزال الناس يتذكرونها حتى الآن.

المثير للفضول في هذه القصة، أن خالي، الذي لم يكن يفارق إيفانوف لحظة واحدة، لم يكن يعرف شيئًا عن هذه المؤامرة. يبدو أن إيفانوف، المخلص لهذا الشاب الذي يحبه، حظر على رفاقه أن يزجوا به في عملهم الخطير. راح خالي المسكين إيفان يبكي بكاء مرًّا على موت صديقه. لقد أدرك الآن لماذا كان إيفانوف يدفعه للإسراع بالسفر. الأحرى أنه كان يعرف أيَّ مصير يعده له رفاقه ومن ثم أراد أن يحمي صديقه الشاب من مغبة هذا الخطر. بعد أن سمعت جدتي بمقتل إيفانوف، شعرت بالخوف الشديد ومنعت ابنها من العودة إلى روسيا، وخاصة أن الأكاديمية، بتعليمات من الحكومة، أغلقت أبوابها طوال فترة المحاكمة. أقام خالي في درزدن مع أمي، وقد تزوج بعد ذلك من فتاة من فتيات الجالية الروسية المقيمة هناك.

ألهبت قضية نيتشايف خيال دستويفسكي واستخدمها كموضوع لروايته الشهيرة «الشياطين». سرعان ما تعرف القرَّاء فيها على قضية نيتشايف، على الرغم من أن أبي اختار للرواية مكانًا آخر للأحداث. أعلن النقاد أن دستويفسكي كان موجودًا في الخارج إبان محاكمة نيتشايف، وأنه لم يكن على علم بأيّ شيء يخص هذه القضية. لم يكن أحد يعرف أنه كانت لدى أبي إمكانية جيدة لوضع تصور كامل عن هذه المؤامرة وهو يستجوب خالي إيفان، الذي كان على صلة وثيقة بالضحية، كما كان يعرف القاتل وثوريين آخرين في الأكاديمية، لذا فإنه استطاع أن يحكي لدستويفسكي عن أحاديثهم وعن قناعاتهم السياسية[1]. هؤلاء صوَّرهم دستويفسكي في شخصيات شاتوف، فيرخوفينسكي وآخرين غيرهم

(1) كان خالي إيفان يتسم بالذكاء الشديد والشجاعة. لقد ورث عن أبيه الأفكار الدينية والملكية، ولم يكن يخجل من أن يجاهر بها. الأرجح أن رفاقه قد أخفوا عليه لهذا السبب أعمالهم التآمرية. تعامل المتآمرون بقسوة بالغة مع الذين خرجوا من صفوفهم بعد أن شاركوهم بعض الوقت أفكارهم. بينما ترك هؤلاء الثوريون هؤلاء الذين كانت لديهم الشجاعة في التمسك بأفكارهم المخالفة لشأنهم.

من أبطال رواية «الشياطين». لم يستطع دستويفسكي، بطبيعة الحال، أن يذكر ذلك للنقاد حتى لا يوقع صهره تحت طائلة الشبهات.

كانت عائلة خالي سعيدة أيما سعادة لأن الشرطة نسيته تمامًا ولم تطلب منه المثول أمام المحكمة باعتباره شاهدًا. كان من الممكن أن يتلفظ بكلمة ما هناك دون حذر فيقع في دائرة الاتهام. من الجائز أن طلاب الأكاديمية حذوا حَذْوَ إيفانوف وحاولوا ألا يمَسَّ خالي أيَّ أذى وهو الذي كان يحظى بحب كل رفاقه. كان إنسانًا رائعًا، مسيحيًا حقيقيًا بطبعه. كان يتعامل مع كل من يلقاه في طريقه باعتباره أخًا له. في البداية كان الناس يسخرون منه، ثم ينتهي الأمر بأن يحملوا له حبًا خالصًا، وكان دستويفسكي يكِنُّ لصهره دائمًا أكثر المشاعر ودًّا[1].

عندما علمت الجالية الروسية أن دستويفسكي مقيم بينهم في درزدن مع عائلته، تطلَّع الكثير منهم أن يتعرفوا عليه، فجاءوا إليه ودعوه لاستضافته. كان بإمكان أمي أن تقضي وقتها في درزدن على نحو أكثر مرحا من فلورنسا أو جنيف، على أنها كانت تشعر بالأسى هناك. الآن راح الحنين إلى الوطن يَمَضُّها، هذا المرض العجيب، الذي كثيرًا ما يتعرَّض له الشباب الذين اقتلعوا بقسوة من تربتهم الأصلية. كرهت أمي ألمانيا وكل الأجانب. درزدن، التي خلبت لُبَّها يومًا ما، بدت لها الآن مدينة لا تطاق. مرت بها ساعات وهي فريسة لليأس. كان لديها هاجس أنها ربما لن ترى روسيا العزيزة على قلبها بعد ذلك مطلقا. كانت أمي

(1) إبان كتابة رواية «الشياطين» وقعت قصة مثيرة للانتباه. كان دستويفسكي قد بدأ روايته وقد جعل من نيكولاي ستافروجين بطلا رئيسيًا لها. وبعد أن قارب على إتمام الرواية تقريبا، رأى أبي أن الشاب فيرخوفينسكي أكثر أهمية، فجعل منه البطل الرئيسيَّ للرواية. وقد اضطر عندئذ لإعادة كتابة الرواية كلها تقريبا وأن يحذف من فصولها، التي بحث فيها شخصية ستافروجين. أرادت أمي أن تنشر فصلا من هذه الفصول في الطبعة الأخيرة للرواية التي صدرت في مطلع القرن الحالي، لكنها عندما تشاورت أولا مع عدد من أصدقاء أبي القدامى اعترضوا على هذا الأمر.

تعاني على نحو شديد، لكن صحتها تحسنت، إذ أعلنت طبيعتها النورماندية عن نفسها مطالبة إياها بالعمل والكفاح. قاست مرارة العيش في الشقق المفروشة بين زوجها وطفلتها. بدا لها أنها ستجد في بطرسبورج بكل تأكيد وسيلة لسداد هذه الديون التي ألقت بالكآبة على حياتها. من جانب آخر فقد شغلتها همومها الأسرية. كان واحد من بيوت والديها المؤجرة قد آل إليها بناء على وصية جدي جريجوري. ولكن لم يكن باستطاعتها، بموجب القوانين الروسية، أن تمتلك هذا البيت قبل وصول أخيها إيفان سن الرشد، وكان قد اقترب في هذه الفترة جدًّا، بالمناسبة، من هذه السن. كانت أمي تأمل أن تبيع البيت وأن تسدد ديون زوجها. السيد الذي استأجر بيوت جدتي كان ملتزمًا في البداية بسداد الإيجار لها في موعده بدقة، لكنه شيئًا فشيئًا توقف، وحتى الخطابات لم يعد يرد عليها. كتبت أمي إلى صديقاتها في بطرسبورج، وطلبت منهن أن يذهبن إليه وأن يستفسرن عن السبب. توجَّهن إلى هذا السيد ولكنهن لم يفلحن في مقابلته في بيته. سألوا الجيران فأخبروهن أن أحواله عويصة وأن لديه مشكلات مع الشرطة. كل ذلك أثار القلق في نفس أمي، فراحت تتوسل إلى زوجها أن يعودا إلى روسيا. لم تعد تخشى مؤامرات أقاربه. لقد باتت تعرف الآن أن زوجها يثق فيها كلية. لقد دفع شظف العيش والحياة في الغربة وتأثير أوروبا، حيث العيش فيها أكثر جدية وصعوبة من روسيا المتصابية، دفع أمي لأن تصبح امرأة ناضجة قبل الأوان.

دستويفسكي لم يعذبه الحنين إلى الوطن، كان يشعر بأن أحواله أفضل في الخارج. تحسنت صحته أيضًا وندرت نوبات الصرع التي كانت تهاجمه، لكنه هو أيضا كان يود لو عاد إلى بطرسبورج. كان يخشى أن يتوقف عن فهم روسيا إذا ما ظل في درزدن أكثر من اللازم. هذا ما كان يخيفه طول عمره، سواء إبان وجوده في سيبيريا، أو في ألمانيا. لعل دستويفسكي كان يعي جيدًا أن روسيته ليست هي العنصر الغالب فيه. تورجينيف والأمير ألكسي تولستوي كانا يعيشان بصفة دائمة

في الخارج، الأمر الذي لم يقف عقبة أمام أن يعطوا لقرائهم نماذج رائعة لروس حقيقيين عظماء. كانا يتحدثان دائمًا تقريبًا بالفرنسية، بينما كانا يكتبان أعمالهما بلغة روسية رائعة. هذان الكاتبان كانا يحملان روسيا في دمائهما وظلا روسيين إلى الأبد، ولو أنهما كانا يظنان من فرط سذاجتهما أنهما أوربيين حقيقيين. أما أبي، على العكس منهما، كان يفخر بأنه روسيٌّ، وهو الذي كان في الحقيقة أكثر أوروبية منهما وبدرجة كبيرة. لقد كادت أوروبا أن تبتلعه، ومن ثم كان ابتعاده عن روسيا يمثل خطرا عليه. وبسبب ذلك أيضًا كان من الممكن أن يفقد لغته الروسية. كثيرا ما كانوا يلومون أبي على أسلوبه لكونه أسلوبًا صعبًا، خشنًا، معقدًا. هذا ما كانوا عادة يلصقونه بدستويفسكي لأنه وقد كان مضطرًا للعمل من اجل أن يكسب قوته، لم يكن لديه الوقت حتى لتصحيح مخطوطاته. على أن كل الكُتَّاب، الذين كان لديهم أسلوب حسن، كانوا يعرفون كيف يكتبون بسهولة لغة جيدة. أظن أن السبب في رداءة الأسلوب عند أبي يرجع أيضًا إلى أمر آخر. لقد كان يكتب بلغة روسية ركيكة لأن هذه اللغة لم تكن معروفة لأجداده.

تميز النصف الثاني من وجود أمي في درزدن بحملها الثالث. في البداية كانت تفكر في الولادة في درزدن، ولكنها خشيت أنه سيكون عليها عندئذ أن تبقى في ألمانيا عامًا آخر، غيَّرت قرارها وأقنعت زوجها بالسفر دون إبطاء. وقد عدنا إلى بطرسبورج قبل عدة أيام من ميلاد أخي فيودور.



الفصل التاسع عشر

العودة إلى روسيا

عدنا إلى روسيا في شهر يونيو. أحس والداي أن المدينة خاوية على عروشها. لقد رحل جميع أصدقائه إلى الريف. كان أول من ظهر هو پاڤل إيسايف ربيب أبي، الذي كان بالمناسبة قد تزوج منذ فترة قريبة من فتاة حسناء من عائلة بورجوازية. ولمَّا كانت أمي ما تزال تشعر بالوهن بعد ولاداتها الأخيرة. ولم يكن بمقدورها أن تبحث عن شقة، فقد اقترح عليها پاڤل خدماته. كان ينطلق طوال اليوم باحثًا عن مختلف الشقق ليأتي في المساء فيعرضها على أمي لتبحث في أمرها.

ولكن لماذا تبحث عن شقة كبيرة؟ - سألته أمي -ما دمنا لم نُسوِّ ديوننا فإن علينا أن نكتفي بشقة من أربع، خمس غرف.

كيف أربع، خمس غرف؟ وأين سنعيش إذن أنا وزوجتي؟

وهل تعتزم أن تعيش معنا؟ -أجابته أمي بدهشة شديدة.

بالطبع! هل بلغت بك القسوة أن تفرقي بين أب وابنه. استشاطت أمي غضبًا.

أنت لست ابن زوجي. أنت ربيبه فحسب. -أجابت بحزم.

في الواقع ليس بيننا وبينك أيّ صلة قرابة، كان زوجي ملزمًا بالعناية بك حتى تكبر، الآن أصبح من واجبه أن يعتني بأبنائه. أنت الآن شخص ناضج تستطيع أن تعمل وتكسب عيشك بنفسك.

لم يصدق پاڤل إيسايف أذنيه. كيف؟ ألم يعد ابنًا للكاتب الكبير دستويفسكي؟ هل الآخرون لديهم حقوق أكبر عند «أبيه»؟ يا للسماء! من الذي دبر هذه المكيدة البشعة ضده؟ كان في غاية الإحباط، وكذلك كانت زوجته الشابة أكثر إحباطًا منه.

لقد وعدني أننا سنعيش جميعًا معًا، -هكذا راحت الزوجة الشابة تحكي لأمي بسذاجة- وقال إن شئون البيت سوف تكون في يديك، وليس على أن أقوم بشيء. لو علمت أنه كان يخدعني لما كنت قد وافقت على الزواج منه.

لكن الزمن والنكبات جعلا من هذه الأنانية الصغيرة أمًا رائعة للأسرة، يحترمها كل من يعرفها. يا لها من امرأة مسكينة. لقد كانت حياتها الزوجية سلسلة من الآلام المستمرة بلا نهاية. دستويفسكي متفقٌ مع زوجته تماما، بينما راح پاڤل إيسايف يشكو أبي لأقاربه. كان يحكي بحزن عن المؤامرات الجهنمية التي تحيكها ضده «زوجة أبيه»، التي خططت «لتفصل الابن عن أبيه». كان أقارب دستويفسكي أكثر حصافة منه. لقد أدركوا أن شخصية أمي قد تغيرت وأن التي أمامهم ليست تلك العروس الشابة، وأنه ينبغي التعامل الآن مع امرأة جادة ناضجة، امرأة قررت أن تدافع بصلابة عن أسرتها ضد أيِّ تطاول أو اعتداء. لقد أخذوا ذلك في اعتبارهم وتخلوا عن العودة إلى تدبير المؤامرات. زد على ذلك أن أوضاع أقارب دستويفسكي قد تغيرت جوهريًا على مدى السنوات الأربع الماضية. فقد أنهت بنات أعمامي تعليمهن واستطعن أن ينفقن على أنفسهن بعد أن نجحن في الحصول على عمل، كما أنهن قد تزوجن وقام أزواجهن بمساعدة أمهاتهن. أما عمتي الكسندرا فقد تزوجت مرة ثانية، بعد أن ترملت، من رجل

ثريٍّ. من بين كل أفراد الأسرة لم يتبق سوى عمي نيكولاي سيئ الحظ وباڤل إيسايف العاطل الذي لا يرجى صلاحه وكلاهما عاش في كنف أبي.

ما إن استردت أمي عافيتها، حتى استأجرت شقة متواضعة وأثثتها بما وقع تحت يديها من أثاث. لقد كان أثاثها الخاص الرائع قد بيع منذ زمن بعيد. لقد فضَّل باڤل إيسايف، الذي عُهد إليه في غياب جدتي أن يدفع النسبة المئوية للأشياء المرهونة، أن ينفق المال الذي كان يرسله إليه والداي لهذا الغرض، على ملذاته. فضلا عن ذلك، كان بانتظار أمي في بطرسبورج إحباط آخر أشد قسوة، فالبيوت التي كانت تملكها جدتي جرى بيعها بالمزاد. بناء على تعليمات من الشرطة. لقد تغير مُلَّاك هذه البيوت عدة مرات. ونتيجة لخطأ ما في صياغة التوكيل الذي تركته استطاع المستأجر أن يحولها لتصبح ملكًا له. كان بالإمكان رفع دعوى أمام المحكمة، لكن التقاضي في روسيا آنذاك كان مكلِّفًا. فضَّلت أمي أن تلقي جانبًا بنصيبها في الميراث، وهو نفس ما فعلته جدتي أيضًا. سافرت جدتي المسكينة إلى الخارج وهي مفلسة تمامًا. لحسن الحظ فإن خالي باڤل كان قد تزوج لتوه في درزدن، وكان ذلك زواجًا مُربحًا. اشترى خالي من نقود دوطة زوجته ضيعة رائعة في محافظة كورسك وراح يطبق معارفه التي تحصل عليها من دراسته في الأكاديمية الزراعية. عندئذ أقامت جدتي معه ومع عائلته، وقد أُغرمت بمشروعات ابنها الزراعية. وبعد وفاة ابنتها الكبرى الأثيرة إلى قلبها، توقفت عن السفر إلى بطرسبورج إلا نادرًا. كانت علاقتها بدستويفسكي علاقة ودية، لكنها لم يكن لها أيُّ دور تقريبًا في حياته.

عندما علم دائنو عمي ميخائيل أن دستويفسكي عاد إلى بطرسبورج، ظهروا على الفور ومن جديد راحوا يهددونه بالسجن. آنذاك بدأت أمي صراعها، الذي استعدت له من قبل إبان وجودها في درزدن. أخجلتهم، أقنعتهم ببطلان حججهم، وجدت مرابين آخرين استدانت منهم أموالاً لكي تسدد بها أكثر الديون

إلحاحًا. كان دستويفسكي مندهشًا، كيف أصبحت زوجته قادرة بهذه السهولة على إجراء هذه العمليات الحسابية كثيرة الأرقام والتحدث بمصطلحات كُتّاب العقود الصعبة. عندما بدأ الناشرون يأتون إلى أبي حاملين عروضهم، كان دستويفسكي يستمع إليهم وقد رسم على وجهه علامات الجدية ثم يقول لهم: «الآن لا أستطيع أن أخبركم بشيء، من الضروري أن أتشاور مع زوجتي». أدرك الجميع على الفور من في عائلة دستويفسكي هو الذي يدير شئونها، ومن ثم أصبحوا يتوجهون مباشرة إلى زوجته. وهكذا تخلص أبي من عبء ضرورة التدخل في كل التفاصيل المملة واستطاع أن يتفرغ تمامًا للإبداع.

وحتى تفرَغ لتسوية الديون على وجه السرعة وضعت أمي نظامًا اقتصاديًا صارمًا لإدارة شئون البيت. على مدى بضع سنوات كنا مضطرين أن نقنع بالحياة في شقة متواضعة وأن نتناول طعامًا بسيطًا، لم يكن لدينا سوى خادمتين. كانت أمي تحيك أثوابها بنفسها وتصنع معاطف الفراء لأطفالها. لم تعد ترتاد المجتمعات أو تذهب إلى المسرح، الذي كانت تحبه، إلا لِمامًا. وبسبب هذه الحياة الخالية من المرح والبهجة، التي لا تناسب سنها، كانت أمي تشعر بالتعاسة. كانت كثيرًا ما تجهش بالبكاء، وكان مزاجها السوداوي يجعلها ترى كل شيء قاتمًا وراح خيالها يرسم لها زوجها رجلا مسنًّا لا حيلة له وتتصور أولادها مرضى وأسرتها في فاقة[1]. لم تستطع أن تجد تفسيرًا لإحساس أبي بالطمأنينة، الذي كان يعلن بحزم قائلا: «لم تمثل النقود لنا مشكلة أبدًا». كانت أمي تسأله وقد استبدت بها الحيرة والغضب من جرَّاء عدم اكتراثه: «ومن أين ستأتينا النقود؟ هل ستسقط علينا من السماء؟». كانت أمي آنذاك ما تزال شابة، وسوف تبدأ بعد الأربعين

(1) لم يعد بإمكان عمتي كومانينا أن تساعد أسرتنا فقد توفيت عندما كان والداي في أوروبا تاركة وصية غامضة للغاية. ظل ورثتها لسنوات طويلة يتجادلون فيما بينهم بشأنها، وأخيرًا حصلنا على نصيبنا بعد وفاة أبي.

فقط في فهم بعض الحقائق. كان أبي يؤمن أن كل البشر هم خدم الله ولو أنهم عملوا بإخلاص، فإن خالقهم الأعلى قادر على أن يجعلهم لا يحتاجون شيئًا. كان دستويفسكي يعتمد كلية على الله ولم يخش يومًا على مصير عائلته. كان على حق، فبعد وفاته لم يعوزنا شيء أبدًا.

ولكي يُسَرِّي على زوجته ويخفف من عبء المهمة الملقاة على كاهلها، وافق أبي على قبول العمل رئيسًا لتحرير مجلة «المواطن»، التي يصدرها الأمير ميشيرسكي، وهو رجل أحمق كان أضحوكة لكل الصحفيين. تربى على يد حاضنات إنجليزيات ومربيات فرنسيات، ومن ثم لم يكن الأمير ميشيرسكي يتحدث الروسية على نحو جيد، كان على أبي أن يتابع طول الوقت عمل رئيس التحرير وإلا ارتكب حماقة ما في مجلته. هذا العمل أنهك أبي بشدة، استطعنا بالكاد أن نسوي ديوننا الكبيرة. سارع أبي بعدها للانفصال عن مجلة «المواطن» وناشرها الخيالي، تاركًا المجلة والناشر لمصيرهما.

من جانبها لم تكتف أمي أيضًا بمجرد البكاء. أخذت على عاتقها نشر روايات زوجها، التي كان قد سبق نشرها من قبل في المجلات، وقد عاد ذلك علينا ببعض المال. والأهم أنها اكتسبت خبرة كبيرة من هذا العمل، ومع الوقت أصبحت ناشرة رائعة، وبعد وفاة زوجها نشرت عدة طبعات كاملة من مؤلفاته. كانت أمي هي أول امرأة ناشرة في روسيا، اشتغلت على نحو احترافيٍّ بأعمال النشر، وقد حذت حذوها الكونتيسة تولستايا زوجة الكاتب الكبير تولستوي، والتي جاءت إلى بطرسبورج لكي تتعرف على أمي وتطلب لديها النصيحة. تبادلت أمي معها كافة المعلومات الضرورية، ومنذ ذلك الحين تولت زوجة تولستوي إصدار أعماله. فيما بعد، وعند مرورها بموسكو، دعت أمي الكونتيسة لمشاهدة متحف أقامته تخليدًا لذكرى زوجها في واحد من أبراج متحف للتاريخ في موسكو. أُعجبت الكونتيسة تولستايا بالفكرة وطلبت من مدير المتحف برجًا آخر، مثل

البرج الأول، لكي تقيم فيه متحفًا لتولستوي. هاتان المرأتان الأوروبيتان[1] لم تكتفيا بأداء دور الزوجات والأمهات. لقد أرادتا أن تساعدا زوجيهما على نشر أفكارهما ووجُدتا مكانًا أمينًا لتحفظا فيه كل ما يتعلق بذكرى هذين الرجلين العظيمين. صديقة مخلصة أخرى لأمي هي السيدة شيستاكوفا، تشاورت معها بشأن إقامة متحف لأخيها، المؤلف الموسيقيّ الأشهر جلينكا[2]، وقد ساعدتها أمي بحماس. وهكذا كانت أمي مُؤسِّسَة لمتحف ومُلهِمة لمتحفين آخرين.

عاش أبي السنوات الأولى بعد عودته إلى روسيا في عزلة تامة. لم يكن يخرج كثيرًا، وكان يتواصل مع عدد قليل فقط من أصدقائه المقربين. ونادرًا ما كان يظهر على الجمهور، كان طلاب بطرسبورج ما يزالون حانقين عليه، وقليلا ما كانوا يدعونه إلى أمسياتهم الأدبية. وما إن بدءوا في نسيان أن دستويفسكي أهان الطالب الروسي في شخصية راسكولنيكوف، حتى أنزل بهم مرة أخرى إهانة أشد. ففي روايته «الشياطين» يقول لهم على نحو أكثر وضوحًا أن الثوار هم مجانين وحمقى. نزل الأمر على الشباب كالصاعقة. هذا الإعجاب من جانب الشباب الروس بالفوضوية، أدهش أوروبا للغاية، وهو أمر يمكن تفسيره بالكسل الشرقيّ الذي جُبل عليه أبناء وطني. في الواقع ما أسهل أن يُلقي المرء بقنبلة ثم يفر هاربًا إلى الخارج، بدلا من أن يجتهد في دراسته وأن يكرِّس حياته لخدمة الوطن، كما يحدث في البلاد الأكثر نضجًا وتحضُّرًا.

لم يعط دستويفسكي أيّ أهمية لغضب الطلاب ولم يأسف على نجاحه السابق لديهم. كان ينظر إليهم باعتبارهم تعساء ضالين. وكان يرى أن الإنسان الجاد ليس

---

(1) الكونتيسة تولستايا هي ابنة الدكتور بيرس وتعود أصوله إلى منطقة البلطيق.

(2) جلينكا، ميخايل إيفانوفيتش (1804–1857): مؤلف وموسيقي روسي. مؤسس الموسيقى الروسية الكلاسيكية. من أشهر أوبراته «إيفان سوسانين» (1836)، «روسلان ولودميلا» (1842). ساهم إبداعه في تطوير الموسيقى والثقافة الروسية. (المترجم)

بحاجة إلى أيٍّ مجاملات صبيانية. وأن السعادة التي وهبها له إبداعه، هي مكافأته الكبرى على أعماله، أما التصفيق المبتذل فلا يمكن أن يضيف إليه شيئًا. أظن أن أبي كان أكثر سعادة في السنوات الأولى بعد عودته إلى بطرسبورج من تلك الفترة العاصفة التي حقق فيها انتصاراته فيما بعد. كان محبوبًا من زوجته ومن أطفاله، الذين كانوا ما يزالون صغارًا، وهم يثيرون ضحكه بضحكاتهم الطفولية وأسئلتهم الساذجة. كان أصدقاؤه القدامى يزورونه أحيانًا واستطاع أن يقاسمهم أكثر أفكاره الحميمية الصادقة. تحسنت صحته وقلت نوبات صرعه، أما مرض الموت، الذي أودى بحياته فلم يكن قد ظهر بعد.



الفصل العشرون

ألكسي الصغير

سافرنا في الصيف إلى ستاريا روسا، وهي مدينة صغيرة ومنتجع في محافظة نوفجورود تقع غير بعيد عن بحيرة إيلمين، لقضاء أربعة أشهر. كان الأطباء قد أوصوا والديّ بهذا المكان لكونه مفيدًا لصحتي، حدث ذلك في العام الأول بعد عودتنا إلى روسيا. الحمّامات الاستشفائية لستاريا روسا تركت أثرًا طيبًا على صحتي، وقد استمر والداي في المجيء إلى هنا في السنوات التالية. أُعجب دستويفسكي بهذه المدينة الصغيرة الهادئة الناعسة إعجابًا كبيرًا، وكان يشعر بالراحة في التأليف فيها. استأجرنا هناك بيتًا صيفيًا من العقيد جريبي من منطقة البلطيق. وكان قد خدم في الجيش الروسي. وقد قام العقيد العجوز ببناء بيت صغير له على الذوق الألماني لأرياف منطقة البلطيق أنفق عليه كل النقود التي ادَّخرها على مدى سنوات خدمته في الجيش. كان بيتًا مليئًا بالمفاجآت. دواليب مخبأة في الحوائط، صقالات خشبية ترفع فتفتح على سلالم حلزونية متربة قاتمة. كان كل شيء في هذا البيت صغيرًا، الغرف ضيقة ذات أسقف واطئة، مؤثثة بأثاث على الطراز الإمبراطوري القديم. كانت المرايا الخضراء تعكس بشكل مشوه وجوه أولئك الذين لديهم الشجاعة للتطلع إليها. الحوائط ألصقت بها لفائف من ورق الحائط، ثبتت عليه تابلوهات من قماش الرسم عليها رسوم

لحيوانات صيفية ذات مخالب كانت تبدو في أعيننا كأطفال مخلوقات مخيفة. كان مكاننا المفضل هو هذه الشرفة المسقوفة بزجاج متعدد الألوان، أما البلياردو الصيني الصغير ذو الكرات الزجاجية والأجراس الصغيرة فكان يساعدنا في قتل الوقت في الأيام الممطرة الطويلة، المعتادة بالنسبة لفصل الصيف في بلادنا الواقعة في الشمال. خلف البيت حديقة بها أحواض زهور صغيرة مضحكة، بها كافة أنواع الزهور. وقد زرعت أيضًا هنا أنواع عديدة من الفاكهة، تجري بينها قنوات شقها العقيد جريبي بنفسه، حتى يحمي العنب الأسود والتوت من فيضان نهر بيريريتسيتسا الغادر في الربيع. هذا النهر الذي أقيم على ضفته البيت الريفيّ الصغير. أما العقيد نفسه فكان يعيش في الغرفتين الصغيرتين في الطابق السفليّ، ويؤجر باقي البيت للمصطافين. كان هذا أمرًا معتادًا في ستاريا روسا، حيث لم يكن هناك في هذا الزمان بيوت صيفية حقيقية. فيما بعد، بعد وفاة العقيد العجوز، اشترى والداي البيت من ورثته مقابل مبلغ زهيد[1]. ظل أبي يقضي كل صيف هناك حتى وفاته، ما عدا صيف عام 1877، عندما حللنا ضيوفًا في محافظة كورسك عند خالي إيفان. وقد جعل أبي من هذه المدينة مسرحًا لأحداث رواية «الإخوة كارامازوف»، فيما بعد كنت إذا قرأت الرواية تعرفت بسهولة على طوبوغرافيا ستاريا روسا. بيت العجوز كارامازوف كان بيتنا الصغير، وإن تغيرت ملامحه قليلا. جروشينكا الحسناء، هي شابة ريفية كان والداي قد تعرفًا عليها

(1) كان العقيد جريبي يمتلك أربعة منمنمات اشتراها من أحد جنود فَوجِه، الأرجح أن هذا الجنديّ سرقها من أحد القصور في بولندا أثناء إحدى الانتفاضات الكثيرة التي كانت تقع هناك. كانت هذه المنمنمات تمثل صورًا لوجوه ثلاثة أمراء وصورة لوجه إحدى الأميرات من عصر ياجيليبوف الليتوانية. كان أبي معجبًا بشدة بهذه المنمنمات فاشتراها من ورثة العقيد العجوز وعلقها في غرفته. كان يقول لأمي أن الأميرة الشابة تذكره بأمه. على أنني لم أجد أبدا أيّ شبه بين هذه المنمنمة وبين جدتي الموسكوفية. هل جذبت دستويفسكي لعلا ملامح أمه في هذه المنمنمة؟ أم أنها على الأرجح كانت تشبه امرأة ما تنتسب إلى أجداده الليتوانيين؟

في ستاريا روسا، وكان متجر بلوتنيكوف هو المحل التجاري المفضل لأبي، أما الحوذيان أندريه وتيموفي، هما نفس الحوذيين اللذين كانا يأخذاننا كل عام إلى بحيرة إيلمين، حيث كنا نستقل الباخرة. كنا نضطر أحيانًا لانتظار الباخرة عدة أيام، وقد وصف دستويفسكي أيضًا فترة إقامتنا في قرية كبيرة تطل على بحيرة وذلك في الفصول الأخيرة من رواية «الشياطين».

عاش أبي في ستاريا روسا في عزلة تامة. نادرًا ما كان يذهب إلى المنتزه أو إلى الكازينو، حيث يتوافد المصطافون عادة، مفضِّلا التنزه في الأماكن الخالية من الزحام عند ضفة النهر.

كان خط سيره لا يتغير أبدًا، وكان يقطع الطريق ناظرًا إلى الأرض وقد غرق في أفكاره. ولمَّا كان يخرج دائمًا في نفس الموعد، كان الشحاذون ينتظرونه على الطريق لعلمهم أنه لا يمتنع عن إعطائهم إحسانًا. كان أبي وقد انهمك تمامًا في أفكاره يعطي بصورة آلية من دون أن يلاحظ أنه كان يعطي في كل مرة نفس الأشخاص. وعلى العكس منه، كانت أمي ترى جيدًا ألاعيب هؤلاء المتسولين، وكان شرود زوجها يثير شكَّها أحيانًا. كانت ما تزال شابة فأحبت أن تشاكسه. وذات مساء خريفيّ، عندما كان أبي في طريق العودة قادمًا من نزهته، وضعت أمي على رأسها شالا قديمًا، وأخذتني من يدي ووقفت في طريقه، وعندما أصبح بحذاها قالت له بصوت حزين: «أيها الشاب الطيب، زوجي مريض ولديَّ طفلان!» توقف دستويفسكي. نظر إليها وأعطانا إحسانا. احتدم غيظا، عندما انفجرت زوجته ضاحكة بعد أن تناولت منه الإحسان. لامها بمرارة قائلا: «كيف جرؤت على أن تسخري منّي؟ وأمام طفلتك؟».

هذا الشرود المزمن، الذي يصاحب الكثير من الكُتَّاب والعلماء، كان يسبب لأبي شعورًا بالضيق والكرب. كان يبدو له شيئًا مضحكًا للآخرين ومُهينًا له. كان يتمنى بشدة لو كان مثل كل الناس. واأسفاه، كم من الصعب على العبقريّ الكبير

أن يكون شخصًا عاديًا! لم يستطع دستويفسكي أن يعيش أبدًا مثله مثل الآخرين، فبينما كان الآخرون جميعًا في قلعة الهندسة يضحكون ويبكون، يلعبون ويركضون ويتسلون، كان هو يقضي حياته كلها هنا وحيدًا عند كوة النافذة[1]، يحلم، يقرأ، يتأمل الطبيعة. الكاتب العظيم يلمس الأرض بالكاد، إنه يقضي أيامه كلها في عالم أبطاله الخياليين. يأكل على نحو آليّ دون أن يلاحظ ما الذي وضع أمامه ليأكله. يتعجب عندما يحُلّ الليل، يخيّل إليه أن اليوم قد بدأ لتوّه. لا تنفذ إلى سمعه الأحاديث العادية التي تدور من حوله، يسير في الطرقات على غير هدى، يتحدث مع نفسه، مثيرًا لضحك من يقابلونه، هؤلاء الذين يرون فيه مجنونًا. أحيانًا ما تجده وقد توقف فجأة، مذهولا من نظرة، من ابتسامة غريب ما، فتنطبعان في عقله مثل صورة فوتوغرافية. كلمة ما، عبارة ما تعلقان بأذنه تفتحان أمامه حياة كاملة، بناءً روحيًا مكتملاً، لتنحسرا بعد ذلك في رواياته.

اختفى البيت الصيفيّ في ستاريا روسا إلى الأبد. البيت الذي بناه العقيد المُدبِّر من الغابة زهيدة الثمن. لم يتحمل الفيضانات السنوية لنهر بيريريتيتسا لينهار في النهاية، على الرغم من كل الجهود التي بُذلت لإنقاذه. عندما كان هذا البيت قائمًا، كان يجذب إليه العديد من الزائرين. كل مصطافي ستاريا روسا كانوا يحجون إلى هذا البيت الصغير، الذي قضى فيه دستويفسكي فصول الصيف في سنوات عمره الأخيرة. كان باستطاعة الجميع أن يشاهدوا المكتب الذي كتب

---

(1) «كان مكانه المفضل للاستذكار هو كوة النافذة الموجودة في الزاوية في عنبر الفصيلة، وهي النافذة التي تطل على شارع فونتانكا... كثيرًا ما كان يجلس هناك في ساعة متأخرة من الليل وقد لف نفسه بملاءة... غير عابئ بالهواء الذي كان يتسرب بشدة من أسفل النافذة».

ألكسندر سافيليف مذكرات عن دستويفسكي الاقتباس من كتاب «الروائيّ ومدينته، بطرسبورج دستويفسكي». ترجمة: د.أنور إبراهيم، تأليف مجموعة من الباحثين، الناشر: روافد للنشر والتوزيع، القاهرة، 2014.

عليه «الإخوة كارامازوف»، المقاعد القديمة، التي كان يرتاح عليها ممسكًا بكتاب، كل معلقاته التي احتفظنا بها[1]. من بين هؤلاء الحجاج جاء إلى هنا ذات مرة الأمير العظيم ڤلاديمير. كان يستعرض المجندين الجدد في ضواحي ستاريا روسا، اعترف لأمي أنه كان شديد الإعجاب بدستويفسكي وقال لها: «ليس هذا هو أول منزل يسكن فيه دستويفسكي أقوم بزيارته. عندما زرت سيبيريا توقفت في أومسك لكي أرى السجن الذي عانى فيه أشد المعاناة. لقد تغير المكان الآن تمامًا. لقد كانت «مذكرات من البيت الميت» وراء تغييرات هائلة إلى الأفضل في جميع سجون سيبيريا. «يا لها من موهبة عظيمة حباها الله زوجك! إلى أيّ حد استطاع أن يمس شغاف قلوبنا!». كان الأمير العظيم ڤلاديمير حفيدًا لنيكولاي الأول[2]، الذي أصدر حكمه على أبي بالأشغال الشاقة. يقولون «إن الأفكار في روسيا تنتشر بسرعة، وإن الأحفاد يعترفون بأخطاء أجدادهم».

لاقت ستاريا روسا هوى في نفس أبي، حتى أن أمي اقترحت عليه البقاء هناك في الشتاء أيضًا حتى يقتصدوا في نفقاتهم ويتمكنوا على نحو أسرع من سداد ديونهم. استأجرا بيتًا صيفيًا آخر في قلب المدينة. كان بيتًا أكثر اتساعًا وأفضل تدفئة، عشنا فيه بضعة أشهر. بعد انقضاء ذلك الشتاء، وُلد أخي الثاني ألكسي. لم يتفق والداي سريعًا على تسميته. كانت أمي ترغب في أن يحمل الطفل اسم إيڤان تيمنا باسم أخيها، الذي كانت تكن له عاطفة ودية شديدة. أما دستويفسكي فأراد أن يطلق عليه اسم ستيفان تيمنًا بالأسقف ستيفان، الذي كان، على حد قوله،

---

(1) كل هذه الأشياء والأثاث أصبحت من مقتنيات المتحف الصغير. الذي أسسناه في المنزل الذي أعيد بناؤه من جديد.

(2) نيكولاي الأول (1796-1855) إمبراطور روسيا منذ عام 1825. أخمد انتفاضة الديسمبريين. أسس ما يُعرف بالقسم الثالث «جهاز الشرطة المعني بمكافحة الحركات الثورية». لاحق الفكر الحر «بوشكين، ليرمونتوف، جيرتسين وآخرين». أخمد الانتفاضة البولندية (1830-1831) وثورة المجر (1848-1849). (المترجم)

مؤسس عائلتنا الأرثوذوكسية. هذه الرغبة أدهشت أمي بعض الشيء لأن أبي نادرًا ما كان يأتي على ذكر أسلافه. يبدو لي أن دستويفسكي الذي راح اهتمامه بالكنيسة الأرثوذوكسية يزداد يومًا بعد الآخر أراد بهذه الرغبة أن يعبر عن امتنانه لأول شخص في سلالتنا الليتوانية اعتنق الأرثوذوكسية. على أن اسم ستيفان لم يرق لأمي. في النهاية اتفقا على اسم ألكسي، الذي كان جذابًا لكليهما. في تلك الفترة كانت صحة أمي في أفضل أحوالها، حتى أن ولادتها مرت بسلام ومن دون أيّ آلام. كان ألكسي الصغير يبدو قويًا وفي أتم صحة، على أن جبهته فقط كانت غريبة إلى حد ما. كان رأسه بيضاوي الشكل، حادًا من أعلى. لم يكن ذلك يضر به، لكن مظهره كان مثيرًا للدهشة على نحو ما. عندما كبر ألكسي قليلا أصبح أثيرًا لدى دستويفسكي. كان محظورًا علينا أنا وأخي الأكبر الدخول إلى أبي في غرفة مكتبه دون استئذان، لكن هذا الحظر كان مرفوعًا بالنسبة لأليوشا[1] الصغير <ما إن تغفل عنه مربيته حتى يفر على الفور من غرفته ويهرع إلى أبي صائحًا: «بابا، زيزي!»[2] >كان دستويفسكي ينحّي عمله جانبًا ويُجلس الطفل على ركبتيه ويخرج ساعة جيبه ويضعها على أذنه. كان الطفل يستمع إلى تكتكة الساعة في فرح بالغ مصفّقًا بيديه. كان أليوشا ذكيًا ولطيفا، بكته الأسرة كلها بحرقة عندما مات فجأة وعمره عامان ونصف. حدث ذلك في بطرسبورج، في شهر مايو، عشية سفرنا إلى ستاريا روسا. كنا قد أعددنا حاجياتنا، انتهينا من آخر مشترياتنا، وإذا بأليوشا يدخل في نوبة من التشنُّج. طمأن الطبيب أمي بعد أن أخبرها أن ذلك يحدث أحيانًا للأطفال في مثل سنه. نام أليوشا في هدوء طول الليل. استيقظ نشطًا ونضرًا، طلب أن نحضر إليه لُعبَه في فراشه الصغير، لعب قليلا وفجأة عاوده التشنج وبعد ساعة أسلم الروح. حدث ذلك بسرعة بالغة حتى أننا أنا وأخي تسمّرنا في مكاننا أمام هذا المشهد الحزين. عندما رأيت والديّ

---

(1) أليوشا (ليوشا): أسماء التدليل لألكسي. (المترجم)

(2) هكذا كان ينطق كلمة تشيسي (تعني بالروسية ساعة). (المترجم)

ينتحبان عند جثمان أليوشا أُصبت بنوبة عصبية. أرسلوا بي على وجه السرعة إلى بعض الأصدقاء، بقيت عندهم يومين ولم أعد إلا يوم الدفن. أرادت أمي أن تدفن طفلها الغالي إلى جوار جدي جريجوري، المدفون في جبانة أوختينسكي على الضفة الأخرى لنهر النيفا. لم يكن الجسر الذي يربط الضفتين قد أقيم بعد ومن ثم فقد اضطررنا لأن نتخذ طريقًا طويلا. جلسنا في العربة نحن الأربعة - بابا، ماما، أخي فيودور وأنا، بينما وُضع النعش الصغير في وسطنا.

بكينا كثيرًا في الطريق. كنا ننظر إلى النعش الأبيض وقد نُثرت عليه الزهور، رحنا نتذكر الكلمات التي كان يقولها طفلنا الحبيب. وبعد جنازة قصيرة في الكنيسة حملوا النعش إلى الجبانة. كم أتذكر ذلك جيدًا! كان يومًا من أيام شهر مايو المشرقة، كان كل شيء مزهرًا، وعلى فروع الأشجار العتيقة كانت الطيور تغرد، دون تراتيل القس والجوقة بصوت رخيم في أنحاء الجبانة كلها. انهمرت الدموع على خدي أبي، كان ممسكًا بزوجته المكلومة، التي لم تستطع أن تبعد بصرها عن النعش الصغير، بينما راح التراب يغطيه شيئًا فشيئًا...

شرح الأطباء لوالديّ أن ألكسي الصغير توفي نتيجة عيب في بنية الجمجمة، فمخه وهو ينمو لم يجد مكانًا في هذا الرأس المشوه. من جانبي كنت أرى دائمًا أن أليوشا كان يشبه أبي، وأنه ورث عنه مرض الصرع، لكن الله كان رحيمًا به وأخذه إليه عند أول نوبة.

في الشتاء الذي سبق موت أليوشا حضرت إلى بطرسبورج إحدى العرّافات الشهيرات قادمة من باريس. كان الناس يتحدثون عن تنبؤاتها وموهبة الكهانة لديها باعتبارها معجزات. كان أبي مهتمًا بكل الظواهر الغيبية فأراد أن يراها. ذهب إليها مع واحد من أصدقائه كان مندهشًا للدقة التي تحدثت بها عن ماضيه، وعن المستقبل قالت له، من بين ما قالت: «تنتظرك في هذا الربيع مصيبة كبرى».

أعاد دستويفسكي هذه الكلمات على أمي وقد أصابته الدهشة. كانت أمي، وهي امرأة كثيرة الوساوس، تتذكر أحيانًا هذه النبوءة في شهري مارس وأبريل، ولكنها نسيتها تمامًا في شهر مايو قبيل انشغالها بالسفر. كم مرة راح والداي يتذكران هذه النبوءة في ذلك الصيف الحزين بعد وفاة صغيرنا ألكسي!



الفصل الحادي والعشرون
يوميات الكاتب

أخيـرا تمت تسـوية الديون. مـن الآن فصاعدا بات بإمكان أبـي الاهتمام بفنه باعتباره سـيدًا وليس عبدًا أبدًا. أصبح باستطاعته أن يدلل أطفاله، أن يقدم الهدايا لزوجته المسـكينة، التي ضحَّت بشبابها، لتساعده على سـداد ديونه التي تحملها حفاظًا على شـرف الأسـرة. أول حجرين من الماس أهداهما دستويفسكي لأمي كانـا صغيريـن للغاية، ولكن كم كانت سـعادتها، عندما اسـتطاع أن يقدم لها هذه الهدية.

لـم يكـن بنية أبـي أن يستسـلم للراحـة، كان ذلك أمـرًا بالغ الصعوبة بالنسـبة لـه. على العكس مـن ذلك! ما إن تخلص مـن عبء الديون حتى شـرع في كتابة المقـالات وبدأ في إصدار «يوميات الكاتب»[1]، التي كان يحلم بكتابتها منذ زمن بعيـد. لا يكتفي الكُتّاب الروس بالإبداع الأدبي فقـط، مثل زملائهم الأوروبيين. دائمـا ما تأتي اللحظـة، التي ينبغي عليهم فيها أن يحملوا على عاتقهم القيام بدور أصحاب النبوءات وكُتّاب الاعترافات أو المُعلمين. لقد كانت كنيسـتنا المسكينة مشـلولة ومدارسـنا بشـعة، كلاهمـا لـم يكـن باسـتطاعته أن يتحمل مسـئولياتها الطبيعية. هنا كان على كل كاتب، إذا كان وطنيًا حقيقيًا، أن يأخذ على عاتقه شرف

(1) تحت هذا العنوان كان ينشر أيضًا مقالاته في مجلة «المواطن».

القيام بأداء هذه المهام. منذ اللحظة التي عاد فيها من الخارج، لاحظ أبي بقلق كيف راحت روسيا تتدحرج بسرعة نحو الضياع، الذي تعيشه الآن بعد خمسة وثلاثين عامًا من وفاته. لقد قضى أبي ثلاثة أعوام في إيطاليا وألمانيا إبان ذروة ازدهار النزعة الوطنية في هذين البلدين. وبعد أن عاد إلى بطرسبورج لم يجد فيها سوى الساخطين والكارهين لبلدهم من أعماقهم. لقد راح المثقفون البؤساء، الذين تربوا في مدارسنا الكوزموبوليتانية يكرهون وطنهم ويحلمون بشيء واحد فقط - أن يُحولوا روسيا، هذا البلد الأصيل الرائع، المليء بالعبقرية، الواعد بالمستقبل إلى صورة كاريكاتورية من أوروبا مثيرة للسخرية. هذه العقلية كانت تمثل خطرًا كبيرًا. كان دستويفسكي على علم تام بأوساط المثقفين والفلاحين. رأى نقاط القوة والضعف. كان يدرك أن مثقفينا موجودون فقط بفضل قياصرتنا، وأنه لو جاء ذلك اليوم الذي سوف يقلبون فيه العرش بسبب جهلهم، فسوف يستغل الشعب هذه الفرصة وينتقم من كل «السادة»[1]، الذين يحتقرهم ويكرههم لإلحادهم وكوزموبوليتانيتهم. ولقد كشفت هذه النفحة النبوئية لدى دستويفسكي عن كل أهوال الثورة الروسية التي وقعت بالفعل في المستقبل.

كان دستويفسكي يأمل وقد بدأ في نشر «يوميات الكاتب» أن يُقرِّب بين المثقفين الضالين وبين جموع الشعب العريضة، بعد أن يوقظ فيهم الإحساس بالوطن والدين[2]. لم تكن دعوته الحارة صرخة في البرِّية. كان كثير من الروس يدركون خطورة هذه المحنة الأخلاقية، التي تُفرِّق بين الفلاحين والمثقفين، وكانوا يريدون أن يزيلوها. كان أولياء الأمور هم أول من استجابوا لدعوة دستويفسكي.

(1) هكذا كان الشعب الروسي يسمي كل النبلاء والمثقفين.

(2) كتب دستويفسكي في «يوميات الكاتب» عن عام 1876 يقول: «يكمن علاج مرضنا العقلي في وحدتنا مع الشعب. لقد بدأت كتابة «يوميات الكاتب» من أجل أن أتحدث عن هذا الدواء بشكل أكبر قدر الإمكان». هكذا واصل أبي الدعاية لنفس الفكرة التي بشَّر بها من قبل في مجلة «الزمن» مع أخيه ميخائيل.

جاءوا إليه يطلبون التشاور معه بشأن تعليم أبنائهم، كتبوا إليه من أبعد الأقاليم، طالبين النصح. هؤلاء الذين كانوا يعون واجبهم كآباء، كانوا ينتمون لكافة فئات المجتمع الروسي. كان من بينهم أناس متواضعون وبورجوازيون صغار، حرموا أنفسهم من كل شيء واستطاعوا أن يوفروا لأبنائهم تعليمًا عاليًا وكانوا يرون بخوف شديد أبناءهم وهم يتحولون إلى الإلحاد وكراهية روسيا. آنذاك طلب الأمير العظيم قنسطنطين نيكولايفيتش أيضًا من أبي أن يمارس تأثيره على ابنيه قنسطنطين وديمتري. كان الأمير ذا ثقافة أوروبية، يتمتع بالذكاء وسعة الاطلاع. كان يريد أن يصبح ولداه وطنيين وأن يظلا على مسيحيتهما. استمرت صداقة أبي بالأميرين الشابين حتى وفاته. كان يحب كليهما، لكنه كان يخص الأمير العظيم بإعزاز كبير، واستشرف مستقبله كشاعر[1].

فبينما يسعى الآباء في أوروبا أن يوقظوا الوطنية في قلوب أبنائهم، أن يربوهم لكي يصبحوا فرنسيين صالحين، إنجليز صالحين، إيطاليين صالحين، يصنع الآباء الروس من أبنائهم أعداء لوطنهم. منذ طفولتهم يستمع الروس كيف يهين الآباء القيصر، يرددون أمامهم النمائم البذيئة عن عائلته، يسخرون من رجال الدين ومن الدين نفسه، يتحدثون عن بلادنا العزيزة روسيا كما لو كانت شيئا فخرًا في جبين الإنسانية. بعد ذلك عندما يذهب الأطفال إلى المدرسة يجدون لدى مدرسيهم نفس الازدراء للوطن. بينما نجد في البلاد الأخرى كيف تضع المدرسة مهمة تربية المواطنين الشباب تربية وطنية نصب أعينها، أما عندنا فالأساتذة الروس يعلمون الطلاب كراهية الكنيسة الأرثوذكسية والنظام الملكي وعلم الدولة وكل قوانينا وتقاليدنا. إنهم يدعون للإيمان بالأممية، التي سوف تفرض في روسيا، على حد قولهم، سلطة العدالة. يرسمون لمستمعيهم،

---

(1) أصدر الأمير العظيم قنسطنطين فيما بعد أشعاره الرائعة ومسرحياته التي كتبها تحت اسم مستعار هو ك.ر (قنسطنطين رومانوف).

وعيونهـم تفيض بالدمـع، أمة مثالية لا أهميـة فيها للوطن أو الديـن، أمة تتحدث جميع اللغات (بنفس الرداءة)، زعماؤها هم عظماء روسيا المستقبل، الذين تلقوا تعليمهـم في مقاهي باريس وچينيف وزيوريخ[1]. وأسـفاه! ترى كم من الطلاب الـروس سـوف يغنون نشيد «الأمميـة»، كم من الناس سـوف يحملـون الرايات الحمراء في شـوارع بطرسبورج وموسكو، وقد سـيطر على قلوبهم اليأس، جمّد المـوت أرواحهـم دافعًا بهم إلى الانتحار. هل يمكن أن يكون المرء سـعيدًا وهو يكره وطنه؟ هؤلاء الشـباب المسـاكين كانوا يأتون إلى أبي وهم يبكون، ينتحبون ليبثوا له همومهم. كان دستويفسكي يستقبلهم مثل أبنائه وبناته، ينفذ إلى أحزانهم ويجيب على أسـئلتهم الساذجة عن الحياة التي تنتظرهم في العالم الآخر. طلابنا هم أطفال كبار، وعندما يلتقون في طريقهم برجل جدير بالاحترام يستمعون إليه باعتبـاره معلمًا لهـم، ينفذون كل نصيحة من نصائحه. لقـد ضحّى أبي بفنه[2] من أجل «يوميات الكاتب»، لكن هذه السـنوات لم تذهب سُـدى من أجل روسيا بلا شـك. كانت الطالبات على وجه الخصوص يكِنُّون مشاعر الحب لدستويفسكي لأنه كان يعاملهن بكل احترام. لم ينصحهم مطلقا بكل هذه النصائح الشرقية التي يحب كتابنا الروس أن يقدموها للفتيات الروسـيات مثل «ما الفائدة من الدراسة؟ اذهبـن علـى الفـور وتزوجن وأنجبـن أطفـالا أكثر». لم يـدع دستويفسـكي إلى الحيـاة من دون زواج، لكنه كان يقول أن الـزواج لا بد أن يقوم على الحب. وفي انتظـار ذلك يجب على الفتيـات أن يقرأن ويتعلمن ويفكـرن، حتى يصبحن فيما بعـد أمهات متنورات، وأن يربيـن أطفالهن تربية أوروبية. «إننـي أنتظر الكثير من المرأة الروسـية»، كثيرا ما كان يردد هذه العبارة على صفحات مجلته. كان يدرك أن السـلاڤيات لديهن شـخصية أقوى من التي لدى الرجال السلاڤيين. كان يأمل

---

(1) هذه المدن التي عاش فيها الثوريون المهاجرون بالفعل قبيل ثورة 1917. (المترجم)

(2) المقصود الابتعاد عن كتابة الروايات. (المترجم)

أن تصبح المرأة الروسية في المستقبل، وبعد أن تنال حريتها كاملة (لقد فتحت باب الحريم قليلا، لكنها لم تخرج منه بعد) أن تلعب دورا هاما في حياة بلادها. يمكن القول أن دستويفسكي كان أول روسي نصير لقضية المرأة.

عاد الطلاب مرة أخرى يدعون أبي لقراءة أعماله في أمسياتهم الأدبية. في هذا الوقت أصيب بالمرض الذي سيودي بحياته لاحقا. كان يعاني من التهاب الشُّعب الهوائية، وكانت القراءة العلنية ترهقه بشدة. على أن أبي لم يكن يرفض مطلقا المشاركة في هذه الأمسيات. كان يعرف كم من الأفكار الصالحة يمكن من خلال القراءة المختارة بعناية أن توقظ الشباب. كان يحب على وجه الخصوص قراءة مونولوج مارميلادوف[1]، هذا السكير التعيس، الذي رغم سقوطه، ظل يؤمن كسابق عهده بالله. هذا البائس كان يأمل في تواضع في عفوه. كان يحلم أن الله، بعد أن يكافئ الأبطال والأبرار يوم القيامة، سوف يتذكره أيضا، سوف يختبئ عندئذ من شدة الذل والخجل وراء ظهور الآخرين، وسوف ينتظر، من دون أن يجرؤ على رفع عينيه، كلمة الرحمة من الإله العلي... في هذا الفصل من رواية «الجريمة والعقاب» وضع دستويفسكي كل الفلسفة الدينية لشعبنا.

سرعان ما أصبح دستويفسكي موضة في القراءة. كان يقرأ على نحو بارع. وكان قادرًا على أن يمس قلوب مستمعيه. كان الجمهور يصفق له بحرارة ويطلب منه إعادة القراءة بلا نهاية. كان أبي يتوجه بالشكر للناس ويبتسم لهم، لكنه لم تكن لديه أوهام بشأن مستمعيه. «إنهم يصفِّقون لي، ولكنهم لا يفهمونني»، كان يقول ذلك بحزن لرفاقه، الذين كانوا يقرءون أيضًا في الأمسيات الأدبية. كان دستويفسكي على حق. كان مثقفونا يشعرون بالغريزة أن أبي يعرف الحقيقة، لكنه لم يكن ليستطيع أن يغير عقول الناس. لقد أنزلت العبودية الضرر بالنبلاء والمثقفين أكثر مما أنزلته بالفلاحين. الشعب الروسيّ شعب قويّ للغاية، تحمل ثلاثة قرون

---

(1) من رواية «الجريمة والعقاب». (المترجم)

من العبودية لكنه لم يفقد احترامه لذاته. أما مثقفونا الضعفاء فقد احتفظوا زمنًا طويلا بعادات الطغاة بعد تحرير الفلاحين. غطرسة نفوسهم الصغيرة أعاقتهم عن التفرقة بين أفكارهم وتقاليد الشعب. لم ينس هؤلاء أن آباءهم تسلطوا دون شريك على الفلاحين، وأنهم ظلوا ينظرون إليهم بعد أن نالوا حريتهم نظرتهم إلى عبيد، وفرضوا عليهم قسرًا يوطوبيا[1] استمدوها من الكتب الأوروبية. لقد قُتل جدي ميخائيل على أيدي الفلاحين لأنه لم يبذل أيّ جهد مطلقًا لدراسة شخصية الشعب الروسيّ. لقد واصلت الانتليجنسيا في بلادنا حياتها في فراغ معلقة بين أوروبا وروسيا، ومن ثم كان عليها أن تدفع ثمنًا غاليًا في الثورة.

أدت الشعبية التي تمتع بها دستويفسكي من جديد لدى الطلبة، إلى وقوع حادثة غريبة للغاية، وإن كانت منطقية. ذات يوم كانت أمي خارج البيت. أبلغت الخادمة أبي أن سيدة غريبة جاءت إليه، وأنها رفضت أن تذكر اسمها. طلب دستويفسكي، الذي اعتاد على استقبال زوار غرباء، كانوا يأتون عادة لينفثوا عن همومهم لديه، طلب من الخادمة أن تأتي بها إلى غرفة مكتبه. دخلت عليه سيدة ترتدي ثوبًا أسود وتضع على وجهها خمارًا سميكًا. جلست دون أن تنبث ببنت شفة. نظر إليها دستويفسكي في دهشة وقال لها:

أيّ شرف لنا دعاك للحضور إلينا؟

بدلا من الإجابة نزعت الغريبة خمارها عنها بحركة حادة ونظرت إليه نظرة تراجيدية. عَبَس أبي فلم يكن يحب التراجيديات.

هلا أفصحت عن اسمك يا سيدتي؟ -سألها أبي بنبرة باردة.

كيف؟ ألم تتعرف عليّ؟ -همست الزائرة كما لو كانت ملكة وُجهت إليها إهانة.

---

(1) مدينة فاضلة. (المترجم)

لا، لم أتعرف. لماذا لا تريدين ذكر اسمك؟

إنه لم يتعرف على اسمي! تنهّدت السيدة ذات الثوب الأسود على نحو تراجيدي.

نفد صبر أبي.

ما هذا الغموض؟ صاح أبي بغضب. -من فضلك اشرحي الغرض من زيارتك. أنا الآن مشغول ولا أستطيع أن أضيع وقتي هدرًا.

نهضت الغريبة، وضعت الخمار وخرجت من غرفة المكتب، تبعها دستويفسكي شاردًا. فتحت الباب وهرعت مسرعة على السلم. وقف أبي مذهولا عند مدخل الشقة. هنا لمعت في عقله ذكرى بعيدة. أين تُراه رأى هذا التعبير التراجيدي؟ أين استمع إلى هذه النبرة الميلودرامية؟ «يا إلهي!- صاح أخيرًا. -لقد كانت هي، هي، بولينا!»

في هذه اللحظة بالضبط وصلت أمي. حكى أبي لأمي وهو في حالة شديدة من الاضطراب عن زيارة عشيقته السابقة.

ما الذي فعلتُه! راح يردد. -لقد أهنتها إهانة قاتلة. إنها شديدة الكبرياء! إنها لن تسامحني لأنني لم أتعرف عليها، سوف تنتقم. بولينا تعرف كم أحب الأطفال -هذه المجنونة قادرة على قتلهم. بالله عليك لا تسمحي للأطفال بالخروج من البيت!

كيف لم تستطع التعرف عليها؟ -سألته أمي. -هل تغيرت إلى هذا الحد؟

أبدا... الآن، إذا فكرت، فإنني أرى أنها على العكس، تغيرت قليلا. لكن، ماذا أقول! بولينا طارت من ذاكرتي تمامًا، كأنها لم تكن موجودة من قبل على الإطلاق.

إن عقل مَرضَى الصرع مُركب على نحو غير طبيعيّ. هؤلاء لا تحتفظ ذاكرتهم إلا بما يثير دهشتهم بصورة خاصة. الأرجح أن بولينا كانت من هذا النوع من الحسناوات، اللائي يتعلق بهن الرجال بشدة، عندما يكُنَّ بجوارهم، ثم ينسونهن بمجرد أن يختفين عن أنظارهم[1].

---

(1) عندما تخطت بولينا الخمسين من عمرها، تزوجت من طالب يبلغ من العمر عشرين عامًا، كان معجبًا بشدة بأبي. هذا المتحمس الشاب، أصبح فيما بعد كاتبا وصحفيًا شهيرًا. كان حزينًا حزنًا لا سلوان عنه لأنه لم يتسن له أن يتعرف على دستويفسكي، فقرر أن يفعل شيئا ما وليكن الزواج من تلك المرأة، التي أحبها كاتبه المفضل. يمكن أن نتصور بسهولة على أيّ نحو سار هذا الزواج الغريب.



الفصل الثاني والعشرون
دستويفسكي في بيته

لم يكن الطلاب الروس ميالين للنظام. كانوا يأتون لزيارة أبي في أيّ وقت من اليوم. كانوا يعوقونه عن العمل، ولم يكن دستويفسكي ليرفض استقبالهم أبدًا، فيضطر للعمل بالليل. وحتى قبل ذلك، عندما كان عليه أن يكتب بعض الفصول الهامة، كان يفضل أن يفعل ذلك بعد أن ينام الجميع من حوله. ثم أصبح ذلك من عاداته. كان يستمر في الكتابة حتى الرابعة والخامسة صباحا ولم يكن يستيقظ قبل الحادية عشرة صباحًا. كان ينام على الأريكة الموجودة في غرفة مكتبه. آنذاك كان ذلك على الموضة في روسيا. كانت محال الأثاث في بلادنا تعرض كافة أنواع الأرائك التركية ذات الأدراج، يمكن بالنهار وضع الوسائد والملاءات بداخلها. وهكذا كان من الممكن تحويل غرفة النوم في غمضة عين إلى غرفة استقبال أو غرفة مكتب. على الحائط فوق الأريكة عُلِّقت صورة فوتوغرافية كبيرة رائعة للمادونا السيستينية، لعلمهم بمدى حبه للوحة رافاييل. كان أول ما تقع عليه عينا دستويفسكي عند استيقاظه هو الوجه الوديع للمادونا، التي كان يعتبرها مثالا للمرأة.

كان أبي يبدأ يومه بالتمرينات الرياضية، ثم يذهب ليستحم وكان يفعل ذلك بدقة شديدة فلا يبخل على نفسه بالماء والصابون والكولونيا. كان حب النظافة

عند دستويفسكي يصل إلى حد الهوس، على الرغم من أن هذه الفضيلة لا يمكن اعتبارها سمة روسية أصيلة، وإنما بدأت في التأصل في روسيا بحلول القرن التاسع عشر فقط[1]. حتى زمن غير بعيد كان من الممكن أن نلتقي بأميرات بلغن أرذل العمر، أميرات حقيقيات، كانت أظافرهن تبدو وكأنها ترتدي ملابس الحداد. لم تكن أظافر دستويفسكي على هذا النحو من الاتساخ. كان يجد، على الرغم من كل مشاغله، وقتًا للعناية بأظافره. كان من عاداته أن يغني أثناء استحمامه في الحمام الذي يقع بجوار غرفة الأطفال، وكنت كل صباح أستمع إليه وهو يغني بصوت رقيق نفس الأغنية العاطفية.

لا توقظوها في الصباح

إنها تنام نومًا عذبًا عميقًا

يتنفس الصباح في صدرها

ويصبغ بهدوء خديها بالحمرة

بعد استحمامه يعود إلى غرفة نومه وينهي زينته. لم أره مطلقًا في حياتي يسير في البيت بملابس النوم، وهو ما اعتاد الروس أن يفعلوه في معظم أوقات النهار. منذ الساعات الأولى من اليوم تجده مرتديًا ملابسه الكاملة، ينتعل حذاءه ويلبس رابطة عنقه وقميصًا أبيض بياقة منشاه[2]. كان أبي يبدو في أكمل مظهر، وحتى عندما كان فقيرًا، كان يخيط ملابسه لدى أفضل الخياطين، كان يعتني بشدة بملابسه، كان لديه السر في الحفاظ عليها لفترة طويلة لتبدو وكأنها جديدة. في البيت كان أبي يرتدي في الصباح معطفًا، فإذا ما حدث ووقعت عليه قطرات من

---

(1) يحكون عن جداتنا أنهن في شبابهن، كن إذا اعتزمن الذهاب إلى حفل راقص، يرسلن الخادمات ليسألن أمهاتهن كيف يغسلن رقابهن إذا كان الثوب بفتحة كبيرة أو صغيرة.

(2) في هذا الزمان لم يكن يرتدي القمصان الملونة سوى عامة الناس.

الشمع وهو ينقل الشموع، كان يخلع عنه هذا المعطف ويطلب من الخادمة أن تزيل البقع. كان يشتكي قائلا: «البُقع تخرجني عن توازني، لا أستطيع أن أعمل طالما كانت موجودة. أظل أفكر فيها طول الوقت بدلا من أن أفكر في عملي».

بعد أن ينتهي من زينته يؤدي صلواته ثم يخرج من غرفته إلى غرفة المائدة ليشرب الشاي. عندئذ نذهب نحن أيضًا لنتمنى له صباحًا سعيدًا ونثرثر معه قليلا عن أمورنا الطفولية. كان أبي يحب أن يصب الشاي لنفسه وكان يشربه ثقيلا جدًّا. كان يحتسي كوبين منه ويأخذ الثالث إلى غرفته، حيث يرتشفه على جرعات صغيرة جرعة وراء الأخرى أثناء عمله. خلال إفطاره تقوم الخادمة بترتيب غرفته وتهويتها. كان بالغرفة أثاث قليل، وكان مُرتَّبًا بامتداد الحوائط، وكان من الضروريّ أن يظل هذا النظام قائما على هذا الوضع طول الوقت. أما عندما يأتي إليه عدد من الأصدقاء في وقت واحد، فكان يُحرك المقاعد الصغيرة والكبيرة، ثم يعيدها بنفسه إلى أماكنها بعد انصراف ضيوفه. كان النظام يسود مكتبه أيضًا. كانت المجلات والأدراج المليئة بالأوراق، والخطابات التي تسلمها والكتب، التي يبحث فيها عن المعلومات الضرورية، تظل بالضرورة حيث وَضَعها. كان أقل إخلال بهذا النظام يثير حفيظته. كانت أمي تتأكد كل صباح من الوضع على مكتب أبي لعلمها بالأهمية التي يوليها للنظام الصارم له. كانت تنظم وضع المناضد الصغيرة وتجعل الكراسات والأقلام على أهبة الاستعداد. وبعد أن يتناول إفطاره كان أبي يعود إلى غرفته ليبدأ على الفور في إملاء الفصول التي كتبها في الليل. كانت أمي تقوم بكتابتها اختزالا ثم تقوم بعد ذلك بإعادة كتابة النص، وكثيرا ما كان أبي يضيف إليه بعض التفاصيل، فتعود أمي لكتابة كل شيء من جديد، ثم ترسل بالفصول إلى المطبعة. وبذلك تكون قد خففت على أبي كمًّا كبيرًا من العمل. لم يكن دستويفسكي على الأرجح ليستطيع أن يكتب هذا العدد من الروايات، لو لم يخطر ببال أمي في ذلك الوقت أن تتعلم الاختزال. كان خط أمي غاية في الجمال، لم تكن كتابة أبي مرتبة على هذا النحو، لكنها كانت أكثر

أناقة. كان خطه «قوطيا»، ربما كانت كل مخطوطاته مُزيَّنة بالنوافذ القوطية، وكان يرسمها بدقة بريشته[1]. كان أبي يرسم على نحو عفوي أثناء تفكيره في عمله. يمكن أن نتصور أن روحه كانت تتوق إلى هذه الخطوط القوطية، التي أبهرته عندما شاهدها في كاتدرائيات ميلان وكولن. أحيانًا ما كانت مخطوطاته تحتوي على رسوم لرؤوس وأوجه جانبية شيقة ومميزة.

كان دستويفسكي أحيانًا ما يتوقف وهو يملي على زوجته أعماله، فيسألها عن رأيها. كانت أمي تتحاشى أن توجه أيّ نقد له. كان زوجها قد فاض به الكيل من جرَّاء النقد الحقود من جانب النقاد الصحفيين، ولم تكن لديها الرغبة مطلقًا أن تضيف عبئًا جديدًا على أعبائه. على أنها كانت تخشى أيضًا الوقوع في فخ تكرار نفس نغمة المديح له. فكانت أحيانًا ما تتجرأ لتبدي له ملاحظة ما، فإذا كانت بطلة الرواية ترتدي ثوبًا أزرق، فإنها كانت تقف إلى جانب اللون الورديّ، وإذا كان هناك صوان ما موضوع إلى اليسار في المشهد، فإنها كانت تفضل نقله إلى اليمين. كانت تقترح أن يعتمر البطل قبعة أخرى مختلفة، وأحيانا ما كانت تحلق له ذقنه. كان دستويفسكي يسارع بإدخال التعديلات المقترحة معتقدًا، في سذاجة، أن ذلك سيدخل السرور على زوجته. لم يكن يدرك مكرها، كما حدث له ذات يوم عندما راح المساجين، الذين أرادوا أن يدخلوا السرور على قلبه، يتحدثون معه عن القضايا السياسية وعن الحياة في العواصم. كان دستويفسكي نقيّ السريرة، حتى أنه لم يكن يخطر بباله أن شخصًا ما يمكن أن يسعى لخداعه. بينما هو نفسه كان يخدع من حوله مرة واحدة في العام، وذلك في الأول من أبريل. كانت أكاذيب أول أبريل تقليدًا شائعًا، وكان أبي يحب كل أشكال التقاليد. ذات صباح ربيعي خرج من غرفته راكضًا وقد رسم على وجهه ملامح الاضطراب. قال لأمي وهو مقبل نحو غرفة الطعام: «هل تعلمين ما حدث لي اليوم ليلا؟ لقد

(1) كانوا في قلعة الهندسة يولون الرسم اهتمامًا كبيرًا.

تسلل إلى فراشي فأر، وقد سحقته... بالله عليك قولي للخادمة أن ترتب الغرفة، فأنا لن أعود إلى هناك طالما كان ذلك الفأر هناك! يا له من شيء مقزز!». غطى دستويفسكي وجهه بيديه. هنا نادت أمي على الخادمة ودخلت معها إلى الغرفة، وقد تبعناهما أنا وأخي. لم نكن قد رأينا حتى ذلك الحين أيّ فأر، وكنا نشعر بفضول شديد لأن نرى كيف يبدو. قلّبت الخادمة الوسائد والملاءات والسجاد فلم تجد شيئًا. اختفت جثة الفأر القتيل. «أين ألقيت به؟» – سألته أمي، بعد أن غادرت غرفته عائدة إلى غرفة الطعام، حيث كان يشرب الشاي في هدوء. صاح أبي فرحًا بمزحته التي أطلقها قائلاً: «كل أول أبريل وأنتم بخير!»[1].

كان دستويفسكي، بعد أن ينتهي من الإملاء، يقبل علينا نحن الأطفال ليوزع علينا ما لديه من حلوى. كان أبي يحب الحلوى بشدة، وكان يضع في واحد من أدراج صوان الكتب علبًا تحتوي على التين المجفف والتمر واللوز والزبيب وباستيليا الفواكه، التي يصنعونها في روسيا، ويتلذذ بأكلها أثناء النهار، وأحيانًا في الليل أيضًا. كان هذا «الدسترخان»[2]. هو على ما أظن العادة الشرقية الوحيدة التي ورثها أبي عن أسلافه الروس، ومن المحتمل أن يكون جسده الضعيف كان في حاجة إلى كثير من السكريات. عندما كنا نهرع إليه كان يوزع علينا الحلوى بكرم بالتساوي بيني وبين أخي. كان أبي حنونًا معنا للغاية عندما كنا أطفالا، ولكننا عندما كبرنا أصبح يتعامل معنا على نحو أكثر صرامة. كنت منذ طفولتي شديدة العصبية وكثيرا ما كنت أنخرط في البكاء، وحتي يهدّئ من روعي كان يعرض عليّ أن أرقص معه، كانوا يبعدون الأثاث نحو الحوائط. أما أمي فكانت ترقص مع أخي وحيث إنه لم يكن هناك أحد يعزف على البيانو، فقد كنا نحن

---

(1) في روسيا يقولون: «كل أول أبريل وأنتم بخير!»، بدلا من «سمكة أبريل» فلم نكن نعرف هذا المخلوق.

(2) «الدسترخان»: وجبة خفيفة يقدمونها في الشرق للضيوف.

الأربعة نغني أغنية ما باعتبارها لحنًا مصاحبًا. كانت أمي تثني على أبي على الدقة التي يؤدي بها الخطوات الصعبة للرقصة. قال لها ذات مرة: «آه! ليتك رأيتني وأنا أرقص المازوركا[1] في شبابي!». قال ذلك وهو يمسح العرق عن جبينه وقد راح يسعل.

كان أبي حريصًا على نزهته اليومية التي تبدأ في الرابعة مساء. كان يلتزم بخط سير واحد دائمًا. يمشي غارقًا في أفكاره، منفصلا عن كل شيء حوله، دون أن يميز في الطريق أيًا من معارفه إذا ما قابله أحد منهم صدفة.

أحيانًا كان يُعرِّج على أحد من أصدقائه لكي يبحث معه قضية ما تشغله، سياسية كانت أو أدبية. عندما كانت النقود تتوافر لدى دستويفسكي كان يشتري من بالي (أفضل محل للحلوى في بطرسبورج) علبة من الملبس أو عنبًا وكمثرى من أفضل محل في المدينة. كان يتخير الأفضل دائمًا وكان يتجنب الأشياء الرخيصة من الدرجة الثانية. كان يحمل ما اشتراه بنفسه إلى البيت ويشرف على إعطائه لنا كنوع من التحلية. كنا نتناول طعام الغداء في الساعة السادسة، وفي الثامنة نحتسي الشاي. هذا الجزء من اليوم يكرسه دستويفسكي للقراءة، ثم يعود للعمل بعد شرب الشاي، آنذاك يكون الجميع قد ذهبوا للنوم. ولكنه قبل أن يفعل ذلك يمر ليلقي نظرة علينا وقد آوينا إلى أسِرَّتنا، يباركنا ويقرأ معنا صلاة قصيرة للعذراء، وهي نفس الصلاة التي علمها إياه والداه، عندما كان صبيًا، يُقبِّلنا، وبعد أن يعود إلى مكتبه يشرع في العمل. لم يكن دستويفسكي يحب المصابيح وكان يفضل العمل في ضوء شمعتين[2]. أثناء عمله كان يدخن بشراهة، ومن حين لآخر يبتلع جرعة من الشاي الثقيل للغاية. الأرجح أنه لم يكن ليشعر بهذا النشاط حتى ساعة متأخرة من دون هذه المنبهات.

(1) المازوركا رقصة ليتوانية وبولندية.

(2) لم تكن الإضاءة الكهربائية قد عُرفت بعد، أو كانت معروفة قليلا.

استمرت هذه الحياة الرتيبة، المنتظمة نفسها، التي كانت الأيام فيها تشبه بعضها بعضًا، على نفس المنوال في ستاريا روسا أيضًا. لم يعد بمقدور أبي أن يقضي الصيف بطوله معنا. كان عليه أن يذهب إلى منتجع إمس ويقضي فيه فترة للاستشفاء. كانت مياه إمس مفيدة لصحته، لكنه كان يشعر في ألمانيا بالوحشة. كان يحسب الأيام، التي تبقت على عودته إلى روسيا، ويظل ينتظر بفارغ الصبر تلك اللحظة، التي يصبح فيها غنيًا لكي يذهب إلى الخارج بصحبة أسرته. كان أبي يفكر فينا وهو ينظر إلى الأطفال الألمان وهم يركبون الحمير بسعادة، وكان يحلم أن يتنزه أطفاله أيضًا هكذا. بعد عودته إلى ستاريا روسا راح يقصُّ علينا حكايات مضحكة عن الحمير الألمانية الصغيرة، لم يكن هذا الحيوان معروفًا عندنا، ويبدو أنه كان محبوبًا من الأطفال، كان هذا أمرًا يثير فضولنا كثيرًا أنا وأخي. لم نمل أبدًا من استجواب أبي حول المزايا البدنية والأخلاقية لهذه الحمير الصغيرة ذات الآذان الطويلة.

كان دستويفسكي يحضر لنا دائمًا هدايا مدهشة من الخارج، كانت عادة أشياء مفيدة غالية الثمن، تم اختيارها بذوق رفيع – نظارة فاخرة للمسرح لأمي، مصنوعة من الخزف المزخرف، مروحة من العاج عليها نقوش دقيقة، دانتيلا جميلة من محل شانتيلي، ثوب من الحرير الأسود، بياضات مطرزة برسوم جميلة. وقد أهداني فساتين بيضاء صيفية من قماش البيكة، وأخرى من الحرير شتوية مطرزة بالدانتيل للشتاء. وخلافًا لمعظم الآباء، الذين يُلبسون بناتهم باللونين الأزرق والورديّ، اختار لي أبي فستانًا بلون أمواج البحر، كان عاشقًا لهذا اللون وكثيرًا ما كان يُلبسه بطلات رواياته.

ظل دستويفسكي طول حياته إنسانًا كريمًا، وكان يحب أن يجمع أقاربه، وكذلك أقارب أمي، حول المائدة في الأعياد. كان ودودًا مع الجميع، وكان يتخير للحديث موضوعات يمكن أن تكون ذات أهمية للجميع. كان يضحك ويُلقي بالنكات، بل ويقبل أحيانًا أيضًا أن يلعب الورق، وهو الذي لم يكن يحبه

أبدًا. وعلى الرغم من كل ما كان يبذله من جهد وما تبديه أمي من لطف وكياسة، فقد كانت حفلات الاستقبال هذه كثيرًا ما تنتهي نهاية سيئة، وكل ذلك من وراء هذا الخنزير الأجرب پاڤل إيسايف، الذي كان يشب دائمًا على كل أعياد العائلة. لم يكن لديه أدنى تصور عن كيفية التصرف في المجتمعات.. هو ابن لضابط من عائلة كريمة[1]، درس في مدرسة عسكرية قيصرية مع أولاد متحضرين، نالوا تربية حسنة، كان يقضي إجازاته في بيت عمي ميخائيل، حيث كانت الصفوة الأدبية في هذا الزمان تجتمع لديه. كان پاڤل إيسايف يتصرف كما كان سيتصرف أسلافه من جهة أمه في واحة ما في الصحراء. نادرًا ما تسنَّى لي أن أرى هذا النوع السخيف من الملحدين، هذا الشرير المتعجرف، كان يتصرف بصلافة ويتحدث بأسلوب كريه. كان يحرج الجميع، وكان أقاربنا يغضبون ويشتكون لأبي. وقد غضب أبي بدوره وطرد ربيبه، لكن هذا عاد، كما لم يحدث من قبل، ليدخل من النافذة. كان يزداد تشبثًا يومًا بعد الآخر بـ«بابا» ويستمر في كسله ويبتز نقوده. لم يتحمل أصدقاء أبي ربيبه، ولم يعد أحد منهم يدعوه لزيارته. وفي سعيهم لإبعاد هذا المتطفل عن أبي كانوا يجدون له وظائف جديدة في بنوك خاصة[2]. أيّ رجل عاقل كان سيسعى للتمسك بوظيفته، وأن يضمن بذلك مستقبله، لكن پاڤل إيسايف لم يستمر فترة طويلة في أيّ وظيفة. كان يعامل زملاءه كالعبيد مستخفًّا بهم، بل وراح يستصغر من شأن رؤسائه. لم يكن ينقطع عن الحديث عن زوج أمه، الكاتب الكبير دستويفسكي، صديق الأمراء العظام والوزراء، ولم يكتف بذلك، بل راح يهدد زملاءه بالانتقام منهم. في بداية الأمر كان جنون العظمة هذا مصدرًا لتسلية الجميع بعض الشيء، لكن صبر المحيطين به نفد. طردوا پاڤل إيسايف ليعود إلى دستويفسكي مثل قطعة النقد المزيفة. هذا الربيب المخلص

---

(1) كان النقيب إيسايف نبيلا بالوراثة.

(2) لم يُنه پاڤل إيسايف أيّ مؤسسة تعليمية حكومية، ولم يستطع الحصول على أيّ عمل في وزاراتنا.

لتقاليد أجداده المماليك، كان ينجب في كل عام طفلا، وقد أطلق عليهم نفس أسمائنا - فيودور، ألكسي، لوبوف. يبدو أنه كان يريد أن يثبت قرابته المزعومة وأن يجعل من أبنائه شيئا ما على شاكلة أحفاد آل دستويفسكي. هذا المتطفل كان يأمل أن يجعل منهم طفيليين مثله، لكن ذلك لم يتحقق. أطفاله الذين استطاعت أمهم أن توفر لهم تعليمًا رائعًا، أصبحوا أناسًا جادِّين، محبين للعمل، يستحقون احترامًا أكثر من أبيهم. استطاعت روسيا أن تمتص هؤلاء الأبناء وأن تخلِّصهم شيئا فشيئا من تلك الصفات الوراثية المملوكية. من يعرف! هذا الدم الزنجيّ الذي كان لعنة على پاڤل إيسايف ووالدته ربما أخرج موهبة ما عظيمة من هذه العائلة ليجعله شخصًا بارزًا. لقد رأت روسيا أشياء مثل ذلك.

احتجَّت أمي على هذه القرابة الزائفة. كانت تحمي رؤوسنا السلافية النورماندية الشقراء، ساعية ألا تقوم بيننا وبين الجلد الأصفر لهذا الخلاسيّ المشؤوم أيّ صلة مشتركة. كانت على حق في ذلك، لأن القانون الروسيّ لا يعترف بأيّ قرابة بين زوج الأم وربيبه. في المقابل فقد كانت الكنيسة الأرثوذكسية ترى في هذه العلاقة قرابة ما روحية. لعل دستويفسكي، الذي ظل طول حياته ابنًا مخلصًا لكنيستنا[1]، كان يعترف بهذه العلاقة، التي تخصُّه وحده، والتي حتما ستنتهي

(1) كان أبي يرى أنه مسئول بشكل خاص عن الصورة الأخلاقية لربيبه. ذات مرة، إبان وجوده الطويل في الخارج، ساورته الشكوك أن يكون پاڤل إيسايف قد ارتكب عملا من أعمال الاحتيال. كتب في واحد من خطاباته إلى صديقه مايكوف يحكي كيف راحت هذه الفكرة تعذبه، وكيف راح يصلي بحرارة لله أن تذهب شكوكه سدى. كان أبي سعيدًا بعد أن عرف أنه كان مخطئًا. أما أنا، بالمناسبة، فإنني أظن أن پاڤل إيسايف لم يكن في استطاعته ارتكاب أفعال مخزية. لو كان نصابًا لاستطاع أن يحصل على ثروة كبيرة إبان حياة زوج أمه، الذي بحكم ثقته في الآخرين وشروده، كان من الممكن أن يُوقِّع على أيّ أوراق يدسونها عليه، دون أن يبذل جهدا حتى لمجرد النظر والتحقق فيما عليه من التزامات فيها. إن ثقته وشروده أمران يمكن استغلالهما من جانب الكثيرين=

بوفاته، لأن دستويفسكي لم يكن يريد مطلقًا أن تكون لنا صلة بپاڤل إيسايف باعتباره أخًا لنا. لم يسمح لنا، كان محظورًا علينا أن نخاطبه بصيغة النِّدِّية، ولا نناديه باسم التدليل. لم يكن طيبًا أو ودودًا معنا، وكان يسخر منا ببشاعة، وعلى الرغم من ذلك كان يسلينا كثيرًا. عندما كان يأتي لزيارة زوج أمه، كنا نتسلل إلى غرفة مكتب أبي ونختبئ هناك خلف المقاعد الكبيرة كاتمين أنفاسنا، حتى لا يرانا أحد فيطردنا من الغرفة. كنا نستوعب بعيوننا الطفولية إيماءاته المدهشة والأوضاع المفاجئة، التي يتخذها پاڤل إيسايف، ونستمتع بالاستماع إلى لغته الغريبة المبهمة، التي كان يستخدمها. كان يبدو لنا مثل دمية القره قوز التي يحبها الأطفال في باريس ويشاهدونها في منطقة الإليزيه.

ولكن، إذا كان پاڤل إيسايف يثير سخريتنا كأطفال، فإن دستويفسكي لم يكن يسخر مطلقًا من ربيبه التعس. في كل مرة كان يلاحظ فيها أن الأصدقاء والأقارب يعبرون عن احتقارهم لپاڤل إيسايف، كان أبي يعامله بتعاطف كبير ويسعى لتطييب خاطره. يذهب إليه في بيته ويداعب أطفاله، يتحدث مع السيدة إيسافيا زوجته في المسائل التي تخص تربيتهم، ويبذل لها النصائح الطيبة، التي استطاعت أن تستفيد منها فيما بعد على نحو جيد.

بعد وفاة پاڤل إيسايف منذ زمن بعيد، لم يقدم المثقفون الروس أيَّ عون لأسرته، بحجة أنه أفسد حياة دستويفسكي. على أنني أظن أنه كان من الأفضل لو أنهم أثبتوا حبهم لدستويفسكي لاعتنوا بهذه الأسرة، التي كانت عزيزة على أبي في يوم من الأيام. على أية حال فإن أطفال پاڤل إيسايف، الذين كانوا صغارًا للغاية عندما توفي دستويفسكي، لم يذنبوا في حق أحد. على العكس من ذلك، هم أنفسهم عانوا بسبب شخصية پاڤل إيسايف البائسة، ومن ثم كانوا ضحايا لسوء تربيته. وفوق ذلك كانوا هم الأولى بالمساعدة والرعاية.

= لم يحاول پاڤل إيسايف مطلقًا أن يحصل على النقود بهذه الطريقة الملتوية. قضى عمره كله كسولًا، ولكنه كان شريفًا على طريقته.



الفصل الثالث والعشرون

دستويفسكي الأب

الأرجح أن تأمل هذا البهلوان البائس دفع أبي لأن يهتم بنا أنا وأخي فيودور اهتمامًا جادًّا، فبعد أن أهمل ربيبه راح يبذل قصارى جهده لكي لا يقصِّر في حق أطفاله. بدأ في تربيتنا ونحن في سن مبكرة جدا، في تلك السن، التي يترك فيها الآباء أطفالهم في الحضانة. ربما يكون قد أدرك أن مرضه مميتٌ فسارع في غرس البذور الطيبة في نفوسنا، ومن أجل ذلك فقد اختار نفس الوسيلة، التي اختارها أبوه في حينه، وهي قراءة أعمال الكُتَّاب الكبار. كان الأطفال في عائلة جدي ميخائيل يقرءون كل في دوره بصوت مرتفع. لم نكن قد تعلمنا القراءة بعد، فاضطر دستويفسكي، عندما بدأ في إدارة هذه الأمسيات، أن يقرأ علينا بنفسه. انطبعت أمسية القراءة الأولى بعمق في ذاكرتي. ذات مساء ربيعي ونحن في ستاريا روسا، وكان المطر ينهمر بغزارة شديدة، وقد تغطت الأرض بأوراق الشجر الصفراء، أعلن دستويفسكي أنه سوف يقرأ علينا «اللصوص» لشيللر. كان عمري آنذاك سبع سنين وكان أخي قد تم لتوه ستًّا... كانت أمي ترغب في أن تحضر هذه القراءة الأولى. راح دستويفسكي يقرأ علينا وقد استولى عليه الحماس، وأحيانًا ما كان يتوقف ليشرح لنا تعبيرًا ما غامضًا. كنا نستمع وقد فغرنا أفواهنا من الدهشة، هذه الدراما الألمانية بدت لعقولنا الطفولية شيئًا غريبًا، ما

هـي ألمانيا هـذه، أيّ بلدة خيالية هي، أين تراها تقع، ولماذا يسـافر أبونا إليها كل عـام بأمر من الأطباء، هناك حيث الأطفال النموذجيـون يركبون الحمير الصغيرة ذات الآذان الطويلـة؟ واأسـفاه! ليس في دراما «اللصوص» حميـر صغيرة! بينما هناك أب كريه جدًّا يتشاجر مع أبنائه، وفتاة تريد أن تُصلح بينهم وتظل تبكي طول الوقت. كنت أقول لنفسـي بأسـى وأنا أستمع للقراءة الشـيقة لأبي «إن لهذه الفتاة المسـكينة الحق في البـكاء! إن العيش بهـذه الطريقة مع مثل هـؤلاء الناس لأمر مضجـر بكل تأكيد. هؤلاء الذين يتشـاجرون منذ الصباح وحتى المسـاء كان من المفترض أن يكونوا سعداء، فهم يعيشون في ألمانيا، في هذا البلد الساحر، حيث ترعى الحمير ذات الآذان الطويلة. ليسـت كل البلاد محظوظة، ففي روسـيا على سبيل المثال لا يوجد حمير على الإطلاق. لماذا إذن يشعر الناس فيها بعدم الرضا طوال الوقت، ولا يعرفون سـوى الشجار؟ الأرجح أن لدى هؤلاء الألمان طبيعة بشعة...».

إذا كنت غير قادرة على فهم أعمال شـيللر وأنا في عمر السـابعة، فقد أدركت على نحو رائع، أن هذه الدراما الغريبة كانت مهمة جدًّا لأبي، وحتى أنال رضاه، كان علـيّ أن أدّعي أنها مهمة بالنسـبة لي أنا أيضًا. مثـل غالبية الفتيات الصغيرات الماكرات رسـمت على وجهي سـمات الذكاء، واتخذت مظهـر العالمة ورحت أهـز رأسـي إعجابًا بعبقرية شـيللر. على أنه كلمـا ازداد الأخوان مـور لصوصية، غلبني النوم أكثر. أروح بكل قوتي أفتح عينَيَّ المسـكينتين المتعبتين الطفوليتين، أما أخي فيودور فقد استسـلم للنوم صراحـة... عندما رأى أبونا رد فعل جمهوره توقـف عن القراءة وراح يضحك وهو يسـخر من نفسـه، «ما يزالـون غير قادرين على فهم ذلك، إنهم صغار للغاية»، - قال ذلك بحزن لزوجته. يا لأبي المسكين! كان يأمل أن يعايش مرة أخرى معنا تلك الأحاسيس التي أيقظتها فيه يومًا ما دراما شيللر. لقد نسي أنه كان في ضِعف عمرنا عندما عانى هذه الأحاسيس أول مرة.

انتظر دستويفسكي بضعة أشهر قبل أن يعود إلى قراءات المساء، وفي هذه المرة اختار لنا الحكايات الشعبية الملحمية الروسية الغابرة، التي كان يحكيها السادة الكبار في جلساتهم في الريف. هؤلاء الأميون الحكّاءون مثل هوميروس كانوا يمتلكون ذاكرة ظاهراتية وكان باستطاعتهم أن يعيدوا حكي آلاف الأبيات الشعرية دون خطأ واحد. كانوا يلقون الحكايات موزونة ومقفاة بذوق مرهف وحماس منقطع النظير. هؤلاء السادة هم شعراء حقيقيون وكثيرًا ما كانوا يضيفون من عندهم شيئًا ما إلى الأساطير الأصلية. كانت موضوعات هذه الأساطير تدور حول فرسان الأمير ڤلاديمير[1] والملك أرتور الروسي، الذي كان يحب أيضًا أن يجمع على مائدته رفاقه الفرسان[2]. شعبنا الذي لا يدرك شيئًا عن مفهوم التاريخ كان يمزج دائمًا أساطير القرنين التاسع والعاشر بالأساطير الوثنية الأكثر قدمًا بكثير، حتى أننا نرى فرسان الأمير ڤلاديمير، نصف السلاڤيين، نصف النورمانديين. يظهرون في هذه الملاحم وهم يصارعون الأقزام والعماليق. هذه الأساطير الشيقة كُتب نصفها بالروسية ونصفها الآخر باللغة السلاڤية القديمة، وهو ما يضيف عليها مزيدًا من الشاعرية[3]. هذه الحكايات كانت تخاطب خيالنا الطفوليّ أكثر من دراما شيللر. كنا نستمع بسعادة وتأثر كأننا مسحورون، ونبكي بدموع حقيقية على مآسي الفرسان الجوالين ونسعد كثيرًا لانتصاراتهم. كان دستويفسكي يسعد هو أيضًا من قلقنا ويتحمس للقصائد الرائعة التي أبدعها شعبُنا. وبعد أن ينتهي من قراءة القصائد الروسية الملحمية. كان يقرأ

---

(1) ڤلاديمير الأول (958-1015) أمير نوفجورود وكييف. أدخل الديانة المسيحية إلى روسيا (988-989)، قسّم الدولة بين أبنائه. يسمى في الملاحم الروسية بالشمس الذهبية. (المترجم)

(2) الإشارة هنا إلى الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة. (المترجم)

(3) بعد اعتناق روسيا للأرثوذوكسية، كان الإنجيل يقرأ في كنائسنا وتدوي فيها الصلوات باللغة السلاڤية القديمة. كان الناس في روسيا يفهمون هذه اللغة بمن فيهم الأطفال، الذين كانوا يذهبون إلى الكنيسة منذ الثانية من عمرهم.

علينا روايات بوشكين، المكتوبة بلغة روسية بديعة وروايات ليرمونتوف[1] عن القوقاز ورواية جوجول «تاراس بولبا» وهي رواية عظيمة عن العادات والتقاليد الأوكرانية في العصور الوسطى، راح دستويفسكي، بعد أن شكَّل ذوقنا الأدبيّ بدرجة أو أخرى، يعرفنا بأشعار بوشكين وألكسي تولستوي وهما الشاعران القوميان، اللذان كانا يحوزان على إعجابه بصورة خاصة. كان دستويفسكي يقرأ علينا أشعارهما ببراعة، وكانت هناك قصيدة لبوشكين لم يكن ليستطيع أن يقرأها دون أن تنحدر الدموع من عينيه هي قصيدة بوشكين «الفارس الفقير»، وهي قصيدة أصيلة بنيت على طراز قصائد العصور الوسطى تحكي عن إنسان حالم على شاكلة دون كيخوته المتدين بعمق، الذي قضى حياته كلها يجول في أوروبا والشرق، محاربًا من أجل فكرة الإنجيل، وخلال رحلاته كافأه القدر برؤيا جاءته في لحظة خاطفة ما من الحماس الساميّ رأى فيها العذراء المقدسة عند قاعدة الصليب. كان يسدل على وجهه «خوذة من الصلب»، وقد اعتزل النساء إخلاصًا منه للمادونا. في رواية «الأبله» يحكي دستويفسكي كيف راحت إحدى البطلات تقرأ هذه القصيدة «كانت عيناها تسطعان؛ وسرت في وجهها الجميل، مرتين، رعدة وحماسة لا تكاد تدرك»، إنه نفس ما يحدث مع دستويفسكي تمامًا عندما يقرأ هذه القصيدة. كان وجهه يتغير وصوته يتهدج وتغرورق عيناه بالدموع. يا لأبي المسكين! لقد كان يقرأ تاريخ حياته الشخصية. هو أيضًا كان فارسًا فقيرًا من دون خوف أو ملام، وقد ظل طول حياته يقاتل من أجل أفكار عظيمة، هو أيضا كانت له رؤيا سماوية، ولكنها ليست المادونا من القرون الوسطى - وإنما المسيح الذي عثر عليه في المعتقل وأعطاه علامة ليتبعه...

---

(1) ميخائيل ليرمونتوف (1814-1841): كاتب روسيّ. كتب قصيدة «موت شاعر» بعد مصرع بوشكين. أرسل للخدمة في الجيش في القوقاز حيث قتل في مبارزة. من أشهر أعماله رواية «بطل من زماننا» وقد ترجمت إلى العربية هي وأعمال أخرى. (المترجم)

مع اعترافه بأهمية القراءة، لم يهمل دستويفسكي مع ذلك أهمية المسرح. من الأمور المعتادة في روسيا أن يصطحب الآباء أطفالهم لمشاهدة الباليه. دستويفسكي لم يكن يحب الباليه ولم يكن يذهب إلى المسرح لمشاهدته. كان يفضل أن يصطحبنا إلى الأوبرا. ومن الغريب أنه كان يختار دائما نفس الأوبرا «روسلان ولودميلا»، التي وضع الموسيقار جلينكا ألحانها على قصيدة بنفس الاسم لبوشكين. كان دستويفسكي يرغب في أن يحفر هذه الأوبرا ونحن أطفال في نفوسنا. إن موضوع هذه الأوبرا في الواقع من الموضوعات المدهشة. إنها مجاز سياسي، شيء ما بمثابة تنبؤ بمستقبل الشعوب السلافية. لودميلا، الابنة المفضلة للأمير ڤلاديمير، تجسد السلافيين الغربيين. تشيرنومور- ساحر شرقيّ، قزم بشع ذو لحية طويلة. يُجسد تركيا، ظهر في كييف أثناء العيد الكبير، أغرق هو وسحرته الجميع في نوم سحري، ليخطف لودميلا الجميلة ويأخذها إلى قصره. دخل الفرسان، روسلان - روسيا، وڤارلار- النمسا، في سباق وراء القرم، وبعد مختلف أنواع المغامرات وصلا إلى قصر تشيرنومور. ودعاه روسلان إلى المبارزة. قَبِل تشيرنومور التحدِّي، ولكنه وقبل أن يدخل إلى المعركة، أغرق مرة أخرى لودميلا المسكينة في نوم سحريّ، وبينما كان روسلان وتشيرنومور يتقاتلان، قام ڤارلار الداهية بخطف لودميلا الحسناء النائمة، وأخذها إلى كييف إلى الأمير ڤلاديمير، الذي كان قد وعد أن يُزوج لودميلا من الفارس الذي سينقذها. حاول ڤارلار أن يوقظ الحسناء النائمة ولكن لودميلا لم تستجب لمحاولته. بعد أن قتل روسلان تشيرنومور البشع، استولى منه على الخاتم السحريّ وذهب هو أيضًا إلى كييف وألبس لودميلا النائمة الخاتم، وعندها استيقظت واندفعت إلى أحضانه وتعرفت عليه ووصفته بخطيبها الحبيب، وابتعدت عن ڤارلار وسخرت من أطماعه، هرب ڤارلار - النمسا - موصومًا بالعار بعد أن رفضته لودميلا.

هذه الأوبرا الرائعة التي تم إخراجها ببذخ شديد، صُنِعت حتى تبهر بجمالها عيون الأطفال. كنت أنا وأخي شديدي الإعجاب بها، حتى أن شيئًا لم يمنعنا من

أن نرتكب شيئًا أشبه بالخيانة من أن لا نصدق أنها حقيقية. ذات يوم ونحن في طريقنا إلى المسرح، علمنا أن واحدًا من المغنِّين قد مرض فجأة، وأنهم اضطروا لتغيير عرض «روسلان ولودميلا» وأنهم سيعرضون بدلا منه أوبرا «الحصان البرونزيّ»، وهي أوبرا كوميدية كانت تُعد على الموضة آنذاك. لم يكن أبي راضيًا واقترح علينا أن نعود إلى البيت. رفضنا وبكينا. لم يشأ أن يغضبنا، وجلسنا نشاهد ونستمع إلى هذه الأوبرا الصينية أو اليابانية. كنا مفتونين. كمٌّ هائل من الضجيج والأجراس! الأمر الذي أثار خيالنا الطفوليّ هو هذا الحصان البرونزيّ الضخم، الذي كان يظهر في كل فصل من فصول الأوبرا. لم تُعجب سعادتنا دستويفسكي. بداهة لم يكن يريد أن نقع تحت تأثير إغراء أعاجيب الشرق الأقصى. كان يُفضل لو أننا بقينا على إخلاصنا للودميلا العزيزة جدًّا على قلبه..

عندما كان دستويفسكي يسافر إلى إمس أو يكون مشغولا للغاية، كان يُفوِّض أمي لتقرأ علينا أعمال ڤالتر سكوت وديكنز، «هذا المسيحيّ العظيم» كما كان يسميه في «يوميات الكاتب». على الغداء كان دستويفسكي يبدي اهتمامه بانطباعاتنا حول ما جرت قراءته ويروح يتذكر مقاطع مختلفة من روايات هذين الكاتبين. كان أبي، الذي استطاع ذات يوم أن ينسى اسم عائلة أمي، وأن ينسى وجه عشيقته، يتذكر كل الأسماء الإنجليزية لأبطال ديكنز وڤالتر سكوت، اللذين ألهبا خياله الطفوليّ، وكان يتحدث عنهم كأنه يتحدث عن أصدقائه المقربين.

كان أبي فخورًا للغاية بشغفي بالقراءة. عندما كنت أقرأ كنت أحفظ عن ظهر قلب على مدى أسابيع معدودة بعض ما قرأت. كنت أقرأ كل ما يقع تحت يدي من كتب. كانت أمي تعترض على هذه القراءة غير المنظمة، التي كانت ترى، في حقيقة الأمر، أنها ضارة بفتاة صغيرة عصبية مثلي. على العكس من ذلك، كان دستويفسكي يشجع هذا النوع من القراءة، هو النَّهِم دائمًا للقراءة والولع الشخصي بالكتب. اختار أبي من مكتبته من أجلي كتبًا تاريخية وروايات

كارامزين العاطفية[1]، وكان يسألني عن انطباعاتي ويشرح لي الجوانب الصعبة. تعودت على صحبته على الإفطار، وكان ذلك أفضل وقت في اليوم بالنسبة لي. لقد بدأت هنا النقاشات الأدبية الحقيقية، يا للأسف! لم تستمر طويلا.

كان أول كتاب أهداه لي أبي هو تاريخ روسيا لكارامزين به صور جميلة. شرح أبي في هذه الرسوم، التي كانت تصور وصول الأمير ريوريك إلى كييف، ثم الحرب التي شنَّها ابنه الأمير إيجور ضد القبائل الرُحَّل، الذين حاصروا من كل جانب الأمة السلافية، وكانت ما تزال آنذاك ضعيفة. ثم أراني صورة الأمير فلاديمير، الذي أدخل المسيحية إلى روسيا، كما أدخل القوانين الأوروبية الأولى، وكذلك أحفاد ريوريك، الذين أسسوا فيما بعد موسكو ودافعوا عن روسيا العظيمة الوليدة من غزوات التتار. أصبح الأمراء السلافيون النورمانديون هم أبطالي المفضلِّين. كنت أستمع في أحلامي إلى أغنياتهم وهتافاتهم في الحرب. كانت روجنيدا هي بطلتي الأثيرة، وهي ابنة أمير النورمانديين روجفولود، كنت أحب أن أؤدي دورها في مسرحياتنا الطفولية. فيما بعد، عندما بدأت في السفر إلى أوروبا، كنت أبحث في كل مكان عن آثار أحبائي النورمانديين. لكن أكثر ما كان يدهشني هو لماذا يتحدث الأوروبيون طول الوقت عن الثقافة اللاتينية الجرمانية وينسون الثقافة النورماندية، التي كانت بالمناسبة أعظم أهمية. في تلك الأزمان، التي كانت أوروبا غارقة فيها في بربرية العصور الوسطى، كان النورمانديون يعترفون بحرية الضمير، وفرضوا حمايتهم على كافة الأديان، التي كان الناس يعتنقونها في ممالكهم. وبدلا من تقديس القوة والثروة، كانوا يُمجِّدون الشعراء والعلماء ويجذبونهم إلى بلاطهم، بل وكانوا يشاركونهم في أعمالهم. على سبيل

---

(1) نيكولاي كارامزين (1766-1826) كاتب روسيّ، مؤرخ، مؤسس السنتمنتالية الروسية- «خطاب رحّالة روسيّ»، «ليزا المسكينة» وغيرها. أهم مؤلفاته «تاريخ الدولة الروسية» في اثني عشر مجلدًا. (المترجم)

المثـال، قام الأميـر النورمانديّ روجر الثانـي في صقلية بمساعدة العالِم العربيّ الإدريسيّ[1] على كتابة أول كتاب في علم الجغرافيا والذي حمل عنوانًا سـاذجًا هـو «نزهة المشتاق في اختراق الآفـاق». لقد وصلت حضـارة النورمانديين إلى ذُرى رفيعـة بالنسبة لزمانها، حتى أن أوروبـا، التي كانت ما تـزال آنذاك همجية، لم تستطع أن تستوعبها. واستطاعت أن يكون لها وجـود وإن اقتصر على عدد محـدود مـن البـلاد الصغيرة المنسية من العالـم، مثـل ليتوانيا أو صقليـة، لكنها في سياق ذلك لـم تمت وإنما ظلت حضـارة حية، واصلـت وجودها في نفوس أحفـاد النورمانديـين، ومن وقت لآخر كانت تعلن عن نفسـها في إبداع شـاعر ما أو كاتب.

أمـر واحد بدا لـي فيما بعد غريبًا، فعندما رحت أتأمـل تلك الفترة من حياتي، وجـدت أن أبـي لـم يعطني فـي يوم من الأيـام كتبًـا مخصصة للأطفـال. الكتاب الوحيـد الذي قرأته من هذا النوع كان كتاب «روبنسـون كروزو» وكانت أمي هي التـي أهدتـه لي. أظن أن دستويفسـكي عمومًا لـم تكن لديه أيّ فكـرة في طفولته عـن كتب الأطفـال. لم تكن هنـاك مثل هذه الكتب في روسـيا، لابـد أنه كان في الثامنة أو التاسـعة عندما بدأ قراءة كُتّـاب جادين. وهناك أمر آخر مثير ما يزال يثير دهشـتي، عندما أتذكر مناقشاتنا معًا. دستويفسـكي، الذي كان يتحدث معي بكل الرضا والسعادة عن الأدب، لم يذكر لي كلمة واحدة عن طفولته. في الوقت نفسه حدثتنـي أمـي عن أدق تفاصيـل حياتها عندما كانـت فتاة صغيرة، عـن انطباعاتها الأولى، عن صداقتها بأخيها إيفان. لا أستطيع أن أتذكر تفصيلة واحدة عن طفولة أبـي. كان يلتزم الصمت معي في هذا الأمر، تمامًا كما التزم الصمت يومًا ما أبوه، الذي لم يحكِ لأحد من أبنائه عن جده أندريه أو عن أعمامه الأوكرانيين.

(1) الإدريسـي، أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسـي الهاشـميّ القرشـيّ. ولد في مدينة سبتة في المغرب عام 493هـ (1100م) وتوفي في صقلية عـام 560هـ (1166م)، أحد كبـار الجغرافييـن في التاريـخ. اتخذ من صقلية مقرا له بعد سـقوط الدولة الإسـلامية. (المترجم)

كان دستويفسكي مهتمًا أيضًا بتربيتنا الدينية وكان يحب أن نذهب معًا لأداء الصلوات. كان أبي يؤدي التزاماته الدينية بكل إخلاص. يصوم ويذهب إلى الكنيسة مرتين في اليوم قبيل الأعياد، مُنحّيًا جانبا كل أعماله الأدبية. كان يحب الخدمة أيضًا في هذا الأسبوع المقدس، وخاصة في أيام الفصح، حيث يصاحبها الغناء البهيج، في هذا القداس لا يصطحب الأهالي عادة أطفالهم إلى الكنيسة، حيث تبدأ مراسمه في منتصف الليل لتنتهي في الثانية أو الثالثة صباحًا. على أن أبي كان يريدني أن أشاهد هذا القداس الرائع، وكان عمري آنذاك تسع سنوات لا أكثر. كان يوقفني على كرسيّ لكي أرى على نحو أفضل ويظل ممسكًا بي، ثم يروح يشرح لي معنى هذه الطقوس الجميلة.



الفصل الرابع والعشرون
دستويفسكي وتورجينيف

قبل أن أنتقل للحديث عن الأعوام الأخيرة من حياة أبي، أود أن أذكر بضع كلمات عن علاقاته بتورجينيف وتولستوي. عندما كنت أتبادل الحديث مع معجبي دستويفسكي من الأوروبيين، كنت كثيرا ما ألاحظ أن هذه العلاقات كانت تثير اهتمامهم تحديدًا.

تعرَّف أبي على تورجينيف، عندما كانا شابين مفعمين بالأفكار الطموحة مثل غالبية الشباب في مطلع طريقهم الإبداعي. في تلك الفترة لم يكونا معروفين بعد لدى الجمهور الروسي، كانت موهبتهما قد بدأت لتوها في الازدهار. كانا يترددان على نفس الصالونات الأدبية، ينحنيان أمام عظمة نفس الشعراء والأدباء المفضلين لديهما. كان أبي معجبا للغاية بتورجينيف، كما يعجب طالب في المدرسة بزميل له أكثر منه جمالا وأناقة، رجل يحظى بنجاح كبير لدى النساء، ويمثل له نموذجا للرجل المثالي. على أنه كلما ازدادت معرفة دستويفسكي بتورجينيف، كلما راح هذا الإعجاب يتبدل شيئا فشيئا ليصبح نفورا. فيما بعد كان يُسمِّي تورجينيف «بالمتغطرس»، وقد دخلت هذه الكلمة إلى روسيا في هذا الوقت لتحل محل كلمتي «المتكلِّف» و«المُدَّعي». كان غالبية زملاء أبي من الأدباء يشاركونه هذا الرأي. عندما كنت أسأل الكُتَّاب الروس الأكبر سنًّا عن علاقاتهم بتورجينيف،

كنت ألاحظ دائما في أحاديثهم عنه ظلا من الازدراء، وكان هذا الظل يختفي تماما إذا ما تحول الحديث عن تولستوي. كان تورجينيف يستحق ذلك جزئيا. إنه من هؤلاء الناس غير القادرين على أن يكونوا طبيعيين، ودائما ما يريدون أن يراهم الناس بصورة هم في واقع الأمر ليسوا أهلا لها. في شبابه جعل تورجينيف من نفسه أرستقراطيا، وهو دور لم يكن يملك الحق في أدائه. كانت الأرستقراطية الروسية جماعة ضيقة للغاية، أقرب للعشيرة منها إلى الطبقة. تتكون من عدد محدود من أحفاد النبلاء الروس والأوكرانيين، وهم سلالة وجهاء القبائل التترية، التي انضمت إلى روسيا، إضافة إلى بارونات أقاليم البلطيق والأمراء البولنديين والكونتات. كل هؤلاء تربوا بنفس الطريقة، يعرفون بعضهم البعض وتربطهم جميعا تقريبا قرابة بشكل أو آخر بالأرستقراطية الأوروبية. هؤلاء كانوا ينظمون الحفلات الفاخرة للسفراء ويضفون الجلال والمهابة على البلاط الروسي. وفي أثناء ذلك كان تأثيرهم قليل على الحياة السياسية للبلاد، التي أصبحت منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر في يد النبلاء بالوراثة، الذين لا يشبهون النبلاء الإقطاعيين في شيء. وقد شرحت لتوي أصل هذه الأرستقراطية، عندما تحدثت عن نبلاء ليتوانيا، هذا الاتحاد في بولندا وليتوانيا كان يحمل بشكل خاص طابعا عسكريا. أما في روسيا فقد تحول إلى اتحاد زراعي لمُلَّاك الأراضي. وقد دعمت يكاترينا الثانية هذا الشكل الاجتماعي بقوة، وكانت لديها الرغبة في إنشاء شيء يكون بمثابة طبقة ثالثة. اتحد المُلَّاك الزراعيون لكل إقليم واختاروا رئيسا للنبلاء يهتم بشئونهم. آنذاك كان المنصب شرفيا فقط، وأحيانا ما كان هذا الرئيس يتعرض للإفلاس بسبب إقامته لحفلات الرقص ومآدب العشاء الفاخرة التي يقيمها للنبلاء الذين انتخبوه. على الرغم من ذلك، فإن وضع رئيس النبلاء كان يُعد دائما منصبا باعثا على الحسد، فقد كانت له مزايا عديدة. سرعان ما قام الإمبراطور بترقية رئيس النبلاء المنتخب حديثا إلى رتبة ياور ودعا الجميع إلى احتفال يضم كافة العاملين في البلاط. لم يكن رئيس النبلاء يخضع لسلطة أي

وزير وكان بإمكانه دائما أن يطلب مقابلة الإمبراطور لكي يناقش معه شئون النبلاء في محافظته. كان قياصرتنا يدعمون بشدة هذه الاتحادات، حتى أنهم كانوا هم أنفسهم يسعون للانضمام إلى طبقة النبلاء بالوراثة. وهكذا أعلن نيكولاي الأول أنه «النبيل الأول في الإمبراطورية». كان الأمراء العظام بعد أن يشتروا الأراضي في محافظة ما يساوون أنفسهم بأعضاء الاتحاد الآخرين، وكانوا يوقعون البرقيات الموجهة إلى رئيس النبلاء على النحو التالي «النبيل بالوراثة... فلان»، بدلا من «الأمير العظيم... فلان». كان الإمبراطور يوافق بكل سرور على دعوات النبلاء على الإفطار والغداء أو شرب الشاي في اجتماعات النبلاء في هذه المحافظة أو تلك، فيذهب بصحبة عائلته، وهناك يحاول أن ينسى أنه الإمبراطور ويتصرف باعتباره «النبيل رومانوف». وقد حضرتُ عددا من هذه الزيارات الإمبراطورية وكنت مندهشة لغياب الآداب الرسمية المعمول بها وللبساطة الأبوية التي سادت هذه الاستقبالات. وقد سجَّل الأرستقراط الروس أسماءهم في سجل أنساب النبلاء، وراحوا يتطلعون إلى شرف انتخابهم لمنصب رؤساء النبلاء، لكنهم لم يكونوا يحظون دائما بهذا الشرف. في أوقات الانتخابات كانوا كثيرا ما يأخذون الأمير في عربة تجرها «خيول سوداء» ثم ينتخبون نبيلا من أصول غير معروفة ولكنه يلقى احتراما كبيرا، فتصبح له نفس الحقوق التي يحظى بها ممثل أكثر العائلات عراقة. بمرور الوقت أصبحت هذه الاتحادات غنية للغاية، لأن المُلّاك العُزاب أو الأرامل الذين ليس لديهم أطفال، كانوا كثيرا ما يوصون بممتلكاتهم من أراض وبيوت إلى اتحادات النبلاء بالوراثة. بعد تحرير الفلاحين أفلس غالبية المُلّاك واضطروا لبيع أراضيهم. كان لدى اتحادات النبلاء الحكمة في ألا يتخلوا عن هؤلاء النبلاء دون مساعدة. وبفضل الأموال المتراكمة نجحوا في أن يخصصوا معاشا للأرامل ومنحا مالية للأطفال، ومن دون هذه المساعدات لم يكونوا ليستطيعوا دفع مصروفات التعليم ولهبطوا إلى مستوى الفلاحين الأميين. لقد حفظت مساعدة اتحادات النبلاء لروسيا الثقافة الموروثة، وهي الشيء

الوحيد، الذي يجعل الإنسان متحضرا. إننا ممثلو أحفاد النبلاء نفخر باتحاداتنا، التي أنفقت الملايين من أجل أن تثقف روسيا بالثقافة الأوروبية. وبالإضافة إلى ذلك، وهو الأهم، أنها حققت هذا الأمر دون أن تفكر في الانفصال عن الكنيسة الأرثوذوكسية، وتميزت دائما بنزعتها الوطنية. إلى ذلك يعود السبب في أن طبقة النبلاء الروسية أصبحت قوية ومؤثرة وسرعان ما تمتعت بسلطة واسعة.

بالمناسبة فإن تورجينيف ينتمي إلى أحفاد طبقة النبلاء بالوراثة هذه[1]، كما ينتمي دستويفسكي وتولستوي أيضا إلى هذه الطبقة مثل غالبية الكُتّاب في تلك الفترة. وباستثناء جونتشاروف[2]، وكان ابنا لقِنٍّ، وبيلينسكي[3]، وهو ينتمي إلى البورجوازية الصغيرة، أما باقي الكُتّاب، الذين كانوا يحيطون بأبي في سن الشباب: جريجوروفيتش، بيلشييف، نكراسوف، سالتيكوف ودانيليفسكي، فكانوا من أحفاد النبلاء بالوراثة. البعض منهم كانوا من أصول نبيلة أكثر عراقة من طبقة تورجينيف، مثل الشاعر مايكوف، الصديق المقرب لأبي، وكان من عائلة بالغة القدم. كان يتشرف بانتمائه لجده القديس الأرثوذوكسي نيل سورسكي، الذي

(1) عادة ما تضاف كلمة «بالوراثة» على هؤلاء النبلاء، لأن هناك في روسيا نبلاء آخرين يسمون «بالنبلاء الشخصيين»، وقد دخل هذا الاصطلاح إلى روسيا في ذلك الزمن، عندما كان بعض الناس، الذين لا ينتمون إلى النبلاء بالوراثة، وهؤلاء كان من الممكن أن يتعرضوا للتعذيب الجسدي. ولما كانوا قد تلقوا تعليما عاليا بالجامعة كان من الضروري حمايتهم من هذه العقوبات، ومن ثم فقد تم منحهم لقب «نبيل شخصي»، ومع ذلك لم يكن بإمكانهم أن يسجلوا أسماءهم في سجل النبلاء بالوراثة أو يتمتعوا بميزاتهم. ومنذ اليوم، الذي تم فيه إلغاء العقوبات الجسدية فقدت النبالة الشخصية كل معنى لوجودها.

(2) جونتشاروف، إيفان ألكسندروفيتش (1812-1891): كاتب روسي واقعي. من أشهر أعماله «أوبلوموف» تمت ترجمته إلى العربية. (المترجم)

(3) بيلينسكي، فيساريون جريجوريفيتش (1811-1848): أشهر نقاد الأدب الروس في روسيا، كان له تأثير كبير على تطور الفكر الاجتماعي الروسي والأدب. (المترجم).

رفعته الكنيسة الأرثوذوكسية إلى مرتبة القديسين[1]. من البديهي تماما أن طموح تورجينيف للانتماء إلى نسب أكثر نبلا من زملائه الأدباء، قد أغضبهم وبدا لهم امرًا مضحكا. أما الأرستقراطيون الروس، فقد اكتفوا من جانبهم بالسخرية من هذه الادعاءات ورفضوا قبول تورجينيف باعتباره وجيها من الوجهاء، عندما حاول أن يدخل إلى المجتمع الراقي. انتقم تورجينيف لكرامته التي جرحتها الأرستقراطية الروسية بأن وصف في روايته «الدخان» عددًا من المغامرين من علية القوم، الذين يمكن للمرء أن يقابلهم في أي بلد، والذين اعتبرهم بسذاجة ممثلين للطبقة الروسية الرفيعة.

لم يمنع جنون العظمة عند تورجينيف، وهو مرض كان شائعا في روسيا، أن يظل أبي صديقا له. إن الكِبْر داء بشع يجتاح بشكل أسوأ من الأنفلونزا، فإذا ما اضطررت وقطعت صلتك بكل معارفك المتكبرين، فسوف تجد نفسك ناسكا. كان دستويفسكي يغفر لتورجينيف، بطبيعة الحال كِبْره، كما يغفر ضَعْفَ أولئك الذين يحبهم. على أن أبي كان قد قطع علاقته بتورجينيف قبل فترة وجيزة من اعتقاله والحكم عليه بالإعدام. وكان أبي قد توقف عن التردد على الصالونات الأدبية. وحتى نفهم ما الذي حدث بين دستويفسكي وبين الكُتَّاب الشباب الآخرين، علينا أن نعود إلى الوراء قليلا.

لم تتمتع بطرسبورج مطلقا بحب الروس. هذه العاصمة المصطنعة، التي بناها بطرس الأكبر فوق المستنقعات، الباردة، الرطبة، المفتوحة أمام رياح الشمال، الغارقة في الظلام ثلاثة أرباع العام، لم تكن تعجب أبناء وطني. هؤلاء كانوا يفضلون عليها المدن الآمنة في وسط روسيا، ذات المناخ الصحي المشمس. كان الروس محجمين عن العيش في بطرسبورج. فاضطر أباطرتنا إلى

(1) كانت الكنيسة الأرثوذوكسية لا ترفع الموتى إلى درجة القديسين إلا بعد مرور ثلاثة - أربعة قرون من وفاتهم.

أن يسـمحوا للسـويديين وألمان منطقة البلطيق أن يسكنوا في العاصمة الجديدة. في القرن الثامن عشر كان ثلاثة أرباع سكان بطرسبورج يتحدثون بالألمانية. ومع بداية القرن التاسع عشـر سادت روح الشاعر شـيللر[1] ألمانيا بأسرها لتنتقل هذه الروح إلى روسيا أيضا. أصبح الجميع شعراء. كان الرجال يقسمون على الصداقة الخالدة، والنساء يغمى عليهن عند نطقهن لأي كلمة نبيلة. الفتيات الشابات رحن يتبادلن القبلات الحارة والخطابات الطويلة، المليئة بأكثر المشاعر سموا. وصلت اللياقة والمجاملة إلى حد أن النسـاء كن يسـتقبلن زوارهن بالابتسـام ويضحكن علـى كل كلمة تقال. هذه الحساسـية المبالغ فيها وجدت انعكاسـا لها في جميع روايات تلك الفترة.

عندمـا وقـع حريق موسـكو في عـام 1812، هـرب الكثيرون من سـكانها إلى بطرسـبورج واسـتقر بعضهم هناك. وقد حذت حذوهم عائلات أخرى وسرعان مـا أصبحـت العاصمة المفضلـة لبطرس الأكبر آهلة بالسـكان لتسـود فيها اللغة الروسـية. كان أبي قد التحق آنذاك بمدرسـة الهندسـة. آنذاك اعتبر مواطنو بلدي البسطاء أن «النزعة الشيللرية» مضحكة وبالغة العاطفية، وقد كانوا على حق بعض الشـيء، لكنهـم عندما أرادوا أن يحتجوا ضـد هذه النبرة، وقعوا فـي فخ المبالغة والقسـوة. أعلنوا أن الشخص الذي يحترم نفسه يجب أن يتحدث بصراحة ودون مواربـة، وبحجة الصراحة راحوا يوجهون البذاءات بعضهم لبعض. كانت جدتي السـويدية تربـي أطفالها على الروح «الشـيللرية»، وكذلك كانـت أمي تحكي لي كثيرا، كيف كانت تشعر بالحرج عندما كبرت وأصبحت تزور العائلات الروسية. كانـت تقـول لي: «مهما حاولت أن أكون لطيفة ومهذبـة، كانوا يعاملونني بوقاحة ويقولون لي شيئا ما مهينا، حتى أنني لم أكن أستطيع أن أحتج وإلا راحوا يسخرون

(1) شيللر، يوهان فريدريك (1759-1805): شـاعر ألماني ومسرحي ومُنظِّر لفن التنوير. أسس مع ليسينج وجوته الأدب الألماني الكلاسيكي. (المترجم)

مني. الأمر الوحيد الذي كان بإمكاني أن أفعله، هو أن أرد بنفسي بوقاحة إذا لزم الأمر». رويدا رويدا بات المواطنون في بلدي شديدي الولع بهذا الأسلوب في السلوك، اندفعوا نحو موضة المبارزات الكلامية في الندوات، في الصالونات، في الدعوات على الغداء. كنت ترى رجلين أو سيدتين يأخذان في تبادل السباب المقذع، وكلما حمي وطيس هذه الملاسنة السوقية، كلما راح المحيطون، الذين يسمعونهم باهتمام ينحازون لهذا الطرف أو للطرف الآخر. في أعماق معارك الديكة هذه يمكن للمرء أن يشاهد الجلافة المغولية، الكامنة في قلب كل روسي، والتي تستيقظ لديه، عندما ينفجر غاضبا، أو يمرض، أو يفاجئه شيء ما. يقول الفرنسيون، الذين لاحظوا كثيرا كيف أن الروسي، حتى من تربى منهم على الطريقة الأوروبية، والذي يمتلك سلوكا راقيا، يصبح فظا ومتوحشًا مثل أي فلاح في سورة غضبه: «إذا حككت روسيًّا، فستكشف فيه تتريا».

دستويفسكي، الذي تربى على يد أب مهذب، نصف ليتواني، نصف أوكراني، لم يكن يتصرف كما يتصرف التتري الفظ. فإذا حكمنا عليه استنادا إلى خطاباته العاطفية إلى أخيه ميخائيل، أو إلى خطاباته المفعمة بالاحترام إلى أبيه، سنجد لديه هذه النبرة الشيللرية، التي كانت سائدة في عائلة جدي. لقد أدهشت الجلافة الروسية دستويفسكي، عندما اصطدم بها للمرة الأولى في مدرسة الهندسة، وأصبحت، ربما، هي السبب الرئيسي لاحتقاره لرفاقه في هذه المدرسة، وقد اكتشف هذه الجلافة أيضا في الصالونات الأدبية في ذلك الزمن. عندما كان دستويفسكي غير معروف بعد، لم يكن مضطرا لأن يصطدم بهذه الجلافة. كان يلوذ بالصمت ويراقب ما يحدث في العالم من حوله، أما جريجوروفيتش، الذي عاش معه فترة، فكان قد تربى على الطريقة الفرنسية وظل طول عمره دمث الخلق[1]. على أنه عندما أثار النجاح المفاجئ لرواية دستويفسكي الأولى غيرة

---

(1) جريجوروفيتش، ديمتري فاسيليفيتش (1822-1899-1900): كاتب روسي، كتب=

الكُتّاب الشباب الآخرين، راحوا ينتقمون منه بالوشايات وبالتصرفات الوقحة. حاول أبي أن يدافع عن نفسه كثيرا، ولكنه لم يكن يعرف كيف يكشر عن أنيابه أو يعبر عن ضجره بما يستحقه هؤلاء من وقاحة. كان أبي عصبيا، سريع التهيج على عادة صغار أبناء من يدمنون الشراب. عندما كان دستويفسكي يفقد توازنه، كان من الممكن أن يتفوه بكلام عبثي، أن يقترف أمرًا مخيفا، وعندئذ يتخذه رفاقه الأجلاف هزوا. كان تورجينيف على وجه الخصوص يحب أن يخرجه عن شعوره، وهو من أصول تترية، وكان أكثر الجميع شرًّا وأكثرهم غلظة. عبثا حاول بيلينسكي ذو الروح الطيبة أن يدافع عن أبي، كان يوبخ خصومه ويحاول أن يردهم إلى صوابهم. كانت أكثر متعة عند تورجينيف هي أن يدفع زميله العصبي الحساس إلى المعاناة. ذات يوم في صالونات بانايفا[1] راح تورجينيف يحكي لأبي أنه تعرف على قروي مغرور، يظن أنه عبقري، ثم راح يصف على نحو كاريكاتوري دستويفسكي. كان الجميع ينتظرون بشوق أن ينفجر أمامهم صراع ديكة، إلى هذا الحد كان الناس حريصين على ذلك في ذلك الزمن. صفق الحضور لتورجينيف منتظرين بفضول كيف سيجيب عليه دستويفسكي. لم يكن أبي ديكا مقاتلا. وإنما رجلا مهذبا، وكان الإحساس بالشرف أكثر تطورا لديه بكثير من مثيله لدى المحيطين به من الوحوش الروس. اكتفى أبي بهذا القدر من السخرية من جانبهم، في هذه المرة التي أُهين فيها بغلظة. نهض وقد شحب وجهه وخرج دون أن يُودع أحدا[2]. أصابت الدهشة الكُتّاب الشباب من رد فعله. ذهبوا لزيارة أبي، دعوه

=عددا من الروايات تميزت بروح العداء للفنانة.

(1) بانايفا، أفدوتيا ياكوفليفنا (1802-1893): كاتبة روسية كانت تعقد صالونا أدبيا في بيتها. (المترجم)

(2) كتب المؤرخ ف.س. فيدوناس يقول: «الليتواني متحفظ بطبعه، يمكن القول أنه متواضع أيضا، لا يهتم بالصدام مع الذين يتصرفون بوقاحة، وعندما يواجه الصلف فإنه يواجهه بكبرياء فريدة».

لزيارتهم، كتبوا إليه، لكن محاولاتهم ذهبت سدى! رفض دستويفسكي الحضور إلى الصالونات الأدبية. كان هؤلاء الكُتّاب في مستهل مستقبلهم الأدبي، ولم يكن موقفهم راسخا بعد. كان دستويفسكي آنذاك محبوبا من الجمهور، وقد خشوا أن يتخذوا موقفا منه فتقف هذه الجماهير في جانبه وتدينهم لقسوتهم وما لديهم من مشاعر الغيرة والحسد. لجئوا إلى الوشايات، السلاح المفضل لدى الروس، أو، إن شئنا الدقة، المجتمع كله، الذي كان ما يزال يعيش حالة طفولية. راحوا يصرخون في كل مكان أن دستويفسكي مغرور وأناني على نحو لا متناه، وأنه ذو شخصية كريهة منفرة. تركهم أبي يثرثرون على هواهم. لم يكن يبالي طول عمره بالرأي العام ولم يرد على هذه الوشايات العدائية. فقد دستويفسكي نصائح بيلينسكي والأحاديث الأدبية مع الكُتّاب الآخرين، وهي أمور كانت مهمة له في الوقت نفسه إلى حد كبير. قال لنفسه، إن أفضل أصدقاء المرء هو الشرف والمهابة، وهما كفيلان أن يعوضاه عن الجميع. للأسف فقد كان من الصعب على من كان شابا أن يعيش زاهدا. إن العقل الفتي بحاجة إلى تبادل الأفكار حتى يتطور. بعد أن امتنع عن زيارة الصالونات الأدبية بدأ دستويفسكي في البحث عن تواصل فكري آخر ليقوده سوء حظه للانضمام لحلقة بتراشيفسكي.

اختفت في أيامنا هذه صراعات الديكة وتلك النبرة الرديئة، التي تحدثت عنها هنا على الأقل في المجتمع الصالح. مواطنونا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كثيرا ما ذهبوا للسياحة في بلدان أوروبا، شاهدوا هناك دماثة الخلق فعملوا على نقلها إلى روسيا. على أية حال فقد اعترف أبي في «يوميات الكاتب» عن عام 1876 للقراء أنه كان يحمل معه دائما في طريق عودته من أوروبا ما استطاع حمله من كتب ومجلات حتى لا يتبادل الحديث مع جيرانه في عربة القطار. كان يؤكد أن الأحاديث مع الغرباء تنتهي دائما بفاحش القول من جانبهم على نحو أو آخر، ومن دون سبب على الإطلاق، اللهم إلا للاستمتاع بالإساءة إلى

جيرانهم. يا للأسف! لقد كان دستويفسكي محقا تماما! مواطنونا يفتقرون إلى التربية الحسنة بشكل فظيع. ولعل هذا هو السبب في أن الروس يجتهدون في رحلاتهم أن يتحاشوا بعضهم بعضا مفضلين التعامل مع الأجانب.

كان لثبات أبي على مبدئه أثر كبير على الكُتَّاب الروس. لقد أدركوا أن الإحساس بالكرامة لديه أقوى بكثير من معاصريه، ومن ثم يصبح من المستحيل التعامل معه بهذه الوقاحة، التي كانت دارجة في أوساط الكُتَّاب. عندما عاد من سيبيريا كان أصدقاؤه الجدد، موظفو مجلة «الزمن» يعاملونه باحترام جم. لم يكن أبي يرغب في شيء سوى أن يعيش في جو من الصداقة مع زملائه، دون أن يضحي بشرفه من أجل هذه الصداقة، أصبح صديقهم المخلص وظل وفيا لهم طول حياته. حذا تورجينيف حذو الكُتَّاب الآخرين وراح يعامل أبي على نحو مهذب، وإن يكن من دون حب[1]. نادرا ما كانا يلتقيان. في تلك الفترة، وكان أبي قد أنهى مدته في سيبيريا، أصاب سوء الحظ تورجينيف. وقع في قصة حب مع مغنية أوروبية شهيرة تبعها إلى الخارج ليقضي حياته كلها عند قدميها. هكذا استقر في باريس، وكان يأتي إلى روسيا في زيارات خاطفة فقط في موسم الصيد. وبسبب هذا الولع البائس لم يتزوج تورجينيف ولم يصبح أبدا رب أسرة. كان كثيرا ما يصور في رواياته شخصية السلافي ضعيف الإرادة، الذي يتحول إلى عبد لامرأة طاغية ليتعذب دون أن يجد في نفسه القوة ليلقي عن كاهله هذا النير. لقد قسا قلب تورجينيف، وبدلا من أن يُصلح العذاب الذي لاقاه من خصاله

---

(1) كان تورجينيف يتعامل بلطف مع أبي، عندما كان الأخوان دستويفسكي يصدران مجلتهما. ذات يوم، وكان في بطرسبورج، أقام حفل غداء لأعضاء هيئة تحرير مجلة «الزمن» كلهم. كان تورجينيف حريصا دائما على ألا يضيع مصلحته، كان يقيم علاقات مع الناشرين الأثرياء ويدبر أموره بحيث يدفعون له أجرا عاليا، بينما دستويفسكي كان مضطرا لأن يطلب من ناشريه أن يدفعوا له مقدما. كان عليه طول حياته أن يرضى بما يريدون أن يدفعوه له.

السيئة، إذا به يضاعفها. ولمّا كانت الأرستقراطية الروسية قد رفضت بحزم أن نعتبره شخصا كريم المحتد كما تخيله لنفسه، غيَّر تورجينيف من دوره، ومن الآن فصاعدا اتخذ صورة الأوروبي. بالغ في اتباع الموضات الباريسية وراح يتصرف كما يتصرف الشباب الفرنسي المتأنق مثيرا للسخرية أكثر من ذي قبل. كان يتحدث عن روسيا باشمئزاز، وكان يؤكد أنها لو اختفت فإن الحضارة الإنسانية لن تضار أبدا بأي قدر من جرّاء ذلك. هذا الموقف الجديد من جانب تورجينيف أثار حفيظة أبي. كان يرى أنه إذا كانت مواقفه السابقة مثيرة للسخرية، فإن موقفه الحالي ينذر بالخطر. ممطرا روسيا بالاحتقار، أصبح تورجينيف زعيما لحزب «ذوي النزعة الغربية»، والذي كان يعد آنذاك حزبا ضعيفا وقد أضفى تورجينيف عليه من قوة موهبته التي لا جدال فيها.

في كل مرة كان أبي يلتقي فيها بتورجينيف في الخارج، كان يحاول أن يشرح له كيف أنه يضر بروسيا باحتقاره الظالم لها. لم يكن تورجينيف يرغب في الاستماع لأي شيء يقال له، وكان الجدل ينتهي في كل مرة بالشجار. بعد عودته إلى روسيا بعد أربع سنوات من وجوده في أوروبا، وجد دستويفسكي نفسه واحدا من أبرز الشخصيات الرئيسية المعادية لأصحاب النزعة الغربية، والذين أُطلق عليهم اسم حزب الموالين للسلافية، وكان مكونا من الوطنيين الروس المتحمسين. أقنع التأثير المميت الذي تركه أصحاب النزعة الغربية على المجتمع الروسي غير الناضج دستويفسكي بالبدء في الدخول معهم في صراع جسَّده في رواية «الشياطين»، وحتى يجعلهم مثار سخرية في عيون الجمهور الروسي، صوَّر زعيمهم بطريقة كاريكاتورية، عندما وصف وصول الكاتب المشهور كارامزين إلى مدينة روسية ريفية. هنا راح أنصار النزعة الغربية يرفعون عقيدتهم إلى السماء. عندما كان تورجينيف يسخر من أبي ويحاكي أبطال رواياته على نحو ساخر، كانوا يرون في ذلك أمرا عاديا تماما، أما عندما رد عليه دستويفسكي

بنفس الطريقة اعتبروا ذلك انتهاكا بشعا دنيئا، هكذا فهمت الانتليجنسيا الروسية العدالة.

برغم تصديه لتورجينيف وأفكاره السياسية، كان أبي معجبا بشدة بأعماله. وعندما كتب عنها في «يوميات الكاتب» لم يجد كلمات لكي يعبر عن هذا الإعجاب. وعلى العكس من ذلك فإن تورجينيف لم يرغب بأي حال أن يعترف أن لدى دستويفسكي موهبة، وظل طول حياته يسخر منه، وفي رواياته نجده يظهر أنه مغولي قح، شرير ميَّال للانتقام.



الفصل الخامس والعشرون
دستويفسكي وتولستوي

تشكلت علاقة دستويفسكي بتولستوي على نحو مغاير تماما. هذان الكاتبان الروسيان العظيمان حمل كل منهما للآخر عاطفة حقيقية وأعجب كل منهما بالآخر إعجابا مخلصا. كان لهما صديق مشترك هو الفيلسوف نيكولاي ستراخوف، الذي كان يعيش في بطرسبورج في الشتاء، أما في الصيف فكان يسافر إلى القرم لقضاء بضعة أشهر عند صديقه دانيليفسكي، وأحيانا ما كان يتوقف في موسكو أو في ياسنايا بوليانا[1] حتى يقابل تولستوي. كان أبي يحب ستراخوف بشدة وكان دائما ما يستمع باهتمام إلى نقده. كان تولستوي أيضا يحب ستراخوف ويتبادل معه الخطابات. يقول تولستوي في أحد خطاباته إلى ستراخوف: «أعدت لتوي قراءة «مذكرات من البيت الميت»، يا له من كتاب رائع! عندما تقابل دستويفسكي قل له إنني أحبه». عرض ستراخوف على أبي هذا الخطاب، الذي أدخل عليه سرورا بالغا. فيما بعد عندما صدرت رواية تولستوي التالية، قال دستويفسكي لستراخوف بدوره: «اكتب لتولستوي. قل له إنني أشعر بسعادة بالغة من تأثير روايته الجديدة». على هذا النحو راح هذان الكاتبان الكبيران يتبادلان المجاملات من خلال ستراخوف، لكنها كانت مجاملات جادة وحقيقية. كان تولستوي أيضا

(1) ياسنايا بوليانا: اسم ضيعة تولستوي الواقعة في محافظة تولا.

معجبا بأبي بنفس القدر الذي كان أبي معجبا بأعماله. ومع ذلك فإنهما لم يلتقيا أبدا ولم يعبرا عن رغبتهما في التعارف. لماذا؟ يُخيل إليَّ، أنهما كانا يخشيان بدرجة مميتة أن يدخلا في شجار بمجرد أن يلتقيا. كان كل منهما يقدر موهبة الآخر تقديرا رفيعا، لكن أفكارهما ورؤيتهما للعالم كانتا على النقيض.

كان دستويفسكي يحب روسيا بولع، لكن هذا الولع لم يُعمِه عن رؤية الخصال المعيبة لمواطنيه. لقد باعدت الثقافة الأوروبية بين دستويفسكي وبين الروس. هذا الليتواني كان يحبهم كما يحب إخوته الصغار، لكنه كان يفهم إلى أي حد ما يزالون صغارا، وأن عليهم أن يتعلموا وأن يعملوا كثيرا. كان النقاد الأوروبيون يخلطون كثيرا بشكل خاطئ بين دستويفسكي وبين أبطال رواياته[1]. وباعتباره كاتبا عظيما، وهو جدير بذلك، فقد كان يصور مواطنيه من الواقع مباشرة. لقد سادت الفوضى الأخلاقية رواياته، لأن الفوضى كانت تسود وطننا الفتي والفوضوي (الأنارخي). هذه الفوضى لم تكن موجودة في حياة دستويفسكي الشخصية. بطلاته كن يهجرن أزواجهن ويهرعن إلى عشاقهن، أما هو فكان يبكي كالطفل، بعد أن عرف بشقاء ابنة أخيه ورفض أن يتحدث إليها وآثر أن يقطع علاقته بها. أبطاله يعربدون، يلقون أموالهم من النافذة، بينما هو يظل يعمل سنوات طويلة كالعبد كي يسدد ديون أخيه، معتبرا أن ذلك مسألة شرف. أبطاله، آباء سيئون، أزواج سيئون، بينما هو زوج وفي، رب أسرة مثالي، يعتني بتربية أطفاله، شأنه شأن القليل من الناس في روسيا. أبطاله شديدو اللامبالاة تجاه واجباتهم الاجتماعية، أما هو فوطني غيور، الابن المخلص للكنيسة، سلافي، مخلص لقضية أبناء جنسه. دستويفسكي يعيش كأوروبي، يعتبر أوروبا وطنه الثاني ودائما ما ينصح الآخرين الذين يسألونه عن رأيه بأن يدرسوا وأن يقرءوا وأن يستوعبوا الثقافة الأوروبية التي تنقص غالبية مواطنينا.

---

(1) لم يرتكب النقاد الروس مثل هذه الأخطاء مطلقا.

أما تولستوي فكان له موقف آخر. كان يحب روسيا بنفس الإخلاص مثل دستويفسكي، لكنه لم يدنها. على العكس! كان يحتقر الثقافة الأوروبية وكان يرى في جهل فلاحينا قمة الحكمة. كان ينصح كل المثقفين الذين يجيئون إليه بأن يرفضوا العلماء، وأن يهجروا العلم والعلماء والفنون، وأن يعودوا إلى الأرض وأن يعيشوا تماما مثلما يعيش الفلاحون. كانت الكونتيسة تولستايا تحكي لأمي قائلة: «كنت ألح على أبنائي بضرورة أن يدرسوا وأن يتقنوا اللغات الأجنبية، لكي يكبروا ويصبحوا أناسا مثقفين، بينما كان أبوهم ينصحهم بترك المدرسة والذهاب لاستصلاح الأرض مع الفلاحين». كان نبي ياسنايا بوليانا معجبًا بعيوب أبناء وطنه، كان يشاطرهم سخفهم الطفولي، وكان مثاله الأعلى هو المثال الشرقي للشعب الروسي: عدم فعل أي شيء، الجلوس يوما وراء الآخر مكتوف الأيدي، النوم طول اليوم، أن تحلم وتبصق على السقف[1]. هذا الحواري لمبدأ الانهزامية ينصح أتباعه أن يسلموا أسلحتهم للعدو، ألا يحاربوا الشر وأن يسمحوا له أن يُغرق العالم، بعد أن يعيدوا قضية الصراع من الشر إلى يد الله. كان يعمل من أجل الانتصار على البلاشفة ويفترض هو نفسه أنه يدعو للأفكار المسيحية. لقد نسي أن المسيح لم يجلس على مقعد في ياسنايا بوليانا، وإنما جاب الجليل كله سيرًا على الأقدام دون أن يركن إلى الراحة، كان يصيب بالكاد شيئا من الطعام أثناء سيره، ينام قليلا. كان يوقظ الضمائر ويدق على أبواب القلوب، يبذر الحقيقة في كل قرية يمر بها، يكوِّن أتباعا له يرسلهم لنشر تعاليمه، محاربين الشر دون كلل، وظل ثابتا على موقفه حتى ذلك اليوم الذي جرى فيه تسليمه إلى أعدائه.

ظهرت الخلافات بين أبي وتولستوي بشكل خاص وواضح إبان الحرب الروسية - التركية. في «يوميات الكاتب» دافع أبي عن تحرير الشعوب السلافية

(1) تعبير روسي يعني البطالة.

مطالبا باستقلالها وراح يبحث عن إمكانية التطور الحر لأفكارها القومية. كان مستاء بشدة بعد أن قرأ عن وحشية الأتراك في التعامل مع الصرب والبلغار المساكين، ودعا الروس إلى الإسراع بحمل السلاح وتحرير هذه الشعوب المعذبة. كان يكرر بحماس أن هذا واجب روسيا، وأنها لا يمكن أن تترك شعوبا من جنسها وعلى عقيدتها. على العكس من ذلك، كان تولستوي يرى أن روسيا ليس أمامها شيء لتفعله في البلقان وأن عليها أن تترك السلافيين لمصيرهم، بل إنه كان يؤكد أن سخط الروس على الوحشية، التي يمارسها الأتراك ضد ضحاياهم من البلغار، ليست أكثر من تصنُّع وأن الروسي لا يعاني ولا يمكن أن يعاني أي نوع من التعاطف وهو يقرأ وصف هذه الفظائع الوحشية. لقد اعترف تولستوي صراحة أنه شخصيا لا يشعر بأي تعاطف. يقول دستويفسكي في «يوميات الكاتب»: «كيف استطاع ألا يشعر بأي تعاطف؟ الأمر بالنسبة لي لغز»؟ عداء تولستوي للنزعة السلافية الحماسية بشكل عام، بدت له فضيحة بالنسبة لناشره كاتكوف، لأن هذا الناشر رفض أن يطبع في مجلته خاتمة رواية «أنا كارينينا»، التي انعكست فيها وجهات نظر تولستوي المعادية للسلافيين. وقد ظهرت الخاتمة بعد ذلك في كتيب منفصل. وباعتباره واحدا من زعماء أنصار النزعة السلافية، رأى دستويفسكي أن من واجبه أن يسجل في «يوميات الكاتب» موقفه ضد هذه العلاقة الغريبة من جانب تولستوي تجاه ضحايا الأتراك. لقد دخل هنا في صراع مختلف تماما عن صراعه في حينه ضد تورجينيف. آنذاك كان دستويفسكي يحتقر رفيق شبابه القاسي ولم يجد بُدًّا من أن يعامله دون مجاملة. على أنه كان يحب تولستوي ولما يشأ أن يغضبه. وحتى يُجمِّل نقده له، رفع أبي تولستوي إلى مرتبة سامية، مؤكدا أنه أعظم الكُتّاب الروس[1]. وأن الكُتّاب

(1) كان دستويفسكي معجبا على وجه الخصوص بفن الوصف والأسلوب الرائع عند تولستوي، ولكنه لم يتقبل مطلقا فكرة أنه نبي. وعلى العكس من ذلك، كان أبي يعتبر أن تولستوي لم يفهم شعبنا. كان دستويفسكي يقول كثيرا لأصدقائه أن تولستوي=

الآخرين جميعهم، بمن فيهم دستويفسكي، لا يزيدون عن كونهم تلاميذ له. هذا النقد المجامل لم يكن ليغضب تولستوي أو يقلل من إعجابه بأبي. عندما مات أبي كتب تولستوي لستراخوف قائلا: «علمت بوفاة دستويفسكي. يخيل لي أنني فقدت إنسانا عزيزا، أكثر الناس الذين كنت بحاجة إليهم».

يرى كُتّاب السيرة الأوروبيون عادة أن تولستوي نبيل شهير ويضعونه في مواجهة دستويفسكي، الذي يعتبرونه، لا أعرف حتى الآن لماذا، بروليتاريًا تقريبًا. إن أكثر كُتّاب السيرة الروس اطلاعا لا يرتكبون مثل هذا الخطأ، كانوا يعلمون أن هذين الكاتبين العظيمين ينتميان لنفس الطبقة من أحفاد النبلاء، كما تحدثت آنفا، وأنهما لا يرتبطان بأي صلة بالأرستقراطية الإقطاعية في أوروبا. أرى أن لقب كونت الذي يحمله تولستوي يُضعف من حجة كُتّاب السيرة الأوروبيين ويسقطهم في حيرة. اللقب في روسيا لا يعني شيئا. يمكن لشخص ما أن يحمل لقبا ويحمل اسمًا لعائلة تاريخية، ولكنه في الوقت الحالي شخص بورجوازي، وقد يحدث أن تجد شخصًا لا يملك أي لقب، وفي الوقت نفسه يُعد أرستقراطيًا. كل شيء مرهون بالوضع الاجتماعي لهذا الشخص وأجداده، وكذلك بتربيته وتعليمه وعلاقاته الأسرية وبحلقة معارفه. إذا ما أراد كُتّاب السيرة الأوروبيون أن يتصوروا الوضع الاجتماعي لتولستوي في روسيا فيكفيهم أن يقرءوا بانتباه رواية «الحرب والسلام». في هذه الرواية يقدم لنا تولستوي أمراء آل روستوف. في هذه العائلة صوَّر تولستوي عائلة جده لأبيه، يعيش الكونت إيليا روستوف في موسكو ويستقبل في بيته المدينة بأسرها، ولكنه عندما يسافر إلى بطرسبورج مع عائلته لا يجد فيها معارف له، ما عدا هذه المرأة العجوز، التي استطاعت أن

=وتورجينيف لديهما القدرة على وصف حياة النبلاء بالوراثة، والتي كان يرى هو من وجهة نظره أنها تميل إلى الأفول، وأنها سرعان ما ستختفي، كانت هذه الكلمات تثير دهشة أصدقاء أبي، على أن أبي كان على حق، فها هي الثورة الآن قد غيَّرت كل ظروف الحياة الروسية. لقد رأى أبي في تولستوي وتورجينيف مجرد كُتّاب تاريخيين رائعين.

تحصل له على دعوة وحيدة لحضور إحدى حفلات الرقص الكبيرة، لكنها لم تستطع أن تقدم فارسا واحدا للرقص مع ناتاشا الجميلة ابنته، هي نفسها لم تجد معارف مناسبين لها. كان الكونت روستوف يتمتع بحب كبير من جانب نبلاء محافظته، الذين انتخبوه رئيسا لهم، لكنه عندما دعا ذات مرة الأمير ڤولكونسكي، الأرستقراطي، الذي كان يمر بالمدينة، دعاه على الغداء، نظر إليه هذا من علٍ ورفض قبول دعوته. وعندما أصرت الكونتيسة بيزوخوفا على دعوة الشابة ناتاشا على حفل لديها، أطرت عائلة روستوف كلها على لطف هذه المرأة الشهيرة. في حقيقة الأمر فإن الكونتيسة بيزوخوفا إنما دعت الفتاة فقط لكي تدخل السرور على أخيها الأمير كوراجين، الذي كان متيما بناتاشا وكان يفكر في اختطافها. كان متزوجا سرا، ومن ثم لم يكن باستطاعته أن يتزوجها، على أنه كان مستعدا، ومن دون تردد، أن يهتك عرض هذه الفتاة المسكينة، وهو التصرف، الذي لم يكن ليسمح بفعله، لو كانت ناتاشا من وَسَطِه، إذ إن ذلك كان سيقضي على مستقبله. بداهة أن آل روستوف، الأرستقراطيين الروس، كانوا مجرد نبلاء بالوراثة، تافهون. يمكن التعامل معهم بوقاحة، وقد عانوا جميعا من تغيرات هامة. ولكن في عام 1812 كان عدم المساواة ما يزال أمرا شديد الوطأة. كان تولستوي باعتباره مؤرخا قد لاحظ بدقة هذه الخصائص أيضا في «الحرب والسلام»، وقد فسَّر الوضع الاجتماعي لجده في روسيا بشكل واضح. على أن أمه كانت شيئا يشبه في خصاله الأميرة ڤولكونسكايا، وهي عانس، غبية، عندما لم تستطع أن تعثر على زوج من وسطها، تزوجت عن حب من الكونت نيكولاي تولستوي[1]. عاشت في الريف، بينما عاش أقاربها في بطرسبورج، وبفضلهم استطاع أن ينفذ إلى الطبقة الراقية في العاصمة على نحو أسهل بكثير من تورجينيف. لم يسع تولستوي إلى ذلك عنوة. لم يكن «متغطرسا» وكان لديه إحساس بكرامته

---

(1) كل هذا التاريخ وصفه تولستوي في رواية «الحرب والسلام».

الشخصية واستقلال روحه، وهي أمور كانت تميز نبلاء موسكو. لم يكن زواجه من ابنة الدكتور بيرس عن حب، ولكنه كان زواجا بسيطا. عاش بعد ذلك في بيته في موسكو طول حياته، كان يستقبل فيه كل من يشعر نحوه بارتياح، من دون أن يسأل إلى أي طبقة ينتمي. لم يكن تولستوي يحب الأرستقراطيين، وقد عبّر عن نفوره تجاههم بشكل واضح في «الحرب والسلام» و«أنّا كارينينا» و«البعث». كان يضع حياتهم بالغة الثراء، الفاخرة، المصطنعة، في مواجهة الحياة البسيطة التي يعيشها نبلاء موسكو المضيافين. كان تولستوي على حق في ذلك، فنبلاء موسكو كانوا يتميزون بحلاوة المعشر، لم تكن بيوتهم فارهة، لكنها كانت مفتوحة دائما أمام كل الأصدقاء. كانت الغرف في هذه الفيلات الصغيرة ضيقة، ذات أسقف واطئة، ولكنك كنت تجد فيها دائما قريبة عجوزًا اتخذت منها موئلا، أو صديقة عليلة، وستجد أيضا لديهم كثيرا من الأطفال، وهم قادرون أن يضموا إليهم فوق ذلك أيتاما يقومون على تربيتهم، يعاملونهم كما يعاملون أطفالهم. في هذا الوسط الرحيم، المضياف، المرح، الطيب، البسيط، تربى تولستوي. وقد وصف هذا العالم في رواياته. في «يوميات الكاتب» كتب دستويفسكي يقول: «تولستوي مؤرخ وشاعر طبقة نبلاء موسكو».

كُتّاب السيرة الأوروبيون، الذين لاموا تولستوي على أسلوب حياته المُرفَّه، شديد الترف، لا يعرفون عن أي شيء يتحدثون. من الواضح للوهلة الأولى، أنهم لم يذهبوا أبدا إلى موسكو، ولا إلى ياسنايا بوليانا. ذات يوم كنا في موسكو، وكانت أمي قد اصطحبتني معها إلى الكونتيسة تولستايا. كنت مذهولة من فقر البيت. لم تكن هناك قطع أثاث كبيرة أو شيء من الرياش والزينة، التي يمكن رؤيتها في كافة بيوت بطرسبورج، ولا شيء على الإطلاق من تلك الأغراض القيّمة. كان تولستوي يعيش في واحدة من الفيلات الصغيرة ذات الأفنية والحدائق الصغيرة، التي يمكن للمرء أن يقابلها أينما سار في موسكو. ذوو الثراء

يبنـون بيوتهم مـن الأحجار، أمـا الآخرون فيكتفـون بالعيش في بيـوت مبنية من الخشب. وكان بيت تولستوي مبنيا من الخشب من دون أي عمارة مميزة والغرف في هذه البيوت الموسكوفية عادة ما تكون صغيرة ذات أسقف واطئة. ذات إضاءة وتهوية سيئتين. أما الأثاث، مثل الذي في بيت تولستوي، فهو من محال رخيصة أو مصنوع في الزمن القديم على يد صُنّـاع من الأقنان، يُوجد مثله في العديد من البيوت الموسكوفية، التي تسنى لي أن أدخلها. الستائر باهتة، السجاد بالٍ، وعلى الحوائـط صـور عائلية من عمل رسـام نكرة يفتقر إلى المهـارة مات ذات يوم من الجـوع. الأثر الوحيـد الباقي والدال علـى رفعة هذه البيوت الموسـكوفية النبيلة تمثَّـل في عدد من الخادمـات العجائز، المهملات، المشاكسـات. هؤلاء يظهرن إخلاصهن في تعاملهن بغلظة مع سـادتهن ودسـهن أنوفهن، أحيانا، في شئونهم؛ فضلا عن وجود اثنين من السائسـين مختلفين تماما، كانـا يقودان عرباتهم البالية المجهـزة على الطـراز القديم قادمين من الريف في فصـول الخريف. هكذا نجد أن «التـرف» الـذي كان يعيش فيه تولسـتوي لم يكن يتميز بـأي حال من الأحوال بالأبهـة أو العظمـة، التـي يتمتـع بهما أي بورجـوازي أوروبي، يمتلـك ڤيلا أنيقة أو عربـة فاخـرة ليعيـش علـى نحو أكثر ثـراء. في حقيقـة الأمر، هـل كان بإمكان تولسـتوي أن يعيـش بالفعل حياة مترفة؟ كانت لديه أرض شاسـعة، لكن الأرض في وسـط روسـيا لم تكن تمثل ثروة ولـم تكن تدر عائدا كبيرا، وفي الوقت نفسـه كانـت تتطلـب نفقات ليسـت بالهينـة. لم يكن بإمـكان تولسـتوي أن يبيع أرضه، لأن الضيعـة الموروثة ينبغي أن تؤول، بموجب القوانين الروسـية، من الأب إلى الابـن، وقد كان لتولسـتوي خمسـة أبنـاء، كان عليـه عندما يكبـروا ويتزوجوا أن يُقسِّـم الأرض بينهم، ومن المحتمل أن تولستوي قد عاش سنوات عمره الأخيرة علـى ما كانت تدره عليه مؤلفاته من عائد. عندما لجأت الكونتيسـة تولسـتايا إلى أمي طلبا للنصيحة فيما يخص أعمال النشـر، لم يكن دافعها من وراء ذلك شـيء

من الجشـع، كلا، فالكونتيسـة كانت، على الأرجح، في أمس الحاجة إلى المال، وباعتبارها امرأة شجاعة، فقد سعت لزيادة دخلها بعزيمتها الخاصة.

لـم يكن آل تولسـتوي ينتمون مطلقا إلى فئة الأعيـان، بل إنهم لم يكونوا أيضا من أصول روسية. كان الجد الأكبر لتولستوي تاجرًا ألمانيا يحمل اسم ديك، جاء إلى روسيا في القرن السابع عشر وافتتح محلا له في موسكو، وقد راجت تجارته رواجا حسنا فقرر أن يستقر في روسيا. وبعد أن حصل على الجنسية الروسية غير لقبه الألماني «ديك»، والذي يعني سمين (تولستي بالروسية- المترجم) إلى لقب «تولسـتوي» الروسـي. لم يكن أمامه إلا أن يفعل ذلك في هذا الزمن، إذ كان غير الموسكوفيين، الذين يعيشون في موسكو، هم والأجانب الآخرون يلقون معاملة تتسـم بالتحفظ الشـديد تجاههم. في عصر بطرس الأكبر فقط أصبح بإمكانهم أن يحتفظوا بأسـماء عائلاتهـم الأوروبية. وبفضـل معرفتهم باللغـة الألمانية تمكن الأحفـاد ديك - تولسـتوي من العمل فـي وزارة الخارجية الروسـية. أحد هؤلاء الأحفاد نال إعجاب بطرس الأكبر، الذي كان يهوى إحاطة نفسه بالأجانب، فقام بتعيين بيتر تولسـتوي رئيسـا لحرسه السـري الخاص، فيما بعد، وبعد أن أُعجب بشـدة بطريقة عمله، أنعم عليه بطرس الأكبر بلقب كونت، وهو اللقب الذي كان الإمبراطـور قـد أدخله لتوه إلى روسـيا، والذي كان النبلاء في روسـيا لا يسـعون إلـى قبوله وحمله معتبرينه لقبا لا قيمة له[1]. ومثل كل الألمان، كان أحفاد ديك- تولستوي غزيري الإنتاج، وبعد قرنين من الزمان على ظهورهم في موسكو أصبح مـن الممكـن أن يقابـل المرء أفـرادا من عائلة تولسـتوي يعملون فـي كافة مرافق الدولـة وحتى في الأسـطول والجيش، وقد تزوجوا من نسـاء من عائلات النبلاء بالوراثـة، وكان اختيارهـم يقع دائما علـى خطيبات من اللائي كـن يملكن دوطة سـخية. لم يبددوا هذه الأموال سـدى، وإنما كثيرًا ما كانوا يسـتثمرونها. الرجال

(1) في روسيا يعادل لقب كونت أيضا ألقاب ماركيز أو فيكونت في اليابان.

في عائلة تولستوي كانوا آباء محترمين، أزواجا محترمين، ضعاف الشخصية إلى حد ما، وذلك بسبب أن زوجاتهم أو أمهاتهم كن قد طوينهم على ما يبدو تحت أجنحتهن. كانوا محبين للعمل، مفيدين للإدارات التي يعملون بها ويصنعون دائما مستقبلا رائعا لأنفسهم. كنت أعرف بعضا من عائلات تولستوي، الذين لم يكونوا هم أنفسهم على علاقة بعضهم ببعض، بل إنهم لم يكونوا يعترفون بصلة القرابة بينهم، مهما كانت درجة هذه القرابة. على أنني لاحظت نفس السمات الشخصية في كل هذه العائلات، وهو ما يثبت إلى أي مدى كان تأثير الدم الروسي على آل ديك-تولستوي، باستثناء فنان واحد موهوب هو ليف تولستوي. كانوا جميعهم من أنصاف الموهوبين، أما ليف تولستوي فكان الكوكب الدُرّي الذي أشرق اسمه فتألق العالم بأسره بفضله[1].

الأصل الألماني لتولستوي قد يفسر لنا أطواره الغريبة، التي تبدو، من ناحية أخرى، غير مفهومة. علاقته ذات الطابع البروتستانتي بالمسيحية الأرثوذكسية. حبه للحياة العملية البسيطة، التي نادرا ما نجدها عند الرجل الروسي، أو حتى في طبقته، قسوته أو لا مبالاته غير المفهومة تجاه آلام السلافيين، الذين يتعرضون لصنوف التعذيب على يد الأتراك، كل ذلك كان يثير دهشة أبي[2]. ترجع عدم قدرة تولستوي الملحوظة على الإعجاب بالمثل التي يُعجب بها جميع المتحضرين

(1) يقال أن الشاعر ألكسي تولستوي كان ينتمي إلى هذه العائلة بالاسم فقط.

(2) يحكي الكُتّاب الأمريكيون، الذين كانوا موجودين في ألمانيا في مطلع الحرب العظمى، أن الألمان كانوا معدومي الإحساس تجاه العذاب الذي يعانيه كل من البلجيكيين والفرنسيين؛ فضلا عن مواطنيهم. يصف الأمريكيون على أي نحو من القسوة كان الجنود الألمان يتصرفون، وإلى أي حد من العنف ارتكبوا هذه العمليات الفظيعة. من المحتمل أن هذا العنف سيئ السمعة من جانب الألمان، والذي تحدث الناس عنه كثيرا أيام الحرب، لم يكن سوى احتقار للألم، الذي أنتج في ألمانيا على مدى عدة قرون من الأنظمة القاسية التي حكمت ألمانيا.

إلى أصوله الألمانية. كان تولستوي يرفض العلم الأوروبي، كل الثقافة الأوروبية، كل الأدب الأوروبي. «إيماني»، «اعترافاتي» - هذه هي العناوين التي وضعها تولستوي لرطانته الدينية برغبة واحدة هي أن يضع عقيدة خاصة، دين ما يخرج من باسنايا بوليانا. عندما كان دستويفسكي يتحدث عن ألمانيا كان يسميها دائما «ألمانيا البروتستانتية»، ويروح يؤكد أن هذا البلد ظل على مدى العصور كلها يحارب الثقافة اللاتينية، التي تركها لنا الرومان، والتي اعتنقها العالم بأسره.

يمكن أيضا أن نُرجع خاصية أخرى من خصائص شخصية تولستوي، والتي تُميِّز كافة أحفاد العديد من العائلات الألمانية، التي استقرت في روسيا إلى أصوله الألمانية. لقد عاشت هذه العائلات في بلادنا قرونا عديدة، اعتنقوا الأرثوذوكسية، تحدثوا باللغة الروسية، بل إنها أحيانا كانت تنسى اللغة الألمانية، ولكنها ظلت تحتفظ على أية حال بالروح الألمانية، التي ليس باستطاعتها أن تفهم وأن تشاطر شعبنا الروسي مُثُله العليا. إن تولستوي هو النموذج الأفضل على الجمود المدهش للروح الألمانية. كان يحب روسيا بحرارة، وفي نفس الوقت لم يقبل أيا من تقاليدنا التاريخية. إنه أرثوذوكسي، ولكنه يحارب الكنيسة ويحتقرها. إنه سلافي، لكنه غير مبال بآلام السلافيين الآخرين، تلك الآلام التي كانت تمس قلب أي فلاح. تولستوي، النبيل بالوراثة، لم يكن يفهم أي شيء عن هذه الطبقة، التي كانت تمتلك هذه الأهمية الكبرى لثقافتنا[1]. تولستوي هو

(1) في رواية «آنّا كارينينا» يحكي تولستوي عن بطله ليفين (الذي وصف نفسه من خلاله) الذي ذهب بصحبة أصدقائه إلى انتخابات رئيس النبلاء، التي تجري كل ثلاث سنوات، بينما كان أقاربه، صهره ستيف أوبلونكسي وجميع من حوله يسعون لعزل الرئيس السابق واختيار رئيس جديد يفهم أكثر في شئون النبلاء، وهو أمر لم يكن يعني لليفين أي شيء. ليفين لم يكن يدرك أي شيء في هذا الصخب، ولم يكن يفكر إلا في أن يغادر هذه المدينة وأن يعود إلى قريته على وجه السرعة. كان من الواضح أنه لا يعترف بأية التزامات تجاه طبقة النبلاء في محافظته.

الكاتب، الذي لم يكن يشارك زملاءه الكُتّاب الإعجاب ببوشكين، الذي يعد أبا الأدب الروسي. من أجل أن يحضر افتتاح تمثال بوشكين في موسكو، ضحّى دستويفسكي بجلسات العلاج في إمس. تورجينيف جاء على وجه السرعة قادما من باريس. كافة الكُتّاب، بغض النظر عن انتماءاتهم الحزبية، سواء أنصار النزعة الغربية، أو الموالين للسلافية، اجتمعوا على نحو أخوي حول تمثال الشاعر القومي العظيم. وحده تولستوي الذي غادر موسكو مباشرة عشية الافتتاح. وقد أثار هذا السفر فضيحة كبرى في روسيا. قرر الجمهور، الذي شعر بالاستياء تجاه تولستوي أنه حاسد، وأن مجد بوشكين كان مثل سكين حاد في ظهره. في رأيي أن ذلك ليس سوى هراء. كان تولستوي رجلا مهذبا، لا يعرف شعور الحسد بأي شكل. ظل طول عمره شريفا وصريحا للغاية، لكن شعر بوشكين الوطني لم يكن على هوى روحه الألمانية، ولذلك رفض أن يتصنع الإشادة به. من كل روسيا الشاسعة لم يحب تولستوي ولم يفهم سوى فلاحيه فقط، ولكن، واأسفاه! فلاحوه لم يحبوه ولم يفهموه. في الوقت نفسه، الذي راح المثقفون يتوافدون على ياسنايا بوليانا يطلبون النصح من النبي، كان فلاحو قريته ينظرون إليه وإلى دينه بتوجس شديد. ربما أوحت غريزة هذا الشعب العظيم، أن إله ياسنايا بوليانا، ليس سوى ألماني مزيف كريه ليسوا بحاجة إليه.

«التولستوية» سيئة السمعة تذكرنا بالطوائف الألمانية العديدة، التي كانت موجودة منذ زمن بعيد في روسيا. سرعان ما دخل المحتلون الألمان بعد أن استقروا في روسيا في صراع مع الكنيسة الأرثوذكسية، التي لم يستطيعوا فهمها. أسسوا فيها طوائف دينية بروتستانتية الروح للغاية، وكانوا يدعون لعقيدتهم وسط فلاحينا، بل إنهم أدخلوا بعضهم فيها. أشهر هذه الطوائف كانت - «شتوندا» (من الكلمة الألمانية «Stunde») و«دوخوبوري» و«مولوكاني». وباعتباره ألمانيًا استعماريًا، فقد أسس تولستوي أيضا طائفة بروتستانتية هي طائفة «التولستويين»

وظل طول عمره يحارب كنيستنا. وقد قبل أبناء وطني بسذاجة أفكاره الدينية باعتبارها أفكارًا روسية، لكن الأجانب كانوا أكثر وعيا. في أبحاثهم التي أجروها عن روسيا أشار العديد من الفرنسيين والإنجليز بدهشة شديدة إلى التشابه الشديد بين أفكار تولستوي ومختلف طوائف الألمان الروس. تعود غفلة أبناء وطني إلى أن أحدا في روسيا لم يعط أهمية للأصول الألمانية لعائلة تولستوي. نأمل أن يظهر لدينا كاتب سيرة لنبي ياسنايا بوليانا، ليقوم بدراسته في هذه الأصول. عندئذ سوف نعرف تولستوي الحقيقي.



الفصل السادس والعشرون
دستويفسكي صاحب النزعة السلافية

حققت «يوميات الكاتب» نجاحا كبيرا، وفي الوقت نفسه توقف أبي عامين كاملين عن إصدارها وراح يعمل على كتابة رواية «الإخوة كارامازوف». لقد ناداه الفن ليذكِّره أنه روائي وليس صحفيا. تُعد «الإخوة كارامازوف» في رأي العديد من النقاد واحدة من أفضل رواياته، التي تنتمي إلى تلك الأعمال، التي يظل كل كاتب يختزنها في قلبه ويظل يفكر فيها سنوات طويلة ويؤجل كتابتها إلى أن يشعر أنه وصل بها إلى درجة الكمال الفني. من غير المؤكد أن أبي قد قرر أن موهبته قد وصلت حد الكمال. لقد كان قاسيا مع نفسه وهو يفكر في الأمر على هذا النحو. لكن غريزته أوحت له أن ما تبقى من عمره قليل للغاية. كان يقول لأصدقائه وهو يحدثهم عن عزمه كتابة «الإخوة كارامازوف»: «سوف تكون هذه روايتي الأخيرة».

هذه الروايات، التي جرى التفكير فيها بحب، والتي ظل يتعامل معها بحرص، هي روايات غنية بشكل فريد بتفاصيل من سيرة الكاتب، يمكن أن نجد فيها انطباعات الطفولة والشباب وسنوات النضج. على هذا النحو تأتي رواية «الإخوة كارامازوف». وكما ذكرت من قبل، فإن إيفان كارامازوف، وفقا للمأثور السائد في عائلتنا، يشبه كل الشبه دستويفسكي في شبابه المبكر. بعض التشابه مع أبي

يمكـن أن نجـده أيضـا في ديمتـري كارامازوف، الـذي ربما نجد فيه شيئا ما من دستويفسـكي في الفترة الثانية من حياته، وهي الفترة الواقعة بين المعتقل وإقامته الطويلـة فـي أوروبا بعد زواجـه الثاني. ديمتري يشـبه أبي في عاطفتيـه وفي ميله الرومانسـي، في طابعه «الشيللري»، في سـذاجته وفي علاقاته النسائية. على هذا النحـو كان على دستويفسـكي أن يتصرف، أن يكون، وقـد كان، عندما قبل ماريا ديمتريفنا المخادعة، وبولينا السافلة باعتبارهما امرأتين جديرتين بالاحترام. لكن التشـابه الأكبر بينه وبين ديمتري قد ظهر بصفة خاصة أثناء الاعتقال والتحقيق ثم إدانة ديمتري كارامازوف. وقد خصص لمشـهد المحاكمة مكانا كبيرا في روايته. دستويفسـكي، بداهـة، كان يريـد أن يصـف المعاناة التي عاشـها إبـان نظر قضية بتراشيفسكي، والتي لم يستطع أن يمحوها أبدا من ذاكرته.

يمكن أن نجد أيضا بعض التشـابه بين دستويفسـكي والأب زوسيما. إن سيرة حياة الأخير، في جوهرها، هي سيرة حياة أبي، على الأقل فيما يتعلق بطفولته. لقد ترعرع زوسيما في طفولته في الريف، في بيئة أكثر تواضعا من تلك التي قضى فيها أبي طفولته، قصة الأب زوسيما كُتبت بتلك اللغة الخاصة، القديمة بعض الشيء، التي يتحدث بها رهباننا وقساوستنا. علاوة على ذلك، هناك حديث يدور عن حبه لأمـه وأخيه الأكبر، وهذا الانطباع، الذي تركته عليه طقوس الخدمة الكنسـية في سـنوات الطفولة، وكتاب «مائة وأربع حكايـات من الإنجيل»، الذي كان الكتاب المفضل عند دستويفسـكي الصغير، وهناك أيضا سـفره (زوسـيما) إلى العاصمة للالتحاق بالمدرسة العسكرية، حيث، كما ورد على لسانه هو نفسه، علموه اللغة الفرنسية وكيفية التصرف في المجتمع، وقد اكتسب في نفس الوقت تلك الأفكار الكاذبة، حتى أصبح «كائنا متوحشا وغبيا». هكذا، على الأرجح، قيّم أبي التعليم الذي تلقاه في قلعة الهندسة.

إذا كان أبـي قـد قاسـم زوسـيما ملامح من سـيرة حياته، فإنه لم يكـن بنيته أن يصـف حياة «الآباء»، التي لم يكن على دراية بها. كان يريد أن يراهم أثناء حياتهم

اليومية، وقبل أن يبدأ في كتابة «الإخوة كارامازوف» قام برحلة حج إلى دير أوبتينا بوستينا، الذي يقع غير بعيد عن موسكو، وهو دير مُوقَّر يعتبره أبناء وطني مهدًا للحضارة الأرثوذوكسية. ويشتهر رهبانه بسعة اطلاعهم. توجه أبي إلى هناك مع تلميذه الفيلسوف الواعد ڤلاديمير سولوڤيوف[1]، وكان دستويفسكي يحبه كثيرًا، ويرى البعض أنه النموذج الأصلي لأليوشا كارامازوف[2]. تـم إبلاغ رهبان دير أوبتينا بوستينا بزيارة دستويفسكي، وقد استقبلوه بحفاوة بالغة. كانوا على علم بأنه يعتزم أن يصف في روايته الجديدة هذا الدير الروسي، وراح كل راهب يستعد لتبادل أفكاره وآماله معه في مسألة بعث الكنيسة الروسية من خلال إعادة النظام الأبوي. من البدهي تماما أن أبي أعطى لهذه الأقوال شكلاً أدبيًا فقط ووضعها على لسان زوسيما والأب بايشي والأب يوسف. في هذا الموضوع العام، باعتباره موضوعا دينيا، كان أبي يفضل أن يقدم الكلمة للرهبان، لمعرفتهم به على نحو أكبر. لقد تركت شخصية الأب أمفروسي، الذي يعد النموذج الأصلي لزوسيما، انطباعًا كبيرًا على دستويفسكي، كان يتحدث عنه بانفعال شديد بعد عودته من رحلة حجه إلى الدير.

إن النجاح الذي حققته «يوميات الكاتب»، والحماس الذي قوبل به دستويفسكي من سكان بطرسبورج في الأمسيات الأدبية؛ فضلا عن شهرته في أوساط الطلاب، جذب إليه اهتمام الجمهور، الذي لم يكن مهتما بالأدب، قدر اهتمامه بالسياسة. لقد رأى هؤلاء الوطنيون أيضا وعلى نحو جلي، مثلهم مثل دستويفسكي، هذه الفجوة، التي ما لبثت أن راحت تتسع يومًا بعد الآخر بين الشعب والانتليجنسيا. هؤلاء كانوا يريدون أن يقضوا على هذه الفجوة،

---

(1) سولوڤيوف، ڤلاديمير سير جيڤيتش (1853-1900) فيلسوف ديني روسي، شاعر، كاتب. ترك أثرًا كبيرًا على المثالية الروسية وعلى النزعة الرمزية في الشعر. (المترجم)

(2) أظن أن أبي صور نفسه أيضًا في شخصية أليوشا في فترة مراهقته.

حالمين بأن يؤسسوا في روسيا مدارس وطنية وأن يغرسوا في شبابنا الرغبة في أن يهبوا قواهم لرسالة الأرثوذوكسية العظيمة، التي تركتها بيزنطة القديمة ميراثا لنا، بدلا من الإعجاب الشديد باليوتوبيات الأوروبية. تشكل حول أبي مجتمع كامل من الوطنيين، الذين كان من بينهم أشهر رجال المجتمع مثل قنسطنطين بوبيدونوستسيف[1] والجنرال تشيرنيايف. كان القيصر ألكسندر الثالث يكن احترامًا كبيرًا لبوبيدونوستسيف، الذي احتفظ به في بلاطه باعتباره الوزير الأقوى فعليا على مدى فترة حكمه القيصري كلها. لم يشارك دستويفسكي بشكل كامل وجهات نظر صديقه الجديد الضيقة، ولكنه كان يحترم وطنيته الغيورة وإخلاصه، الذي بات أمرا نادرا في روسيا. بسبب هذه الخصلة الأخيرة فإن دستويفسكي، على الأرجح، اختاره ليكون وصيا علينا في حالة وفاته المفاجئة، وقد تكفل بوبيدونوستسيف بهذه المسئولية، ورغم المهام الحكومية الجسيمة الملقاة على عاتقه، فقد راح يعتني بنا حتى بلغ أخي سن الرشد، رافضا أن يقرب النقود، التي كان من حقه أن يتصرف فيها بصفته وصيا علينا. على أنه لم يكن لديه أطفال، ومن ثم لم يكن يعرف سوى القليل في مسائل التربية ولم يترك علينا تأثيرا يذكر.

كان الجنرال تشيرنيايف من أنصار النزعة السلافية شديدي الحماس. ومن فرط تأثره ببؤس الشعوب السلافية سافر إلى صربيا، حيث جمع هناك جيشا من المتطوعين وبشجاعة كبيرة راح يحارب الأتراك. وقد أثارت مآثره المتسمة بالفروسية حماسا بالغا في روسيا حتى أن القيصر ألكسندر الثاني اضطر لأن يعلن الحرب على تركيا، هذه الحرب، التي حررت في النهاية الشعوب السلافية من النير العثماني. انتهت هذه الحرب آنذاك تماما وعاد تشيرنيايف إلى روسيا. وفيما

---

(1) بوبيدونوستسيف، قنسطنطين بتروفيتش (1827-1907) رجل دولة روسي، محام، النائب العام للسينود المقدس. كان يتمتع بتأثير قوي على الإمبراطور ألكسندر الثالث. (المترجم)

بعد تم تعيينه جنرالا - محافظا لأقاليمنا في آسيا الوسطى، لكنه عاد في عام 1879 ليعيش مع عائلته في بطرسبورج، وكان يزور دستويفسكي يوميا. في كل مرة كنت أدخل فيها على أبي في غرفة مكتبه كنت أجد فيها الجنرال جالسا في مكانه المعتاد على الأريكة وقد راح يناقش في حماس مسألة توحيد الشعوب السلافية. كانت هذه القضية هي الشغل الشاغل لدستويفسكي بصورة استثنائية. آنذاك كانت قد تأسست للتو في بطرسبورج الجمعية الخيرية السلافية، وكان على رأسها الأمير الوطني الروسي الشهير ألكسندر ڤاسيلتشيكوف. عرضوا على أبي أن يصبح نائبا للرئيس وقد وافق على الفور. هكذا كان أبي يتعامل مع واجباته، وهو ما حرمه النوم وأقلق راحته. ومن أجل أن يكون حاضرا في اجتماعات الجمعية التي كانت تتم بعد الظهر، لم يعد باستطاعة دستويفسكي، الذي اعتاد على الذهاب إلى فراشه متأخرا، بعد أن يظل مستيقظا حتى الخامسة صباحا، فكان يطلب ممن حوله أن يوقظوه في أيام الاجتماعات قبل الحادية عشرة صباحا.

كثيرا ما كان كُتّاب سيرة أبي يعجزون عن إدراك السبب وراء تحمس دستويفسكي إلى هذا الحد وحتى نهاية حياته بالمسألة السلافية، التي لم يكن يفكر فيها كثيرا في شبابه. لقد استولت هذه الفكرة على أبي بعد السنوات الطوال التي قضاها في الخارج. عندما يذهب الروس إلى أوروبا لقضاء بضعة أشهر فإنهم عادة ينبهرون بالحضارة الأوروبية، لكنهم عندما يستقرون فيها بعض سنين ويصبح بإمكانهم أن ينظروا إليها نظرة ثاقبة يندهشون لما وصلت إليه من شيخوخة. يا إلهي، كيف وجدت هذه القبائل الألمانية والفرنسية والإنجليزية نفسها وقد أصابتها الشيخوخة والإرهاق! الأوروبيون باتوا لا يلاحظون هِرَمهم، لكننا، الأغراب القادمون من بلد شاب للغاية نرى الفرق بوضوح. بداهة فإن اليد المرتعشة للألمان لن يكون باستطاعتها، بداهة، بعد قرون معدودة أن تمسك بمشعل الحضارة، الذي سلمه الرومان لهم قبل أفولهم، هذا المشعل سيقبض

عليه الجنس السلافي ليحمل النور للعالم بأسره»، وسوف يقول السلافيون في النهاية كلمتهم الجديدة، التي ينتظرها الجميع بفارغ الصبر. لقد كان الألمان أنفسهم يدركون، بطبيعة الحال، الضرورة الملحة لفكرة جديدة، ولكن لم تكن لديهم القدرة ليعثروا عليها. لقد كنا لتونا شهودا على واحدة من هذه المحاولات الأوروبية لإعلان كلمة جديدة في النهاية، رحنا طول الشتاء نوقّع على وثيقة عصبة الأمم[1]، التي كنا نظن أنها ستحول كوكبنا إلى جنة على الأرض، وانتهى الأمر كله إلى ظهور أكثر اتحاد عسكري ابتذالا بين فرنسا وإنجلترا. أما عجز الألمان عن إعادة الشباب إلى العالم فيرجع إلى سبب بسيط للغاية، هو أن ثقافتهم كلها بنيت على الحضارة اللاتينية للرومان القدامى، وهي الحضارة الأعظم، ولكنها كانت شديدة الوثنية. لم يستطع الألمان أن يتحرروا من أفكارهم الأرستقراطية والإقطاعية. أما السلافيون، الذين بدءوا طريق الحضارة بعدهم بزمن طويل، فإنهم لم يتعرضوا للتأثير اللاتيني. لقد كانت ثقافتهم المأخوذة من الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية مسيحية صرفة منذ البداية. نحن السلافيون، قبائل الرعاة المتواضعين والمزارعين المسالمين، لم يكن لدينا في يوم من الأيام أرستقراطية إقطاعية، كما كنا نجهل الرأسمالية الأوروبية، وإذا ما اتفق أن أحدا ما من السلافيين جمع ثروة كبيرة، فإن أحفاده سرعان ما يقومون بتبديدها. لقد أوحت طبيعتهم أن الرأسماليين عبيد للمال. سوف يكون من السهل علينا إذن أن نقدم للعالم فكرتنا الجديدة عن الديمقراطية المسيحية، وهي الوحيدة التي بإمكانها أن تخفف من غلواء هذا الشغف بالاشتراكية والفوضوية.

---

(1) عصبة الأمم: منظمة دولية تم تأسيسها عام 1919 تهدف، وفقا لميثاقها، إلى تطوير التعاون بين الشعوب وضمان «السلام والأمن»، ولكنها في الواقع تحولت إلى أداة في يد سياسة الدول الاستعمارية وعلى رأسها إنجلترا وفرنسا، اللتان قامتا بتقسيم الدول المُستعمَرة إلى دويلات. سقطت هذه المنظمة نهائيًا في عام 1946. (المترجم)

بعد أن أدرك السلافيون الرسالة المنوطين بحملها، وصل دستويفسكي إلى فكرة مفادها أنه لكي يصلوا إلى هذه اللحظة العظيمة فإن عليهم أن يتحدوا. كان يحلم بوحدة كل الشعوب السلافية، وحدة مسالمة، من دون أن تكون وراءها نية مضمرة لغزو أوروبا واستعباد الشعوب الألمانية. سوف يحتفظ كل بلد سلافي باستقلاله وقوانينه، بعاداته وحكومته. سوف نوحد فقط أفكارنا، علمنا، أدبنا وفنوننا. وفي الوقت الذي تنظم فيه الشعوب الألمانية الألعاب الأوليمبية لكي يستعرض كل بلد قبضته الحديدية أمام البلد الآخر، سوف نقوم نحن - السلافيين - بتنظيم أوليمبياد أكثر ذكاء، أوليمبياد العقول. سوف نجتمع دوريا في عواصمنا لكي نتأمل لوحات فنانينا وتماثيل نحاتينا، نستمتع بموسيقى مؤلفينا، نصفق لممثلينا ونستمع لقراءات شعرائنا وكتابنا. وبدلا من أن نستنزف قوانا في حروب يقتل فيها الأخ أخاه، كما اعتاد الألمان التعساء أن يفعلوا، سوف يساعد بعضنا بعضا ويشجع بعضنا بعضا ونضع أيدينا في أيدي بعضنا البعض. وقبل أن نقدم للعالم القانون الجديد للديموقراطية المسيحية، سوف نبدأ بأن نعرض على الشعوب الأخرى مثالا للأخوة، ما دام ذلك بعيدا حتى الآن. في الوقت الحالي ما يزال السلافيون، الذين تحرروا لتوهم من الاستعباد، مشغولين برسم حدود بلدانهم الصغيرة. هم على حق في ذلك، فقبل أن يشرعوا في التآخي من أجل مواجهة الأحداث العظيمة، عليهم أن يدعموا بيوتهم أولا، وعندما تصبح هذه البيوت الروسية والتشيكية والصربية وغيرها متينة البناء، سوف يرفع البناة رؤوسهم ويبدءون في العمل على تحقيق الرسالة الكبرى لجنسهم.

وفي غضون ذلك فإن حلمنا السلافي سوف يتحقق بأسرع مما نتصور. إن عصبة الأمم، التي هي آخر ملجأ للإمبريالية الإقطاعية، يمكن أن تساعد كثيرا في ظهور الاتحاد السلافي، وكلما ازداد تدخل الأوروبيين قصيري النظر في شئون السلافيين الداخلية وفي وضع العراقيل أمامهم ومحاولة فرض إرادتهم عليهم،

كلما بدأ السلافيون على نحو أسرع في اتخاذ إجراءات وحدتهم الأخوية، وسوف ترى عصبة الأمم قريبا كيف سيكبر أمامها الاتحاد السلافي العظيم، وسوف يدخل العالم إلى مرحلة جديدة بعد تشكله. إن الاتحادات السابقة بين البلاد متعددة الأجناس، أولاد الملوك والدبلوماسيين قد انقضى عهدها. لقد كانت اتحادات بلا معنى، إذ إن الشعوب المرتبطة دائما بمثل هذه الاتحادات، تشعر بالنفور تجاه بعضها البعض، بل وحتى بالكراهية، على الرغم من كل التملق والمجاملات التي يبدونها. إن الاتحادات الجديدة، القائمة على التعاطف الأخوي لممثلي جنس واحد سوف تكون أكثر قدرة على البقاء. إن هذه الاتحادات المتباينة من ناحية القوة: السلافية والألمانية والأنجلوسكسونية، سيكون بإمكانها وضع حد للحرب، أكثر مما تستطيع أن تفعله بالتأكيد عصبة الأمم التي هَرِمَت، والتي ظهرت يوما ما من قبل تحت اسم «الحلف المقدس». عندما تشعر الدول الإمبريالية أن الأرض تميد تحت أقدامها، فإنها تسرع لتكوين الأحلاف أملا في وقف حركة الشعوب، التي يبدو لها أنها تجمع قواها في قبضة واحدة. يا له من أمل فارغ! يمكن محاربة الشعوب، لكن محاربة الأفكار لا جدوى من ورائها. إن الشعوب فى زمننا هذا تسعى إلى الحرية والاستقلال قبل كل شيء، فهي لم تعد تتحمل أي نوع من الوصاية يُفرض عليها.



الفصل السابع والعشرون
صالون الكونتيسة تولستايا

من بين الصالونات الأدبية، التي كان يتردد عليها دستويفسكي في السنوات الأخيرة من حياته، صالون الكونتيسة صوفيا تولستايا[1]، أرملة الشاعر ألكسي قنسطنطينوفيتش[2]، في بطرسبورج، وهو أكثرها أهمية وشهرة. تنحدر من عائلة ذات أصول مغولية، كانت الكونتيسة تمتلك فكرة وبصيرة نافذتين، «لديها عقل حاد كالفولاذ»[3]، يندر أن يقابل المرء مثله في روسيا إلا لدى أحفاد المغول فقط.

---

(1) صوفيا أندرييفنا تولستايا (1827-1895): انتقلت من الريف إلى بطرسبورج بعد وفاة زوجها الأمير والكاتب الشهير ألكسي قنسطنطينوفيتش تولستوي في عام 1875، حيث قامت على تنظيم صالون أدبي في بيتها، كان يجتمع فيه بانتظام الشعراء والأدباء. في واحد من هذه اللقاءات انعقدت بينها وبين دستويفسكي عرى صداقة قوية ليصبح ضيفا دائما على صالونها حتى وفاته في 1881. قضت تولستايا ما تبقى لها من العمر في السياحة في الخارج حتى توفيت في عام 1895 في لشبونة بالبرتغال. نقل جثمانها لتدفن في ضيعتها في روسيا في قرية تاجان روج. (المترجم)

(2) ألكسي قنسطنطينوفيتش تولستوي (1817-1875): كاتب روسي. كتب ملاحم وأشعارًا هجائية ورواية تاريخية باسم «الأمير الفضي» (1863)، ثلاثية مسرحية- «موت إيفان الرهيب» (1866)، «القيصر فيودور إيفانوفيتش» (1868)، «القيصر بوريس» (1870). (المترجم)

(3) هكذا وصف دستويفسكي عقل الكونتيسة تولستايا.

العقل السلافي أكثر بطئا، يلزمه وقت طويل للتفكير لكي يفهم الأشياء. كانت الكونتيسة من أولئك النساء المُلهِمات، اللائي قد لا يملكنَ هن أنفسهن القدرة على الإبداع، لكنهن يستطعن أن يقدمن للكُتّاب موضوعات رائعة. كان ألكسي تولستوي يقدر تقديرًا رفيعا آراء زوجته ولا يُقدم على نشر أيٍّ من أعماله قبل أن يتشاور مع زوجته. بعد أن ترملت، استقرت الكونتيسة في بطرسبورج. كانت ثرية وليس لديها أطفال. كانت تحب ابنة أخيها وقامت على تربيتها وزوَّجتها من أحد الدبلوماسيين. كان هذا الدبلوماسي معنيًّا بشئون روسيا في بلاد فارس. وأثناء انتظاره حتى يتم تعيينه في وظيفة محترمة في بلد أكثر تحضرا، كانت الكونتيسة قد استقدمت ابنة أخيها مع كل عائلتها ليعيشوا بالقرب منها. بعد أن استقر بها المقام في بطرسبورج بدأت الكونتيسة على الفور في استقبال أصدقاء زوجها القدامى، ثم راحت تبحث عن معارف جدد من الوسط الأدبي من شعراء وروائيين. ما إن تعرفت على أبي، حتى أسرعت بدعوته هو أيضًا وكانت تحتفي به حفاوة شديدة. قَبِل أبي دعواتها على الغداء وفي الأمسيات، وقد وافق على قراءة بضعة فصول من «الإخوة كارامازوف» في صالونها قبل نشرها. سرعان ما أصبح من عاداته أثناء نزهاته اليومية أن يُعرِّج على الكونتيسة تولستايا ليتبادلا الحديث في شئون الساعة. لم تعترض أمي، شديدة الغيرة عموما، على هذه العادة لأن الكونتيسة في هذا الوقت كانت قد تخطت سن الإغراء. كانت الكونتيسة ترتدي أثوابا سوداء دائما وتضع خمار الأرامل فوق شعر غزاه الشيب وقد صففته على نحو بسيط. لم تكن الكونتيسة تبحث عن معجبين، اللهم إلا الإعجاب بعقلها، وقد جذبت إليها الناس بالفعل بعقلها وترحابها. لم تكن تغادر بيتها بعد حلول الساعة الرابعة مساءً حتى تكون على أهبة الاستعداد لاستقبال دستويفسكي على فنجان من الشاي. كانت الكونتيسة مثقفة للغاية، قرأت الكثير بكل اللغات الأوروبية وكثيرا ما كانت تنصح أبي بقراءة مقالات هامة صدرت في أوروبا وترى أنها جديرة بالاهتمام بها. كان دستويفسكي الغارق في كتابة رواياته غير قادر، بطبيعة الحال،

على قراءة كل ما يريد قراءته، ونظرا لضعف صحة الكونت ألكسي تولستوي، فقد اضطر أن يقضي نصف حياته في الخارج، حيث اكتسب هناك عديدًا من الأصدقاء، كانت الكونتيسة تتبادل معهم المراسلات، وهؤلاء كانوا يرسلون إليها أصدقاءهم، الذين يأتون إلى بطرسبورج للاطلاع على الحياة في روسيا، وقد أصبحوا ضيوفا دائمين على صالونها، مما سمح لدستويفسكي بتبادل الحديث معهم وهو ما جعله على صلة بأوروبا، التي كان يعتبرها دائما وطنه الثاني، كما سمحت النبرة المهذبة والمُرحِّبة، السائدة في صالون الكونتيسة أن يهدأ روحًا بعيدًا عن الفظاظة السوقية السائدة آنذاك في الصالونات الأدبية الأخرى. بعض من رفاقه السابقين من جماعة بتراشيفسكي، الذين عرفوا طريقهم إلى الثراء، لم يدعوا هذه الفرصة تفوتهم فراحوا يلحون على دعوة الكاتب الشهير إلى صالوناتهم. كان أبي يقبل دعواتهم، لكن الترف الخالي من الذوق لدى هؤلاء الأغنياء الجدد لم يرق لأبي، كان يفضل الراحة والرقي الخالي من البهرجة في صالون الكونتيسة تولستايا.

سرعان ما أصبح هذا الصالون بفضل أبي يمثل الموضة، وأصبح يجذب إليه مزيدا من الضيوف. «عندما كانت الكونتيسة تولستايا تدعونا إلى أمسياتها كنا نذهب إليها إذا لم تكن لدينا دعوات أكثر أهمية، ولكنها عندما كانت تكتب لنا في دعواتها «أعدكم أن يكون دستويفسكي موجودًا»، كنا ننسى كل ما يتعلق بالأمسيات الأخرى ونسرع ذاهبين إليها»، هذا ما حكته لي منذ أيام سيدة روسية عجوز، تنتمي إلى الطبقة الراقية، والتي تعيش في الوقت الحالي لاجئة في سويسرا.

محبو دستويفسكي من بين نبلاء بطرسبورج، كانوا يذهبون إلى الكونتيسة تولستايا لتقوم بتعريفهم على أبي. وافقت على طلبهم بلطف، على الرغم من أن الأمر لم يكن يسيرا دائما. لم يكن دستويفسكي شخصًا اجتماعيا ولم يحاول

مطلقا أن يتعامل بنوع من الكياسة مع هؤلاء الذين لا يعجبونه، فتجده إذا ما التقى بأناس أنقياء السريرة، نبلاء السلوك، يتعامل معهم على نحو جيد، حتى أنهم كانوا يظلون يتذكرونه طول حياتهم، وحتى بعد عشرين عاما من وفاته، يكررون كل كلمة قالها لهم دستويفسكي يوما ما. ولكن أبي، عندما كان يرى أمامه أحدا من «المتغطرسين»، وهم كُثُر، الذين كانت تعج بهم صالونات بطرسبورج، كان ينطوي على نفسه ويُصر على التزام الصمت. عبثا ما كانت الكونتيسة تولستايا تحاول دفعه للحديث، طارحة عليه موضوعات مصطنعة، كان يجيب شاردا: «نعم»، «كلا»، ويروح ينظر إلى هذا «المتغطرس» نظرة فاحصة، كما لو كان ينظر إلى حشرة ما ضارة مثيرة للفضول. وبسبب نفاد الصبر هذا اكتسب أبي العديد من الأعداء، لكن ذلك لم يكن أمرًا ذا شأن عنده[1].

لعل البعض سيقول أن كاتبا كبيرًا مثل دستويفسكي كان عليه أن يبدي شيئًا من التسامح تجاه هؤلاء الناس، الذين ينقصهم الذكاء والتعليم. على أن أبي كان على حق عندما تعامل معهم باحتقار، إذ إن مبدأ «الغطرسة»، الذي انتشر عندنا على يد بارونات أقاليم البلطيق، أضر بروسيا ضررا بالغا. تعودت أوروبا الإقطاعية منذ غابر الزمان على الانحناء أمام الشخصيات صاحبة الألقاب والرأسماليين والوجهاء. هذا التزلف الأوروبي كثيرًا ما كان يدهشني إبان رحلاتي إلى الخارج. أما النموذج الروسي للمساواة الأخوية فإنه مبدأ لا يقبل الغطرسة، بل ويقف على النقيض منه. أبناء وطني يرون في هذه الغطرسة والتعالي تحديا واحتقارا

(1) هذا السلوك المتعالي من جانب دستويفسكي، المخالف بشكل مدهش لسلوكه المهذب الخالي من أي عيب، الساحر، حسن النية، المميز لردوده على خطابات معجبيه من الأقاليم البعيدة. دستويفسكي كان يعرف أن أفكاره ونصائحه أمرًا مقدسًا بالنسبة لهؤلاء الأطباء الريفيين، ومدرسات المدارس الشعبية، القساوسة في الأبرشيات النائية، في الوقت الذي لم يكن متغطرسو بطرسبورج يهتمون بدستويفسكي إلا لأنه كان وقتها على الموضة.

لا يسامحونه ويسعون للثأر منه. قرنان من الغطرسة البلطيقية أديا إلى شق وحدة روسيا. عشية الثورة[1] كانت كافة الطبقات في بلادنا تتربص بعضها ببعض. النبلاء الإقطاعيون كانوا يكرهون الأرستقراطيين، الذين كانوا يحيطون بالعرش مثل سور الصين، أما التجار فكانوا يتصارعون مع النبلاء، الذين كانوا يحتقرونهم بدورهم ولا يرغبون في أن تكون لهم بهم أدنى صلة. بينما ملَّ رجال الدين من الوضع المزري، الذي يشغلونه في الإمبراطورية. المثقفون، الذين خرجوا من الأوساط الشعبية، كانوا مستائين وهم يرون أنه على الرغم من تعليمهم العالي، فإنهم سوف يبقون بالنسبة للمجتمع الروسي، على أية حال، مجرد فلاحين. من الجائز، لو أنهم كانوا قد أعلنوا، شأن دستويفسكي، الحرب على الغطرسة، لاتخذت الثورة مسارًا آخر.

في صالون الكونتيسة تولستايا، كما في الأمسيات الطلابية، حقق دستويفسكي نجاحًا باهرًا لدى النساء أكثر منه لدى الرجال ولنفس السبب: أنه كان يعرف كيف يحترم النساء. ما يزال الروس حتى الآن يحافظون على وجهة نظرهم الشرقية في المرأة، فمنذ أن اعتلى بطرس الأكبر وسلالته سدة الحكم باعتبارهم قياصرة لروسيا، لم يسمحوا للرجال باستخدام السوط، وإنما علموهم أن ينحنوا لهن. وكانوا يُقبّلون أيديهن ويعاملونهن معاملة الملكات، محاولين أن يكونوا على مستوى الحضارة الأوروبية، ولكنهم في نفس الوقت كانوا ينظرون إليهن باعتبارهن أطفالاً كبارًا فارغات، لا يفقهن شيئًا وإنما ينبغي تسليتهن فقط بشكل أو آخر، بالنكات الذكية والحكايات الشيقة. كانوا يرفضون التحدث مع النساء بصورة جادة ويسخرون من رغبتهن في أن يشاركن في القضايا الاجتماعية. هذا التصرف الشرقي كان يثير حفيظة مواطني بلدي. ليس هناك شيء أسوأ إهانة على المرأة الذكية من أن ترى كيف يقف الجهلة والأغبياء أمامها باعتبارهم كائنات

(1) المقصود ثورة 1917 الاشتراكية. (المترجم)

عليا. لم يقع دستويفسكي مطلقا فريسة لهذه العادة الرذيلة. لم يسع لتسلية النساء أو أن يخلب لبهن. كان يتحدث معهن بكل جدية كأنداد. لم يُقبّل أيدي النساء قط كما كانت الموضة السائدة في روسيا. كان يرى أن ذلك من شأنه أن يقلل من قدر المرأة. كثيرًا ما كان يقول: «إن الرجال، الذين يُقبّلون أيدي النساء، إنما يعاملونهن باعتبارهن عبيدا، وكتعزية لهن فإنهم يعاملونهن معاملة الملكات. فيما بعد عندما يعتبرون النساء مساويات لهم، سوف يكتفون بمصافحتهن فقط باعتبارهن رفاقًا لهم». هذه المقولة أثارت دهشة أهل بطرسبورج، الذين لم يفهموا ما يعنيه. كانت هذه واحدة من العديد من الأفكار النورماندية، التي ورثها دستويفسكي عن أسلافه. الإنجليز لا يقبّلون أيدي النساء، وإنما يكتفون بالمصافحة القوية. على أنه لا يوجد بلد في هذا العالم تشغل فيه المرأة هذا الوضع الحر والمستقل، مثل الذي تشغله المرأة في إنجلترا[1].

كان دستويفسكي يحب بكل إخلاص هذه الكونتيسة، التي أهدته الصداقة الأدبية، التي يحتاجها كل كاتب، ومع ذلك فإنه لم يكن يوليها ثقته في رعاية عائلته وهو يحتضر. كان دستويفسكي صديقا لإحدى السيدات، التي كان يراها نادرًا، لكنه كان يكن لها احترامًا أكثر: كانت هذه هي الكونتيسة جايدن، كان اسمها قبل الزواج الكونتيسة زوبوفا. كان زوجها هو الجنرال - محافظ فنلندا، لكنها كانت تعيش في بطرسبورج، حيث أسست فيها مستشفى للفقراء. كانت تقضي كل وقتها في بطرسبورج للعناية بالمرضى، تظهر مشاركتها بمصائرهم

---

(1) يعود نجاح دستويفسكي لدى النساء إلى سبب آخر أيضًا. في رأي واحد من جماعة بتراشيفسكي، السيد ياسترچيمبسكي، فإن أبي كان من هذا الطراز: الذين يملكون في طبيعتهم كثيرًا من الخصال الأنثوية كما يقول علماء النفس. هذه الشخصية، الأنثوية جزئيا، يمكن أن نجدها عند الليتوانيين، في المقابل فإن الليتوانيات يملكن خصالا ذكورية بعض الشيء، فهن يتمتعن بالقوة، ويُقبلن على أداء أي عمل بأنفسهن من دون مساعدة الرجال، الذين كثيرا ما يسعون للقيام به.

وتسعى لتعزيزهم. كانت الكونتيسة جايدن من أشد المعجبات بدستويفسكي، وفي كل لقاء من لقاءاتها به كانا يتحدثان عن الدين. طرح أبي عليها أفكاره الخاصة بالتربية المسيحية لعلمها بالأهمية الكبرى، التي يوليها أبي للتطور الروحي للأطفال. تصادقت الكونتيسة جايدن مع أمي وسعت أن تترك أثرها عليّ. بعد وفاتها شعرت أنها تركت فراغًا كبيرًا في حياتي، وقد أدركت عندئذ كم أنا مدينة لهذه المسيحية المخلصة.

أصبحت الأمسيات الأدبية، التي ينظمها الطلاب الشباب في بطرسبورج هي الموضة السائدة. لدى الطبقة الراقية، بدلا من أداء المسرحيات التي كان الهواة يؤدونها. راحت السيدات المهتمات بالعمل الخيري في تنظيم أمسيات أدبية في بيوتهن. وقد عبَّر كُتَّابنا عن استعدادهم للمشاركة في هذه الأمسيات ما دام الحديث يتناول الأعمال الخيرية. دستويفسكي، كعهده دائمًا، كان نقطة جذب كبرى Great attraction لهذه المناسبات، وحتى يقرأ أمام جمهور مختلف تمامًا عن هذا الجمهور، الذي يحضر الأمسيات التي ينظمها الطلاب، اختار دستويفسكي مقاطع مختلفة، بدلا من مونولوج مارميلادوف[1]، مخلصا لفكرته في التقريب بين الطبقة المثقفة وبين الشعب. دستويفسكي كان يقرأ في الأمسيات التي يؤمها الأرستقراطيون فصلاً من «الإخوة كارامازوف»، حيث يستقبل فيه الأب زوسيما حُجاجًا من الفلاحين، وفيه تتحدث واحدة من الفلاحات فقدت ابنها البالغ من العمر ثلاث سنوات، فهجرت بيتها وزوجها وراحت تنتقل من دير إلى دير، ولم تجد عزاء ولا سلوى لحزنها. في هذا الفصل كان دستويفسكي يصف حزنه الشخصي. هو أيضًا لم يستطع أن ينسى صغيره أليوشا. كم من المشاعر بثها في هذه الحكاية البسيطة التي حكتها الفلاحة المسكينة، حتى أن كل المستمعات من النساء قد تأثرن بشدة من أعماق قلوبهن. في واحدة من هذه الأمسيات حضرت

(1) شخصية من رواية «الجريمة والعقاب». (المترجم)

زوجة ولي العهد، الأميرة العظيمة ماريا فيودوروفنا، الإمبراطورة القادمة لروسيا. كانت هي أيضًا قد فقدت ابنها الصغير ولم تستطع أن تنسى هذا الحزن. عندما استمعت إلى قراءة أبي أجهشت بالبكاء بمرارة وقد تذكرت صغيرها الذي توفي. بعد أن أنهى دستويفسكي قراءته، اتجهت إلى سيدتين من بين القائمات على تنظيم الأمسية وأخبرتهما أنها تود لو تبادلت الحديث مع دستويفسكي. أسرعتا لتحقيق رغبتها. يجب أن نفترض هنا أنهما لم تكونا على درجة كبيرة من الذكاء، إذ لم تكونا تعرفان شيئًا عن شخصية أبي المتحفظة، وقد خافتا أن يرفض دعوة ولية العهد فقررتا أن تأخذاه إليها بطريقة ماكرة. اقتربتا من أبي وبنبرة يشوبها الغموض أخبرتاه أن هناك «سيدة مهمة للغاية» تود أن تتحدث معه بشأن قراءته.

ومن تكون هذه السيدة المهمة؟ - قال دستويفسكي متعجبا.

سوف تراها بنفسك... إنها مهمة جدًا... هيا... أسرع

أجابت السيدتان الشابتان وجذبتا أبي وهما تضحكان وأدخلتاه إلى غرفة استقبال صغيرة. أدخلتاه إلى هناك وأغلقتا الأبواب خلفه. لم يعرف دستويفسكي كيف يفكر في هذه اللعبة الغامضة. الغرفة الصغيرة التي وجد نفسه فيها كان يضيئها مصباح صغير موضوع فوق مائدة صغيرة جلست إليها امرأة ما شابة. في هذه الفترة من حياته كان أبي قد توقف عن الاهتمام بالنساء الشابات. انحنى محييا المرأة المجهولة، كما ينبغي عليه أن يحيي سيدة جاءت صدفة للقائه في غرفة استقبال أصدقائه، وهنا افترض أن السيدتين الشابتين الطائشتين قد دبرتا له أمرًا ما غامضًا. أسرع بالخروج من الباب المواجه. كان دستويفسكي يعلم بالطبع أن القيصرة الصغيرة قد حضرت الأمسية، لكنه كان يظن أنها قد غادرت المكان، لعله وقد اعتاد على الشرود، قد نسي أيضا وجودها من الأساس. عاد إلى الصالون، حيث أحاط به معجبوه وانهمك في حديث شيق ونسي تماما كل شيء عن «الملعوب». بعد مرور ربع ساعة جاءته السيدتان الشابتان، اللتان دعتاه إلى غرفة الاستقبال الصغيرة.

قل لنا ماذا قالت لك؟ ماذا قالت لك؟ - سألتاه بفضول شديد.

من هي؟ - قال أبي مندهشًا.

ما معنى من هي؟ ولية العهد!

ولية العهد؟ وأين هي؟ إنني لم أرها.

لم ترض ولية العهد بهذا اللقاء، الذي لم يتحقق، ولعلمها بالصداقة التي تربط بين أبي والأمير العظيم قنسطنطين، طلبت منه أن يُعرِّفها بدستويفسكي. وعلى وجه السرعة قام الأمير العظيم بتنظيم أمسية في بيته دعا إليها دستويفسكي واهتم أن ينبهه إلى من سيلتقي بهم. كان دستويفسكي مستاء لأنه في المرة الأخيرة لم يتعرف على ولية العهد، التي كانت صورها معلقة في كل مكان. قَبِل الدعوة وحاول أن يكون لطيفًا. كان من جانبه معجبا بها بشدة. كانت إمبراطورة روسيا القادمة امرأة جذابة. بسيطة وتلقى إعجاب الناس. تجيد فن اللياقة وقد ترك دستويفسكي في نفسها أثرًا قويًا، وقد حكت لزوجها كثيرًا عنه، حتى أن ولي العهد أراد هو أيضًا أن يتعرف على أبي، وقد أرسل إليه دعوة من خلال قنسطنطين بوبيدونوستسيف[1]. كان ألكسندر الثالث[2] معجبًا بكل الموالين للنزعة الروسية والسلافية في الإمبراطورية الروسية، وكانوا ينتظرون منه إجراء إصلاحات مهمة. كان دستويفسكي لذلك يود أيضًا لو تعرف عليه ليتحدث إليه عن القضايا الروسية

---

(1) بوبيدونوستسيف، قنسطنطين بتروفيتش (1827-1907): رجل دولة روسي، محام، شغل منصب النائب العام للسينود المقدس في الفترة من عام 1880 وحتى 1905. كان له تأثير قوي على الإمبراطور ألكسندر الثالث وكان رجلاً شديد الرجعية. (المترجم)

(2) ألكسندر الثالث (1845-1894): إمبراطور روسيا منذ 1881. كان يعبر عن المصالح ذات النزعة المحافظة. اتخذ إجراءات مناهضة للإصلاح. أخمد من دون رحمة كافة الحركات الثورية الديموقراطية والعمالية. وشدد من قبضة الشرطة واتخاذ الإجراءات التعسفية. (المترجم)

والسلافية. وصل أبي إلى قصر أنيتشيكوف، وهو مكان الاستقبال المعتاد للأمراء العظام أبناء الإمبراطور. استقبلوه بحفاوة بالغة. وإليكم هذا المشهد المميز: دستويفسكي، الذي كان في تلك الفترة من حياته ملكيًا متحمسًا، لم يكن ميّالاً للخضوع للآداب المتبعة في البلاط فراح يتصرف في القصر تماما كما اعتاد أن يتصرف في قصور أصدقائه. بادر بالحديث وعندما أحس أنه اكتفى منه، نهض مودعا ولي العهد وزوجته، وببساطة، كعهده دائمًا، أدار لهم ظهره وانصرف. يقول المؤرخ فيدوناس: «الليتواني يتصرف مع وجهاء الطبقة الراقية، على نفس النحو الذي يتصرف به مع الفقراء. إنه يرى أن الانتماء الطبقي لا يفرق بين الناس، ولكن الليتواني يكشف أيضًا أنه يمتلك إحساسًا قويًا بكرامته الشخصية». ربما تكون هذه هي الحادثة الأولى بالنسبة لألكسندر الثالث، التي يقابل فيها شخصًا ما تصرف في حضوره على هذا النحو من البساطة المميتة. لم يعتبر أن ذلك أمر مهين وكان يتحدث مع أبي فيما بعد باحترام وتعاطف بالغين. ربما يكون الإمبراطور قد رأى في حياته كثيرًا من الظهور المنحنية، وربما لم يرقه ذلك، لكنه اكتشف أن في إمبراطوريته الشاسعة رجلاً له عمود فقري أقل قدرة على الانحناء.



الفصل الثامن والعشرون
عيد بوشكين

في شهر يونيو من عام 1880 أُزيح الستار عن تمثال بوشكين في موسكو. هذا العيد القومي الكبير وحّد بين كافة الأحزاب السياسية في بلادنا، الموالين للنزعة السلافية وأصحاب النزعة الغربية، الذين راحوا جميعًا يضعون أكاليل الزهور عند قاعدة التمثال ويُذكِّرون في خطبهم بأمجاد أعظم الشعراء الروس. لقد كان بوشكين عزيزا بحق على الجميع. كان أصحاب النزعة الغربية معجبون بثقافته الأوروبية وبأعماله التي تعالج موضوعات إنجليزية وألمانية وإسبانية، بينما راح الموالون للنزعة السلافية ينحنون أمام وطنيته وقصائده الرائعة، التي تتناول الموضوعات السلافية. لقد اجتمع هنا كل الكُتّاب الروس، كل الذين تربطهم علاقة بالأدب من أجل الاحتفال به. إلى الاحتفال جاء تورجينيف قادمًا من باريس، وقد استقبله معجبوه بحفاوة كبيرة. وقد حظي بنجاح هائل في الأمسية الأدبية التي أقيمت والتي تفوق فيها على دستويفسكي. لكن أبي أخذ بثأره منه في اليوم التالي، في الاجتماع الاحتفالي، الذي أقامته جمعية محبي الأدب الروسي في قاعة الجمعية الخيرية في موسكو. كان نجاحًا مدويًا حتى أن عيد بوشكين تحول إلى انتصار لدستويفسكي، وقد وصف أكساكوف[1] رئيس محبي

(1) أكساكوف، إيفان سيرجييفيتش (1823-1886): أحد مُنظري السلافية. رئيس تحرير=

النزعـة السـلافية وصف من أعلى المنصـة على الملأ خطاب أبـي بأنه «حدث». هـذا مـا حدثني عنه فيما بعد السـيناتور كونـي، الذي حضر مراسـم الحفل، وهو محـام بارع وكاتـب موهوب أيضًا وخطيب مفـوه. كانت آراؤه فـي البداية أقرب إلى أنصار النزعة الغربية منها إلى آراء محبي النزعة السـلافية، وقد ازداد حماسه للسـلافية بعد خطاب دستويفسـكي، ومن بين ما قاله لي: «كنا نستمع إلى خطاب أبيـك كالمُنوَّمين مغناطيسيًّا. يُخيل إليّ لـو أن حوائط الجمعيـة الخيرية انهارت فـي تلـك اللحظـة، وأن نيرانا اشـتعلت في الميدان وأشـار أبوك لنا قائـلاً: هيا بنا لنلقى حتفنـا في هذه النيران لكي ننقذ روسـيا، لذهبنـا وراءه جميعًا صفًّا واحدًا، مفضليـن أن ننال سـعادة الموت من أجل وطننا». كان المشـهد رائعًا عندما أنهى دستويفسكي خطابه. تدفق الناس نحو المسرح ليعانقوه ويصافحوه. كان الشباب يفقدون وعيهم عند قدميه من فرط الحماس. اقترب منه عجوزان وقد أمسك كل منهمـا بيد الآخر وقالا له: «لقد عشـنا عشـرين عاما عدويـن لدودين، وقد حاول النـاس كثيرًا أن يصالحونا، لكننا كنا نرفـض. أما اليوم، وبعـد خطابك، فقد نظر كل منـا إلى الآخر وأدركنا أنه منذ الآن فصاعـدا أصبح علينا أن نعيش كأخوين». أمـا تورجينيف، الذي ظل حتى ذلـك اليوم يلقي بالتحية على أبي ببرود، فقد كان منفعلاً بشـدة، اقترب من دستويفسـكي وشـد علـى يده بحرارة. هـذه المصافحة من جانب تورجينيف ثم المصالحة التي جرت بين عدوين قديمين أدهشـت أبي بصفة خاصة. كان يحب أن يأتي على ذكرها ونحن في سـتاريا روسـا عندما رجع إليها قادمًا من موسكو.

كم من الكلمات الساحرة دوَّت في هذا الخطاب ذائع الصيت، الخطاب الذي قدرَّتـه روسـيا القارئة تقديرًا رفيعًـا فيما بعد باعتباره حدثًـا ضخمًا، وحتى هؤلاء الذين لم يحضروا للمشاركة في عيد بوشكين واكتفوا بالتعرف على هذا الخطاب

= مجلتـي «اليـوم»، «موسـكو». نادى بإلغاء القنانة. قاد إبان سنوات الحرب الروسـية التركية حملة من أجل تحرير كافة السلافيين من النير التركي. (المترجم)

من الصحف أشادوا به إشادة كبيرة. إليكم موجزا لما قاله دستويفسكي موجهًا خطابه للانتليجنسيا في بلده:

«أنتم ساخطون. أنتم تعانون وتنسبون تعاستكم للنظام الذي تعيشون في ظله. أنتم تظنون أنكم سوف تشعرون بالرضا والسعادة، إذا ما طُبِّقت القوانين الأوروبية في روسيا. أنتم مخطئون. إن السبب وراء تعاستكم إنما يكمن في أمر آخر هو تربيتكم الكوزموبوليتانية، لأنكم منفصلون عن شعبكم، لأنكم لم تعودوا تفهمون هذا الشعب. في هذه الإمبراطورية مترامية الأطراف شكلتم من بينكم قبيلة صغيرة للغاية، قبيلة غريبة تماما، غير منسجمة مع باقي البلاد. أنتم تحتقرون شعبكم بسبب جهله، وتنسون أنه هو الذي دفع ثمن تعليمكم الأوروبي، وهو الذي يكدح ويعرق وينفق على جامعاتكم ومدارسكم العليا. حاولوا، بدلا من أن تحتقروه، أن تدرسوا على نحو أفضل أفكاره المقدسة. اكبحوا جماح كبريائكم أمامه. اعملوا إلى جانبه من أجل مهمته الكبرى، إذ إن هذا الشعب الأمي، الذي تشيحون بوجوهكم عنه باشمئزاز، يحمل في أعماقه الكلمة المسيحية، التي سيعلنها للعالم القديم، عندما يغرق هذا العالم في الدماء. لن يكون باستطاعتكم، بالتقليد الذليل للآمال الباطلة للأوروبيين، التي ستقودهم إلى حتفهم، أن تخدموا البشرية، ستخدمونها فقط وأنتم تصيغون مع شعبكم الفكرة الأرثوذكسية الجديدة[1]».

هذه الكلمات الذهبية هزت من الأعماق أرواح مواطني بلدي، الذين تعبوا في النهاية من احتقار وطنهم. لقد ألهمتهم فكرة أن روسيا ليست نسخة

(1) في هذا الخطاب الطويل للغاية، يطرح دستويفسكي تحليلاً دقيقًا لشعر بوشكين. من مصلحة القارئ أن يعود إليه في نصه الأصلي. أنا هنا أقدم فكرة أبي فقط عن الشعب الروسي وعن مستقبله. هذه الفكرة الجديدة تحديدًا أذهلت مثقفينا وحوّلت عيد بوشكين إلى انتصار لدستويفسكي.

بسيطة، ليست كاريكاتورا ذليلا من أوروبا، وإنما بإمكانها أن تقدم للعالم كلمة جديدة. واأسفاه! هؤلاء الناس لم تستمر سعادتهم طويلاً. إن الستار الذي كان يحجب المستقبل عنهم، والذي أزاحته يد هذا الرجل العبقري، قد عاد بسرعة لينسدل مرة أخرى، ليعود مثقفونا إلى أفكارهم الكاذبة. لقد حاولوا بعناد شديد أن يؤسسوا في روسيا جمهورية على نمط الجمهوريات الأوروبية، محتقرين بشدة الشعب، الذي لم يسألوه عن رأيه، وهم يؤمنون بسذاجة أن مليونًا ومائة ألف مثقف من حقهم أن يفرضوا إرادتهم على مائة وثمانين مليون مواطن. لقد استطاع مثقفونا في النهاية، بعد أن انتهزوا فرصة أن البلاد تخوض حربا داخلية لا نهاية لها، أن يقيموا في روسيا الجمهورية التي يتمنونها[1]. كم هو أمر صعب أن تُحكم روسيا من دون قيصر. سرعان ما أظهر الشعب لهم قوته الأخلاقية، التي تنبأ بها دستويفسكي منذ زمن بعيد، والتي رفضها خصومه السياسيون بكل عناد. هذا الشعب بعبقريته العظيمة ومستقبله العظيم كان مجروحًا بعمق في كرامة هذه الفكرة نفسها، التي تريد حفنة من الحالمين والطموحين أن تحكمه وأن تجذبه إلى أوهامها وتفرضها عليه. لقد هب هذا الشعب للنضال ضدهم وواصل الكفاح ضد البلاشفة. لقد دافع عن مثاله الأعلى، عن مقدساته المسيحية العظيمة، وراح يحافظ عليها من أجل المستقبل، ليظهرها للعالم فيما بعد، عندما ينهار المجتمع الأرستقراطي والإقطاعي نهائيًا. هل استوعب مثقفونا الروس الدرس، الذي لقنه لهم الشعب لتوه؟ مطلقًا. لقد استمروا في التعامل مع حلمهم باعتباره واقعًا، إنهم مقتنعون أن البلاشفة سوف يستطيعون أن يُظهروا للفلاحين المثابرين ميزة النظام الأوروبي، الذي جاء إليهم قادمًا من زيوريخ في عربة قطار مُصفَّحة[2]. أظن من جانبي أن البلاشفة قد دفنوا فكرة الجمهورية في روسيا. إن ذاكرة فلاحينا

(1) الإشارة هنا إلى قيام ثورة 1917 البلشفية وتأسيس الاتحاد السوفيتي. (المترجم)

(2) الإشارة هنا إلى قدوم فلاديمير إيليتش لينين من مهجره في زيورخ ومعه الثوريون في عربة قطار مصفحة للاستيلاء على ثورة 1917. (المترجم)

حية، وفي القرون القادمة كلها فإن كلمة «الجمهورية» سوف تكون بالنسبة لهم مرادفا للفوضى والسرقة والقتل، وسوف يعودون إلى فكرة الملكية، التي بفضلها استطاعوا أن يشكلوا إمبراطورية كبرى. لكن الملكية الروسية الجديدة سوف تكون أكثر ديموقراطية من الملكية التي سبقتها. لقد اقتنع الشعب أن سادته[1] أناس ضعاف مفتونون باليوتوبيات، لم يعد يوليهم ثقته في أن يحكموا البلاد، لأنهم غير أكفاء للتفكير في أعمالهم، لكنه سوف يستعين بهم، بطبيعة الحال، في الخدمة لاحتياجه إلى معارفهم. في نفس الوقت سوف يرسل إلى مجلس الدوما[2] الجديد بنوابه على نحو أكبر. هؤلاء النواب الجدد لن يكونوا من أصحاب الثقافة الأوروبية، وسوف يلهمهم الشعب الروسي بما لديه من معرفة بالحياة الحقيقية الفكر الرشيد، سوف يعلمهم أن يعطوا أصواتهم لهذه القوانين، التي قد تبدو لحكومتنا السابقة قاسية وبربرية.

لقد فتحت روسيا صفحة جديدة في تاريخها. دستويفسكي الذي أدرك بكل ثقة، المستقبل وتنبأ به، أصبح كاتبها المفضل. حتى ذلك الحين كان مواطنو بلدي مكتفين بالإعجاب به، لكنهم الآن بدءوا يتعلمون منه.

وإنه لأمر عجيب! كل هؤلاء الكُتَّاب، الذين اجتمعوا حول تمثال بوشكين، أشادوا في شعرهم ونثرهم بشعره الروسي، وبروحه الروسية، بأفكاره الروسية وعاطفته الروسية، ولم يذكر أي منهم كلمة واحدة عن أصوله الزنجية، وهو أمر بالمناسبة بالغ الأهمية.

في القرن السابع عشر تعرضت إحدى الممالك الزنجية الصغيرة في أفريقيا، الواقعة على ضفاف البحر الأحمر للهزيمة في الحرب مع جيرانها. قُتِل الملك وبيع أبناؤه وحريمه إلى القراصنة. اشترى السفير الروسي واحدًا من هؤلاء

(1) مثقفو البورجوازية أو النبلاء بالوراثة.

(2) مجلس الدوما: مجلس النواب. (المترجم)

الأمراء الصغار وأرسله هدية إلى بطرس الأكبر، الذي أهداه الإمبراطور بدوره إلى بناته، اللائي كن يلعبن مع هذا الزنجي باعتباره لعبة. أرسله بطرس الأكبر بعد ذلك إلى باريس بعد أن لاحظ أن الأمير الأسود الصغير يتمتع بذكاء حاد. وهناك تلقى هانيبال، وهو الاسم الذي اختاره له الإمبراطور، تعليما رائعا. فيما بعد عاد هانيبال إلى بطرسبورج ليعمل في خدمة بطرس الأكبر بكل همة وإخلاص. وحتى يربطه برباط أقوى بروسيا زَوَّجه من ابنة أحد السادة وأنعم على هانيبال بلقب نبيل. هؤلاء ظلوا يعيشون في بلادنا، صاهروا روسًا وفي مطلع القرن التاسع عشر كافئوا روسيا على حسن ضيافتها بأن أهدوها أعظم شعرائها[1].

على الرغم من أن بوشكين كان أكثر بياضا من أجداده من ناحية أمه، لكنه احتفظ بالعديد من الخصائص الزنجية: شعر أسود مجعد، شفاه غليظة، حيوية، طابع أفريقي شهواني شديد الغيرة، كل ذلك لم يمنعه من أن يصبح روسيًّا قلبا وعقلا. لقد وضع بوشكين أسس لغتنا الفصحى، أهدانا نماذج خالصة للنثر والشعر والدراما. إنه في الحقيقة أبو الأدب الروسي. وفي الوقت نفسه فإن العديد مما في حياته وإبداعه يعود إلى أصوله الأفريقية. لماذا لم يذكر ذلك آنذاك ولو واحد من معجبيه؟

المسألة تتلخص في أن الروس في هذا الوقت لم يكونوا يعرفون شيئا عن الوراثة العرقية؛ أنا نفسي لست على يقين، ما إذا كان هذا المفهوم معروفا في ذلك الزمن في أوروبا. على حد علمي فإن النظرية العرقية قد طُرحت بعد ذلك بكثير على يد الأمير دي جوبينو، إذا لم أكن مخطئة، وكان قد نقلها عن الفُرس. عدد من الكُتَّاب الفرنسيين استولوا على هذه النظرية وأدخلوها إلى الموضة على نحو مبالغ فيه بعض الشيء. هذه النظرية مؤكدة إلى حد كبير، إلى درجة أنه لا يمكن كتابة سيرة جيدة من دون أخذها في الاعتبار. ومن المدهش، أن هؤلاء الناس

(1) تنحدر أم بوشكين من نسل هانيبال.

لـم يصلـوا إليها من قبل. يا للأسـف! البشـرية تتحرك إلى الأمـام بخطى كخطى السـلحفاة، باذلة أقصى جهدها لتقدم اكتشـافين ونصف اكتشـاف على مدى مائة عـام. في كتابه «مذكرات الطفولة» يقول رينان[1]: «كان من الأفضل لو أنني جئت إلـى هـذا العالم في وقت متأخـر. ولطار ديكارت[2] من الفرح، لو أنه اسـتطاع أن يقرأ بحثا هزيلا ما في الفيزياء والفضاء كُتب في أيامنا هذه، إذ إن أي تلميذ يعرف الآن الحقائق، التي ضحى أرشـميدس بحياته من أجلها، ولأعطينا عينا من عيوننا لكي نتمكن من أن نلقي نظرة في كتاب من الكتب، التي سـوف يتم تدريسـها في المدرسة الابتدائية بعد مائة عام».

بفضـل الجهل بفكـرة الوراثة العرقية لم يول دستويفسـكي أي أهمية لأصوله الليتوانيـة، لأنه لم يكن يعرف النظرية العنصريـة. لـم يذكر هو وإخوته مرة واحدة مقولـة «نحـن، آل دستويفسـكي «ليتوانيـون»». كان يعتبـر نفسـه روسـيًّا حقيقيا. عـلاوة على ذلك فقد كانت الإمبراطورية الروسـية القديمة كانت أكثر وحدة مما يتصـور الناس. هؤلاء المهاجـرون الذين يدافعون الآن عـن انفصال بلادهم عن روسـيا لا يسـاوي أحد منهم شيئا. إن غالبية الليتوانيين، الذين استقر بهم المقام في المدن الروسـية الكبيرة، كانوا مرتبطين بروسـيا بإخلاص، بل إنهم كانوا أكثر وطنية من الروس، لأنهم ورثوا عن أجدادهم المتحضرين الإحسـاس بالواجب، الـذي يتضمـن أيضًا الإيمان بوطنهـم، بينما لم يكن هذا الإحسـاس متطورا لدى الأغلبية من الروس إطلاقًا. لقد حاولت مدارسنا أن تقتل النزعة الوطنية بدلا من أن تُقويها، لقد كان مثلها الأعلى هذه الكوزموبوليتانية الباهتة عديمة الشـخصية. علـى الجانـب الآخر فإن الليتوانييـن بطبيعتهم المتواضعة قليـلا ما يتحدثون عن

(1) رينان، جوزيف إرنسـت (1823-1892): كاتب فرنسـي. صاحب كتاب «تاريخ نشـأة المسيحية» (1863-1883). (المترجم)

(2) ديكارت، رينيه (1596-1620): فيلسوف فرنسي، عالم رياضيات وفيزياء. (المترجم)

أنفسهم وعن بلادهم، وأنهم في روسيا يعتبرون في النهاية أن ليتوانيا قد ماتت منذ زمن. الآن فقط، بعد أن وضعت الحرب أوزارها، بدأ الليتوانيون على استحياء يرفعون رؤوسهم، ولكن استنادا إلى كتبهم، التي ظهرت في السنوات الأخيرة، فإنهم هم أنفسهم لا يعرفون إلا قليلا عن تاريخ بلادهم. عاما بعد الآخر، وقد راحت تفقد مثقفيها، الذين نزحوا إلى روسيا وبولندا وأوكرانيا، فإن من بقي في ليتوانيا كانوا يشكلون في النهاية مجتمعا شبه قروي من الفلاحين والبورجوازية الصغيرة، التي احتفظت فقط بذاكرة مشوشة عن المجد القديم، والتي لم تكن تعرف كيف تأسس هذا المجد. لقد نسوا ثقافتهم النورماندية وراحوا يؤكدون أن شيئا لا يجمعهم بالسلافيين، وكانوا يفخرون بانتمائهم للقبائل الفنلندية - التركية. بطبيعة الحال فإن الفنلنديين الأتراك أناس صالحون، ليس من حقنا أن نحتقرهم، وهم أجداد الروس والبولنديين والليتوانيين، لكن هذا الجنس الأدنى لم ينجب شخصية بارزة واحدة. فقط عندما جاء مكانهم أجناس أخرى أعلى، خرج الفنلنديون من الظل وبدءوا في أن يكون لهم شأن في التاريخ. ومن اتحاد الفنلنديين - الأتراك، الذين سكنوا ضفاف نهر نيمان، مع السلافيين، الذين نزلوا من جبال الكاربات، وصل الشعب الليتواني، الذي تسلم فيما بعد من النورمانديين شعلة عبقريتهم، وطالما ظلت النيران النورماندية مشتعلة، فإن ليتوانيا تظل أيضا دولة رائعة ومتحضرة. وعندما خمدت هذه النيران، راحت ليتوانيا تدريجيا تعود للظل، وإن احتفظت في الوقت نفسه بطابعها النورماندي، الذي شكّل اختلافها عن جيرانها البولنديين والأوكرانيين والروس. لم يستطع دستويفسكي، بطبيعة الحال، أن يهتم بصفة خاصة بأمته الآفلة المنسية، ومن ثم راح يعطي أهمية قصوى لأصوله الروسية. ومع ذلك فإننا عندما نقرأ خطابات دستويفسكي، يمكننا أن نصبح على اقتناع أنه كان طول حياته متمسكا بفكرة أنه لا يشبه رفاقه الروس، لدرجة أنه كان يرى أنه ليس هناك شيءٌ مشترك بينه وبينهم، وكثيرا ما كان يعترف في خطاباته إلى أصدقائه بقوله: «لديّ شخصية

عجيبة! شخصية سيئة» دون أن يدرك أنه شخصية ليست غريبة وليست سيئة، وإنما ليتوانية ببساطة. يقول عن نفسه: «أمتلك حيوية القطط، يخيل إليّ دائمًا، أنني على وشك أن أبدأ الحياة»، وكان مندهشا لقوة هذه الشخصية[1]، التي تميز كافة النورمانديين، والتي لم يقابلها لدى الروس. يقول صديقه ستراخوف: «لقد تسنى لي أن أشاهد دستويفسكي في أسوأ فترات حياته. لم يفقد شجاعته مطلقًا، وأظن أن شيئا لا يستطيع أن يقهره». وإذا كان دستويفسكي قد اندهش مما يملكه من قوة، فالذي أدهشه أكثر كان ضعف رفاقه الروس، فهمهم الطفولي للشرف كان يملؤه بالحيرة. خذ مثلاً - واحد من أفضل أصدقائه وهو ميليوكوف، كان يحاول أن ينقذ دستويفسكي من المصيدة التي نصبها له الناشر ستيلوفسكي، فاقترح عليه أن يقوم أصدقاؤه الأدباء معًا، كل بكتابة فصل من رواية «المقامر»، فلا يتبقى سوى أن يضع عليها اسمه. اقترح ميليكوف إذن على دستويفسكي أن يقوم بعملية احتيال. هو أيضًا لم يفهم الأمر. فيما بعد صرَّح ميليوكوف على الملأ بهذه القصة. راح يفتخر بسذاجة أنه حاول أن ينقذ صديقه المشهور. لقد

---

(1) تعطي سيرة دستويفسكي أهمية كبرى للشكاوى، التي كثيرًا ما نقابلها في خطاباته لأقاربه أو إلى أصدقائه المقربين. علينا ألا ننظر إلى هذه الشكاوى باعتبارها أمرا تراجيديا: كل الأشخاص أصحاب المزاج العصبي يشعرون بالحاجة إلى الشكوى، لكي يجدوا من يهدئ من روعهم. أزعم أنني أفهم ذلك على نحو ما لأنني أنا نفسي ورثت عن أبي هذا الضعف. إن لديّ إرادة قوية للغاية، وأظن أنه لا يوجد هناك من بإمكانه أن يخضعني أو يكسر إرادتي. وفي الوقت نفسه لو أن أحدًا قرأ خطاباتي لأمي أو إلى صديقاتي المقربات، سوف يتولد لديه ربما انطباع، أن كاتب هذه الخطابات في حالة يأس، ولعله قريب من الانتحار. من الجائز وأنا على يقين من ذلك، أن المختصين في الأمراض العصبية باستطاعتهم أن يفسروا هذه الظاهرة. من جانبي أظن أن الإنسان قد يمتلك إرادة قوية وأعصابًا ضعيفة في الوقت نفسه. هذا الإنسان في سلوكه يسترشد بإرادته القوية، ولكنه يحتاج من وقت لآخر أن يفرغ توتر أعصابه الضعيفة، بأن يضحك أو يبكي أو يشتكي إلى من يعتمد على صداقتهم.

رد دستويفسكي بغضب عليهم قائلاً: «لن أضع اسمي على عمل لم أقم به». كم مرة وقع سوء الفهم بين أبي وبين أصدقائه، وكم مرة عانى وسط مواطنيه، الذين يتصرفون تصرفات صبيان في الثانية عشرة من عمرهم، حتى ولو كان من بينهم من غزا الشيب شعره. من أهم الأشياء التي ميزت شخصية دستويفسكي هو اهتمامه البالغ بالكنيسة الكاثوليكية، وهو اهتمام لا يمكن تفسيره إلا بالعامل الوراثي. بابا روما - شخصية غير مشهورة في روسيا، لا يفكر فيه أحد، لا يتحدث عنه أحد، لم يأت على ذكره كاتب واحد في أعماله. الوحيد الذي كان مهتما بالڤاتيكان هو دستويفسكي. كان يعود للحديث عنه تقريبًا في كل عدد من أعداد «يوميات الكاتب»، وكان يجادل بحماس حول مستقبل الكنيسة الكاثوليكية. كان يسميها الكنيسة الميتة، مؤكدًا أن المذهب الكاثوليكي لم يعد منذ زمن بعيد سوى مذهب وثني، على أننا سرعان ما نكتشف أن هذا الدين ما يزال حيًا في أعماقه. أجداده الكاثوليك كانوا يؤمنون به بحماس بالغ، وقد لعبت روما دورًا كبيرًا في حياة دستويفسكي. لم يكن إيمان دستويفسكي بالكنيسة الأرثوذكسية سوى نتيجة منطقية لإيمان أجداده بكنيسة روما. اعترف لي ذات يوم أحد الكُتَّاب من أصدقاء أبي قائلاً: «لم أستطع أبدا أن أفهم لماذا اهتم أبوك كل هذا الاهتمام بهذا البابا العجوز الغبي». «هذا العجوز الغبي» كان بالنسبة لأبي أهم شخصية في أوروبا.

لم تكن العزلة الروحية، التي عاشها أبي طول حياته في بلادنا ظاهرة فردية. فجميع كتابنا الكبار تقريبًا كانوا من أصول أجنبية، ولذلك فإنهم كانوا يشعرون بعدم الارتياح في روسيا. بوشكين من أصول زنجية، ليرمونتوف - حفيد شاعر الملاحم الأسكتلندي، على أي نحو جاء إلى روسيا، لا أعرف. الشاعر جوكوفسكي[1] أمه تركية، نكراسوف أمه بولندية، دستويفسكي - ليتواني،

(1) جوكوفسكي، ڤاسيلي أندرييڤيتش (1783-1852): شاعر روسي، بدأ بكتابة الشعر العاطفي، أحد مؤسسي النزعة الرومانسية. ترجم إلى الروسية الأوديسا لهوميروس وكذلك أشعار شيللر وبايرون. (المترجم)

الشاعر ألكسي تولستوي - أوكراني، ليف تولستوي من أصل ألماني، تورجينيف وجونتشاروف فقط هم الروس. الأرجح أن روسيا الشابة لم تكن قادرة بعد على أن تنجب مواهب عظيمة. كان بإمكانها فقط أن تشعل في هذه المواهب شرارة العبقرية، هذه الشرارة التى تحتاج إلى وقود، أعدته شعوب أخرى أكثر تحضرًا أو قِدمًا. كل أنصاف الروس هؤلاء كان من الصعب عليهم أن يتنفسوا جيدًا في روسيا. لم تكن حياتهم في روسيا سوى صراع محتدم ضد وسط مغولي خانق. يقول بوشكين: «لقد قادني الشيطان لأولد في روسيا». ويقول ليرمونتوف الأسكتلندي: «روسيا القذرة، بلاد العبيد والسادة». ويكتب الألماني المستوطن الشريف ليف تولستوي: «أفكر في المنفى، في الهرب من هذا المحيط من الدناءة الكريهة، الخمول المنحط، السفالة التي تهدد من كل جانب بإغراق جزيرة الحياة الشريفة العاملة، التي خلقتها لنفسي». في واقع الأمر، فإن أكثر الكتاب الروس حرصًا كانوا يبحثون عن الخلاص في الخارج، مثل الشاعر چوكوڤسكي، على سبيل المثال، الذي فضَّل الحياة في ألمانيا، أو ألكسي تولستوي، المولع بكنوز الفن الإيطالي. أما الذين بقوا فقد أعلنوا الحرب على جهل الروس وصلافتهم، وقد ماتوا في شبابهم على يد البيئة، التي عاشوا فيها: بوشكين وليرمونتوف - قُتلا في مبارزات، نكراسوف- عاش وسط الروس ومات في ظروف شديدة التعاسة. وقد كتب دستويڤسكي نفسه عن ذلك في تأبينه لنكراسوف. تولستوي، عاش، قدر استطاعته، في عزلة عن العالم في ضيعته في ياسنايا بوليانا. واأسفاه! كم من الصعب أن ينعزل المرء تمامًا عن العالم في روسيا. تلاميذه، هؤلاء المغول البلهاء استولوا على إرادة هذا العجوز المسكين الذي خارت قواه، أوقعوا بينه وبين زوجته، الوحيدة التي أحبته وفهمته، الخلاف. دفعوه للخروج إلى العالم الكبير ليموت على طريق عام[1]... هؤلاء هم المساكين الذين أرسلهم الله ليضحوا بحياتهم من أجل حضارة بلادنا!

(1) مات ليف تولستوي عام 1910 في غرفة ناظر إحدى محطات السكك الحديدية بعد أن ترك ضيعته وأسرته. (المترجم)

كل هـؤلاء الكُتّـاب مـن ذوي الأصول الأجنبية، شـاركوا أبـي وجهات نظره حول روسيا. هؤلاء لم يتحملوا ما عُرف باسـم المجتمع المثقف، ولم يشـعروا بأنهـم في حال أفضل إلا مع الشـعب. بل إن أفضل شـخصيات أعمالهم مأخوذة من الفلاحين، الذين يجسـدون في عيونهم مسـتقبل بلادنا. لقد قام دستويفسكي بدور المترجم لكل هذه العقول العظيمة، عندما وجّه حديثه إلى المثقفين الروس قائـلاً: «أنتم تتصورون أنفسـكم أوروبيين حقيقيين، وفي الواقـع أنتم لا تملكون أي ثقافة. هذا الشـعب الذي تزعمون أنكم تثقفونه بواسطة يوتوبياتكم الأوروبية هو أكثر منكم تحضرًا. لقد تعلم من المسيح، الذي انحنى الشعب أمامه، لأنه هو الذي أنقذه من الوقوع في براثن اليأس».



الفصل التاسع والعشرون

العام الأخير من حياة دستويفسكي

عاد دستويفسكي إلى ستاريا روسا، حيث كنا نقضي فصل الصيف مكللاً بالنصر. قال لزوجته «كم من المؤسف أنك لم تحضري هذا الجمع من النبلاء. يحز في نفسي أنك لم تكوني شاهدة على ما حققته من نجاح!». لم تشأ أمي أن ترافق زوجها في سفره حفاظا على ميزانية البيت وهي المخلصة تماما لاقتصاديات الأسرة. كانت تستحثه على الذهاب على وجه السرعة للذهاب إلى إمس لتلقي العلاج المعتاد، لكن دستويفسكي كان مشغولاً بأمور أخرى. لقد راح يكتب هذا العدد الوحيد من «يوميات الكاتب» لعام 1880، والذي صدر في أغسطس من هذا العام ليثير ردود أفعال هائلة. كان دستويفسكي يرغب في أن يُبثّ في العقول هذا الإنجيل، الذي بَشَّر به في عيد بوشكين، وأن يرد به على خصومه، الذين عادوا من جديد، بعد انقضاء وهج الانطباع الأول ونشوته، ليرفعوا رؤوسهم محاولين أن يدفنوا الفكرة الجديدة، التي بثت الرعب في ببغاوات أوروبا الخالدين. كان دستويفسكي ينوي السفر للعلاج في شهر سبتمبر، لكنه وقد أحس بالإجهاد نتيجة الانفعال بانتصاره وخوضه لهذه المعركة السياسية، تخلى تمامًا عن السفر للخارج. قرر أنه من الممكن الاستغناء عن الذهاب إلى إمس عامًا واحدًا. يا للأسف! لم يكن يعرف إلى أي حد قد ساءت صحته البدنية وأن قواه قد استنزفت! لقد قادته إرادته الفولاذية ومثله الأعلى، الذي كان يتقد

في قلبه ويشعل من حماسه إلى القضاء على عافيته تمامًا، والتي كان رصيده منها قليلاً دائمًا.

عزم دستويفسكي على مواصلة إصدار «يوميات الكاتب»، وكان قد خطط أن يكون ذلك هو الإصدار الوحيد في عام 1880. الآن وبعد أن أنهى «الإخوة كارامازوف»، عاد دستويفسكي إلى الصحافة، ومن جديد خرج إلى معترك السياسة. كان العدد الأول، وللأسف، الوحيد الصادر في يناير 1880 يتضمن مذهبه كاملاً. تلك كانت وصية دستويفسكي التى أعلنت الحقائق، التي لم يكن هناك أحد في زمنه يريد أن يؤمن بها، لكنها راحت تتجسد يوما بعد الآخر لتتجسد كاملة خلال القرن العشرين. هذا العبقري كان يستشرف القادم من بعيد. كان يقول للمثقفين الروس: «لا تحتقروا الشعب، انسوا أنه كان في يوم من الأيام عبدًا لكم. احترموا أفكاره، أحبوا ما يحب، انحنوا أمام ما ينحني هو أمامه، لأنكم إذا ما أخذتم الأمر ببساطة، إذا ما استهنتم به واحتقرتم عقيدته، وأخضعتموه لقوة المؤسسات الأوروبية، التى لا يفهمها، ولم يشأ أن يتبناها مطلقًا، فسوف يأتي قريبا هذا الزمن، الذي سوف يتبرأ فيه منكم، وسوف يشيح بوجهه عنكم ويروح يبحث له عن قادة آخرين. أنتم تريدون برلمانًا أوروبيًا وتأملون أن تجتمعوا فيه وتصدروا من خلاله قوانينكم من دون أن تأخذوا رأي الشعب. هذا البرلمان لم يكون سوى مجرد «مكلمة». لن تستطيعوا أن تحكموا روسيا، لأنكم لا تفهمونها. البرلمان الوحيد الممكن قيامه في بلادنا هو البرلمان الشعبي. دعوه يجتمع ويعلن إرادته. ما الذي دهاكم أيها المثقفون. استمعوا باحترام إلى الكلمات المتصالحة لنواب الفلاحين وحاولوا أن تفهموهم، لكي تصيغوا هذه الكلمات البسيطة فيما بعد صياغة قانونية. إنكم إذا ما حكمتم روسيا وفقا للرغبات التي يقولها الشعب، فسوف تتجنبون الوقوع في الأخطاء وسوف تزدهر بلادكم. أما إذا انغلقتم على أنفسكم بعيدًا عنه ودخلتم إلى هذه «المكلمات» الأوروبية فسوف تعملون في الظلام وسرعان ما يدب بينكم الصدام وبدلا من أن تنيروا روسيا سوف تضربون

رؤوسكم بالحجارة. حاولوا أن تكثروا من عدد مديري المدارس، وسعوا شبكة السكك الحديدية، لكن الأهم أن تحاولوا بناء جيش قوي، إذ إن أوروبا تكرهكم ولا تفكر سوى في أن تستحوذ على ثرواتكم. الأوروبيون يعرفون أن الشعب الروسي سوف يكون دائمًا خصمًا للأحلام الرأسمالية للبورجوازي الشره. إنهم يشعرون أن روسيا ستخرج من رحمها كلمة جديدة للأخوة المسيحية، تلك الكلمة، التي ستضع خاتمة لنظامهم البورجوازي. علينا ألا نتعاون مع الأوروبيين، وإنما مع الآسيويين، لأننا، نحن الروس، آسيويون، بقدر ما الأوروبيون أوروبيون. إن الخطأ الذي ارتكبناه في سياستنا على مدى المائتي عام الأخيرة يكمن في أننا سعينا لأن نقول لشعوب أوروبا أننا أوروبيون حقيقيون. لقد قدمنا خدمة كبيرة للغاية لأوروبا عندما انشغلنا بخلافاتهم الداخلية. كنا نهرع عند أول نداء لإرسال جيوشنا، جنودنا المساكين إليهم، وهؤلاء، الذين قدمنا لهم العون، كانوا سرعان ما ينسونهم. إننا ننحني على نحو مهين أمام الأوروبيين، فتكون مكافأتهم لنا هي الكراهية والاحتقار فحسب. حان الوقت لأن نترك أوروبا الجاحدة. إن مستقبلنا هناك - في آسيا. صحيح أن أوروبا أمنا أيضًا، ولكن بدلا من أن ننشغل بشئونها، الأفضل أن نقدم لها خدمة، أن نطور فكرتنا الأرثوذكسية الجديدة، التي ستكون فيما بعد في خدمة العالم أجمع. وحتى ذلك الحين سوف نكون في حال أسعد، بعد أن نعقد أواصر الوحدة مع الآسيويين. لقد كنا أغرابًا في أوروبا، أما في آسيا فنحن أصحاب البيت. في أوروبا كنا مجرد تتار، أما في روسيا فسوف نكون حاملين للحضارة. إن الوعي برسالتنا سوف يضفي علينا المهابة التي تنقصنا الآن ونحن نتصور أنفسنا صورة كاريكاتورية لأوروبا. هيا بنا إلى آسيا، إلى «بلاد المعجزات المقدسة»، كما أطلق عليها واحد من أنصار النزعة السلافية العظماء، ولنحاول أن يكون اسم القيصر الأبيض محترمًا في آسيا أكثر من اسم ملكة إنجلترا[1]، بل وأكثر شهرة من اسم الخليفة».

---

(1) عاش دستويفسكي في فترة حكم الملكة ڤيكتوريا.

لـم يسـتطع معاصرو دستويفسـكي أن يفهمـوا وصيته هذه[1]. لـم يكن لديهم بصيرة مثل بصيرته. المجتمع الروسـي المُنوَّم مغناطيسيًا من قِبَل أوروبا، لم يكن يعيش سـوى علـى أمل أن يصبح يومـا ما أوروبيـا صرفًا. هذا الطمـوح كان قويًا لديـه إلـى حد أن حكومتنـا كانت تدعمـه. كان آل رومانوف[2] يكرهـون المغول بشـدة ويخشون آسيا. كان قياصرتنا يملكون العديد من مقار الإقامة في الأجزاء الأوروبية من روسيا، لكنهم لم يكونوا يملكون مقرا واحدًا لهم في سيبيريا أو في آسـيا الوسـطى، بل إنهم لم يذهبوا إلى هناك إطلاقًا. عندما كان الأمراء الشرقيون يأتون إلى بطرسـبورج، كان القياصرة يسـتقبلونهم باحترام ولكـن ببرود. كان آل رومانوف مخلصين لأفكار بطرس الأكبر، وظلوا مصرِّين على غرس المؤسسات الأوروبية في روسـيا. كل مجالسـنا الحكومية، مجلس الشـيوخ، مجلس النواب (الدومـا)، مجلـس الـوزراء، الإدارات كافة، كلهـا كانت نسـخًا أوروبية. معاهد الفتيـات النبيـلات كانت تقليـدًا لأديرة فرنسـا، أما مدارسـنا العسـكرية، فكانت شـبيهة بالمـدارس العسـكرية الألمانية. لقد جـرى طرد الروح الروسـية من هذه المعاهـد التعليميـة، والذيـن تلقـوا تعليمهـم مـن أبناء وطنـي الشـباب أصبحوا كوزموبوليتانيين، وباتوا يفضلون التحدث فيما بينهم باللغة الفرنسـية. ولكن، إذا كان حكامنـا قد نجحوا فـي جذب طبقة النبلاء نحو أوروبا، فإن ذلك لم يفلح مع

(1) أورد هنـا مجرد عرض مختصر للعـدد الأخير من «يوميات الكاتب»، وهو طويل للغاية ويسـتحق قراءته كاملاً ودراسـته باهتمام بالغ. سيشعر القارئ هنا أن روح دستويفسكي النورمانديـة على اسـتعداد دائمًا للذهـاب إلى البلاد المجهولة لكـي يحمل إلى أكثرها بدائيـة الحضارة! هـذه الروح الأكثر أحقيـة بالاعتبار، لا يمكـن أن تقابلها لدى أي من كتابنـا الروس - تولسـتوي، تورجينيـف، جونتشـاروف وغيرهم. هـؤلاء يفضلون ألا يتحركـوا، وهـم دائما راضـون أن يظلوا في مكانهـم، كما أنهم غير مهتميـن إطلاقًا بأن ينقلوا الحضارة للمغول.

(2) آل رومانوف: سلالة من النبلاء في روسيا في القرون من الرابع عشر إلى السادس عشر. أحفاد أندريه كوبيلا. أول القياصرة هو ميخائيل فيودروفيتش رومانوف، آخر إمبراطور هو نيكولاي الثاني الذي تم خلعه على يد الثورة البلشفية في عام 1917. (المترجم)

الشعب. النبلاء الروس والمثقفون كانوا ضعافًا، بينما كان الشعب أكثر قوة وظل مخلصًا لرسالته التاريخية. عندما أصبح من دون حكومة أوروبية، بدأ على الفور في تطبيق سياسة روسية. وقبل مرور عامين بعد خلع نيكولاي الثاني، وإعلان العقيد سيمونوف «الأمير العظيم لمونغوليا»، راح الروس يعقدون مباحثات مع أمراء أفغانستان وكردستان. أرسل الهندوس إلى موسكو وفدهم. المسألة أن الدم السلافي راح ينزف من عروق الروس تدريجيًا، بينما راح المغولي يزداد قوة عامًا بعد الآخر. ولولا أن السلافيين الغربيين أرسلوا إلينا مستوطنيهم لكي يساعدونا في احتلال آسيا لتحول الروس إلى مغول خلال مائة عام. لقد لوحظ كيف ضَعُفَ الوعي لدى الروس بأخوتهم مع السلافيين. خلال العامين 1877، 1878 كانت روسيا بأسرها تحارب من أجل تحرير الصرب والبلغار، وفي عام 1917 ألقى جنودنا سلاحهم من دون أي شعور بالقلق على صربيا، التي كانت ما تزال تحت سيطرة العدو. عندئذ راح الشعب الروسي يهتم تدريجيًا أكثر فأكثر بالمغول ناسيًا السلافيين. لم يحارب هذا الشعب مطلقًا من أجل تحرير إخوته السلاف من النير التركي والنمساوي، الآن ها هو يفكر في تحرير إخوته الجدد، الشعوب الشرقية، من مستعمريهم الأوروبيين. هنا راحت القبائل الآسيوية تضخ من جانبها دماءها المغولية في عروق روسيا، والذي كشف عن نفسه على نحو أكثر وضوحًا في شعبنا. ما إن مدت روسيا لهم يدها، حتى تشبثت بها مخالب المغول السمراء بكل سرور. هؤلاء المساكين! لقد انتظروا طويلاً هذه اللفتة الودية! لقد تعبوا من كونهم برابرة. كانوا متعطشين لأن يصبحوا متحضرين، كما كانوا يودون لو أنهم لعبوا دورًا ما في مصائر العالم. إن الحضارة التي قدمها لهم الإنجليز، كانت فوق قدرتهم بكثير وخاصة أنهم قدموا لهم هذه الحضارة بشعور بالاحتقار. كان الإنجليز مستعدين لشق الترع وبناء السكك الحديدية في الهند، لكنهم رفضوا أن يكونوا إخوة للسكان الأصليين وتركوهم خاملين في خرافاتهم الوثنية. لم يكن هناك شيء أكثر إهانة لأهل الشرق من هذه الغطرسة وهذا الازدراء، إذ إن الشعور بالكرامة الشخصية في الشرق مرهف للغاية أكثر

من أي مكان آخر. الشعوب الشرقية تعطي دائمًا أولوية خاصة لروسيا: الدب الروسي مشهور بسمعته كوحش رائع، متواضع وكريم. وفي الشرق يعرفون أن هذا الوحش مستعد دائمًا أن يمد يده بشكل أخوي لأي شخص مهما كان لونه. سوف يتزوج بسرور من النساء المغوليات، وسوف يحب إناث الدببة السمراء لا أقل من البيضاء. سوف تقدم روسيا ثقافتها الأوروبية هدية للمغول، بقدر قد يكون قليلاً، وسوف يكون استيعابها من ثم أسهل. سوف تكشف لهم عن الإنجيل وتدعو أهل الشرق إلى مأدبة الرب. يومًا ما، في أزمان البطارقة وقياصرة موسكو، كانت الدعوة للمسيحية تعد واجبًا مقدسًا على أبناء موسكو. ما إن أخضع الروس بعضًا من القبائل المغولية حتى أرسلوا على الفور إلى الأقاليم التي فتحوها قساوسة دعاة، حيث بنوا هناك كنائس وأديرة، ودعوا الأمراء الشرقيين الشباب إلى موسكو. أبهروهم بفخامة الاحتفالات القيصرية وترف وصداقة النبلاء. اعتنق شباب المغول الذين فتنتهم هذه الحضارة، التي يرونها للمرة الأولى الأرثوذوكسية هم وشعوبهم. العديد من أرستقراطيينا ونبلائنا بالوراثة تصاهروا مع هؤلاء الأمراء المغول، الذين يتميزون بالنزعة الوطنية الحارة. بعد أن قام بطرس الأكبر بتدمير النظام البطريركي وضع نهاية لهذه السياسة الرائعة التي كان يتبعها أبناء موسكو. وقد حذا ورثته حذوه، وبدلا من أن يرسلوا الدعاة إلى آسيا. راحوا يدعمون المساجد ويهدونها بأفخم أنواع السجاد من القصور الروسية، كذلك قدموا المساعدة للبوذيين لبناء معابدهم، الأمر الذي أثار سخط رجال الدين عندنا، الذين كانوا يحافظون كسابق عهدهم على ولائهم لأفكار أبناء موسكو. البطاركة الروس الجدد هم الذين سوف يجددون نشاطهم المسيحي في آسيا. لم يكن الأوروبيون يبحثون هناك سوى عن مناجم الذهب والفضة؛ أما نحن الروس فسوف نجد فيها «بلاد المعجزات المقدسة»، مناجم من نوع آخر، أكثر قيمة للإنسانية. سوف نكتشف هناك كنوز الإيمان، الحواريين الفصحاء، الذين سيكون باستطاعتهم محاربة إلحاد أوروبا ويعالجونها من هذا المرض المميت.

إن الثورة الروسية تعني بعث آسيا بأسرها الزمن الأوروبي في بلادنا انتهت ليبدأ الزمن الشرقي. سوف يولي الروس اهتمامهم بشئون أوروبا أقل فأقل ليزيدوا من اهتمامهم بآسيا. سوف يساعدون الشعوب الشرقية الأخرى في التحرر من نير الأوروبيين وأن يشملوهم برعايتهم. وكما حَلَمَ دستويفسكي، سوف يصبح القيصر الأبيض موضعا للفخر في الشرق أعلى من اسم ملك إنجلترا واسم الخليفة.

يا له من أمر عجيب! كأن الأوروبيين أنفسهم يريدون مساعدتنا على غزو آسيا، هذا الغزو، الذي سيفقدهم مستعمراتهم الشرقية الغنية. راح الأوروبيون يبذلون جهدهم لكي يفصلوا عن روسيا ليتوانيا وأوكرانيا وجورجيا وفنلندا وإستونيا وليفونيا مستغلين الفوضى السائدة الآن في روسيا. كانوا يفكرون على هذا النحو على إضعاف بلادنا ولم يلاحظوا أن الأمر على عكس ذلك سوف يقويها. الليتوانيون والأوكرانيون والجورجيون وأبناء بلاد البلطيق كانوا يكرهون دائمًا ويحتقرون الدم المغولي في روسيا، وكانوا يفعلون كل شيء، لكي يجعلونا نُحوِّل نظرنا عن آسيا ولأنهم كانوا أكثر تحضرا من روسيا فقد كانوا يملكون تأثيرًا كبيرًا على أبناء وطني، وكانوا يمثلون العقبة الكئود أمام الاتحاد مع الآسيويين. عندما يترك كل النواب السلافيين – النورمانديين والجورجيين الدوما (مجلس النواب) فإن النواب الروس، الذين سيبقون وحدهم، سوف يحققون التفاهم المشترك، وسوف يسمحون لدمهم المغولي أن يميل بهم ناحية آسيا.

الأوروبيون كانوا يطالبون بصوت عالٍ بالديموقراطية لروسيا، من دون أن يدركوا أنه كلما ازدادت روسيا ديموقراطية، كلما أصبحت أكثر عدوانية تجاه أوروبا. إن نبلاءنا وأرستقراطيينا كانوا يتحدثون فيما بينهم بالفرنسية والإنجليزية، وكانوا يعتبرون أوروبا وطنهم الثاني، أما فلاحونا وبورجوازيونا الصغار فهم لا يتعلمون اللغات الأوروبية ولا يقرءون الكُتَّاب الأوروبيين ولا يسافرون إلى

أوروبا ولا يطيقـون الأجانـب. إنهم يجذبون نحو آسيا قياصرتنـا الجدد، الذين تخلصوا من التأثير الأوروبي لبارونات بلاد البلطيـق والبولنديين والجورجيين، وهم لا يستطيعون أن يقفوا ضد إرادة شعبهم. إن الأوروبيين والأمريكين لديهم الأمـل، بعد أن يؤسسـوا في روسـيا نظامـا ديموقراطيًا، في أن يضمنوا لأنفسـهم منفـذا إلى مـا لدينا من ثروات في باطن الأرض والغابـات، وهنا يكمن خطؤهم، لأن فلاحينا يستطيعون على نحو أفضل الحفاظ على أراضيهم من هؤلاء النبلاء المنتشـين بتربيتهـم الأوروبية. كان النبلاء الروس على استعداد دائمًـا أن يبيعوا كل ما يملكون ليسـافروا للاستمتاع بالحياة في ملاهي مونت كارلو. أما فلاحونا فـلا يعرفون شيئًا عـن هذا الركـن من الجنـة الأرضية، إنهـم يفضلـون البقاء في روسـيا والحفاظ على أرضهم. دائمًا ما يبـدأ الفلاحون عصيانهم بقتل الموظفين الأوروبيين في مناجمنا ومصانعنا. إن كون الأجانب يسـتغلون ثرواتهم الطبيعية، لكـي يصبحـوا من أصحـاب الملاييـن، يعد بالنسـبة لهم إهانـة بالغـة لكرامتهم الوطنيـة. المخدوعـون على يـد مهاجرينا، وكذلـك الأوروبيـون والأمريكيون، يشبهون جميعًا بعضهم بعضًا، فهم لا يفهمون الطابع الحقيقي لفلاحينا وينظرون إليهم باعتبارهم بلهاء يسـهل قيادتهم. لن يسـارع الأوروبيون بالدخول في حرب ضـد البلاشـفة على أمـل أن تُضعف الفوضى روسـيا، وفـي الوقت نفسـه يدعم الروس صداقتهم الجديدة مع شعوب الشرق. هذه الصداقة القائمة على التعاطف المشـترك يمكن أن تصبح قوة كبرى. حتى الآن ما يزال الأوروبيون يقلبون النظر كل يـوم حـول بلدنا، وهم لا يعرفون أي سياسـة يختارونها تجاهها، فروسـيا هي طائر النار، الذي يُحلّق دائمًا نحو الشـرق. إن العمى الذي أصاب أوروبا وأمريكا فـي علاقتهمـا ببلادنا كان سـيصبح أمرًا مضحكًا مهمـا كان مخططًا له في الوقت نفسه على نحو جيد للغاية. عندما يريد الله أن يرسل إلى العالم كلمة جديدة، يبدأ بـأن يهزم عمى البلاد، المتمسـكة بالأفـكار القديمة، التـي هَرِمت وأصبحت منذ الآن فصاعدًا غير ذات جدوى.

على الرغم من انغماسه في القضايا السياسية، لم يترك دستويفسكي أبناءه دون رعاية واستمر يقرأ علينا كل مساء روائع الأدب الروسي. في هذا الشتاء الأخير من حياته قرر أن يطلعنا على مقاطع من كوميديا «جريبويدوف»[1] «ذو العقل يشقى» أصبحت هذه المقاطع من هذه الكوميديا الظريفة بمثابة أقوال مأثورة بالنسبة لنا. كان دستويفسكي يقدر تقديرًا رفيعًا هذه الهجائية الرائعة للحياة في موسكو، وكان يحب أن يشاهد كيف يؤدونها على خشبة المسرح. على أنه كان يرى أن ممثلينا يفهمونها على نحو خاطئ، وخاصة دور ريبيتيلوف، الذي كان أبي معجبًا به بشدة، وكان يرى فيه الجد الحقيقي للحزب الليبرالي ذي النزعة الغربية. ريبيتيلوف لا يظهر إلا في نهاية المسرحية. يصل ريبيتيلوف إلى بيت فاموسوف، بعد أن تلقى دعوة لحضور حفل باليه، لكنه يصل في الرابعة صباحًا بعد أن انصرف جميع الضيوف. يدخل وهو يترنح من السكْر وقد استند على يدي خدمه، وهنا يبدأ في الثرثرة، ويروح يلقي خطبًا لا تنتهي، بينما يروح ضيوف فاموسوف يستمعون إليه وهم يسخرون، طامعين بذكاء أكثر في الإفلات ليتركوا المكان لغيرهم. كان ريبيتيلوف قد لاحظ بالكاد أن المستمعين طول الوقت يتبدلون، بينما يواصل هو إذاعته. قام ممثلونا بأداء دور ريبيتيلوف باعتباره مهرجًا، أما دستويفسكي فقد رأى أن هذه الشخصية تراجيدية بعمق. كان على حق، إذ إن عدم قدرة مثقفينا على فهم روسيا، وأن يقدموا لها شيئًا مفيدًا هو في رأيه الداء العضال. كان دستويفسكي مفتونًا وهو يقرأ علينا ويشرح لنا هذه الكوميديا، حتى أنه كان يود لو أنه قام بنفسه بأداء دور ريبيتيلوف على النحو الذي فهمه به. شارك أصدقاؤه هذه الرغبة لديه، وهؤلاء اقترحوا عليه أن ينظم في بيته مسرحية منزلية وأن يؤدي الفصل الأخير لمسرحية جريبويدوف

---

(1) جريبويدوف، ألكسندر سيرجييفتش (1795-1829): كاتب روسي، في عام 1828 تم تعيينه سفيرًا لدى فارس، حيث تم اغتياله على يد متطرفين. كتب كوميديا «ذو العقل يشقى» شعرًا. (المترجم)

الخالدة. كانت هناك أحاديث كثيرة في بطرسبورج حول هذه المسرحية. لم يكن بنيـة أبي أن يتحدث أمـام الجمهور حتى يسـتعد تمامًا، ولكنه أداهـا أمامنا، نحن أطفالـه. وكعادتـه فقد كان منجذبًا إلـى ابتكار جديد: لقـد أدى الدور كما يجب، واثبًا، بعد أن تعثر عند دخوله إلى الغرفة، محركًا يديه، مغنيًا. كنا نتابع أداءه وكأننا مسحورون. كان لنا صديق يدعى سيرجي، وهو الابن الوحيد لأرملة غنية، كانت تدلـله كثيرًا. أوصت بإعداد خشبة مسرحية صغيرة في واحدة من قاعات بيتها لها ستارة وبعض الديكورات. وكنا نعد هناك عروضًـا لأقاربنا، نؤدي فيها حكايات كريلوف، أو نقرأ بعض الأشـعار. وعلى الرغم من انشـغال دستويفسكي، فإنه لم يترك عرضا من عروضنا إلا وحضره وكان يصفق للفنانين الشـباب. لقد استيقظ بداخلنـا ولـع حقيقي تجاه المسـرح، وكنا في قمـة الفرح بـالأداء التمثيلي لأبينا، كنت دائمًا أشـعر بالأسـى أن الموت أعاق دستويفسـكي عن تقديم نفسه بوصفه ممثلاً. كان بإمكانه أن يقدم شـخصية مثالية لا تنسـى. على أي حال لم تكن هذه هـي المـرة الأولى، التي يتملك فيها الولع بالمسـرح مشـاعر أبي، فبعـد أن غادر المعتقل كتب كوميديا بعنوان «حلم العم»، والتي أعاد صياغتها مرة أخرى لتصبح رواية بنفس الاسـم. يحكي دستويفسكي في واحد من خطاباته، أنه راح يضحك بشـدة عندما كان يكتب هذه الكوميديا. وأكد أن بطلها الأمير ك، يشبهه تمامًا. في الحقيقة فإن هذه الشخصية التي تتميز بالسذاجة والفروسية للأمير المسكين تشبه شـخصية أبي. فيما بعد وبعد أن عاد إلى بطرسـبورج، كان دستويفسكي يحب أن يختلق خُطَبًا «على طريقة الأمير ك» يسـلي بها أصدقاءه، مقلدًا أسـلوب وصوت وإشـارات هـذا الفقير، الذي طار صوابـه. كان الأمير يثير ضحك دستويفسـكي، وقد استطاع أن يخلق من بطله إنسـانًا حيًـا بالفعل. ومن المثيـر للاهتمام أن أبي صوَّر نفسـه في شخصية الأمير مرتين، أي هذا الإنسان الذي يمثل الثقافة القديمة الموروثة، وفي المرتين باعتباره ضحية الانحطاط.



الفصل الثلاثون
وفاة دستويڤسكي

في نهاية شهر يناير وصلت عمتي ڤيرا قادمة من موسكو لتنزل عند أختها ألكسندرا. فرح أبي بوصولها إلى بطرسبورج وسارع على الفور بدعوتها على الغداء. كان يتذكر بسرور بالغ الإجازات التي كان يقضيها في موسكو واستضافة أخته له كثيرًا عندما أصبح أرملاً وكيف كانت تستقبله عائلتها بحفاوة بالغة. عندما دعاها دستويڤسكي على الغداء كان يهدف إلى الحديث معها عن أبناء وبنات أخته وعن أمه، التي كانت ذكراها عزيزة على قلبه، وعن أيام الطفولة، التي قضوها في موسكو وداروڤويه. لم يكن يعرف أن أخته قد استعدت لإدارة دفة الحديث في اتجاه مخالف تماما.

يتلخص الأمر في أن آل دستويڤسكي كانوا يتصارعون منذ فترة بعيدة على الميراث، الذي تركته عمة دستويڤسكي، كومانينا، بعد وفاتها. تركت كومانينا كل ثروتها لورثة زوجها، ولكن ضيعة واحدة عبارة عن اثني عشر ألف ديساتينا[1] من الغابات، الموجودة في محافظة ريازان، كان من المفترض أن تُقسَّم بين أبناء أخي دستويڤسكي وأبناء الإخوة الآخرين، أبناء أخته وابنة عمه. لكن كل هؤلاء الورثة لم يستطيعوا على أي نحو من الأنحاء أن يتفقوا فيما بينهم وراحوا يُضيعون

(1) ديساتينا: وحدة المساحة في روسيا قبل الثورة تساوي هكتارًا. (المترجم)

الوقت في خلافات لا تنتهي. هذه الخلافات وقعت في موسكو، أما والدي، الذي لم يكن يعرف أهل عمته معرفة جيدة فلم يشارك في هذه الخلافات، وإنما راح ينتظر بصبر نافد، متى سيتفقون في النهاية حتى يتمكن من استلام نصيبه في الميراث، الذي تبلغ قيمته ألفي ديساتينا. كانت هذه حصة معتبرة من الأرض، للأسف فإن بُعدها عن السكك الحديدية صعَّب من الوصول إليها ومن ثم قلَّل من قيمتها. في الوقت نفسه كان دستويفسكي يضع آماله بشدة على هذا الميراث، حيث إنه كان الشيء الوحيد، الذي بإمكانه أن يتركه لأسرته، وفجأة إذا بأخواته يجادلنه في هذا الميراث!

بموجب القوانين الروسية فإن النساء في ذلك الوقت كن باستطاعتهن أن يرثن ما لا يزيد عن أربعة عشر جزءًا من العقارات فقط. عماتي اللائي كن يتسمن بشيء من البخل، كن يعوِّلن على ثروة كومانينا وقد أصابهن الكدر لأنهن قد حصلن على هذا القدر الضئيل من الميراث. هنا تذكرن كيف تنازل أخوهم فيودور بسهولة عن ميراث أبيه مقابل مبلغ مالي زهيد، فقررن أنه سوف يتنازل للمرة الثانية أيضًا. طلبوا منه أن يتنازل عن نصيبه لصالح أخواته الثلاث، مستندين في ذلك على أنه أخذ من عمته كومانينا أكثر بكثير من أفراد عائلته الآخرين. في الحقيقة فقد كان أبي طول حياته هو المفضل عند عمته، التي كانت بمثابة أمه بالعماد، ولكن عمتي ورثت ثروتها عن زوجها، ومن ثم كان لها مطلق الحرية أن تتصرف فيها كما تشاء، ومن ناحية أخرى، فإن الجزء الأكبر من النقود التي أخذها أبي من عمته أنفقها على مطالب كل عائلة دستويفسكي. في خطاب له لأحد أصدقائه يقول أن العشرة آلاف روبل التي أخذها من عمته ذهبت كلها في إنقاذ مجلة «العصر»، التي كان يملكها أخوه ميخائيل. لقد ظل دستويفسكي طول عمره يساعد أخاه نيكولاي؛ فضلاً عن مساعدته لأخته ألكسندرا عندما كان زوجها الأول مريضًا، وكذلك أبناء أخيه، أطفال عمي ميخائيل، الذين ظلوا

زمنًا طويلاً يعيشون على إعالته. وفي الوقت نفسه، فأنا على يقين، لعلمي بسخاء أبي، أنه كان سيتنازل لأخوانه عن نصيبه في الميراث، لو لم يكن هناك دين أكثر إلحاحًا لزوجته وأطفاله. لقد سوَّى في النهاية ديون أخيه، ولكنه وقد تحمل مسئولية ثلاث عائلات – عائلة أخيه، عائلة پاڤل إيسايف، ثم عائلته هو، فقد كان ينفق كل ما يكسبه ولا يتبقى له شيء يدَّخره. على هذا النحو فإن أرض ريازان كانت هي الميراث الوحيد، الذي كان من الممكن أن يتركه لأسرته. صحيح أنه ترك فوق ذلك مؤلفاته، ولكن مثل هذا الميراث في روسيا لم يكن يضمن عائدًا محترمًا. كثيرًا ما يكون الكاتب مشهورًا إبان حياته، ولكنه ما إن يموت حتى يطويه النسيان. لم يكن هناك أحد آنذاك بمقدوره أن يتنبأ بالمكانة العظيمة التي قُدِّر لدستويفسكي أن يحتلها لا في روسيا وحدها، وإنما في العالم بأسره. هو نفسه لم يكن يتوقع ذلك. لقد بدءوا في ترجمة أعماله إلى لغات أخرى، لكن أبي لم يول لترجمتها أي أهمية. كان يعتبر نفسه روسيًا وكان يؤكد أن الأوروبيين غير مؤهلين لفهم الفكر الروسي. وقد كان على حق: إن كُتَّابنا العظام – بوشكين، ليرمونتوف، جوجول، جريبويدوف، جونتشاروف، أوستروفسكي – لم يلقوا أي نجاح في أوروبا، بمن فيهم تورجينيف، الذي راح أصدقاؤه الأوروبيون يهللون له هناك. دستويفسكي لم يأخذ بعين الاعتبار روحه النورماندية، والتي من أجلها أصبح، دون شك، عزيزًا على شعور أوروبا، تمامًا كما ساهمت الروح الألمانية في مجد تولستوي. لقد كان النورمانديون رحالة عظاما ومهاجرين. لا يوجد شعب واحد في أوروبا وأمريكا تقريبًا لا تجري في عروقه ولو قطرة واحدة من الدم النورماندي. إن الإيمان الشديد للنورمانديين، بصيرتهم المدهشة، انعكسا في أعمال دستويفسكي، ليجذبا الأوروبيين، في الوقت الذي كانت روحه السلافية، العطوفة، السخية والمتوقدة تأسر الشعوب السلافية، أما الدم المغولي وحده، الذي كان من المحتم أن يكون أبي قد ورثه عن جده الموسكوفي، فكان

يظهر لديه على نحو ضعيف. ربما، لهذا السبب، لم تحب الشعوب الشرقية (بمن فيهم اليهود) دستويفسكي.

في سياق ذلك، لم يكن بمقدور أبي أن يعتمد على ترك معاشه فقط لزوجته وأطفاله. هذا المعاش كانوا يعطونه لأرامل موظفي الدولة، وكان أبي يرفض طول حياته خدمة الدولة، مُقدِّرًا حريته واستقلاله قبل كل شيء. كانت أمي أول أرملة كاتب تخصص لها الحكومة الروسية معاشًا[1]، ولذلك كان الأمر مفاجئا للجميع، لم يكن أبي يملك الحق في أن ينزع عن أطفاله خبزهم لكي يعطيه لأخواته، اللائي كن يتمتعن عمومًا بوضع مادي أفضل مما لدينا. عمتي ألكسندرا كانت تملك بيتًا مؤجرًا في بطرسبورج، أما عمتي ڤارڤارا فكان لديها عدد من البيوت في موسكو، عمتي ڤيرا تمتلك ضيعة في داروڤويه. دستويفسكي شرح لأخواته مرارًا أوضاعه الصعبة، لكنهم لم يكونوا يريدون الاستماع له. عمتي ألكسندرا تشاجرت مع أخيها وامتنعت عن زيارتنا، عمتي ڤارڤارا تصرفت على نحو أكثر دبلوماسية، انتحت جانبًا ولم تتدخل في هذا الشأن. ولعلم عماتي بتعاطف دستويفسكي مع أسرة عمتي ڤيرا حاولن دفعها لتحاول مع أبي مرة أخرى تمهيدًا لهجومهن التالي عليه.

كان الغداء العائلي في يوم الأحد، الخامس والعشرين من يناير. بدأ في جو من البهجة وتبادل النكات وتذكر أيام الطفولة واللعب وضحكات دستويفسكي،

(1) خصصت الحكومة لأمي معاشًا قيمته ألفا روبل (حوالي خمسة آلاف فرنك)، وهو يعادل معاش أرامل الجنرالات. كما كفلت لنا أيضًا الحق في التعليم على نفقة الدولة في فيلق باجيسكي ومعهد سمولني، وهما من المعاهد التعليمية الأرستقراطية في روسيا. وقد قبلت أمي عرض الحكومة، ولكننا كنا آنذاك ما نزال صغارًا للغاية، حتى يرسلوا بنا إلى المدارس. فيما بعد عندما كبرنا بدأت طباعة أعمال دستويفسكي بعد موته تدر علينا دخلاً جيدًا، ومن ثم أرسلتنا أمي إلى معاهد دراسية أخرى ودفعت بنفسها مصروفات تعليمنا. وقد شرحت لنا أنه وفقًا لآراء أبي، فإن على الوالدين أن يدفعا نفقات تعليم أطفالهما وأن يتركا الأماكن المجانية للأيتام.

لكن عمتي أسرعت بالانتقال إلى المفاوضات، واندلع على الفور السؤال الخالد حول ميراث كومانينا، الذي نغَّص على آل دستويفسكي حياتهم جميعًا. تجهم وجه أبي، حاولت أمي أن تحوِّل الحديث إلى موضوعات أخرى، فكانت تسأل أخت زوجها عن أحوال أولادها، لكن ذلك لم يفلح. لم تكن عمتي ڤيرا الأكثر ذكاء في الأسرة. أخواتها الماكرات الحاذقات كن قد أعددنها لهذا الموقف، فلما خافت أن تطير نصائحهن من رأسها، راحت تواصل الحديث في هذا الأمر بلا توقف، وكلما استمر الحديث، ازداد الموقف اشتعالاً. عبثًا حاول دستويفسكي جاهدًا أن يشرح لها وضعه المالي البائس، حدثها عن الواجب الملقى عليه كأب، تعاملت عمتي كصمَّاء أمام حججه العقلية واتهمت أبي «بالقسوة» نحو أخواته، وفي النهاية انفجرت في البكاء، نفد صبر أبي وحتى ينهي هذا الجدل المضني نهض عن المائدة، دون أن ينتظر حتى ينهي غداءه. وفي الوقت الذي راحت أمي تودع زوجة أخ أبي الباكية، التي أرادت أن تعود إلى بيتها على الفور، آوى أبي إلى غرفته. جلس إلى مكتبه وبعد أن أسند رأسه على راحتيه، تملكه تعب هائل. كم كان مستمتعا بهذا الغداء، وإذا بهذا الميراث اللعين يفسد كل شيء من جديد... فجأة شعر أن راحتيه لزجتان على نحو ما غريب، نظر فإذا بهما غارقتان في الدم. تلمَّس شفتيه، شاربه، وبشعور بالتقزز سحب يديه. لم يحدث له من قبل أي نزيف! فزع دستويفسكي ونادى زوجته. هرعت أمي إليه، انزعجت، وأرسلت على الفور في استدعاء الطبيب، الذي يتولى علاج أبي، وأخذتنا نحن الأطفال إلى دستويفسكي في غرفته، وفي محاولة أن تسري عنه، راحت أمي تمازحه، قدمت له المجلة الفكاهية التي تسلمتها لتوها. عاد المزاج الطيب لأبي، ابتسم، راح ينظر إلى الرسوم الكاريكاتورية، ثم راح يمزح معنا نحن أيضًا. توقف الدم عن الخروج من فمه، غسل وجهه ويديه. عندما رأينا كيف راح أبي يضحك ويمزح، لم نستطع أن نفهم لماذا قالت لنا ماما أنه مريض ويجب أن نسليه. أخيرًا وصل الطبيب، طمأن والديَّ وأكد لنا أن مثل هذا النزيف يحدث

أحيانًا عند التهاب الشعب الهوائية، لكنه أصر على أن يلازم المريض فراشه يومًا أو يومين، وأن يقلل من الكلام قدر الإمكان. أطاع أبي نصيحة الطبيب ورقد على أريكته التركية، لكي لا يغادرها بعد ذلك أبدًا...

في صباح اليوم التالي استيقظ مرحًا وهو يشعر بأنه في حال جيدة. لقد نام طول الليل في هدوء، ولكنه ظل في فراشه لم يغادره تنفيذًا لتعليمات الطبيب. سمح بالدخول لأصدقائه، الذين كانوا يمرون عليه كل يوم لرؤيته، وكان يناقش معهم العدد الأول من «يوميات الكاتب» عن عام 1881، الذي كان من المنتظر أن يصدر على الفور متضمنا كل أفكاره. يبدو أن أبي لم يول أدنى أهمية لمرضه، فاعتبر أصدقاؤه أن ما به ليس سوى وعكة خفيفة سرعان ما تزول. في المساء، وبعد أن رحل أصدقاؤه، تكرر النزيف ثانية. كان الطبيب قد حذرنا من أن هذا الأمر يمكن أن يحدث نتيجة للنزيف الأول، ولذلك لم تنزعج أمي، على أنها شعرت بالخوف في اليوم التالي صباحًا، الثلاثاء، عندما لاحظت الضعف الشديد الذي اعترى زوجها. لقد فقد دستويفسكي كل اهتمام بمجلته، كان يرقد على أريكته بلا حراك وقد أغلق عينيه، وقد أدهشها هذا الضعف العجيب، الذي أجبره على الرقاد وهو المعروف بنشاطه وإقباله على الحياة، وقليلاً ما تعوقه الوعكات عن العمل. عندما جاء أصدقاؤه ليعودوه، انتابهم هم أيضًا الشعور بالخوف وقد شاهدوا حالة الضعف البادية عليه ونصحوا أمي ألا تعتمد كثيرًا على الدكتور بريتسل، الذي كان يقوم على علاج أسرتنا عادة، وأشاروا عليها بطبيب ما آخر. أرسلت أمي في طلب طبيب متخصص في الأمراض التنفسية، أبلغوها أنه لن يستطيع الحضور إلا في المساء. حضر الطبيب وأخبرها أن هذا الضعف ناشئ عن النزيف الذي حدث له مرتين، وأكد لها أنه سيتعافى خلال بضعة أيام. لكنه لم يُخف على أمي أن الحالة أخطر مما تصورها الدكتور بريتسل، ثم قال لها وهو يتأهب للانصراف: «هذه الليلة ستقرر كل شيء».

وا أسفاه! لقد استيقظ أبي في الصباح بعد ليلة قضاها مُسهدًا، أدركت أمي أن ساعاته في هذا العالم باتت معدودة. كان أبي يدرك ذلك أيضًا. في مثل هذه الأوقات العصيبة من حياته كان يلجأ دائمًا إلى الإنجيل، النسخة التي كان محتفظًا بها منذ أيام المعتقل، طلب من زوجته أن تفتح هذه النسخة القديمة من الكتاب المقدس وأن تقرأ عليه السطور الأولى التي تقع عليها عيناها. قرأت أمي جهرًا وقد أمسكت دموعها: «ولكن يوحنا معه قائلاً: أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إليّ؟ فأجاب يسوع وقال له: اسمح الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر»[1].

بعد أن استمع لكلمات المسيح، استغرق أبي في التفكير لحظات ثم قال لزوجته: «هل سمعت؟- اسمح لي الآن بالذهاب! لقد حانت ساعتي، لا بد أن أموت!».

طلب دستويفسكي استدعاء القس، اعترف، تناول القربان المقدس، وبعد أن انصرف القس طلب إحضارنا إليه، أخذ أيدينا في يديه، طلب من أمي أن تفتح الكتاب المقدس مرة أخرى وأن تقرأ علينا قصة الابن الضال. استمع إلى القراءة وقد أغلق عينيه مستغرقًا في التفكير ثم قال لنا بصوت واهن: «يا أطفال، لا تنسوا أبدًا ما استمعتم إليه الآن. اعتمدوا في كل شيء على الله ولا تفقدوا الأمل أبدًا في عفوه. أحبكم بشدة؛ لكن حبي لا يقارن بالحب العظيم للمسيح لكل الناس، ولكل مخلوقاته، وحتى إذا ما حدث وارتكبتم، لسوء الحظ، جرمًا في حياتكم، فلا تقعوا أبدا فريسة لليأس، لا تفقدوا الأمل في الله، أنتم أطفاله، اركعوا لله كما تركعون لأبيكم، ادعوه أن يسامحكم وسوف يفرح بتوبتكم كما فرح بعودة الابن الضال».

---

(1) إنجيل متى، الإصحاح الثالث، الصفحة الثانية. (المترجم)

احتضننا وباركنا، خرجنا باكين من غرفة المحتضر. في غرفة الاستقبال تجمع الأهل والأصدقاء، كان خبر مرض دستويفسكي الخطير قد انتشر في المدينة كلها. طلب أبي أن يسمحوا لهم بالدخول واحدًا وراء الآخر، وكان يقول لكل منهم كلمات ودودة. بمرور اليوم راحت قوته تنفد أمام عيوننا، وفي المساء عاوده النزيف من جديد وراح يفقد الوعي. عندئذ فتحت أبواب غرفته ليدخل إليه كل أصدقائه وأقربائه، ليكونوا إلى جواره لحظة وفاته. وقفوا صامتين من دون أن يبكوا حتى لا يزيدوا من ألم سكرة الموت لديه. وحدها أمي هي التي راحت تبكي وقد جثت على أقدامها بالقرب من الأريكة، التي كان يرقد عليها زوجها. أصوات غريبة تشبه قرقرة المياه، كانت تخرج من حلق المحتضر. ارتفع صدره، قال شيئًا بسرعة وبصوت منخفض، كلمات مبهمة. شيئًا فشيئًا راح نفسه يتوقف بهدوء وتقل كلماته. وفي النهاية... توقفت الكلمات.

فيما بعد تسنى لي أن أشاهد موت أصدقاء وأقارب، ولكنني لم أر مرة واحدة موتًا نورانيًا مثل موت أبي. كانت نهاية مسيحية بحق، وعلى النحو الذي تتمناه الكنيسة الأرثوذوكسية لكل المخلصين لها. نهاية كريمة بلا ألم. كان دستويفسكي يعاني شيئًا من الضعف ولم يفقد الوعي سوى في اللحظة الأخيرة. كان يرى كيف يقترب الموت منه وكان ينتظره من دون وجل أو خوف. كان يعلم أنه لم يُفسد موهبته، وأنه ظل طول حياته خادمًا جيدًا لله. كان مستعدًا بشجاعة أن يمثل أمام أبيه العليم، آملاً أن يكافئه الله جزاء كل ما عاناه وكل ما تحمله. الله، الذي وثق فيه، سوف يكافئه لأنه عمل عملاً عظيمًا جديدًا. ونفذ مهامَّ عظيمة جديدة...

عندما يموت الإنسان في روسيا يقومون على الفور بتغسيله، ثم يُلبسونه أفضل ملابسه، يضعونه على طاولة مغطاة بملاءة بيضاء إلى أن يقوموا بإعداد النعش. يُحضرون من أقرب كنيسة شمعدانات كبيرة يضعونها حول الطاولة ويلفون الميت بغطاء مُوشّى بالذهب على الصدر. يأتي القس مرتين في اليوم لإقامة

القداس وقراءة الصلوات بمصاحبة جوقة الكنيسة. يصطف الأقارب والأصدقاء في دائرة وقد حملوا الشموع المشتعلة في أيديهم طول الوقت، ليلاً ونهارًا، خدم الكنيسة أو الرهبان يقرءون المزامير بصوت مرتفع وهم وقوف عند طرف النعش من جهة قدمي الميت. يتم الدفن في اليوم الثالث، وأحيانًا في اليوم الرابع، إذا كان للميت أقارب يعيشون في محافظات بعيدة ويريدون أن يحضروا الدفن.

بعد أن قضيت ليلة مسهدة من الحمى، نهضت من فراشي وقد احمرت عيناي من الدمع. دخلت إلى غرفة أبي، كان جثمانه موضوعًا على الطاولة وقد تشابكت يداه على صدره، حيث وضعوا عليه لتوهم أيقونة. مثل كل الأطفال العصبيين كنت أخاف من الموتى وأرفض الاقتراب منهم، لكن أبي لم يوح لي بأي خوف. كان رأسه مستندًا على الوسادة وكأنه مستغرق فى النوم، قد ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة وكأنه يرى أمامه شيئًا ما رائعًا. وبالقرب منه اتخذ الرسام مكانه وراح يرسم دستويفسكي وهو في نومه الأبدي. في الصباح نشرت الصحف خبر وفاة أبي، تجمع كل أصدقائه لحضور القداس الأول. ووراءهم امتد طابور من الطلاب ووفود تمثل مختلف المعاهد التعليمية العليا في بطرسبورج. كل من هذه الوفود جاء ومعه قسيسه، الذي راح يتلو الصلوات، أما الطلاب فكانوا يغنون مُشكلين جوقة. كانت الدموع تنهمر من عيونهم وهم يبكون، ناظرين إلى هذا الوجه الساكن لمعلمهم العزيز. كانت أمي تمشي مثل طيف وقد تورمت عيناها من الدموع. لم تكن تدرك تقريبًا ما الذي يجري حولها هنا ظهر فجأة موظف من ديوان البلاط وأبلغها باسم الامبراطور ألكسندر الثاني، أن الدولة قد خصصت لها معاشًا وأنها سوف تتكفل بتعليم أطفالها، فقفزت من الفرح وأرادت أن تهرع لتخبر زوجها بهذا النبأ السعيد. «عندئذ فقط أدركتُ للمرة الأولى أن زوجي قد مات، ومن الآن فصاعدًا سوف أعيش وحيدة دون صديق أشاركه فرحي وحزني»- هذا ما قالته أمي فيما بعد. أما خالي إيفان، الذي وصل

بالصدفة الغريبة إلى بطرسبورج يوم وفاة دستويفسكي، فقد كان عليه أن يقوم بكل الإجراءات الخاصة بالدفن. سأل أخته عن المكان، الذي تريد أن تدفن فيه زوجها. عندئذ تذكرتْ أمي حديثها مع دستويفسكي بعد دفن الشاعر نكراسوف، الذي مات منذ عدة سنوات خلت وتم دفنه في جبانة دير نوفوديفيتشي[1]. آنذاك ألقى أبي خطابًا عند قبر الشاعر وكان ما يزال مفتوحًا قبل دفنه، عاد بعدها إلى البيت حزينًا منقبض النفس. قال لأمي: «سرعان ما ألحق بنكراسوف. أرجوكِ، ادفنيني في نفس الجبانة، التي يرقد فيها! لا أريد أن أرقد في جبانة ڤولكوف إلى جانب الكُتَّاب الروس الآخرين، هؤلاء كانوا يكرهونني وكانوا يضمرون لي الشر طول حياتي وقد ذقت من ورائهم الأمرين. أريد أن أرقد إلى جوار نكراسوف، لقد كان دائمًا يعاملني بحنو، وهو أول من قال لي أن لديّ موهبة، ولم ينسني عندما كنت معتقلاً في سيبيريا».

عندما رأت أمي أن زوجها حزينًا بائسًا، أرادت أن ترفع مزاجه بمزحة، كان الأمر ينجح معها دائمًا.

أهذا ما تفكر فيه حقًا! – قالت له بمرح. –إن دير نوفوديفيتشي في الحقيقة دير عبوس وكئيب! الأفضل أن أدفنك في جبانة دير ألكسندر نيفسكي..

أظن أنهم يدفنون هناك جنرالات المشاة والفرسان[2]. أجاب أبي متصنعًا نبرة السخرية.

ماذا دهاك، وأنت، ألست جنرال الأدب؟ إن لك الحق كاملاً أن ترقد بجوارهم. سوف أعد لك جنازة عظيمة وسوف يقيم القداس الأساقفة، وسوف تقوم جوقة المطران بالإنشاد، وسوف تسير جماهير غفيرة وراء نعشك، وعندما يصل الموكب إلى الكنيسة، سوف يخرج القساوسة لاستقبالك لكي ينحنوا أمامك.

(1) دير نسائي.

(2) تعد جبانة دير القديس ألكسندر نيفسكي، حيث يوجد رفات حامي بطرسبورج، جبانة أرستقراطية.

إنهم لا يعطون هذا الشرف إلا للقياصرة. قال أبي معترضًا وهو يضحك على خيال زوجته.

سوف يعطونه لك. أوه! سوف تحظى بهذه الجنازة الفاخرة، التي لم تشاهد بطرسبورج مثيلاً لها...

ضحك أبي وراح يحكي لزوجات أصدقائه هذه الحكاية التي ابتدعها خيال أمي، عند زيارتهن لنا ليتحدثن عن جنازة نكراسوف. كثير منهن كن يتذكرن هذه النبوءة التي قالتها أمي أثناء مزاحها كعادتها دائمًا.

عندما تذكرت أمي هذا الحديث الذي جرى، طلبت من خالي إيفان أن يذهب مع صهره پاڤل سڤاتكوفسكي إلى دير نوڤوديڤيتشي وأن يشتري مكانًا لمقبرة تكون قريبة قدر الإمكان من قبر نكراسوف. أعطته كل ما لديها من مال في البيت، لكي يدفع مقدمًا ثمن المقبرة ومصروفات القداس. ما إن عزم خالي على الانصراف حتى لاحظ وجوهنا الطفولية الشاحبة الحزينة، فطلب من أمي السماح له باصطحابنا معه إلى الدير قائلاً لها: «سوف تكون النزهة على الزلاجات مفيدة لهم»، كان يتحدث بأسى وهو ينظر إلينا بعطف. هرعنا لارتداء ملابسنا وجلسنا في الزلاجة ونحن مسرورون. كان الهواء باردًا، لكن شمس الشتاء بعثت في أجسادنا النشاط حقًّا، رحنا بسعادة الطفولة الخالية من الهموم ننسى لدقائق خسارتنا الفادحة. يقع دير نوڤوديڤيتشي على أطراف المدينة عند بوابة نارڤسكي. كانت هذه هي المرة الأولى التي أزور فيها ديرًا نسائيًّا. رحت أنظر بفضول إلى الردهات التي خيم عليها السكون، وقد راحت الراهبات يسرن عبرها كأنهن أطياف. قادونا إلى غرفة الاستقبال حيث قابلنا مديرة الدير النشيطة. امرأة عجوز. خرجت إلينا بمظهرها البارد المتعجرف، كانت ترتدي ثيابًا سوداء من قمة رأسها إلى أخمص قدمها. كانت تضع على رأسها خمارًا أسود طويلاً ينسدل فوق ملابسها. شرح لها سكافتوفسكي أن الكاتب الشهير دستويفسكي قد

أعرب عن رغبته في أن يدفن في دير نوفوديفيتشي إلى جوار الشاعر نكراسوف، ولعلمه أن الأسعار في هذه الجبانة مرتفعة للغاية فقد طلب منا أن يُسمح لنا أن نحصل على مقبرة أرخص سعرًا، مع الأخذ في الاعتبار أننا قد ورثنا مالاً قليلاً عن أبينا. أجابت المديرة ببرود وكان وجهها يعبر عن الاحتقار: «نحن الراهبات لا ننتسب إلى هذا العالم، والمجد الدنيوي لا يعني لنا شيئًا. هناك أسعار محددة للمقابر، ولا يمكننا أن نغيرها من أجل أي شخص». هذه المرأة الوديعة التي تعمل في خدمة المسيح، طلبت سعرًا لا يُصدق، يزيد كثيرًا عن هذا المبلغ المتواضع الذي كان بحوزة أمي. عبثًا حاول خالي إيفان، نيابة عن أخته، أن يتوسل إلى الراهبة حتى تسمح لأمي أن تدفع بالتقسيط خلال عام، لكن المديرة أعلنت أنه يجب دفع المبلغ كله فوريًا وعندها فقط يمكن الحصول على المقبرة. لم يبق إلا الوقوف وتوديع هذه المرابية في رداء الكهنة.

عدنا إلى البيت وحكينا في غضب لأمنا عن فشلنا. قالت في حزن: «يا للأسف! كم كنت أود أن أدفن زوجي في هذه الجبانة التي اختارها بنفسه. لم يتبق أمامي سوى أن ندفنه في جبانة أوختا إلى جوار آليوشا، على الرغم من أن هذه الجبانة لم تكن لتعجبه مطلقًا». قررنا أن يذهب خالي إيفان منذ صباح الغد إلى هناك لكي يشتري مقبرة ويتفق على نفقات القداس.

في المساء أبلغوا أمي أن راهبًا ما حضر ويود أن يتحدث إليها. كان هذا الراهب مبعوثًا من قبل دير ألكسندر نيفسكي والذي كان، على حد قوله، معجبًا بدستويفسكي. أخبرها أن الرهبان أعربوا عن رغبتهم أن يدفن جثمان الكاتب العظيم في ديرهم. كما أنهم سيتولون إقامة القداس في معبدهم الرئيسي على نحو احتفالي دون مقابل. وافقت أمي بسعادة على هذا العرض الكريم. انصرف الكاهن وعادت أمي إلى غرفتها وهناك تذكرت فجأة أنها هي نفسها قالت لأبي منذ عدة سنوات: «سوف أدفنك في دير ألكسندر نيفسكي...». في اليوم التالي، الجمعة، ملأ جمهور محبي دستويفسكي شقتنا المتواضعة منذ الصباح. كانوا كُتّابًا

ووزراء وطلبة وأمراء عظامًا وجنرالات وقساوسة وسيدات مجتمع ومواطنين فقراء، جاءوا جماعة وراء الأخرى ليودعوا دستويفسكي، منتظرين دورهم لبضع ساعات أحيانًا. كانت غرفة المتوفى شديدة الحرارة وخانقة، حتى أنهم اضطروا لإطفاء الشموع إبان القداس. أرسلت مختلف الجمعيات والإدارات والمعاهد التعليمية عددًا كبيرًا من الأكاليل وباقات الزهور الفخمة، المزينة بالشرائط وقد كتبت عليها عبارات مؤثرة حتى أننا لم نعرف أين نضعها. الباقات الصغيرة، التي أرسلها أصدقاء دستويفسكي وجدت مكانًا لها بالقرب من النعش، الذي كان جثمان أبي قد وضع لتوه بداخله. الذين جاءوا ليلقوا عليه النظرة الأخيرة كانوا يقبّلون يده ودموعهم تسيل من عيونهم، وكانوا يطلبون شيئًا ما للذكرى من الزهور أو أوراقها. رحنا أنا وأخي، ومعنا الأطفال الآخرون من أصدقائنا، نوزع طول اليوم الزهور على الغرباء، الذين تزاحموا حول الجثمان.

صباح السبت راح جمهور هائل في الطواف في الشارعين المحيطين ببيتنا الواقع على الناصية. كنا نرى من النوافذ بحرًا يتماوج من رؤوس البشر ترفل في وسطها الأكاليل ذات الشرائط وكأنها جزر صغيرة. كان من المفترض حمل الجثمان إلى الدير على عربة موتى مجهزة لهذا الغرض، لكن محبو دستويفسكي لم يسمحوا بوضعه عليها. قاموا بحمل النعش بأنفسهم وراحوا يتناوبون على حمله إلى أن وصلوا به إلى الدير. جرت العادة أن تسير الأرملة وأطفالها الأيتام خلف النعش، ولمّا كان الطريق إلى دير ألكسندر نيفسكي بعيدًا وقوانا كأطفال ضعيفة لا تحتمل السير كل هذه المسافة، فقد أخذنا أصدقاء العائلة من الموكب وأجلسونا في عربة ذهبت بنا إلى هناك بمحاذاة الموكب. كانوا يقولون لنا: «لا تنسوا أبدًا هذه الجنازة العظيمة التي نظمتها روسيا لأبيكم».

عندما وصلوا في النهاية إلى الدير، خرج الرهبان من البوابة لاستقبال أبي، الذي ومن هذه اللحظة سوف يرقد وسط جاليتهم. القياصرة فقط هم الذين كانوا

ينالون هذا الشرف، وقد أعطوا الآن هذا الشرف للكاتب الروسي المجيد، الابن المخلص الجليل للكنيسة الأرثوذوكسية. وهكذا تحققت نبوءة أمي مرة أخرى.

كان الوقت متأخرًا للغاية للقيام بمراسم القداس فأجلوه إلى الصباح. وضعوا النعش في كنيسة الروح القدس، وبعد قداس قصير عدنا إلى المنزل وقد أنهكنا التعب والمشاعر. تماسك أصدقاء أبي بعض الوقت أكثر وهم يراقبون جماعات من الناس، الذين راحوا يقتربون من النعش جماعة تلو الأخرى، لكي ينحنوا وهم يتلون بعض الصلوات. حلّ المساء وخيّم الظلام، راح الناس ينصرفون تدريجيًا، رحل أصدقاء أبي حتى يعودوا غدًا للدفن. لكن دستويفسكي لم يكن وحده. طلاب بطرسبورج لم يتركوه، قرروا أن ينظموا سهرة بالقرب من معلمهم المبجل المحبوب في ليلته الأخيرة على الأرض. وعن الطريقة التي تصرفوا بها في الكنيسة حكى لنا فيما بعد مطران بطرسبورج، الذي كان يعيش، كما جرت العادة، في دير ألكسندر نيفسكي. بعد عدة أيام من الجنازة ذهبت إليه أمي لتقدم له شكرها على مراسم الجنازة العظيمة، التي أجراها الرهبان لأبي واصطحبتنا معها. باركنا المطران وحكى لأمي عن الانطباع الذي تركته عليه أمس سهرة الطلاب إلى جوار النعش: «مساء السبت ذهبتُ إلى كنيسة الروح القدس لكي أودع دستويفسكي بدوري. أوقفني الرهبان وأخبروني أن الكنيسة التي ظننت أنها قد خلت من الناس مزدحمة بالناس[1]. صعدت إلى مصلّى صغير في الطابق الثاني في الكنيسة المجاورة، حيث يمكنني أن أشاهد ما بداخل كنيسة الروح القدس. قضيت هناك جزءًا من الليل أراقب الطلاب من دون أن يروني. تجمع الرهبان لتلاوة المزامير عند النعش. تناول الطلاب منهم المزامير وراحوا ينشدونها واحدًا وراء الآخر. لم أسمع في حياتي إنشادًا للمزامير بمثل هذا الإحساس

(1) المطارنة الروس بحكم منصبهم الرفيع لا يستطيعون الظهور على الناس إلا في المناسبات الاحتفالية.

الـذي أنشـدوها به! كانت أصواتهم تنتزع الانفعالات، وقـد بثوا روحهم كلها في كل كلمة. هؤلاء هم الذين قالوا لي عنهم أنهم ملحدون ويكرهون كنيستهم. لقد امتلك دستويفسكي قوة هائلة استطاع بها أن يعيدهم إلى الله!».

هذه القوة هي التي يهبها المسيح لكل من يتبعه. الكنيسـة الروسية المسكينة، التي ظلت عاجزة منذ زمن بطرس الأكبر عن الحركة، فقدت هذه القوة المقدسة، والآن وقـد تحـررت من القيود بعـد الثورة، التـي أغرقتها في دمـاء المعذَّبين من القساوسـة والرهبان، الذين تمسـكوا بصلبانهم وتقبلوا الموت على يد البلاشفة، هذه الكنيسـة سـوف تُبعث بنفس القوة التي كانت عليها في زمـن بطاركة العهود القديمة...

تم الدفن في يوم الأحد الموافق الثاني من شهر فبراير. كل محبي دستويفسكي الذين كانوا مشغولين في العمل ذهبوا إلى الكنيسة ليصلوا من أجل سكينة روحه. منذ الصباح الباكر تدفقت جماهير غفيرة نحو دير ألكسندر نيفسكي، الواقع على ضفـة نهر النيڤا والذي يعد مدينة كاملـة تضم عددًا من الكنائس، ملحق بها ثلاث جبانات بحدائقها ومدارسها وأكاديميتها اللاهوتية. عندما رأى الرهبان المساكين كيـف راح النـاس يتوافـدون كل دقيقة، وقد راحـوا يملئون الحدائـق والجبانات ويتسـلقون التماثيل والأسوار، شـعروا بالخوف ولجئوا إلى الشرطة التي أغلقت فـي هذه اللحظة الأبـواب. الذين جـاءوا متأخرًا تجمعـوا في السـاحة أمام الدير وتوقفـوا هناك حتى انتهاء الجنـازة، آملين أن يجدوا طريقة ما لينفذوا بها على أي حال إلى المنطقة، أو حتى يتمكنوا من سماع تراتيل القداس وهم يحملون النعش نحـو الجبانـة. وصلنـا في عربـة في التاسـعة صباحًا وقـد أصابتنا الدهشـة عندما وجدنـا البوابـة مغلقـة. نزلت أمي مـن العربة وقـد ارتدت خمار الحداد ممسـكة بأيدينا. اعترض طريقنا ضابط الشرطة قائلاً:

ممنوع الدخول! - قالها بحزم.

كيف. ممنوع الدخول؟ قالت أمي مندهشة - أنا أرملة دستويفسكي، ينتظرونني في الكنيسة لنبدأ الخدمة.

أنت سادس أرملة لدستويفسكي تريد الدخول، كأنكن على اتفاق! لن أسمح بالدخول - أعلن الضابط مهددًا.

تبادلنا نظرات الحيرة ولم نعد نعرف ما الذي علينا أن نفعله الآن. لحسن الحظ، الأصدقاء، الذين كانوا بانتظارنا هرعوا نحونا وطلبوا من الشرطة أن تسمح لنا بالدخول. بذلنا جهدًا فائقًا حتى نتمكن من اختراق طريقنا عبر الزحام الذي أغرق الدير. استطعنا أن نشق طريقنا إلى الكنيسة المزدحمة. أخيرًا وبعد أن وصلنا إلى المكان المخصص لنا، بدأت مراسم القداس. كانت بهية للغاية. أنشدت جوقة المطران، وقام القساوسة بالخدمة. بعد ذلك جاء دور الكُتَّاب، الذين ألقوا خطبهم وفقًا للتقاليد أمام القبر المفتوح، والتي استغرقت بضع ساعات. تحقق كل ما تنبأت به أمي تمامًا: لم تشهد بطرسبورج في تاريخها جنازة مثلها[1]!

في الوقت نفسه فقد أُسقطت تفصيلة هامة من الطقوس الأرثوذوكسية. ففي روسيا يظل النعش مفتوحًا على مدى القداس، وفي النهاية يتوجه الأهل والأصدقاء نحو الميت ليودعوه ويقبّلوه القبلة الأخيرة. لكن نعش دستويفسكي تم إغلاقه. في يوم الدفن ذهب خالي إيفان إلى الدير مبكرًا بصحبة السيد بوبيدونوستسيف، الذي تم تعيينه لتوه وصيًا علينا. فتحوا النعش ورأوا أن المرحوم أبي قد طرأ عليه تغير كبير. كان قد مضى على موت أبي أربعة أيام، عشية نقل النعش عجّلت الاضطرابات والاهتزازات من عملية التفسخ، التي بدأت قبل موعدها بسبب الحر الفظيع، الذي ساد في اليومين الأولين في الغرفة، التي كان الجثمان موجودًا فيها. وخوفًا من أن يثير مظهر وجه المرحوم الذي تشوه الإحساس بالنفور من

(1) أظن أن دستويفسكي قد تنبأ هو نفسه ببعض التفاصيل الخاصة بموته ودفنه، عندما وصف وفاة الأب زوسيما في رواية «الإخوة كارامازوف».

جانب أرملته وأطفاله منع بوبيدونوستسيف الرهبان من فتح النعش. وهو ما لم تغفره له أمي أبدًا. قالت وهي حزينة: «ما الفرق عندي على أي نحو كان يبدو! لقد كان على أي حال زوجي، زوجي الحبيب! وقد دخل إلى القبر دون أن أقبله قبلة الوداع، دون أن ينال بركتي!».

من جانبي كنت ممتنة للوصي لأنه جنّبنا هذا المشهد الصعب. كنت أفضّل أن أتذكر أبي نائمًا في سلام في نعشه وقد علت وجهه ابتسامته الرائعة. ولكن ربما كان من الأفضل بالنسبة لي أن أراه وهو على حاله من التشوه وأشعر بالرائحة الكريهة، إن هذا الواقع القاسي كان سيقتل لديّ ربما هذه الفانتازيا الغريبة، التي تملكتني في اليوم التالي بعد الدفن، والتي جلبت لي في البداية الكثير من السعادة، ثم الكثير بعد ذلك من الحزن. كنت أحلم أن أبي لم يمت وأنهم دفنوه حيًّا، وأنه كان في حالة سُبات، وأنه سرعان ما سيستيقظ في قبره، وأنه سيصيح طالبًا النجدة من حارس المقابر ثم يعود إلى البيت. تخيلت سعادتنا، ضحكنا، القبلات والكلمات الرقيقة، التي سنغمر بها بعضنا بعضًا، لم يكن عبثًا أن أكون ابنة لكاتب: كنت بحاجة لأن أضع في مخيلتي كل المشاهد والإيماءات. لقد ظلت الأحاديث حية بداخلي، وقد منحني هذا الإبداع الطفولي متعة هائلة. على أنه بقدر ما كانت الأيام تمر، ثم من بعدها الأسابيع، انبعث العقل في رأسي الطفولي ليلهمني أن الإنسان لا يمكن أن يظل طويلاً حيًّا تحت الأرض. من دون هواء أو غذاء، وأن سُبات أبي قد طال أكثر مما ينبغي وأنه، ربما، قد مات حقًّا، عندئذ شعرت بزوال الألم...

في الوقت نفسه كنت على حق! حلمي الطفولي لم يخدعني: أبي لم يمت، لقد عاد مؤخرًا عندما كبرت وأخذت في دراسة كتبه. عاد إليّ ولم يتركني بعدها أبدًا، في حزني، في مصائبي كان إلى جواري، قريبًا إلى حد أنني كان باستطاعتي أن ألمسه بيدي. معه لم أخش شيئًا في حياتي. كنت أعرف أن أبي يشملني

بحمايته، أنه يصلي لله أن يكون رحيمًا بي، وأن المسيح لم يكن يرفض له طلبًا. كثيرًا ما أفكر متى كتبت هذا الكتاب. لقد طلبت منه أن يرسل إليّ بالإلهام في إبداعي، والأهم ألا يسمح لي بأن أقول أي شيء لا يرضيه. آمل أن ينصت إلى دعائي.